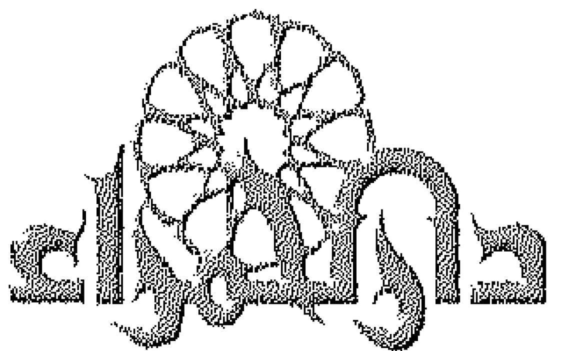
إيهود بن عيزر

صورة العربي في الأدب العبري

في وطن الأشواق المتناقضة

(قصص مختارة)

لماذا تخافون منّا وتهربون ؟
جئنا لنشر المدنيّة
في ربوعكم !...



ترجمة د. أحمد حماد
استاذ الدراسات العبرية
جامعة عين شمس - القاهرة

صورة العربي في الأدب العبري
في وطن الأشواق المتناقضة

صورة العربي في الأدب العبري
في وطن الأشواق المتناقضة

إيهود بن عيزر

صورة العربي في الأدب العبري
في وطن الأشواق المتناقضة

(قصص مختارة)

ترجمة:
د. أحمد حماد
أستاذ الدراسات العبرية
جامعة عين شمس

دار الحمراء
للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع

الطبعة الأولى بيروت ٢٠٠١

دار الحمراء

للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع

ص. ب : ٥٣٨٦/ ١١٣

الحمرا ـ بيروت ٢٠٤٠ ـ ١١٠٣ ـ لبنان

الفهرس

مقدمة الناشر

صورة العرب السعداء

«فالذين ما ملكوا شيئاً، لم يخسروا أي شيء، بل لم يكن أمامهم سوى الربح. وقد ربحوا بالفعل: فرص العمل، وسائل العيش، والرخاء والازدهار».

(هرتزل في «الأرض القديمة ـ الأرض الجديدة»، ص ١٣٥)

يرسم هرتزل صورتين مختلفتين تماماً لكل من الحركة الصهيونية وسكان فلسطين الأصليين من العرب. ففي **اليوميات** وكراس **الدولة اليهودية**، مثلاً، تغلب ملامح العداء والتفرقة بين الناس على غيرها. وفي خطاب هرتزل الافتتاحي أمام المؤتمر الصهيوني الأول نعثر على شيء من هذا القبيل:

«الصهيونية هي ببساطة صانعة السلام». (Friedensstifter) و «الصهيونية في الواقع: حركة أخلاقية، قانونية، وإنسانية النزعة، تتجه صوب الهدف القديم لحنين شعبنا»[1].

ومن الملاحظ أن الصورة التي ترتسم في ذهن مؤسس الصهيونية للعرب تستمد بعض عناصرها من مناخ أوروبا الفكري ومن ذلك التقليد لنظرة أوروبا إلى الشرق وأهله. كما يبدو لنا أن قصص ألف ليلة وليلة قد فعلت فعلها في نفس ثيودور هرتزل وأمدته بالكثير من الأساطير والملامح التي اختار أن ينظر من خلالها إلى العرب في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن. فهو يتحدث مثلاً في مطلع يومياته عن القصة المعروفة بـ «حلم الإبريق» من حكايات ألف ليلة وليلة. حيث يحلم رجل بأنه يغادر خيمته ويقلب إبريق ماء عند خروجه. ثم يسرد الراوي حكاية مغايرات طويلة وملأى بالمفاجآت، تستغرق فترة زمنية على امتداد سنوات عديدة. ويرجع بعدها بطل الحكاية إلى خيمته. فيلاحظ أن الماء ما زال يخرج من فم الإبريق المقلوب. وبذلك يبيّن أنه

---

(١) انظر **الكتابات الصهيونية**، بالألمانية، ص ١٤٣.

عاش خلال أقل من دقيقة في الزمن الحقيقي سنوات من زمن الحلم[٢].

وفي كتابات ماكس نوردر نجد استعانة مماثلة بحكايات.ألف ليلة وليلة. فهو يرد على انتقادات المستشرق اليهودي الألماني إدوارد غلازر للحركة الصهيونية والقيمين عليها بمقالة عنوانها «أساطير عربية». ومما يقوله في معرض الردّ الخطابي: «لقد أقام الدكتور غلازر طويلاً في الشرق، ومن المؤكد أنه أصغى إلى سرد الحكايات والخرافات في المقاهي التركية والأسواق العربية (البازارات)»[٣]. ومن المعروف أن غلازر رأى في الصهيونيين آنذاك ألاعيب بيد بريطانية واتهمهم بالعمل عن سابق تصور وتصميم وُفقاً لاتفاقات سرية. كما أكد تضليلهم المقصود لليهود الذين يتبعونهم ويضعون ثقتهم في الحركة الصهيونية.

غير أن الصورة التي تعنينا هنا تتعدى نطاق ألف ليلة وليلة، وإن كانت تستمد منها بعض عناصرها وملامحها البارزة. فقد زار ثيودور هرتزل فلسطين في خريف ١٨٩٨ على رأس الوفد الصهيوني الذي لحق بالامبراطور الألماني سعياً وراء وساطته لدى السلطان وطمعاً بجعل فلسطين محمية ألمانية. وكانت زيارة فلسطين باعثاً له على تأليف روايته «الأرض القديمة ـ الأرض الجديدة» (Altneuland).

فوضع مخططها الأول في مطلع تموز (يوليو) ١٨٩٩ تحت عنوان «صهيون الجديدة». ثم ما لبث أن اختار لها العنوان الذي صدرت به عند نهاية العام ١٩٠٢. وجعل شعارها: «إذا أردتم أنتم، فهي ليست خرافة». بينما عطف في كلمة ختامية على هذا الشعار بقوله: «. . أما إذا كانتم لا تريدون، فهي خرافة قصصتها عليكم وسوف تبقى كذلك. . . فالحلم كناية عن ملء للوقت الذي نقضيه على الأرض. والحلم لا يختلف عن الفعل كثيراً كما يعتقد البعض. وكل أفعال الإنسان كانت حلماً في السابق، وتتحول إلى حلم في ما بعد»[٤]. أما الحلم الذي يسرد وقائعه هرتزل في روايته المذكورة فهو من النوع الذي يصوّر العرب السعداء في ظل المجتمع الصهيوني الجديد بفلسطين عام ١٩٢٣. ولقد صدق مؤلف سيرة هرتزل في اعتباره للكتاب بأنه «رواية ذات نزعة معينة» (Tendenziös)، أو رواية يوتوبية تحاول استباق الأحداث وتنسج على خيال مؤلفها في صورتها لفلسطين المستقبل. فالغاية منها أن تبين لقارئها «كم من العدالة والخير والجمال يمكن أن توجد على الأرض، في ما لو توافرات الإرادة اللائقة لها فقط». وربما شاء هرتزل من كتابتها «تخليد أصدقائه وبعض أعدائه»، لأن معظم أشخاصها الخياليين قد جرى نقلهم عن شخصيات على قيد الحياة. لكنهم ليسوا من الأشخاص الروائيين الذين يتكاملون وينمون مع سير الأحداث في الرواية. بل هم أشبه بتلك النماذج الجامدة التي يضع هرتزل كلامه في أفواهها لكي تجسّد

---

(٢) انظر **اليوميات**، ج١، ص ١١.

(٣) انـظـر: Max Nordau - «Arabische Mârchen», Berliner Tagblatt, 1898 in **Zionistische Schriften**, 1909, P. 329.

(٤) راجع Theodor Herzl- **ALTNEULAND**, Roman, 10, Aufl., P. 330.

نظرة معينة أو تعبر عن رأي خاص[٥]. وليس بمستبعد أن يكون هرتزل قد بدأ التفكير بكتابة الرواية بعدما ترامى إلى سمعه وبصره نبأ المعارضة العربية للفكرة الصهيونية. فالمعروف أن يوسف ضياء الخالدي بعث من الأستانة برسالة إلى الحاخام الأكبر في فرنسا زادوك كاهن مؤرخة في أول آذار (مارس) ١٨٩٩. وقد حول الحاخام الرسالة إلى صديقه الحميم ثيودور هرتزل الذي سارع للإجابة عليها. فكتب هرتزل مدافعاً عن استيطان اليهود بفلسطين كعنصر «مسالم للغاية»، ولم ير من خطر في الهجرة اليهودية إلى البلاد العثمانية. وخاطب يوسف ضياء الخالدي بقوله أن لا أحد يفكر في إبعاد سكان فلسطين عن بلادهم: «بل سنزيد في رخائهم وثروتهم الفردية بما نقدمه نحن من أسباب الرفاهية». ثم طلب توضيح المسألة للأهالي والسعي لإفهامهم «أنهم سيكسبون أخوة ممتازين، كما سيكسب السلطان رعايا أفاضل ومخلصين يعملون على إيجاد الرخاء في هذه المنطقة التي هي وطنهم التاريخي».

وما علينا سوى الرجوع إلى تلك الصورة التي رسمها هرتزل للعرب السعداء ـ أو ما تبقى منهم في بلادهم بعد قيام المجتمع الصهيوني الجديد ـ لنرى كيف يجعلهم هرتزل متنازلين عن حقوقهم في البلاد لقاء الرخاء والرفاهية والحضارة التي أنعم بها عليهم مجتمعه الجديد في رواية «الأرض القديمة ـ الأرض الجديدة».

ففي القسم الأول من الرواية نلتقي بكل من المحامي فردريك لوفنبرغ والضابط الألماني السابق، كنغسكورت، عند نهاية العام ١٩٠٢. فالمحامي يمثّل هرتزل إلى حد بعيد، بالإضافة إلى ملامح صديقه الذي مات منتحراً. والضابط السابق جمع ثروة هائلة في الولايات المتحدة الأميركية. وهكذا يقوم الاثنان برحلة إلى إحدى الجزر ويعرجان في الطريق على فلسطين (وطن اليهود القديم). فيصف هرتزل البلاد من خلال مشاهداته عام ١٨٩٨، ويضع على لسان الضابط كلمات الإمبراطور الألماني عن الظل والماء وحاجة البلاد القصوى إليهما. ثم يلتقي المحامي والضابط بطبيب عيون يهودي يحدثهما عن المستوطنات اليهودية في البلاد بقوله: «أرضنا القديمة تحمل الثمر من جديد». وتبدو المستعمرات كالواحات القائمة وسط صحراء الطبيعة الذابلة أو الميتة. فيدب الحماس في نفس الضابط ـ بينما يبقى مرافقه اليهودي المثقف على تحفظه وشكوكه ـ ويخاطب المحامي أثناء عبورهما البحر الأحمر بقوله:

> «كل شيء موجود في سبيل خلق عالم أفضل. أتعرف أيها الإنسان الحي من يستطيع رسم معالم الطريق؟ أنتم! أنتم اليهود! ليس لديكم ما تخسرونه. باستطاعتكم بناء البلد التجريبي الأوحد في العالم ـ هناك، حيث كنا، وخلق أرض قديمة جديدة (Altneuland) على التراب القديم»[٦].

وبعد عشرين عاماً يعود المسافران إلى فلسطين بطريق حيفا (١٩٢٣). ويعرفان أن البلاد باتت

---

(٥) انظر Bein، المصدر السابق.

(٦) انظر Altneuland، النص الألماني الأصلي، المصدر السابق، ص ٥٧.

غير مهجورة، فيقرران القيام بجولة ثانية لتفقد أحوالها. وتبدو لهما فلسطين زاخرة بالعمران ونابضة بالحياة، تمتد مساحتها إلى الشرق والغرب من نهر الأردن وتصل حدودها الشمالية إلى مشارف دمشق. فالتكنولوجيا العصرية قد حولتها إلى ورشة لاستغلال الطاقة البشرية واستثمار الموارد الطبيعية. والكهرباء تعم البلاد وتزود وسائل النقل والمواصلات بالطاقة التي يجري توليدها من «الأنهار المنسابة في سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، ومن فرق الانخفاض في المستوى بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الميت». وهكذا تلقي التكنولوجيا الجديدة ظلالها على كل شيء.

أما في ما يتعلق بالنظام الاجتماعي والاقتصادي، فإن الصورة التي يرسمها هرتزل للنظام الجديد والشكل المستحدث للمجتمع الإنساني تستمد عناصرها من الآراء التي اقتبسها هرتزل عن المفكر الاقتصادي الألماني فرانز أوبنهايمر. فالاقتصاد يقوم على أساس تعاوني، محاولاً الإبقاء على الملكية الخاصة وتداول النقود، لكي يسير في طريق وسط بين الفردية والجماعية. وما تمّ خلقه ليس مجرد دولة يهودية، بل هو مجتمع جديد جاء بمثابة تجسيد مثالي لجمعية اليهود الوارد ذكرها في كراس «دولة اليهود». ولا حاجة بنا للتوقف طويلاً عند التفاصيل اليوتوبية لحياة المجتمع الجديد ونظامه. فالعدالة الاجتماعية تسود مرافق النشاط والعمل، والتأمين على الحياة يواكب الفرد من المهد إلى اللحد. والقرى اليهودية لا يعمل فيها سوى اليهود وحدهم، حيث الأراضي ملكية عامة وتؤجر لمدة خمسين عاماً (السنة اليوبيل). وفي القدس نجد المساكن الخاصة قد اختفت من المدينة القديمة، وتحولت المباني إلى الخدمات العامة أو الزينة. بينما المبدأ الأساسي للمجتمع الجديد هو التساهل والتسامح:

«أيها الإنسان، أنت أخي». و «الغريب يشعر في بيته بيننا». ويعيش العرب في سلام ووئام جنباً إلى جنب مع اليهود الذين حملوا بقدومهم المنافع والخيرات ولم يجلبوا معهم سوى المكاسب للعرب. سواء كان ذلك ببيع الأراضي لقاء أسعار خيالية أو عن طريق العمل المرتفع الأجر في تجفيف المستنقعات. وهذا ما يصوره هرتزل على طريقته الخاصة في القسم الثالث من الرواية تحت عنوان «الأرض المزهرة» (Das Blühende Land) فلنتساءل: كيف يرسم هرتزل صورة العرب السعداء في المجتمع الصهيوني الجديد؟

يركز هرتزل خواطره المبتكرة في شخص العربي الفلسطيني رشيد بك، راسماً له صورته على النحو التالي: «رجل بهي الطلعة في الخامسة والثلاثين من عمره تقريباً. يرتدي الزي الأوروبي الغامق اللون.. ويعتمر الطربوش الأحمر.. ثم يرمي السلام على الطريقة الشرقية.. يتحدث بلغة ألمانية تشوبها لكنة اللهجات المعروفة في المناطق الشمالية من ألمانيا.. تلقى علومه في برلين. والده من أولئك الذين أدركوا حسنات الهجرة اليهودية دونما تردد. ولقد شارك في نهضتنا الاقتصادية وأثرى. ورشيد بك من أعضاء مجتمعنا الجديد..»[(٧)].

ويمضي هرتزل في إبراز التباين بين القرى اليهودية المنتشرة في طول البلاد وعرضها وبين

---

(٧) المصدر نفسه، ص ٧٥.

«بؤرات الوسخ والفقر» التي كانوا يدعونها «قرى عربية» في السابق. بينما تأخذ الضابط الألماني دهشة كبرى إذ يحسب نفسه في إيطاليا. ويدور الحوار التالي على لسان كل من الصهيوني شتاينك (بملامح عالم البكتريولوجيا ماركوريك)(٨) والضابط الألماني كنغسكورت والعربي السعيد رشيد بك.

شتاينك: «الحضارة هي كل شيء. . نحن اليهود جلبنا الحضارة إلى هذه الربوع».

رشيد بك: «معذرة أيها الصديق! هذه الحضارة كانت هنا في السابق، تباشيرها على الأقل. فقد غرس أبي في زمانه أشجار البرتقال بأعداد وفيرة. وأنا أدرى بذلك من صديقي شتاينك. هنا يقوم بستان أبي، وقد أصبح بستاني الآن». . .

شتاينك: «لا أريد أن أنكر عليكم وجود البيّارات لديكم قبل مجيئنا. لكنكم لم تعرفوا كيف تستغلونها على أتم وجه قبل الآن».

رشيد بك: (يهز رأسه بالموافقة) هذا صحيح. لقد ازدادت محاصيلنا بشكل ملموس. وتضاعفت صادراتنا من البرتقال عشرات المرّات، منذ أن صارت لنا طرق المواصلات الجيدة نحو جميع أنحاء العالم. نعم، لقد ارتفعت قيمة كل شيء بفعل هجرتكم»(٩).

غير أن الأسئلة المحرجة يبقى طرحها على رشيد بك من نصيب الضابط الألماني الثري كنغسكورت. فهو يسأل رشيد بعد الاعتذار إلى السادة الأذكياء بقوله: «ألم تقضي هجرة اليهود على سكان فلسطين وأهلها الأصليين وتبيدهم؟» «ألم يرغم هؤلاء على النزوح والرحيل؟ وبكلام آخر: إن المكاسب التي جناها بعض الأفراد لا تبرهن عن شيء». فماذا كان جواب رشيد بك الذي لقنه إياه هرتزل؟ ـ «يا له من سؤال! لقد كان ذلك بالنسبة لنا جميعاً خيراً وبركة. ففي الدرجة الأولى يأتي أصحاب الأملاك الذين باعوا أراضيهم من الشركة اليهودية بأسعار مرتفعة، أو آثروا الاحتفاظ بها آملين الحصول على أسعار أكثر ارتفاعاً»(١٠).

ثم يأخذ رشيد بك بالتحدث عن نفسه وعن صلاته بالمجتمع الصهيوني الجديد في بلاده. فهو قد باع أملاكه إلى «جمعيتنا الجديدة» بوحي من مصلحته ومقتضياتها. ثم عاد واستأجرها، بدلاً من الاحتفاظ بها، لكي يتسنى له الانتماء إلى المجتمع الجديد وإتمام واجب الرضوخ لقوانين المجتمع المتعلقة بالأراضي ـ حيث لا يملك الأعضاء شيئاً من العقارات والأراضي وتسود شريعة موسى في توزيع الأراضي وتحقيق العدالة الاجتماعية. لكن كنغسكورت يعاود الكرّة بسؤاله

---

(٨) تتحدث الرواية بإسهاب عن منجزات الرجل في حقل مكافحة الملاريا. وتربط بينها وبين إعادة توطين افريقيا بعد عودة الملّونين الأميركيين إلى موطنهم الأصلي القديم. ويبدو أن هرتزل يرى في ذلك كله مشروع حلّ لمشكلة السود والملّونين في أعقاب حلّ المسألة اليهودية.

(٩) راجع المصدر نفسه، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

الجديد: «أردت أن أسألك يا سيدي البك: كيف كانت أحوال السكان القدامى الذين ما ملكوا شيئاً ـ أعني السواد الأعظم من المسلمين العرب؟» وهنا يأتي جواب رشيد بك من زاوية النظرة الصهيونية في الاستخفاف بحقوق عرب فلسطين وتجاهلها من الأساس. فالسؤال لا يحتاج إلى جواب، إذ يجيب على نفسه بنفسه! كيف؟ يقول هرتزل على لسان رشيد بك:

«فالذين ما ملكوا شيئاً، لم يخسروا أي شيء، بل لم يكن أمامهم سوى الكسب والربح: نالوا فرصة العمل، ووسائل العيش (الغذاء) والرخاء والازدهار.

فلا يوجد شيء أشد تعاسة وادعى للرثاء والحزن من قرية عربية في فلسطين عند نهاية القرن التاسع عشر. الفلاحون يسكنون في أكواخ طينية يرثى لها، ولا تصلح لإيواء الحيوانات. والأطفال يرتمون عراة ومهملين في الشوارع، ويكبرون كالبهائم الأليفة.

أما اليوم فقد تغير كل ذلك»[(١١)].

ولا يتردد هرتزل في تلقين الناطق بلسانه كل ما من شأنه إظهار صورة العرب السعداء بفضل غزو الصهيونية لبلادهم وإنقاذهم من براثن الجوع والمرض والبطالة والجهل. فالأهالي استفادوا إلى أبعد حد من المؤسسات الخيرية العامة ـ كما كانت حال اليهود في فلسطين قبل مجيء الصهيونية! وحل الخير العميم عليهم «سواء شاءوا أم أبوا، وسواء انضموا إلى المجتمع الجديد أم ظلوا خارجه». وذلك من جراء تحقيق حلم هرتزل في الأعمال التي سوف ينتدب أهالي البلاد لتنفيذها: تجفيف المستنقعات، وشق الترع وزرع نباتات الصبار التي تعافي التربة. فقد جرى استخدام اليد العاملة المحلية ونالت أجوراً حسنة. وهكذا: «أصبح هؤلاء الفقراء البائسين أسعد حالاً، يتغذون بانتظام، أولادهم يتمتعون بالصحة والعافية ويتعلمون الكثير». ثم يسارع هرتزل إلى تطمين المتسائلين بأن شيئاً من ديانة الأهلين وعاداتهم القديمة ما تعكر صفوه أو عانى المضايقات. فالصورة التي يرسمها للسواد الأعظم من أهالي فلسطين بشخص رشيد بك الروائي لا يسعها تركهم ينظرون إلى اليهود بمثابة غزاة ودخلاء على بلادهم. فاليهود جاؤوا لإغناء أهالي البلاد والعيش وإياهم سوية في جو تسوده المحبة والإخاء. ألم يرد رشيد بك على تساؤل كنغسكورت وفضوله بقوله المدهش: «هل تعتبره سارقاً، من لا يستولي على شيء يخصك، بل يجلب لك معه شيئاً؟»[(١٢)]. فالعربي السعيد في نظر هرتزل لا يرى في اليهود الذين استولوا على بلاده ومقدراتها غزاة ومستعمرين ومغتصبين، لأن هرتزل يأبى عليه رؤية الأمور على حقيقتها ويعلله بالمكاسب المادية والإخاء بين بني البشر. بينما راح هرتزل بالذات يصف التآخي بين الناس في كراس «دولة اليهود» بالكابوس المزعج والثقيل.

ويأتي السؤال الأخير الذي يطرحه فضول كنغسكورت على رشيد بك بمثابة ناحية أخرى من

(١١) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

نواحي التجربة الهرتزلية الزائفة في رسم صورة للعرب المتساهلين إزاء الغزو الصهيوني لبلادهم، والمتنازلين عن حقوقهم بسذاجة لا مثيل لها. فلا بد من التعقيب على أقوال رشيد بك وتصريحاته المثالية بالقول التالي: «غير أنك إنسان مثقف، تلقيت علومك في أوروبا. وما تقوله لا ينطبق على عامة الناس في مدن فلسطين وقراها!» وجواب رشيد السريع: «ينطبق عليهم قبل غيرهم»[١٣]. وهنا يلجأ هرتزل إلى استغلال التسامح والتساهل وطول الإناة (Duldsamkeit) التي عرف بها العرب والمسلمون، بينما تجهلها أوروبا تماماً، لاستكمال الصورة التي شاء رسمها لموقف عرب فلسطين من الغزو الغاصب لحقوقهم وبلادهم والرامي إلى ترحيلهم وتشريدهم. فالتفاهم التقليدي بين المسلمين واليهود لا يوازيه شيء «لديكم أنتم معشر المسيحيين». والدليل على ذلك: أن العرب المتخاصمين في ما بينهم لدى الفترة الأولى لإنشاء المستعمرات اليهودية قبل نهاية القرن الماضي لم يتوانوا مطلقاً عن اللجوء إلى اليهود طالبين تحكيمهم أو سائلينهم إسداء النصح والمشورة وتقديم المساعدة. فلو صح ذلك، لكان العرب أسعد الناس وأوفرهم حظاً لقدوم اليهود إلى بلادهم، مهاجرين وغزاة ومستعمرين. لكن هرتزل المثالي لا يطيق البقاء كثيراً أو طويلاً إلى جانب هرتزل الصهيوني بواقعه المكشوف ونظرته الترسيخية إلى العداء بين الناس. أو ليس الحكم الذي يبرر به تسامح العرب إزاء اليهود المعتدين على حقوقهم هو نفسه الخصم الذي ينوي تجريدهم من ملكية بلادهم وتسريبهم عبر حدودها بغية التخلص منهم؟

على أن هذه الصورة التي ترسمها الصهيونية الهرتزلية لعرب فلسطين السعداء والباحثين عن النعمة اليهودية لقاء تنازلهم عن حقوقهم ليست وقفاً على نظرة هرتزل إلى حقوق أهالي فلسطين. بل سارعت الحركة الصهيونية إلى تبنيها وإلحاق المزيد من التفاصيل والإضافات بها. ولم تتورّع عن اعتمادها في حقل الدعاية العالمية، فحاولت إظهار البؤس المخيم على أهالي البلاد التي اغتصبتها وطردتهم منها وكأنه يقع على عاتق العرب وحدهم ويتحملون هم مسؤوليته. بينما لم تقترف الصهيونية من ذنب تعاقب عليه ويثير استنكار العالم، لأن جل ما فعلته كان تحويل البلاد من الجدب والقحل والذبول إلى الخصب والخضرة والازدهار. وقد صدق هرتزل من الزاوية الصهيونية حين لقن رشيد بك تلك الأمثولة العجيبة. إذ كيف يعتبر سارقاً ومغتصباً من يقنع نفسه قبل كل شيء بأنه لا يريد الاستيلاء على شيء يخصك أو امتهان حقوقك وكرامتك، بل يأتيك بأشياء ويحاول إقناعك أنها النفع والخير العميم بالذات.

ومن المزاعم التي يطلقها هرتزل في روايته اليوتوبية أن قدوم المثقفين اليهود إلى فلسطين أتاح مجالات العمل أمام أقرانهم من غير اليهود في البلدان الأوروبية. وبذلك كان اجتذاب فلسطين لهؤلاء بمثابة الزوال التام لظاهرة العداء للسامية. كما تجدر الإشارة إلى الانتقادات العنيفة اللهجة التي صدرت عن أحد هاعام في حكمه على رواية هرتزل ذات النزعة المعينة. فقد أخذ على هرتزل تقصيره في إدراك تلك الرؤيا التنبؤية الرائعة لتطورالبلاد، أو «الحب العميق لفلسطين» والإيمان

---

(١٣) المصدر نفسه.

بالأرض والشعب. وافتقد في الرواية أي شيء من قبيل «الفرح الخلاق» و «الباعث الأخلاقي». ثم اعتبر الفترة الزمنية الممتدة بين ١٩٠٣ ـ ١٩٢٣ مدة قصيرة كي يتم خلالها تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها على النحو الذي وصفه هرتزل. ورأى في إفراط مؤلف الرواية من حيث التشديد على فكرة التسامح والتساهل مجرد رغبة عارمة لدى هرتزل لإرضاء غير اليهود[١٤]. أي أن أحد هاعام يكرر هنا الانتقاد الذي طالما وجهه إلى مؤسس الحركة الصهيونية بقوله إن هرتزل يضع عينه دوماً على أعداء السامية ويبذل جهده لكسب موافقتهم وعطفهم. ويأخذ عليه إغفال المسألة الثقافية والابتعاد المتعمد عن دائرة الذات القومية خوفاً من استنزال غضب الأغيار والأمم. ومما يسترعي الانتباه، مثلاً، أن أحد هاعام يعرب عن تضايقه من مسارعة هرتزل إلى التشديد في قوله «بأن جميع الوسائل والأساليب الجديدة المتبعة في أرض المجتمع الجديد ليست من صنع اليهود أو من مبتكراتهم، بل أعدتها الشعوب الأخرى»[١٥]، لكي تقتبسها الصهيونية وتنقلها في موجتها الاستعمارية الغازية. كما يرفض أحد هاعام تلك الرسالة التحريرية التي تأخذها صهيونية هرتزل على عاتقها في محاولتها إيجاد حل لمشكلة الملّونين من خلال حملة مكافحة الملاريا. ولا يخفى ما تنطوي عليه حيلة هرتزل في الربط بين اضطهاد الملّونين في أميركا والعداء الذي يحدو باليهود إلى البحث عن حلّ صهيوني لمشاكلهم. إذ نجدها في ما بعد تتيح المجال أمام استنباط نوع عجيب من «وحدة الحال» بين اليهود في العالم والملّونين في أميركا. وتساعد الصهيونية على الظهور بمظهر نصير المضطهدين ورسول الحرية إلى شعوب العالم المستعبدة. وهي التي ما كانت لتقوم إلاّ على الاغتصاب والاستبعاد وطرد السكان الأصليين من بلادهم دون مجرد التفكير بحقوقهم وكرامتهم الإنسانية.

هذه المقدّمة مقتبسة عن الفصل الرابع في كتاب د. أسعد رزّوق **«الصهيونية وحقوق الإنسان العربي»**، الصادر عن مركز الأبحاث في سلسلة دراسات فلسطينية (٤٧)، بيروت: ١٩٦٨، ص ١١٤ ـ ١٢٧.

***

(١٤) انظر Bein، المصدر السابق، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.
(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٦.

مقدمة المترجم

ترددت كثيراً قبل كتابة تقديم لهذه المختارات عن صورة العربى فى الأدب العبرى الحديث؛ على الرغم من أنه قد جرت العادة على قيام المترجم بكتابة مقدمة للعمل الأدبى الذى ترجمه، يوضح فيها ماهية الأدب المترجم عنه، إذا كان لا يزال مجهولاً لدى الكثيرين، ويفسر ما يراه ضرورياً للقارىء، كما يوضح أيضاً الأسلوب الذى انتهجه فى الترجمة.

ويرجع ترددى فى كتابة المقدمة الى عدة أسباب، لعل أهمها:

١-أن المقدمة التى كتبها المحرر، إيهود بن عيزر، وهو أديب وناقد أدبى يحتل مكانة على خارطة الأدب العبرى الحديث، تعتبر علامة بارزة فى نقد الأدب العبرى الحديث، ويشار اليها بالبنان دون كل الأعمال التى تتحدث عن الشخصية العربية فى الأدب العبرى؛ على اعتبار أنها من أفضل ما كتب بالعبرية عن هذا الموضوع. وبالتالى جاء ترددى، لأنى اعتقدت أنه لا يمكن أن أضيف جديداً الى ما قاله فى مقدمته.

٢- لأن هذه المقدمة تكاد تكون مانعة جامعة، كان لا بد من أن أترك القارىء يبحر فيها دون أى مؤثر خارجى، قد يوجهه ويقوده الى وجهة معينة فى فهم مكوناتها.

لكن نظراً لأن هذا الموضوع ليس بالموضوع العادى فى الأدب العبرى، فهو يمس جوهرالصراع العربى/الإسرائيلى، حيث إنه-كما يشيرالعنوان-خلاف على قطعة أرض واحدة، تتناقض فيهاالأشواق، ولإيماننا بأن المقدمة التى كتبها إيهود بن عيزر، مهما حاولت أن تبدو موضوعية، إلا أنها لا بد وأن تحمل وجهات نظر طرف واحد دون الطرف الآخر. لذا فقد رأيت أن أدفع بمقدمة صغيرة أركز فيها على النقاط التالية :

١-ماهية الأدب العبرى الحديث والمعاصر، الذى استقت منه النماذج المقدمة فى هذه المختارات.

٢- عرض بانوراما شاملة لموضوع العربى فى الأدب العبرى للوقوف على حجم تناول هذا الموضوع فى الأدب العبرى ومدى مساهمته فى تشكيل الثقافة الإسرائيلية، وبخاصة ثقافة السلام والصراع.

٣-إذا كان الموضوع الذى نحن بصدده هو الشخصية العربية فى الأدب العبرى، فمن باب أولى أن نعرف أيضاً وماذا عن الشخصية العبرية فى الأدب العبري، وبخاصة تلك التى واكبت

تناول الشخصية العربية؛ حتى نعرف هل هناك اختلاف فى المنظور الذى عرضت به الشخصية العبرية عن المنظور الذى عرضت به الشخصية العربية.

٤- إذا كانت هذه هى رؤية الأدب العبرى للشخصية العربية- سواء سلباً أو إيجاباً- فماذا عن رؤية الأدب العربى عامة، والفلسطينى بصفة خاصة، للشخصية اليهودية فى نفس الفترة المطروحة، حتى تكتمل الصورة ولا نقدم فقط وجهاً واحداً للعملة من خلال هذه المختارات.

***

من المعروف أن الأدب العبرى الحديث نشأ فى أوربا، وتحديداً فى أوربا الشرقية، وذلك فى الفترة ما بين ١٧٥٠-١٨٠٠م تقريباً، أى فى نفس الفترة تقريباً التى نهضت فيها حركة التنوير الأوربية وتبلورت مفاهيمها. فماكان من الحركة الثقافية اليهودية إلا أن حذت حذو التنوير الأوربى وبدأت تنادى بالتخلص من قيود الدين على الفكر اليهودى وتحريره وإطلاق قدراته نحو الحياة "العلمانية"، تأسياًبحركة التنوير الأوربية، فظهرت حركة "الهسكالاه"، أو التنوير اليهودى، التي نادت بفصل الدين عن المجتمع اليهودى، وجعله قاصراً فقط على أمور العبادة دون الأمور الحياتيةاليومية، وانطلقت آنذاك صيحة رائد حركة التنوير اليهودى، يهودا ليف جوردون "كن يهودياً فى بيتك... إنساناً خارج بيتك"، والتى أصبحت فيما بعد شعاراً لحركة الهسكالاه.

ولكن بعد أن انتهى المد التنويرى الأوربى، الذى دعا الى "عالمية" الإنسان، وباتت كل الشعوب الأوربية، بدءاً من عام ١٨٨٠، تبحث لنفسها عن هوية خاصة تفصلها عن باقى الهويات، نشأ ما يسمى ب"القوميات الأوربية" المنفصلة. وتعاظم دورالحركات السياسية والثقافية المنادية بالتقوقع القومى بدلاً من الإنفتاح العالمى. وتلى ذلك مباشرة بحث اليهود عن قومية ذاتية تفردهم وتفصلهم عن الآخرين. فنشأ ما يمكن أن نطلق عليه المد القومى اليهودى، متمثلاً فى "الحركة الصهيونية".

وقبل الإستطراد فى سرد مجمل أحداث التاريخ السياسى والثقافى لليهود فى تلك الفترة، لا بد من التأكيد على أن نهوض الفكر القومى اليهودى لم ينشأ من داخل الفكر اليهودى ذاته، ولم ينم نمواً طبيعياً من داخل الحياة اليهودية ذاتها، وإنما كان- فى القدر الأكبر منه- تقليداً للإتجاهات القومية الأوربية؛ وفى نفس الوقت خشية من الضياع والإنصهار داخل القوميات الأوربية الناهضة، وضياع الهوية اليهودية الى الأبد. وبالتالى فإنه يمكن القول إن ظهور الفكر القومى اليهودى والحركة الصهيونية الممثلة له إنما جاء كرد فعل وليس فعلاً مستقلاً، كدأب الفكر اليهودى برمته عبر التاريخ، منذ عصر التوراة وحتى العصر الحديث.

ويمكن الآن أن نطرح هذا السؤال: هل نشأ الأدب العبرى الحديث من داخل الأيديولوجية الصهيونية السياسية أم أن العكس هو الصحيح، أن الأدب العبرى الحديث نشأ ليلبى مطالب الأيديولوجية الصهيونية الإستيطانية ويعبر عنها ويصبح الناطق الرسمى بإسمها؟.

فى الحقيقة، حتى ثمانينيات القرن الماضى كانت الصهيونية تعتبر نشاطاً فكرياً وثقافياً وأدبياً رومانسياً، ظهر أغلبه فى نصوص أعتبرت آنذاك جزءاً من الأدب العبرى. وبالتالى فإنه يمكن

القول إن الأيديولوجية الصهيونية نشأت من داخل الأدب العبرى وكانت جزءاً لا يتجزأ منه. ولكن مع تقدم النشاط السياسى وتعاظم الدور الصهيوني وتنظيم المؤتمرات الصهيونية وبدء الهجرات الجماعية اليهودية الى فلسطين والإنتقال الى النشاط العملى فى فلسطين فى تسعينات القرن التاسع عشر، بدأ النشاط الصهيونى يخرج من سياج النشاط الفكرى الأدبى وأصبح نظاماً إجتماعياً مستقلاً، يعتمد أساساً على العمل السياسى(تكوين الأحزاب والأنشطة السياسية والإقتصادية، وبناء المؤسسات كجزء من بناء الإستيطان فى فلسطين).

وهنا انهار مركز الأدب العبرى فى أوربا الشرقية وانقسم الى مركزين رئيسيين. المركزالفلسطينى والمركز الأمريكى الذى إتخذ من نيويورك بصفة خاصة مقراً له. ولكن لأسباب عدة، لعل أهمها التغيرات الكبيرة فى استراتيجية الصهيونية السياسية والتى أدت الى سيطرة الفكر الصهيونى على الحياة اليهودية، وأيضاً الهزات العنيفة التى اجتاحت أوربا(وبصفة خاصة الثورة الروسية والحرب العالمية الأولى والهجرات اليهودية الجماعية المتتالية، والتى أدت الى تقلص جمهور قراء العبريةفى الدول الأوربية)ويضاف الى ذلك أيضاً هجرة الأديب حاييم نحمان بياليك (أمير الشعرالعبرى)وجماعته الى فلسطين حوالى عام ١٩٢٤والتى ترمز بصورة واضحة الى انتقال مركزالأدب العبرى الى فلسطين، تم إلقاءالضوء على المركز الفلسطينى واعتباره المركز الرئيسى الجديد للأدب العبرى، وتهميش المركز الأمريكى، الذى لم تسلط عليه الأضواء بدرجة كافية على الرغم من أهمية دراسته لنقف على الوجه الآخر للأدب العبرى، الذى نشأ بعيداً عن التأثيرات الصهيونية.

وحينما انتقل مركز الأدب العبرى الى فلسطين، كان انتقاله اليها تغيراً فى الصورة والمضمون. فلم تعد موضوعاته هى ذات الموضوعات التى كان يتناولها فى المركز القديم، بل طرحت عليه موضوعات جديدة، بات عليه أن يعبر عنها، نابعة من الواقع الجديد والظروف المتغيرة التى واجهها هذا الإستيطان فى الأرض الجديدة. أو بالأحرى موضوعات طرحها عليه التوجه الأيديولوجى الصهيونى.

وفى الحقيقة فإننا لا يمكن أن نفهم ماهية هذا الأدب دون ربطه بهذه الأيديولوجية. لدرجة أنه يمكن أن نطلق عليه " أدب أيديولوجى"، وفقاً للمفهوم الماركسى الذى يرى أن أى إنتاج أدبى إنما هو إنتاج أيديولوجى، يسير جنباً الى جنب مع النتاج الأيديولوجى الآخر الذى ينتجه الإنسان فى مجالات الحياة الفكرية والعلمية والدينية والفنون برمتها. وبالتالى فإن العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا علاقة مزدوجة: فالأدب" مرآة"للواقع الإجتماعى والإقتصادى والأيديولوجى. ويمكن اعتباره فى نفس الوقت نشاطاً إجتماعياً مستقلاً، دوره الأساسى هو الكشف عن الوسائل التى تموه بها الأيديولوجية على الواقع. وبالتالى فإنه يمكن هنا أن نتساءل هل يستطيع الأدب من خلال إرتباطه- بصورة أو بأخرى- بأيديولوجية عصره ومن خلال قدرته على تحرير القارىء من وهم الأيديولوجية، أن يلعب دوراً فى الحياة الثقافية لأمة ما ؟ وقد يستتبع ذلك بالضرورة أن نسأل ما هى مساحة الحرية التى يتمتع بها الأديب والعمل الأدبى بعيداً عن قيود الأيديولوجية؟ وهل هى

فعلاً حرية مطلقة أم حرية موجهة ولها حدود تقف عندها؟

هناك نظريات فى النقد الأدبى ترى أن العمل الأدبى ما هو إلا وثيقة إجتماعية -ثقافية، تعبر، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عن "الأنا الجمعى" وليس بالضرورة عن "الأنا الفردي" . وبمعنى آخر، فإن الأديب الفرد هو جزء من كل أيديولوجى لذا فإنه يعبر عن الأنا الجمعى الذى هو جزء منه وينتمى اليه.

وانطلاقاً من ذلك فإنه يمكن إعتبار النص الأدبى، أي نص، ليس نتاجاً مستقلاً من أديب فرد يعمل بإلهام ذاتى، كما ينظر اليه عادة من منظور الفكر الرومانسى، بل هو فى الأساس تعبير عن إرادة جمعية . ووفقاً لهذا التوصيف، فإن أى فرد يملك مستوى من الوعى المعرفى يفوق الوعى الفردى، يبرزه فى إنتاج رموز فردية مصغرة، تهدف أساساً الى نقل آمال وتطلعات ومشاكل الأنا الجمعى، عبر رموز محددة. وبالتالى فإنه يمكن القول إن إستقلالية الأديب ما هى إلا استقلالية جزئية فقط.

لكن يجب ألا يقودنا هذا الى اعتبار العمل الأدبى دمية، أو أداة مباشرة لنقل رسائل أيديولوجية. بل إنه حينما يعكس الأفق الأيديولوجى، فإنه فى الحقيقة يعكس أيضاً ما هو موجود فى الواقع بالفعل. وبالتالى لا بد من دراسة رد الفعل الأدبى على الوجود من خلال تحليل الأدوات الخاصة التى استخدمها الأدب فى التعبير. لذا فإنه يمكن القول إن النص الأدبى يتيح من خلال التعبيرات المستخدمة فيه، إسترجاع الأنماط الإجتماعية والرموز الثقافية والتأثيرات الإجتماعية - الأيديولوجية، التى أثرت على إنتاج هذه الأفكار.

وانطلاقاً من ذلك، يمكن القول إن المجتمع اليهودى الإستيطانى الذى نشأ فى فلسطين، أوجد فى سنوات وجوده الأولى ظروفاً مادية وإجتماعية فريدة أتاحت إنتاج التعبير المميز للإستيطان كأنا جمعى. فمن خلال رسم صورة الحياة الجديدة نشأت مجموعة من المعايير الأدبية واللغوية أثر بها المجتمع الإستيطانى على البيئة المحيطة أيضاً حيث ابتكر رواد الإستيطان الجديد نماذج أدبية متفردة فى ثقافتها فى كل الموضوعات.

وإذا كنا قد قلنا بوجود علاقة جدلية حتمية بين الأدب والأيديولوجية، فلقد تغيرت هذه العلاقة فى الفترة من ١٩٠٠-١٩٣٠ بين الأدب العبرى والصهيونية السياسية؛ حيث تم فعلاً الفصل بينهما وصارت هناك خطوطٌ واضحة تفصل بين النشاط الذى يجب اعتباره "أدبياً" والنشاط الذى يمكن اعتباره "سياسيا" . حيث تحولت السياسة الصهيونية العملية آنذاك الى نظام ريادى ومسيطر على الثقافة العبرية الجديدة، فهى التى حددت الأهداف، وهى التى رسمت الأدوار الجديدة للثقافة، وهى التى لعبت دوراً بارزاً فى تحديد المعايير الجديدة. وفى المقابل أخذ النظام الأدبى يفقد وضعيته المركزية ويتراجع عن دوره الريادى. لكن هذه المتغيرات فى الواقع السياسي -الثقافى لم تحتل مكانها بسرعة فى الحياة الثقافية. فلقد ظل الأدب العبرى حتى الثلاثينيات يعتبر نفسه هاماً ورائداً، ونفس الشيء فعله التيار السياسى أيضاً، لكنه كان فى حاجة الى دعم من الأدب لتأكيد شرعيته، لذا فقد لبس ثوباً جديداً، أدى الى تفاقم الجدل الأدبى بين أنصار نظرية

"الأدب للأدب" وأنصار نظرية " الأدب من أجل الصهيونية" أي "الأدب المجند".

وكان التفسير العملى لهذا التجنيد هو إستخدام الأدب للتعبير بنصوصه الخيالية عن الأيديولوجية الصهيونية. التى كانت فى البداية صهيونية لا سياسية (دينية فى الأساس) ثم تحولت بعد ذلك الى صهيونية سياسية بحته، مستغلة المشاعر الدينية لتحقيق أهدافها السياسية. وهنا نشطت الأحزاب السياسية وبخاصة حركة العمل، أقوى المؤسسات السياسية آنذاك، للمطالبة بأن يعبر الأدب عن قيمها، مما يعنى أن هذه الحركة علقت آنذاك أهمية بالغة على قوة الأدب التأثيرية على حياة العامة.

وواكب ذلك أيضاً تغيرات كبيرة فى صورة الأدب العبرى فى تلك الفترة. فالأدب الذى دخل فلسطين عام ١٨٨٠ مثلاً لا علاقة له بالأدب الذى أنتج فيها عام ١٩٣٠. حيث تتركز الإختلافات بينهما فى الموضوعات المطروحة والشخصيات الأدبية التي طرحت فى الفترتين.

وإذا حاولنا إلقاء الضوء على أنماط الشخصيات الأدبية التى سادت الموضوعات الأدبية فى الفترة من ١٨٩٠ : ١٩١٠، أى فى فترة المد الصهيونى الإستيطانى فى فلسطين، والذى تمثل فى العديد من الهجرات الجماعية التى كان لا بد للأدب أن يعمل معها جنباً الى جنب من أجل إرساء القيم والمعايير الجديدة فى فلسطين، سنجد أن هناك نموذجين رئيسيين سيطرا على موضوعات الأدب فى تلك الفترة. النموذج الأول هو النموذج القديم الذى نقله الأدب معه من الخارج، وهو ما يطلق عليه نموذج "اليهودى المنفوى"(مع التحفظ الشديد على هذا المصطلح)، الذى يعتمد أساساً على شخصيات البلدة اليهودية البائسة فى الدول الأوربية. ويتسم هذا النموذج بصفات سلبية كثيرة منها "الكسل، والبطالة، والتنطع، والبخل "وهى كلها شخصيات سادت الأدب العبرى قبل انتقاله الى فلسطين وكان أكبر معبر عنها هو الأديب اليهودى الشهير "مندلى موخير سفاريم" والأديب الساخر شالوم عليخم الذى عمل على تعرية الشخصية اليهودية فى دول الإستيطان الأوربية من خلال عرضه لنماذج يهودية تبعث على السخرية منها أكثر مما تبعث على التعاطف معها. أما النموذج الآخر، الذى يعتبر ضداً حاداً للنموذج الأول، فهو الرجل العبرى الجديد، الطلائعى، الذى "اقتلع" من البلاد التى عاش فيها اليهود قبلاً. وهو فى مجمله صيغة معدلة "لليهودى المنفوى". وشكّل هذان النموذجان أغلب الشخصيات التى ظهرت فى النصوص الأدبية التى انتشرت فى الدوريات الأدبية آنذاك. ويمكن القول بصورة عامة، أن نماذج ما أعتبر آنذاك "واقعية أدبية" سيطرت على الموضوع الأدبى، وتجلت فى وصف الحياة اليهودية فى بلاد العالم المختلفة، بما تمثله من انحطاط وتدهور وقبح وفساد وبؤس. وفى الحقيقة فإننا لا يمكن أن نفصل هذا التناول عن الواقعية والمادية الأوربية التى سادت الأدب الأوربى آنذاك. ولكن هذا التناول يبرز بوضوح فى الأدب العبرى فى رسم الشخصيات اليهودية، التى نظرت الى العالم اليهودى بمنظور الأيديولوجية الصهيونية السلبى، حيث تم وصف اليهود كما هم. واستقت خصائص الشخصية اليهودية فعلاً من أوصاف مفكرى الصهيونية فى الدول الأوربية أو مباشرة من مصدر هذه الأوصاف ذاتها. وبالتالى، فقد كان هذا الوصف فى أغلب الأحوال وصفاً إسترجاعياً

لشخصيات ماضية وليس واقعاً فعلياً.

فى تلك الفترة ابتكر أدباء الهجرة الأولى (١٨٨١-١٩٠٤) نموذجاً جديداً لليهودى. حيث لم يعد البطل فى قصصهم هو البطل " المنفوى" أو "المقتلع"، حيث تراجع ليحتل المكانة الثانوية أمام البطل الجديد، المثالى، الشجاع، المعتد بنفسه، والذى يعمل على ضرب جذوره فى الأرض. لكن يجب ألا يتبادر الى الذهن أن هذا النموذج نابع من واقع فعلي فى فلسطين بقدر ما يعكس حقائق نمط أدبى، تماماً كما عكست شخصية "المنفوى" أنماطاً أدبية واجتماعية وأيديولوجية.

وهذا النموذج الأدبى هو النموذج الذى انتقده يوسف حاييم برينر بشدة فى مقاله "المسألة الفلسطينية ومشتقاتها" (١٩١١)، والذي أشار اليه إيهود بن عيزر فى مقدمت ه(ص١٥). "يمكن للخواجة موسى أن يكتب عن حياة العرب كما يشاء-لكنى عضو عامل فى الإستيطان اليهودى ".

وهو أيضاً النموذج الذى أشير اليه بوضوح فى"نبوءة المساء" لربى بنيامين يهوشع ريدلر فيلدمان، والتى أشار اليها إيهود بن عيزر أيضاً فى مقدمته.

وحينما جاءت موجة الهجرة الثانية (١٩٠٤-١٩١٤) جلبت معها مجموعة من القيم تعتمد فى أساسها على رفض "المنفى" وتشجيع الإتجاه الى فلسطين والإرتباط بأرضها. وأحدثت تغييرات فى شخصية الفلسطينى الجديد الذي روجت له الموجة الأولى، فأصبح يعرف باسم" العبرى الجديد". وجاء هذا النموذج مختلفاً فى العديد من مكوناته الأساسية عن النماذج السابقة عليه، سواء فى الخارج، أو النموذج الذى حاولت الهجرة الأولى ابتكاره.

وتجدرالإشارة الى أن هذا النموذج الجديد دخل الأدب العبرى فى مسارين متوازيين. فى المسار الأول استمرت القصص فى عرض هذا النموذج وفقاً لمعايير الأدب المجند. أما المسار الثانى، وهو الأكثر أهمية، فلم يكن مساراً إستمرارياً كالمسار الأول، بل كان مساراً لعب فيه النموذج الجديد دوره بصورة جزئية ومتدرجة. فاعتباراً من عام ١٩٠٩ بدأ " العبرى الجديد " يخترق الموضوع الرئيسى فى الأدب العبرى، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه تحول المركز الأدبى إلى فلسطين. لكن هذا النموذج لم يدخل الى الأدب فى صورة مجسدة كاملة، أو فى صورة البطل الرئيسى، بل دخلت بعض مكوناته المنتقاة الى النص، مع دمجها بالنموذجين الآخرين. وتم هذا الدمج فى صورتين أساسيتين: دمج عناصر من نموذج" العبرى الجديد" مع نماذج من" اليهودى المنفوى"، أو تم من خلال عرض القصة لصراع بين شخصيات "عبرية" وشخصيات "منفوية". ولكن من الملاحظ بصورة عامة أنه كلما كانت الشخصية أكثر قرباً من" العبرى الجديد"، كلما زادت هامشيتها فى القصة.

وهكذا نجد أن نموذج " العبرى الجديد" الذى نشأ وتطور فى الفترة من ١٩١٠ -١٩٤٠ فى إطار الأدب المجند، تجسد فى العديد من الروايات التى تتحدث عن الرواد الطلائع الذين يبنون البلاد، كما ظهر أيضاً فى المسار الآخر للأدب غير المجند مدمجاً مع نماذج "اليهودى المنفوى" و "اليهودى المقتلع"، لدرجة أنه أصبح فى الأربعينيات، النموذج الأدبى المحورى فى الأدب العبرى، وهو ما أطلق عليه بعد ذلك نموذج "الصبار". والذى يمكن أن نقول إنه تحول فى تلك

الفترة الى مايشبه العبادة، وظلت أصداءه تدوى فى أركان الثقافة العبرية الى أن قامت الدولة وحدث شرخ فى هذه الشخصية نتيجة للإحباط من القيم الصهيونية التى تمثلها.

ويبلغ مجموع الأعمال التى تجسدت فيها شخصية الصبار [الصابرا] حوالى خمس وعشرون قصة، أغلبها لزئيف يعبوتس وشموئيل فالوبيتس ويهوشوع برزيلاى إيزنشتات وموشيه سميلانسكى. ولم يعتمد وصف " العبرى الجديد" فى هذه الأعمال على الإشارة التفصيلية أو العرضية لخصائصه، بل اعتمد أيضاً على تحليل سماته المتعارضة. والتى يمكن أن نحددها فيما يلى: شاب طلائعى مؤمن بيهوديته وهو بصورة عامة عامل فى الأرض، سواء فى الموشاف أو الكيبوتس، أو مرتبط بالعمل فى الأرض كحارس، محب للعمل، نشط، شجاع، قوى وجرىء، ذو كبرياء، سليم البنية، ضحوك، هادىء الطباع، واثق فى نفسه، مثالى، يتصرف وفقاً لمجموعة من المعايير والقيم الأخلاقية.

ولعلنا نلحظ هنا أن هذه القائمة من الصفات الإيجابية تكشف لنا بوضوح أن نموذج "العبرى الجديد"، قد بنى كضد واع لنماذج " اليهودى المنفوى " و" اليهودى المقتلع".

وبالطبع فإن الفروق بين " العبرى الجديد" و" الفلسطينى الجديد" الذى سبقه لم تنحصر فقط فى مستوى تجسيد نموذج الشخصية فى القصص، أى فى اعتبار أن " الفلسطينى" هو بطل القصة و" العبرى" هو الشخصية الهامشية، أو أن " الفلسطينى يميل لأن يكون تجسيداً كاملاً للنموذج، بينما نجد العبرى فى الغالب مدمجاً فى نماذج "منفوية"، بل نجدها أيضاً فى مستوى النموذج. ولكن على الرغم من التشابه الشديد بين النموذجين، كما يمكن أن نستخلصهما من الروايات المختلفة، إلا أنه يوجد بينهما عدد من الفروق الرئيسية يمكن أن نحددها فيما يلى :

١- أن " اليهودى الفلسطينى" هو دائما من مواليد فلسطين. وفى الغالب من المستوطنات أو من الإستيطان القديم الذى انضم الى المستوطنات الجديدة التى أقامها المهاجرون الجدد. ويقابله فى الناحية الأخرى" العبرى الجديد"، وهو دائماً من مواليد" المنفى"، هاجر الى فلسطين انطلاقاً من روح طلائعية (ويشذ الأولاد عن ذلك، لأن الوظيفة الطلائعية لا تنطبق عليهم).

٢-" اليهودى الفلسطينى الجديد" يميل لأن يكون فلاحاً، بينما نجد أن" العبري الجديد" يميل لأن يكون طلائعياً، يعمل عاملاً أو حارساً فى مستوطنة. وهذا يعكس لنا بوضوح الفرق بين "الهجرة الأولى" وأيديولوجية محبة صهيون وبين" الهجرة الثانية" وأفكار حركة العمل.

٣-هناك علاقة ما بين"اليهودى الفلسطينى الجديد" والنماذج الرومانسية"للعبرى القديم"، والتى نشأت أساساً فى الثقافة الألمانية، وتبنتها ثقافة الهسكالاه العبرية. ويتغير هذا التركيز وهذه العلاقة لدى "العبرى الجديد" لتحل محله علاقة بنماذج أخرى، روسية فى الغالب.

٤- تميل الأعمال الأدبية التى تصف " اليهودى الفلسطينى الجديد" الى تأكيد أن البطل يتحدث العبرية، بينما فقد هذا العنصر أهميته لدى " العبرى الجديد"، فقد بات من الواضح تماماً أن الشخصيات فى أغلب الأعمال الأدبية تتحدث العبرية ولم تعد هناك حاجة الى إشارة الأدباء الى ذلك.

٥- يميل " العبرى الجديد" الى التعبير عن أيديولوجيات إجتماعية مرتبطة بحركة العمل. وفى المقابل لا يعرب "الفلسطينى الجديد" عن أيديولوجيات إجتماعية؛ وإذا تطرق الى قيم، فإنه يعرض قيم فترة الإحياء ومحبة صهيون الرومانسية، التى تعنى بتصوير الإنسان كفرد أكثر من اهتمامها به داخل الإطار الجمعى.

٦-لازال "الفلسطينى الجديد" يقيم حواراًمع "اليهودية" بالمفهوم القديم، فهومتدين أومحافظ على التقاليد (وفقاً لأيديولوجية محبة صهيون)،أو العكس تماماً فهو أيضاً يهجر الدين أو يرفضه (ويتمثل ذلك أيضاً فى أيديولوجية"رفض المنفى"). ومن ناحية أخرى فإن "العبرى الجديد" لا يبدى بصورة عامة أي علاقة بالدين.

وخلاصة القول، إن الأعمال الأدبية التى عرضت" الفلسطينى الجديد" كان يسيطر عليها الإتجاه الى تصوير المجتمع وشخصياته "المثالية" المستوحاة من الماضى القديم. بينما نجد " العبرى الجديد" مرتبط بموضوع أدبى يطرح مجتمعاً وشخصيات تمثل اتجاها نامياً، يمكن أن يحقق أهدافه فى المستقبل، فى الوقت الذى تبدأ فيه بوادر هذه الأهداف تتحقق على أرض الواقع.

لكن بعد عام ١٩٤٨، وإعلان الدولة اليهودية، وجد الأدب العبرى نفسه، هو والنماذج الأدبية التي ابتكرها لتواكب مرحلة تأسيس الإستيطان الصهيونى فى فلسطين، أمام معضلة يصعب حلها. فبعد إعلان الدولة واستقرار المجتمع الى حد ما، بدأت تظهر بوادر إفلاس الأيديولوجية الصهيونية، والتى عبر عنها أدبياً في حالة الإحباط التي صاحبت النماذج الأدبية الممثلة لتلك الفترة.

لذا فإننا يمكن أن نلمس بعد إعلان الدولة، وجود تحول فى مسار الرواية الإسرائيلية، سواء من حيث الشكل أو المضمون. فلم يعد للقصة من موضوع سوى التعبير عن الإتجاه المعبر عن الوعى بالواقع والإحباط منه.

ومع أن القصة العبرية، بعد إعلان الدولة أدارت ظهرها للمثاليات الصهيونية والدولة الناهضة، وهذا تقريباً قاسم مشترك فى أغلب الأعمال الأدبية التى كتبت فى تلك الفترة إن لم يكن كلها، إلا أنه يجب ألا ننسى أن الإيمان بالمثالية الصهيونية والطلائعية قد بقي أيضاً، حيث أستخدم كبديل للمثالية الدينية التقليدية لليهودية. وإن كان هذا يعنى شيئاً فإنه يعنى أن القصة العبرية بعد قيام الدولة واصلت لعب الدور التجنيدى، وأصبحت مرآة صادقةللتعبيرعن حالة الخواء الشامل وفقدان الثقة بالنفس، بل إنها اقتربت من النقطة التى بدا فيها الوجود المجرد أمراً مشكوكاً فيه. وأبرز الأعمال التى يتجلى فيها حجم هذا الإحباط والتخلى عن أي موقف يترك مجالاً لأي أمل، هى " الحى أبقى من الميت" لأهارون ميجد، و" بلاد إبن آوى" لعاموس عوز، و" حياة اليقوم" لبنيامين تموز.

ومن هنا يمكن القول إن حال القصة العبرية فى العقدين الأولين لقيام الدولة الإسرائيلية، كان حالة دياليكتيكية" . وبالتالى فإننا نرى أن القصة كان لها موضوعٌ محدّد، وهو الحفاظ على الإتصال مع الواقع، حتى وإن كان هذا الإتصال بصورة سلبية. وبهذا فقد أخلصت القصة لتقاليد

العمل الأدبى وأبقت عليها، لكن من خلال اغترابها، ومن خلال نظرتها المستخفة بهذا الواقع والمعادية له. أي أنها نظرت اليه من خلال غايتها الخاصة وهى أن المؤلف يريد أولاً وقبل كل شيء أن يكتب من أجل الكتابة. وهذا الدياليكتيك يبرز بوضوح فى النماذج الروائية الثلاث التى أشرنا اليها من قبل.

***

وهكذا فإننا نرى من خلال هذا العرض السريع للأدب العبرى الحديث والشخصيات الأدبية التي عملت فيه أن الصورة التى انتقاها إيهود بن عيزر لتصوير شخصية العربى فى الأدب العبرى الحديث لا يمكن أن نفهمها وحدها بمعزل عن هذه الأنماط التى سادت الأدب العبرى الحديث، فقد كانت الشخصية العربية ضرورة فى هذا الأدب لوضعها كضد حاد لهذه النماذج والأنماط الأدبية التى سادت الأدب العبرى الحديث كتعبيرعن "الأدب المجند". وبالتالى جاء ظهور الشخصية العربية فى الأدب العبرى ليعكس التفاعل بين هذه الشخصيات فى أرض الواقع ومحاولة إبراز أبعاد الشخصيات الجديدة التى ابتكرها هذا الأدب من خلال وضعها أمام النموذج العكسى وهو الشخصية العربية.

ويمكن أن نلمس ذلك بوضوح فى النماذج التى قدمها إيهود بن عيزر فى هذه المختارات، وبترتيبها الزمنى، حيث تعكس لنا مراحل نمو الشخصية العبرية فى الأدب العبرى في نفس الوقت الذى تعرض لنا فيه نظرة هذا الأدب للشخصية العربية ومراحل تطورالعلاقة بين الشخصيتين اللتين تتصارعان على أرض واحدة، أو كما أراد أن يسميه إيهود بن عيزر الصراع على وطن تتناقض فيه الأشواق.

ومن هذا المنطلق إذا حاولنا أن نحصر تناول الشخصية العربية فى الأدب العبرى الحديث لنقف على السبب الحقيقى وراء هذه الإنتقائية بالذات التى لجأ اليها إيهود بن عيزر دون غيرها من المعالجات الأدبية للشخصية العربية إبان نفس الفترة التى تناولها، فإنه يكفى أن نورد هذه القائمة التى ترصد بسرعة بعض الأعمال الروائية التى تناولت شخصية العربى فى الأدب العبرى :

١- آلوف هار إيفن	- واحد من كل ستة إسرائيليين	(١٩٨١).
٢- أ. ب. يهوشوع	- العاشق	(١٩٧٧).
٣- أ. ب. يهوشوع	- أمام الغابات	(١٩٦٣).
٤-إسحاق شاليف	- حادث جبريئيل تيروش ط٥	(١٩٧٣).
٥ -إسحاق شامى	- ست قصص	(١٩٨٣).
٦ -إيهود بن عيزر	- أفرات	(١٩٧٨).
٧ - « «	- مقتحمون ومحاصرون	(١٩٦٨).
٨ -بنيامين تموز	- إنجيوكسيل دواء نادر	(١٩٧٣).
٩ -جرشون شاكيد	-لا مكان آخر	(١٩٨٣).
١٠-دان مرجليت	-مظليون فى السجن السورى	(١٩٦٨).

١١–ديبوره عومر	–الحد الذى فى القلب	(١٩٧٧).
١٢–سامى ميخائيل	–متساوون ومتساوون أكثر	(١٩٧٦).
١٣–عاموس عوز	–بلاد إبن آوى	(١٩٨٣).
١٤–عاموس كينان	–الطريق الى عين حرود	(١٩٨٤).
١٥–عاموس عوز	–فى الضوء الأزرق الوهاج	(١٩٧٩).
١٦–عوديد بيتسر	–قصاصو الأثر على الحدود الشمالية	(١٩٧٥).
١٧–مردخاى يجآل	–على يجهز السرج	
١٨–موشيه سميلانسكى	–فى ظل البيارات	
١٩–موشيه شامير	– الحدود	(١٩٦٧).
٢٠– « «	–حياة شعب إسماعيل	(١٩٦٨).
٢١–ناتان شاحم	– خريف أخضر	(١٩٧٩).
٢٢–يزهار سميلانسكى	–الغابة التى فوق التل	(١٩٧٩).
٢٣–يهودا بورلا	–زوج فى شعبه	
٢٤–يوسف أريخا	–قصص عبرية من حياة العرب	(١٩٦٣).
٢٥–أنطوان شماس	–أرابيسك	(١٩٩٠).
٢٦–موشيه شامير	–عزيزى ميخائيل	
٢٧–شمعون بلاص	–حجرة مغلقة	
٢٨– « «	–من هنا والى أين	
٢٩– « «	–تحية للغريب	
٣٠–دافيد جروسمان	–إبتسامة الجدى	
٣١–يورام كانيوك	–عربى طيب	
٣٢–بنيامين تموز	–البستان	

وغيرها كثير يصعب رصده بدقة. هذا بالإضافة الى المختارات التى انتقاها إيهود بن عيزر وقدمها فى هذا الكتاب.

أما فى مجال الدراما العبرية، فإنه يكفى القول بأنه فى الفترة من١٩١١الى١٩٤٨، صدرت أثنتان وثمانون مسرحية، موضوعها الرئيسى "الإستيطان فى فلسطين"، تظهر الشخصية العربية فى سبع منها، لكن دائماً فى أدوار ثانوية. وفى الفترة من ١٩٤٨ الى ١٩٧٠، تراجع عددها الى ست شخصيات هامشيه. وفى الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٨١، عرضت على المسرح الإسرائيلى ١٠١ مسرحية عبرية، تظهر شخصية العربى فى عشرين منها. وفى الفترة من ١٩٨٢إلى ١٩٨٩ توجد زيادة ملحوظة. فمن بين ٤٤١ مسرحية تظهر الشخصيات العربية فى ست وأربعين منها.

فهل يشير هذا التزايد المطرد فى ظهور الشخصيات العربية الى محاولة إقامة حوار بين الجماعات اليهودية والشعب الفلسطينى، على الأقل من جانب اليهود؟ وهل توجد علاقة بين

المعروض على المسرح والواقع الإجتماعى خارج المسرح ؟.

تشير معظم الدراسات التى تعرضت لتناول الدراما العبريةللشخصية العربية كممثل للأقلية فى فلسطين الى وجود حالة من الغربة بينهما وصلت فى السنوات الأخيرة الى حد الكراهية والعداء. وهى حالة تعتمد فى أساسها على عدم ثقة اليهودى فى العربى. وقد يرجع ذلك أساساً الى أن الأقلية العربية فى إسرائيل من نوع الأقليات التى يصعب استيعابها. فهى أقلية مصرة على الحفاظ على وجودها المستقل، وعلى هويتها وثقافتها الخاصة، وليس لديها أي استعداد للإنصهار فى المجتمع اليهودى. وقد يرجع ذلك بصورة أساسية الى العمق الثقافى والحضارى الذى ترتكز اليه هذه الأقلية وبالتالى يصعب انصهارها أو استيعابها فى المجتمع الإسرائيلى الذى لا يرتكز الى جذور عميقة على المستوى الثقافى، لأنه،كما نعرف جميعاً، مجتمع متعدد الثقافات، لا يؤلفة إلا البعد الدينى وهو وحده غير كاف لوضعه فى الموضع المسيطر على الثقافة الفلسطينية ذات الجذور الدينية والثقافية والحضارية العميقة والتى يساندها زخم هائل من الإنجازات الحضارية العربية.

وتجدر الإشارة هنا الى أن هذه التغيرات التى حدثت فى تصور اليهودى للشخصية العربية، أثرت أيضاً على موضوع المسرح الإسرائيلى. ففى عام ١٩٦٥ ظهرت الشخصية العربية على المسرح الإسرائيلى سلبية فى أساسها، ودونية فى خصائصهاوفى مظهرها الخارجى. وفى عام ١٩٦٨إزداد هذا الإتجاه، تحت تأثير نشوة الإنتصار الذى أحرزه الجيش الإسرائيلى فى حرب يونيو. لكن بعد حرب أكتوبر١٩٧٣، التى هزت المجتمع الإسرائيلى وأحدثت شرخا عميقاً فيه انعكس على الصور الأدبية كلها، حدث تحسن فى تصور العربى وصاحبه تراجع فى التصور الذاتى الإسرائيلى. ومع ذلك فإن أنماط التفكير فى العربى لم تتغير الى الأحسن وظل شخصية مرفوضة الى حد كبير. وربما كانت هذه هى الأسباب الرئيسية فى حدوث التحول فى رسم صورة العربى فى المسرح الإسرائيلى فى بداية السبعينات، فجاء بصورة مشوهة وحذرة أحياناً.

أما أثناء عملية السلام مع مصر، فقد حدث"تطبيع" فى رسم صورة العربى. وبات الشباب يفكرون فى الإسرائيلى وفى العربى بمفاهيم متشابهة. ولكن على الرغم من هذا التحسن، إلا أن النظرة الى العربى لا زالت نظرة دونية. فهى تراه متدنى فى مظهره الخارجى، ومتدني أيضاً فى قدرته الثقافية. وبالتالى فإن أكثر من نصف اليهود ينظرون الى عرب إسرائيل على أنهم عنصر معادٍ بصورة أو بأخرى.

وهناك وجوه متعددة لموضوع العربى فى المسرح الإسرائيلى حيث تتكرربصفة خاصة موضوعات العمل العبرى فى مقابل العمل العربى، والإستيعاب والقهر الثقافى وعرض صورة العربى وكشف عدم صدق الآراء السابقة عنه. وأحد هذه الموضوعات هو العلاقة الحميمة بين اليهود والعرب. ففى ست وثلاثون من المسرحيات التى عرضت فى العقدين الأخيرين على خشبة المسرح الإسرائيلى توجد علاقات حميمة فى ثمان منها، ويرد فيها وصف للعلاقات الوطيدة بين عرب ويهود. وهذا الوضع فى تزايد مطرد منذ عام ١٩٨٠.

***

ولكن ماذا عن الرؤية الفلسطينية والعربية للشخصية الإسرائيلية؟

قبل أن نتحدث عن تناول الأدب الفلسطينى والعربى للشخصية الإسرائيلية لابد أولاً من التحدث عن الأدب الفلسطينى نفسه. لأنه-دون باقى الآداب العربية الأخرى-نشأمنفصلاً ومقسماً الى قسمين، كل منهما له سماته التفردية،الخاصة وبالإضافة الى ذلك فإن هذا الأدب لم يدرس بعد بالدرجة الكافية وبالدرجة التى تجعلنا نقول إنه صار واضح المعالم تماماً بالنسبة للقارىءالعربى.

ويمكن أن نقسم الأدب الفلسطينى الى فرعين رئيسيين:

١- الأدب الذى نشأ ونما فى مخيمات اللاجئين.

٢- الأدب الذى نما وتبلور داخل فلسطين ووراء مايعرف الآن بالحدود الإسرائيلية.

ويمكن أن نسمى الأول أدب لاجئين، تطور فيما بعد وأصبح أدب مقاومة، بينما يمكن أن نسمى الثانى أدب أقلية قومية أو فى أحسن الأحوال أدب الجزء الأكبر منه معارض وبعضه متوافق مع وضعيته الجديدة. أو كما يسميهما حسام الخطيب أدب الأرض المحتلة وأدب الشتات. وكلاهما مرتبط بواقع واحد، هو الواقع الفلسطينى ويعبران معاً، كل وفقاً لتوجهاته الخاصة، عن حالة شعب ممزق، يتطلع الى التوحد فوق الأرض التى سلبت منه.

وهناك قاسم مشترك بين هذين الأدبين، وهو إحساس البطل الفلسطينى بعزلته ووحدته داخل الأرض المحتلة، ومحاولاته الإستيعاب داخل المجتمع الجديد خارج وطنه الذى سلب منه وحساسيته تجاه الظلم وتمسكه بماضيه -وهذه المواقف هى التى شكلت هوية هذا الأدب فى الأدب العربى -.

بالنسبة للأدب الذى نشأ داخل الأرض، فقد أملت الحياة داخل دولة إسرائيل على أدبائه منظوراً مختلفاً لمسألة الصراع. فمن ناحية، كانوا خارج إطار تأثير القضية الفلسطينية، وكان فى إمكانهم التعامل بروح نقدية مع القيادة العربية. ومن ناحية أخرى، اعتبروا أن من واجبهم التعبير عن المبادىء الأساسية لانتمائهم الحزبى. لكن ذلك لم يمنعهم فى نفس الوقت،أو على الأقل الجزء الأكبر منهم،من التعبير عن حساسيتهم تجاه السلطات الإسرائيلية بحدة بالغة فى كثير من الأحيان. والتقوا بذلك مع زملائهم فى الدول العربية.

أما الأدباءالفلسطينيون خارج حدود الوطن، فقد كانوا هم أول من عكسوا موضوع الصراع العربى الإسرائيلى فى الأدب العربى.كما كانوا أيضاً أول من أدخل الشخصية الإسرائيلية فى هذا الأدب. ظهر هذا الإسرائيلى فى البداية غير واضح المعالم في خطوطه الشخصية، حيث صور فى الغالب كجندى فى جيش العدو، وجاءت سلوكياته مع المواطنين تجسيداً لوحشية المعتدى. ثم أدرجت الشخصية الإسرائيلية داخل الأعمال الأدبيةكشخصية رئيسية، وأن كانت لم توصف من الداخل، بل ظلت أيضاً شخصية خارجية، معادية، تمثل عدواً رئيسياً. وفى المرحلة الثالثة نجد هذه الشخصية وقد تحررت من الصورة الإسترجاعية وإن ظل فى جميع الحالات رجلاً عسكرياً.

ففى رواية غسان كنفانى" ما تبقى لكم"، يوجد نموذج واضح لهذا المنطلق. فالدراما التي

تحدث فى الصحراء بين جندى إسرائيلى وشاب فلسطينى، لا ترجع فقط الى الصراع بين جندى إسرائيلى وشاب فلسطينى، بل ترجع أيضاً الى عدم الفهم المتبادل. فحامد الذى ترك مخيم اللاجئين فى غزة بغية اللحاق بأمه فى الأردن، يعبر الحدود فى جنح الظلام ويصطدم بجندى إسرائيلى. يمضى الجندى نحوه بقوة دون أن يميزه، ويكمن له وينقض عليه. يبسطه أرضاً وينزع سلاحه. ولا يبدى الإسرائيلى أى مقاومة، لكنه يسب ويلعن معتقداً أن هذه مجرد دعابة من أحد أصدقائه. لكن فى اللحظة التى أمره حامد بالعربية أن يصمت، أدرك حقيقة موقفه وكف عن الصياح. واعتباراً من تلك اللحظة تمضى القصة فى مسار جديد. فالخصمان لا يمكن أن يرى أحدهما الآخر، ولا يستطيعان فهم بعضهما، فقد زاغت عيونهما فى الظلمة يرهفان السمع للأصوات البعيدة، وينسيان وضعهما الذى لامخرج منه. وبالتالى فإن قوتهما غير متكافئة: فلقد أصبح الجندى الإسرائيلى أسيراً فى يد اللاجىء الفلسطينى، الذى يمكن أن يقتله فى أى لحظة ويواصل طريقه. وعلى الرغم من ذلك فإنه يتردد فى قتله، ويحاول أن يستنطق الجندى بمعلومة عن الطريق، لكنه لا يفهمه ويواصل صمته المطبق. ويكتشف البطل فى النهاية أنه لا قيمة لأي شيء، فتفوقه على أسيره الإسرائيلى لا يمنحه الحل، فهو والجندى الإسرائيلى ليسا سوى ضحايا لقدر أعمى. وتنتهى الرواية بقتل البطل لأسيره الإسرائيلى، وكأن كنفانى يقود الحدث الى اللا مخرج أو الى طريق مسدود، أي إلى نتيجة واحدة وهى أنه لا مجال للحوار والتفاهم مع الإسرائيليين.

ويكاد يكون هذا التناول هو نفسه الذى تناوله الأدب العبرى، لكن بصورة معكوسة. ففى رواية الأسير لسامخ يزهار، نجد الكاتب يقدم لنا فقرات كاملة يصف فيها بحنكة المواقف التبادلية بين الحياة العسكرية والحياة الرعوية البسيطة، وكأنه يريد أن يقول ما جئنا الى هنا لنشقى وإنما كان مجيئنا بحثاً عن سحر الشرق وجماله وبهائه. كما أننا نجد أيضاً فى هذه القصة تعاطفاً من جانب البطل مع الشخصية العربية، بل تكاد تنشأ بينهما صداقة على مدار القصة، إنطلاقاً من موقف إنسانى بحت لا علاقة له بالتوجهات الأيديولوجية الصهيونية، التى تحتم على الشخصية الإسرائيلية التعامل مع الشخصية العربية من منطلق إستعلائى. فنراه فى مونولوج ذاتى يقول " إذا كان من معنى لهذه الحرب–ليظهر الآن– كن إنساناً ودعه يذهب الى داره. تجاهل كل هذه الوحشية المتعمدة واطلق سراح الرجل.. وليذهب الراعى وذاك الفلاح الى زوجته والى داره.

ثم يعاود القول " كن إنساناً، أنظر كيف تسير الأمور. اطلق سراحه". وكأنه يعترف فى قرارة نفسه أن الإنسانية تتعارض مع الفعل اليهودى القهرى فى تلك الفترة. ثم ينهى الرواية بقوله "من طلب منا أن نخوض هذه الحرب الملعونة! لقد تحول كل محظور الى مباح".

ولكن، على الرغم من كل ما يبدو فى هذه الفقرات من تعاطف مع الشخصية العربية، إلا أن الكاتب يعود ليقول مخاطباً العربى، وكأنه يتحدث من اللاوعى" من أنت، وما حياتك، شخص مثلك مثالى لأن نفرغ فيه كل الزفت الذى فى قلوبنا". أى أنه يريد أن يفرغ كل ماحملته إياه السنون من مرارة أثناء تواجده فى أوربا، أو بصورة أخرى نحن هنا أمام صورة أخرى من صور التوحد فى المعتدى، وهى تتفق تماماً مع التوجه الأيديولوجى الصهيونى، على الرغم من محاولة الكاتب

التمويه على ذلك على مدار أحداث الرواية. وتنتهى الرواية أيضاً بنفس النهاية التى أنهى بها غسان كنفانى روايته، حيث يقتل أيضاً الأسير العربى، وكأن كلاهما يريد أن يقول باستحالة التعايش بين الشعبين معاً على أرض ووطن تتناقض فيه الأشواق.

وفى رواية يوسف جاد الحق " لو قتلته" . لم تبذل أي محاولة لوصف الإسرائيلى من الداخل، تصوير شخصية العدو الإنسان، تماما كما فعل كنفانى. فكلاهما ركز على تقديم الإسرائيلى كشخصية ممثلة للعدو، ولا يعنيهم إن كان به عنصر إنسانى أم لا. فجاد الحق يظهر اشمئزازه من الإسرائيلى حتى قبل أن يتعرف عليه، بينما يعرضه كنفانى فى وضعين: مرة كجندى متعجرف ومتبجح يرفض التحدث الى أن قضي عليه. والثانية كدمية لمجتمع شكله على هواه. وهذا ما يوضح لنا أن الأديب الفلسطينى كان على دراية تامة بكافة أبعاد الشخصية الإسرائيلية وانعكس ذلك فى أعماله الأدبية.

وهناك مدخل مشابه انتهجه الأديب اللبنانى سهيل إدريس فى مسرحيته "بستان الدم" . حيث نلتقى فيها شخصيتين، تجسدان الجانب السلبى فى الشخصية الإسرائيلية: الضابط المتبجح والأحمق، والمجندة راشيل، العاهرة فى جيش الإحتلال، التى تستغل "سحرها" فى سحب الإعترافات من الأسرى. وبينما نجده يصف رجال الوحدة الفدائية كرجال شجعان ومتآلفين، يصف فى المقابل الإسرائيليين كأناس ينتابهم الرعب إزاء تفاقم الأعمال الفدائية. وأيضاً فإن الضابط يشعر بنفسه فى الحصار، فيغضب على المخابرات الإسرائيلية التى تزوده بمعلومات كاذبة. والصورة الساخرة، التي يصور بها المؤلف، الضابط الذي يجلس فى مكتبه، يستعرض تقارير المخابرات، تجعلنا نقف على نوعية الجندى الإسرائيلى الذى لايراعى أى قيم أو أعراف فيقوم باغتصاب ليلي، عضو الجماعة الفدائية.

وتلعب راشيل لدى إدريس دوراً مشابهاً للدور الذى تلعبه راحيل فى مسرحية معين بسيسو "شمشون ودليله" ؛ فكلتاهما تعملان كمحظيات للضابط وتساعدانه فى سحب الإعترافات. وعلى غرارهما أيضاً المجنده فى قصة سليمان فياض " الإنسان والأرض والموت" . حيث يقول أحد المشاركين فى الهجوم أنه وجد فتاة ترقد عارية على الفراش فى أحد ملاجيء الكيبوتس. ودعته لمضاجعتها، لكنه قتلها على الفور. ليكتشف بعد ذلك أن يدها قابضة على مسدس مخبأ تحت الحشية.

أما الفريد فرج فإنه يمنح المجندة الإسرائيلية وضعاً أكثر استقلالية فى مسرحيته" النار والزيتون" . فعلى الرغم من أن البطله لا زالت تتذكر حماية جيرانها العرب لها وهى بعد صغيرة، إلا أنها تقابل هذا المعروف بالجحود فى نهاية المسرحية وتلبى نداء الواجب وتسلم إبن هؤلاء الجيران الى السلطات دون أي اعتبار لجميل صنع عائلته معها ولا لذكريات الطفولة معه، وبالتالى فإنها فى هذه المسرحية لا تقل عن سابقتيها، ناهيك عن أنها أيضاً عاهرة.

وعبد الرحمن الشرقاوى، الذى حاول فى مسرحيته "وطنى عكا" أن يصور شخصيات إسرائيلية أقل إسترجاعية، لا يجد أفضل من ذلك بالنسبة للنساء. فنحن نجد عنده تلميحات كثيرة

عن طبيعة المجندة العاهرة وعن تدنيس الأماكن المقدسة للإسلام والمسيحية.

وفى مقابل هذا التصوير للمرأة اليهودية نجد شخصية مارسيل، الصحفى اليهودى الفرنسى، الذى كان يتوق الى القتال قبيل حرب الأيام السته، لكن الحرب فتحت عينيه على حقيقة أنه لا مستقبل لليهود فى المنطقه وعلى سكانها أن يعودوا كلٌ الى موطنه الأصلى الذى جاء منه.

وترد فى الرواية أيضاً شخصية يهودى من مواليد إسرائيل، وهو شخصية فريدة، سعد هارون، الذي ولد فى " فلسطين القديمة "، وهو ضابط صغير من أصل شرقى، يشعر بنفسه غريباً بين الضباط الإشكنازيين. ولقد حاول الشرقاوى من خلال هذه الشخصية أن يعطى إنطباعاً بأن اليهود الشرقيين فى إسرائيل أكثر تجاوباً مع العرب، لكنهم لا يجرؤون على الجهر بذلك. ولكن حينما يتجرأ يهودى إشكنازى مثل "مارسيل" فإنهم سرعان ماينضمون اليه.

وتثير العلاقات بين الطوائف فى إسرائيل إهتمام الأديب العربى. فبصورة عامة يوصف اليهودى الشرقى كمؤيد للعرب. ولقد رأينا هذا لدى إدريس (صورة الجندى) ولدى الشرقاوى (سعد هارون). أما الفريد فرج فإنه يعرض شخصيتين هامشيتين للشرقيين: طيار، يقول إنه يتفهم ما يعتمل فى قلوب العرب ويبرر تمسكه والتصاقه بالأرض. ومتسول، يلقى بقصيدة عن الجرائم التى يرتكبها اليهود الغربيون.

وهكذا فإننا نرى أن الأدب العربى بصورة عامة، والفلسطينى بصورة خاصة، عبَّر هو الآخر عن نظرته للشخصية الإسرائيلية من خلال واقع الصراع الفعلى على الأرض ومن خلال رفضه لأي تجاوب معها، فهى بالنسبة له شخصيات مقيته، لا أخلاق لها، همها الأكبر هو الإستلاب والإغتصاب، أياً كان نوع هذا الإغتصاب. إغتصاب العرض أو إغتصاب الأرض.

***

نأتى الآن الى بعض الملاحظات السريعة على مقدمة إيهود بن عيزر لهذه المختارات، ونحن لا نريد بها التأثير- كما سبق القول- على القارىء، حتى لا نوجهه وجهة بعينها فى فهمه الذاتى لهذه المقدمة وتذوقه لهذه المختارات، وإنما كان لا بد من هذا الطرح لإلقاء بعض الضوء على قدر من المغالطات التى أراد بها بن عيزر أن يوجه القارىء الى وجهة بذاتها. لذا رأينا أنه لا ضرر من هذا التقديم، على الأقل لإعادة توجيه المسار، حتى لا ينساق القارىء وراء الرؤية الإنتقائية التى أرادها إيهود بن عيزر.

وبادىء ذى بدء، ليس هناك من شك فى أن هذه المقدمة تعتبر من أفضل ما كتب فى الأدب العبرى حول هذا الموضوع. فلقد تعددت الدراسات حول الشخصية العربية فى الأدب العبرى، لعل أبرزها كتاب ريزا دومب عن " الشخصية العربية فى الأدب العبرى" وكذلك رسالة الدكتوراه التى أعدها الدكتور محمود صميده حول نفس الموضوع، والتى نشرت بعد ذلك تحت عنوان "الإستراتيجية الصهيونية لإرهاب العرب" .لكن مقدمة إيهود بن عيزر فاقت كل هذه الدراسات لعدة أسباب، لعل أهمها هو أن هذه الدراسة لم تهتم- كما فعلت الدراسات السابقة- بتحرى الصورة الخارجية للعربى كما رسمت فى الأدب العبرى، بل اهتمت -ونجحت الى حد

بعيد- بالدخول الى أعماق الشخصية العربية ومكوناتها النفسية، كما رسمها الأدب العبرى. هذا بالإضافة الى تقديمه عرضاً تاريخياً أميناً الى حد بعيد، لمراحل نمو هذه الشخصية فى الأدب العبرى بدءاً من أوائل هذا القرن وحتى التسعينات منه.

ولكن على الرغم من الموضوعية شبه التامة التى تظهر للوهلة الأولى فى هذه المقدمة، إلا أنها لا تعدم أيضاً المنظور اليهودى للشخصيات العربية، وإن كان قد جاء على استحياء وبصورة لا تكاد تكون ملحوظة. وسنشير الى بعضها فى عجالة فى النقاط التالية :

١- أى تجربة تلك التى يتحدث عنها أحد هاعام وتفيد بسعادة العرب حال تأسيس أى مستوطنة يهودية بينهم. "وقد دلت التجربة أن الفلاحين يسعدون بتأسيس أى مستوطنة يهودية بينهم، لأنهم يحصلون على أجر مقابل عملهم فيها ويزدادون ثراءً عاماً بعد عام. . . لأننا ندفع ثمناً باهظاً فى أرض صخرية ورملية".

وهكذا نجد أن إيهود بن عيزر يسقط حقبة تاريخية هامة فى مراحل النضال الوطنى الفلسطينى ضد احتلال الأرض، ويحاول إبراز الرضى التام من جانب العرب باحتلال أرضهم، بل ومباركتهم لهذا الإحتلال. وإن كانت هذه الأرض صخرية ورملية - كما يدعى أحد هاعام فى هذا الإقتباس- فلماذا كل هذا التكالب على شرائها. هل هو نوع من السفه اليهودى؟!.

٢-فى مستهل رواية هرتسل " الأرض القديمة الجديدة" نجده يقول "إن فلسطين تعيش حالة من الإزدهار، بفضل القوة الإقتصادية والثقافيةوالحضارية للمهاجرين اليهود، الذين أقاموا فيها مجتمعاً مثالياً وتعاونياً يشارك فيه كل المواطنين، يهوداًوعرب، قدامى ومحدثين". ولعلنا نلحظ أن هذا الإقتباس لا يختلف فى كثير عن الإقتباس السابق، بل على العكس إنما جاء ليؤكد نفس النظرة لدى أحد هاعام، أحد رواد الصهيونية الأوائل ومن كبار منظريها. وبالإضافة الى ذلك فإن رواية الأرض القديمة الجديدة لهرتسل لم تكتب بالعبرية بل كتبت بالألمانية، الأمر الذى لا يجعلها تندرج تحت إطار الأدب العبرى، اللهم إلا أذا أراد بن عيزر هدفاً محدداً من وراء ذلك يخدم أغراضه وإنتقائيته.

٣- تقول جيلا يردينى فى مقدمتها لكتاب «سلة العنب» قصص مختارة من أيام الهجرة الأولى، "إن أدباء تلك الفترة لم يصفوا الواقع بقدر ما وصفوا ما يتطلعون هم اليه. فلم يكن هناك أى وجه شبه بين فلسطين الهجاداه وفلسطين الواقع، الخربة والموحشة، التى حرث فيها الفلاحون العرب أراضيهم القاحلة، ورعى فيها البدو قطعانهم الهزيلة على هضابها الجرداء، ووزع فيها الشيوخ المستبدون السلطة فيما بينهم فى ظل حكومة منهارة".

ولعلنا نلحظ أن هذا الإقتباس يسير على نفس الخط الذى سارت عليه الإقتباسات السابقة، التى تسعى الى تأكيد أن اليهود حينما نزحوا الى فلسطين لم تكن جنة زاهرة، بل كانت خراباً موحشاً، وهم الذين عملوا على ازدهار هذه الجنة وتحويل الخرائب الى حدائق غناء وتحويل شعب فلسطين العربى من شعب متخلف الى شعب مثقف يواكب ركب الحضارة التى يقودها بالطبع المستوطنون اليهود.

٤-" كان الإستيطان اليهودى فى فلسطين قليل العدد، والبلاد ترزح تحت وطأة السلطة التركية الفاسدة والمتخلفة. لذا فقد تطلع اليهود الى إيجاد حل لمشكلة الأمن والوجود اليهودى فى البلاد إبان تلك الفترة، فحاولوا فى أحلامهم، أو لنقل فى أفكارهم، أن يجلبوا الى البلاد قبيلة بدوية يهودية بكامل فرسانهاوأسلحتها" .

ونسي إيهود بن عيزر هنا الإشارة الى أن هذا المنظور إنما يعبر عن الوجه الآخر للعملة، عن المرض النفسى الذى أصاب رواد الصهيونية الأوائل حال انتقالهم الى فلسطين وبعد اصطدامهم بالواقع المؤلم فيها، والذى تمثل فى الرفض القاطع من جانب العرب للوجود اليهودى فى أرضهم وتعاظم حركات المقاومة العربية التى أقلقت مضاجع اليهود النازحين الى فلسطين آملين فى الجنة الموعودة. وقد تجلت هذه الحالة النفسية لدى العديد من الشخصيات الأدبية العبرية التى رسمت فى تلك الفترة وظهرت فى صورة هوس ليلى وجنون وعزلة (وأصدق تعبير عن هذه الحالة المرضية ما جاء فى قصة حاييم هزاز " الموعظة" التى تعتبر نموذجاً مثالياً لوصف اضطراب الشخصية اليهودية فى تلك الفترة، وكذلك النموذج الذى اختاره إيهود بن عيزر هنا عن برينر" الشكل والفشل" ، دون الإشارة بالطبع الى هذه الحالة المرضية التى استشرت فى المجتمع اليهودى آنذاك).

٥- لماذا اختار إيهود بن عيزر هذه الأعمال دون غيرها، خاصة وأن القائمة التى أوردناها سابقاً -وهى لا تمثل إلا جزءً من كل- كانت من الكبر بحيث تتيح له حرية الإنتقاء زمنياً وموضوعياً، بدلاً من اعتماده كما رأينا على عملين فى العقد الأول من التسعينات ثم ثلاثة أعمال من العقد التالى وعمل واحد فى العقد الثالث، وخمسة أعمال فى العقد الرابع وعمل واحد فى العقد الخامس وعملين فى العقد السادس، ثم عمل واحد فى كل من العقود السابع والثامن والتاسع، على الرغم من أن العقود الأخيرة كانت هى الأجدر بالتركيز، خاصة وأن التفاعل بين الشخصية العربية والعبرية كان بارزاً خلال تلك الفترة.

وعلى كل فإنه يمكن أن نقسم إنتقائيته الى أربعة مراحل :

١- مرحلة التأسيس وضرب الجذور فى الأرض.

وهى المرحلة التى حظيت عنده باهتمام بالغ، سواء من حيث الكم أوالنوع (قرة العين-لطيفه-الشكل والفشل-جمعه الأهبل-رجل من مزرعة حفظى بك-مربةورد-تحت الشجرة-من عدو الى حبيب).

٢- مرحلة تأسيس الكيان والبحث عن مكان تحت الشمس والحيرة والإرتباك إزاء سرقة الأرض العربية وتشبث أصحابها بها ونضالهم من أجلها، الأمر الذى خلق شخصية يهودية متفسخة وممزقة بين القيم التى هاجرت من أجلها، والواقع الأليم الذى وجدوا أنفسهم فيه بعيداً تماماً عن القيم التى هاجروا من أجلها، وإن كان لم يشر الى ذلك صراحة. (الأسير -الكنز-مسابقة سباحة-رصاصة حائرة).

٣-مرحلة الحيرة إزاء حلم الدولة الهادئة الذى لم يتحقق. (أمام الغابات-البدو والأفعى).

٤-مرحلة محاولة التوحد مع الأرض إزاء ازدواجية شخصية العربى (وصاية-المنومون-ليل الجدى).

وعلى الرغم من أننا لا نعتزم هنا نقد هذه الأعمال الأدبية إلا أننا سنحاول فى عجالة الوقوف على صورة العربى كما رسمتها هذه الأعمال بمراحلها الأربعة، وليس كما جاء فى مقدمة إيهود بن عيزر، ويمكن أن نرصد ملامح هذه الشخصية فى النقاط التالية :

١- التركيز على المظهر الخارجى للمرأة العربية دون الجوهر "من لم ير عيون لطيفة لم ير فى حياته عيوناً جميلة". ويتكرر هذا الوصف أيضاً فى قصة أستير راف" مربة ورد».

٢-محاولة إبراز ما يسمى بالأمراض الشرقية(الزواج بالإكراه- ضرب النساء-تعدد الزوجات- بيع النساء كالحمير فى سوق الزواج).

٣-حقد العربى على اليهودى " إنه غاضب لأنه يأخذ العمال بنصف الأجر ويسخرهم فى أعماله ما بين حقل وآخر. إن اليهود ينافسونه".

٤-تصوير ما هو مأمول وليس ما هو واقع فى الشخصية العربية" إنكم تروضون الأرض.. أعتقد أن الأرض لا تستجيب إلا لكم... " أخذ يمتدح إسرائيل الذين يحولون صحارى فلسطين الى حدائق غناء وجنات ويضيفون قرى جديدة الى قراها ".

٥-وضع الشخصية العبرية كضد حاد للشخصية العربية. فيقول على لسان شخصية عربية :

"إنني أعرف لمن وعدت فلسطين، لم يوعد بها سوى إسرائيل، أولئك الذين وضع الرب تبارك وتعالى فيهم المهابة والإحترام والقوة والبطولة والكرم والسخاء، وينفذون مشيئته عن حب، هم الذين سوف يملكونها وسيكون ملكهم فيها أبد الدهر.

وهذا بعض من كثير تمتلىء به هذه الصفحات ولا أريد الإستغراق فيها لأترك القارىء يستشرفها بنفسه.

***

مقدمة محرّر الكتاب

في وطن الأشواق المتناقضة

١- خمسة تصورات رئيسية

يبدو أن الأديب اليهودى أحد هاعام (١٨٥٦-١٩٢٧)، كان أول من أدرك المرارة التى شعر بها العرب من جرّاء اللقاء مع المستوطنين اليهود. وبرز ذلك فى مقاله "الحقيقة من فلسطين"، الذى نشر عام ١٨٩١. فحينما زارفلسطين عام ١٨٩١، بصفته عضواً فى لجنة محبى صهيون فى أوديسا، تجول فى فلسطين طولاً وعرضاً. ولدى مغادرته لها، وبينما هو فى السفينة التى أقلته عائداً الى أوديسا، كتب مقاله الذى برز فيه التخلص من وهم حالة الإستيطان اليهودى الجديد فى فلسطين خلال تلك الفترة؛ حيث خصص الجزء الأكبرمن المقال لنقد الإقتصاد الزراعى، وموظفى البارون روتشيلد فى فلسطين، ووضع التعليم المتدهور فى المستوطنات اليهودية (الموشافيم)، وإن كان قد ضمَّن المقال أيضاً العديد من الكلمات التى تبعث على الدهشة لحدتها وبُعد نظرها فى المسألة العربية، حيث كتب يقول :

"لقد اعتدنا، نحن يهود الخارج، الإيمان بأن العرب جميعاً وحوش صحراوية، يشبهون الحمير، لا يرون ولا يفهمون ما يحدث حولهم. لكن هذا خطأ فادح، فالعربى-مثله مثل كل أبناءسام- إنسان ذو عقل ثاقب، وواع. فهاهى كل المدن السوريةوالفلسطينية تمتلىءبالتجار العرب الذين يجيدون استغلال العملاء ويحققون كل مبتغاهم معهم، تماما كما يفعل التجار الأوربيون. ويجب أن ندرك أن العرب، وعلى الأخص سكان المدن، يرون ويفهمون ما نقوم به ويدركون تطلعاتنا فى فلسطين، لكنهم يتظاهرون بعدم المعرفة، ولأنهم لا يستشعرون فيما نقوم به الآن أى خطر على مستقبلهم، لذا فهم يحاولون استغلالنا والإستفادة قدر الإمكان من الضيوف الجدد، فى نفس الوقت الذى يضحكون فيه فى قلوبهم. وقد دلت التجربة أن الفلاحين يسعدون بتأسيس أى مستوطنة يهودية بينهم، لأنهم يحصلون على أجر مقابل عملهم فيها ويزدادون ثراءً عاماً بعد عام. وكذلك أيضاً أصحاب المزارع الكبيرة(الأفنديه)، لأننا ندفع لهم ثمناً باهظاً فى أرض صخرية ورملية، وهو ثمن لم يروا مثله أبداً من قبل. ولكن، إذا جاء وقت تطورت فيه حياة أبناء شعبنا فى فلسطين، الى حد تضييق الخناق على المواطنين الفلسطينيين، فإنهم آنذاك لن يتخلوا عن أرضهم بسهولة" [الحقيقة من فلسطين-١٨٩١].

***

وتوجد أيضاً رؤية أخرى أبعد نظراً وأكثر كآبة من رؤية أحد هاعام فى نظرتها للمسألة القومية التى ستثار بعد ذلك لدى الشعبين فى فلسطين. فبعد مقال أحد هاعام بحوالي ستة عشر عاما، وتحديداً فى عام ١٩٠٧، نشر إسحق إيفشتاين (١٨٦٢-١٩٤٣) مقالاًبعنوان "مسألة نجهلها"، لخص فيه تجربة إقامته الأولى فى فلسطين فى الفترة من ١٨٨٦-١٩٠٢، حيث عمل بعض الوقت مدرساً فى المطلّة وروش بيناه، فى الجليل الأعلى. واعتمد هذا المقال بصفة أساسية على قضية شراء أراضى المطلّة من الدروز، والصراعات العنيفة التى أعقبتها. ولقد أثار فى ذلك الحين جدلاً حاداً، وأصبح بعد ذلك أحد المنطلقات الرئيسية فى التعامل مع المسألة العربية، وبخاصة فى جانبها الزراعى، أي الإستيطان فى أرض العرب. حيث يقول إيفشتاين :

"ليتنا لا نبصر ما هو آت، وهو أقرب مما نتخيل. ويمكننا تأكيد أنه لا توجد الآن -على الأقل فى فلسطين - أى حركة عربية بالمفهوم القومى والسياسى لهذا المصطلح. لكن هذا الشعب فى الحقيقة ليس فى حاجة الى حركة؛ فهو أعظم وأكبر من ذلك. كما أنه ليس فى حاجة الى إحياء، لأنه لم يمت أبداً ولم تنقطع حياته لحظة واحدة. لذا يجب ألا نتحرش بالأسد النائم ؛ ويجب ألا نأمن للرماد الذى يغطى الجمرة؛ فإذا انطلقت شرارة واحدة، فسوف يندلع حريق هائل لن يسهل إطفاؤه" [هاشيلوح-العدد١٦ عام ١٩٠٧].

وهناك منظورآخر، يوتوبى متفائل، يظهر فى رواية هرتسل" الأرض القديمة الجديدة"(١٩٠٢)؛ وعلى الرغم من أن هذه الرواية التى ظهرت فى الأصل باللغة الألمانية، لا تمت بصلة للأدب العبرى، إلا أنها مهمة فى تناولها للمسألة العربية، خاصة وأنها تعبر عن صميم وجهة النظر الصهيونية.

ولقد زار هرتسل فلسطين مرة واحدة فقط عام ١٨٩٨، بعد زيارة القيصر الألمانى (غليوم) الثانى. وكانت زيارة قصيرة ومخيبة للآمال، حيث تركت فلسطين، والقدس بصفة خاصة، انطباعا سيئاً لديه، يصفه فى مستهل الرواية التى تدور أحداثها عام ١٩٠٢. ويقع الجانب اليوتوبى فيها عام ١٩٢٣، حيث نجد أن فلسطين تعيش حالة من الإزدهار، بفضل القوة الإقتصادية والثقافية والحضارية للمهاجرين اليهود، الذين أقامو فيها مجتمعاً مثالياً، تعاونياً، يشارك فيه كل المواطنين، يهوداً وعرب، قدامى ومحدثين".

كان هرتسل يؤمن بأن التقدم الإقتصادى ورأس المال اليهودى سيغيِّرا وجه المجتمع العربى، وبالتالى لن تثار أبداً مشكلة قومية عربية. فسوف يبيع العرب أراضيهم برغبتهم "للمجتمع الجديد"، التعاونى، وسيصيرون فيه أعضاء متساويين فى الحقوق؛ بل إنهم سيشكرون اليهود لأنهم رفعوا مستوى معيشتهم. وتوجد فى هذه الرواية شخصية عربية بارزة، هى رشيد بك، الذى ينتمى لأسرة ثرية استفادت من الاستيطان اليهودى. وحينما طُلب منه أن يرد على هذا السؤال: "وماذا عن باقى الفلاحين الذين ليس لديهم ما يبيعونه(يقصد الأرض)، أجاب بقوله :

"أولئك الذين لا يملكون شيئاً، لن يفقدوا شيئاً، بل سيربحون. ولقد ربحوا فعلاً؛ ربحوا فرصة العمل والدخل الجيد والوضع الممتاز. فليس هناك ما هو أكثر بؤساً وإثارة للشفقة من منظر

القرية العربية فى فلسطين قبيل نهاية القرن التاسع عشر. لقد أقام الفلاحون فى منازل متواضعة من الطين، لا تصلح حتى كحظائر للحيوانات. ويُلقى الأطفال الرضَّع عراة على الأرض فى الأزقة، وينشأون كالبهائم. والآن تغيركل شيء. لقدقام المستوطنون بتجفيف المستنقعات فى البلاد، وطوروا نظام الصرف وزرعوا الأشجار، التى تقوي الأرض، واستخدموا العمال المحليين، الأقوياء، ودفعوا لهم أجراً معقولا. [الأرض القديمة الجديدة. دار نشر "ماتسبيه، ترجمة دوف قمحى، ١٩٣٩. ص ١٢٧].

يتجول رشيد بك مع ضيوفه فى قرية عربية، بها مسجد صغير يبرز بعيداً فى الأفق. يقول رشيد بك لضيوفه :

هؤلاء المساكين أصبحوا الآن أكثر سعادة من أى وقت مضى. فهم يكسبون عيشهم باحترام، وينشأ أولادهم أصحاء، يدرسون ويتعلمون. لم يمس أحد دينهم وعاداتهم القديمة بسوء. لم ينلهم سوى الخير". [نفس المرجع والصفحة].

وهكذا نرى أن يوتوبيا هرتسل اكتفت بتحسين وضع القرية العربية البائس، مع تجنب المساس بالدين والعادات. أما المسألة القومية فلا وجود لها إطلاقاً فى نظرها. ويرى هرتسل أن كل شيء سيتحقق فى هذه المدينة الفاضلة من خلال التطور الإقتصادى الذى ستحدثه الهجرة اليهودية.

***

ونجد منظوراً يوتوبياً من نوع اخر فى" نبوءة المساء" التى كتبها الأديب ربى بنيامين (يهوشع ريدلر فيلدمان، (١٨٨٠-١٩٥٧)، صديق وزميل يوسف حاييم برينر، والذى أصبح فيما بعد عضواً فى "بريت شالوم" وفى تنظيمات أخرى أنشئت فى فلسطين لتعميق العلاقات اليهودية العربية.

نُشرت "نبوءة المساء" عام ١٩٠٧ فى دورية "هامعورير" التى يصدرها فى لندن، أى قبل أن يهاجر بنيامين الى فلسطين. وتعد هذه "النبوءة" بياناً مكتوباً بلغة توراتية بليغة، يعلن عن اتجاه سامئ الطابع فى العلاقات بين اليهود والعرب فى المستقبل. ففى رأيه أنه يمكن لليهود، بل ويجب عليهم أيضاً، أن يحضروا الى فلسطين دون أن يؤدى ذلك الى إثارة المشكلة القومية أو يصعِّدها. وعلى غرار إسحق إيفشتاين، نجد أيضاً أن الحل الذى يطرحه ربى بنيامين يتلخص فى الإهتمام بالزراعة المكثفة والفاكهة، واستغلال الأرض بصورة أكثر إنتاجية، حتى يتاح وجود كثافة سكانية، وتتوفر مصادر دخل. وهكذا يتوفر فى فلسطين مكان لمزيد من المستوطنين اليهود، دون اقتلاع المواطنين العرب. وتصل كلماته الى قمتها بإعلان شعرى بليغ مفعم بالأحاسيس عن مستقبل العلاقات بين الشعبين :

"ستأتى أيام يكون فيها كواحد منكم،
ولن يُعرف أنه دخيل.
ستعطيه أبنائك وتأخذ من أبنائه أزواجا
ويسيل دم أبطاله فى دمك ويكثر

ويندمج الجنسان فى جنس واحد
نحن إخوة، فكل شعوب الأرض بضع أسر
وإذا لم يحدث ذلك الآن، فلن يحدث أبداً " .

["نبوءة مساء"، هامعورير. السنة الثانية، المجلد ٧ ص٢٧٣]

وكانت نبوءته هى خلق شعب مشترك من العرب واليهود، يعيش على تلك الأرض، وذلك اعتماداً على أصلهم السامى المشترك، وانطلاقاً من منظور يمكن أن نسميه الطابع السامى.

***

وليس الأصل السامى المشترك هو التصور الوحيد الذى صاحب الأدب العبرى الفلسطينى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ فهذه التصورات هامة جداً فى رسم صورة البطل العبرى الجديد فى الأدب وعلاقته بجيرانه العرب. فلقد صاحبت بعض التصورات لقاء رجال الهجرتين الأولى والثانية، وأدبائهما بالطبع، مع الشرق، ومع العرب المقيمين فى البلاد، وهى :

التصور الاول : الأصل السامى المشترك بين الشعبين، وقرابة اللغات السامية. وربما لم تكن هذه القرابة بالأمر الجديد على اليهود القادمين من دول المغرب والشرق الأوسط، أو اليمنيين الذين هاجروا الى فلسطين. لكنها كانت " تجديداً" بالنسبة لليهود القادمين من دول شرق أوربا، الذين أدركوا هنا، فى فلسطين، أن العربية والعبرية لغتان شقيقتان، من أصل سامي؛ ولقد صاحب هذا الإكتشاف أيضاً قدر من الأحاسيس الرومانسية.

التصور الثانى : الإعجاب بالبيئة الشرقية المثالية البكر. ونجد هذا الاعجاب فى" الى أين" لفيوربرج، الذى لم يزر فلسطين أبداً. لكن صيحته "الى الشرق ..الى الشرق " عكست تطلعاً لبناء عالم جديد فى الشرق يكون ضداً للعالم الغربى الاوربى المتعفن. فالصحراء نقية ويمكن أن نبنى فيها واقعاً جديداً.

التصور الثالث : إستعراب يهود فلسطين، وضرورة إعادتهم الى أصلهم العبرى السابق، أو على الأقل التطلع الى ذلك. فلا زال يوجد حتى الآن يهوداً عاشوا عبر الأجيال فى "فقيعين"، ويهوداً عاشوا فى دير القمر فى لبنان. وربما سأل الرومانسيون أنفسهم - هل يعد العرب المقيمون فى فلسطين إخواننا، من نسل العبريين، أو اليهود القدامى؟-وإذا كان الأمر كذلك فهيا بنا نعيدهم الى أصلنا المشترك، ونقيم معهم حضارة عبرية واحدة جديدة.

التصور الرابع : إن صورة العربى تحفظ وترمز وتجسد لنا صورة العبرى القديم، الذى عاش فى عصر التوراة. ولقد رسم ناحوم جوتمان صور قصص العهد القديم لحاييم نحمان بياليك، بشخصيات عربية على هيئة حمالين وبحارة عرب، ذوى أجساد ضخمة وعضلات بارزة، وهى نفس الصور التى رآها فى طفولته فى يافا. ويمكن أن نجد فى أدب تلك الفترة نماذج كثيرة لهذا الاتجاه. فالأدباء درسوا التلمود فى شبابهم، وفهموا التوراة جيداً، ولم يجدوا صعوبة فى تتبع هذه الأصول فى الأنماط الزراعية التى يمارسها الفلاحون وطرق الرعي البدوية. فمنذ أيام العهد

القديم وحتى انتهاء الربع الأول من القرن العشرين، تغيرت فلسطين بدرجة أقل بكثير من تغيرها خلال السبعين أو الثمانين عاما التى مرت منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

التصور الخامس : قصة يهود خيبر الأسطوريين، والتى أثيرت مع موجات الهجرة الثانية، حينما سافر شموئيل يفنآلى، وهو من رجال هذه الهجرة، الى اليمن عام ١٩١١، وعمل هناك على جلب المهاجرين، الذين أقاموا أحياء خاصة فى المستوطنات الجديدة - ريشون لتسيون ورحوفوت وبتاح تكفاه. لقد قال شباب الهجرة الثانية وأدباؤها لأنفسهم -إذا كان قد وصل الى البلاد سبط بعيد كيهود اليمن، فلا بد أنه لا زالت توجد قبائل بدوية يهودية أخرى.

***

يعتبر زئيف يعبوتس(١٨٤٧-١٩٢٤) ويهوشوع إيزنشتات-برزيلاى(١٨٥٥-١٩١٥)، من أوائل الأدباء الذين كتبوا عن حياة الاستيطان اليهودى الجديد فى فلسطين. لقد هاجر يعبوتس الى فلسطين عام ١٨٨٧ وأقام فيها حتى عام ١٨٩٧. وعاش فترة فى "يهود"، وهى قرية مجاورة لبتاح تكفاه، أول مستوطنة يهودية أسست عام ١٨٧٨. ووصف يعبتس فى قصصه الحياة فى المستوطنات الأولى؛ وعلى الرغم من أنه عاش فى بلد يرزح تحت السيادة التركية، فى ظل ظروف صحية ووبائية قاسية، وبخاصة إنتشار مرض الملاريا لكثرة المستنقعات، وعلى الرغم من الزراعة المتخلفة وقطّاع الطرق - الذين يفرضون سطوتهم على الجميع- إلا أنه يصفها كجنة عدن.

وتقول جيلا يردينى، إحدى أوائل من بحثوا فى الأدب العبرى فى فلسطين، فى مقدمتها لكتاب "سلة العنب"(١٩٦٧)، قصص مختارة من أيام الهجرة الأولى: "إن أدباء تلك الفترة لم يصفوا الواقع بقدر ما وصفوا ما يتطلعون هم اليه. فلم يكن هناك أى وجه شبه بين فلسطين الهجاداه وفلسطين الواقع، الخربة والموحشة، التى حرث فيها الفلاحون العرب أراضيهم القاحلة، ورعى فيها البدو قطعانهم الهزيلة على هضابها الجرداء، ووزع فيهاالشيوخ المستبدون السلطة فيما بينهم فى ظل حكومة منهارة. بينما كانت فلسطين الهجاداه، بلاد العجائب وأرض الاحلام والتطلعات، وبؤرة حنين شعب ضائع بلا أرض الى ماضيه العظيم، ووادى نبوءات تتحقق فيه أحلامه وتطلعاته لمستقبل أفضل. لكن فلسطين، التى تغلفها الأسرار وتحيط بها هالات القداسة، احتفظت بصورتها ثابتة فى قلب كل يهودى لدرجة أن سكانها، الذين ولدوا فيها، وعاشوا خرابها وبؤسها، كانوا حينما يصفونها ينساقون الى روح الهجاداه، ويقومون بخلط الحقيقة بالخيال ". ["سلةالعنب" ، مؤسسة بيالك، القدس. ١٩٦٧، ص ٧].

أما قصة يعبتس "الخامس عشر من شباط، روش هشاناه لإيلانوت"، فقد نشرت عام ١٨٩٢، أى بعد عام من نشر مقال أحد هاعام " الحقيقة من فلسطين". وفى هذه القصة يصف يعبتس شاباً يهودياً فلسطينياً يصل الى قرية "يهود" قادماً من مستوطنة "بتاح تكفاه"؛ وهو يرتدى العباءة وسلاحه على كتفه، ممتطياً صهوة جواده، وهويدرك تماماً واقع البلاد على الرغم من أنه لم يولد فيها، فقد هاجر اليها مع أسرته. ومن المؤكد أن أفراهام شابيرا، إستلهم نموذج هذا الشاب فى رسمه لشخصية حارس مستوطنة"بتاح تكفاه".

ونجد أن التشبه بالعربى لدى يعبتس يعد معياراً للأصالة اليهودية فى فلسطين : " لأن الشباب الذين عاشوا طفولتهم فى فلسطين يختلفون تماماً عن الشباب من أبناء التجمعات اليهودية فى الخارج. فهذا الشاب جاء الى البلاد مع والده الذى استوطن بتاح تكفاه. وكان عمره آنذاك ست أو ثمانى سنوات، لذا فقد عانى كل عذابات المستوطنين الأول. وتعلم من العرب، هو وكل الشباب، كيف تعتاد أجسادهم على الحر القائظ والبرد القارص، وعلى السيول والأمطار، وتعلموا كيف يسيرون على درب آبائنا فى هذه الأرض التى كانت فى نظرهم دائماً " عظيمة يتباهى فيها الشباب بقوتهم ولا تضعف فيها الأعصاب أبداً" . والآن لماذا نعوق إنطلاقة الشباب؟ لماذا لا نشد أزرهم حتى يصيروا نموذجاً يحتذى لدى إخوانهم الذين قيل عنهم "من هم الخاضعون؟ " . إنهم أبناء إسرائيل الذين لم يرفعوا هاماتهم منذ جلائهم عن القدس. لذلك فإننى أعتقد دائماً أن تنشئة أبنائنا على الشجاعة والقوة شرط أساسي لاستيطان دائم وثابت" [زئيف يعبوتس، مختارات، ١٩٤٣، ص٤٦]

***

ونجد أن الشاب اليهودى الفلسطينى الجديد يشبه العربى، الذى يشبه بدوره آباءنا فى فترة العهد القديم فى أسلوب معيشتهم، أى أنه إنسان شجاع، وبطل إيجابى، يحمل مصيره ومصير شعبه فى يده. وخلال تلك السنوات كثرت القصص التى تصف الواقع الفلسطينى بهذا الاسلوب، كما حملت.أيضاً ثمار إعجاب زوار فلسطين من اليهود الذين كتبوا أعمالهم بالعبرية والييدش وينشروها فى دوريات أدبية فى شرق أوربا، حيث كان مركز الثقافة اليهودية والعبرية.

ولقد عارض يوسف كلاوزنر، محرر" هاشيلوح" فى أوديسا، هذه النظرة من خلال سلسلة مقالات نقدية حادة، تحمل توقيع" رجل عبرى" ، قال فيها: " إذا تشبه اليهودى بالبدوى، وعرف كيف يمتطى صهوة جواده ويطلق النار بالبندقية، ويتأزر بالعباءة، وإذا أظهر روح البطولة الوحشية وغرس الخوف فى قلوب العرب، فلا يكفى أبداً إعجاب أدباء إسرائيل بهذا النمط، واستمتاعهم الغريب وهم يصورون كل يهودى فلسطينى يتحدث العربية ويتشبه بالعربى. "[هاشيلوح،المجلد ١٧، ١٩٠٧ ص ٥٧٦].

ويواصل كلاوزنر التحذير من خطورة الإستيعاب والإنصهار فى العرب ويقول بسخرية أنه إذا حدث ذلك فى فلسطين، فيحسن لنا أن نبقى فى الخارج وننصهر فى الأغيار.

***

أُعتبر تحقيق الصهيونية إنتقالاً من السلبية الى الإيجابية، وتجلى هذا بالطبع فى استيطان فلسطين. وكان التعبير الرومانسى عن هذه الإيجابية هو الصراع، المسلح أحياناً، الذى أخذ طابع الحرب الدائمة دفاعاً عن الإستيطان اليهودى. واعتبرت شخصية الحارس، المحارب، بداية للعسكرية الإسرائيلية الجديدة. ومن هنا يحدث الصراع دائماً من خلال الصدام مع العربى؛ ومن ناحية أخرى، فإن مفاهيم البطولة والسلاح والقوة، مستعارة منه، وبخاصة من البدوى المسلح الذى يمتطى صهوة جواده الأصيل. وعلى كل، فإن الشاب العبرى يختلف عن يهودى الخارج فى

أنه إيجابى، وتُشكِّل شخصيته الجديدة إما من خلال تشبهه بالعربى أو من خلال حتمية الصدام معه.

***

وهناك طريقة أخرى للتعامل مع الوجود الراسخ لعرب فلسطين، تتمثل فى الإعتقاد بأن العرب المحليين هم من نسل اليهود القدامى الذين أجبروا على إشهار إسلامهم والإستعراب عبر الأجيال، لذا يجب علينا أن نعيدهم الى عبريتهم ويهوديتهم ؛ فهم فى الحقيقة إخواننا فى الجنس. وفى فترة الهجرة الأولى كتب المعلم إسرائيل بلقيند، وهو من أعضاءحركة "بيلو" شيئاً من هذا القبيل فى كتيب روسى أسماه "فلسطين المعاصرة"، وقد أثرت هذه الكتابات على المهاجرين الى فلسطين فى تلك الأيام. ونجد أيضاهذا التصور الهام الذى ترك بصماته فى"نبوءة مساء"، لدى أدباء آخرين، مثل يوسف حاييم برينر. وبمرور الوقت تتبلور هذه الآراء فى الفكرة التى طرحها الشاعر يوناتان راتوش، وأطلق عليها إسم "الكنعانية". ووفقاً لوجهة نظر راتوش، يجب أن نخلص العرب من إسلامهم، والعبرانيين من دينهم اليهودي، وننشىء فى منطقة الهلال الخصيب دولة علمانية واحدة، ذات بناء تجميعى ولكنها فى نفس الوقت ذات لغة وثقافة عبرية واحدة، وتكون هذه الدولة بمثابة ولايات متحدة شرق أوسطية.

ونجد الإعجاب بشخصية العربى، كأب قديم، فى رواية الأديب ناتان بيستيرسكى أجمون "أيام وليالى"(١٩٢٦) التى نشرت فى فترة الهجرة الثالثة، فيما بين الحربين العالميتين. ونجد فى هذه الرواية شاباً يهودياً، عضو فى مستوطنة جديدة، يبدى إعجابه بشخصية الشيخ سعيد، جاره العربى؛ لدرجة أنه يطلب منه أن يصير أباً جديداً له بدلاً من الأب اليهودى، الذى ظل فى الخارج. ولكن فى معرض أحداث الرواية تظهر خيبة أمل الشاب اليهودى لعدم إمكان العربى لعب دور الأب بالنسبة له، بل إنه يتحول الى عدو له؛ وينتصر التشاؤم فى الصراع بين الرومانسية الشرقية التوراتية، ومرارة الواقع الفلسطينى، ويقوى الجانب المظلم فى الواقع القومى.

ونجد تطوراً لهذه النظرة فى رواية أ.ب.يهوشوع التاريخية" السيد مانى" (١٩٩٠)، حيث تُطرح فيها فكرة أن العرب إنما هم من نسل العبريين القدماء، ولا بد من إعادتهم الى أصلهم. وبهذا نجد الحل الأمثل للصراع بين الشعبين.

***

وهناك تصور آخر إتسم به أدب الهجرات الأولى، وهو أسطورة يهود خيبر، التى تتحدث عن وجود قبيلة يهودية بدوية لا زالت تعيش حتى الآن فى الصحراءالعربية، ويبدو أن تاريخها يرجع الى عصر"سيدنا" محمد(صلعم)، تدعى باسم يهود خيبر، وهم يفرضون سطوتهم على جيرانهم.

وفى قصة حمدا بن يهودا، "مزرعة بنى ريخف" (١٩٠٣)، نجد أن البطل يقوم برحلة الى يهود خيبر، المسمون "بنى ريخف". ويحظى بمقابلتهم، بل ويسمع من هؤلاء البدو العبريين أنهم يعتبرون أنفسهم السكان الأصليين للمنطقة، ويعتبرون اليهود الذين يهاجرون الآن الى فلسطين

خوَنه، لأنهم سبق أن نزحوا عنها، وها هم يعودون اليها الآن.

ويظهر يهود خيبر أيضاً فى قصة يهودا بورلا "بلا نجم" (١٩٢٧). حيث يرد فيها وصف ليهودى يمنى، تحدث لديه حالة من الإضطراب العقلى، بعد أن ذُبح أفراد أسرته فى أحداث وقعت فى اليمن، فيخرج الى الصحارى العربية باحثاً عن إخوته، يهود خيبر الأبطال، لكى ينتقموا له.

أما رواية يعقوب رابينوفيتس (١٨٧٥-١٩٤٨)، "رحلات عماسى الحارس" (١٩٢٩)، والتى تدور أحداثها فى فترة الهجرة الثانية، قبل الحرب العالمية الأولى، فإنها تصف كيف يقوم بطل الرواية، عماسى، برحلة الى صحراء شبه الجزيرة العربية، عبر الأردن، لكى يعثر على القبيلة اليهودية البدوية المفقودة، ويُحضر الآلاف من محاربيها الأشداء الى فلسطين. لكنه لم يعثر على هذه القبيلة المفقودة، فلم يبق منها سوى بعض قصص وأساطير عن حياتها. وبعد أن يدرك عماسى هذه الحقيقة يعترف بأنه من الأفضل إحضار آلاف الشباب اليهودى من الخارج، بدلاً من السير بغير هدى فى الصحارى بحثاً عن اليهود الاسطوريين.

ونجد أن الوزير العربى فى قصة شموئيل يوسف عجنون "تحت الشجرة" (١٩٤١)، يتحدث عن إقامته عندهم، وهم يعتبرون هنا حلقة وصل مع تلك الأسطورة عن اليهود الصحراويين. بل إنني أعجبت أيضا بيهود خيبر الاسطوريين وكتبت عنهم رواية للشباب باسم "بحثاً عن يهود خيبر" (١٩٨٣)، يظهر ضمن أبطالها عدد من الأدباء وأبطال قصصهم، الذين ارتبطوا بالبحث عن هؤلاء اليهود عبر الأجيال.

ولم تكن أسطورة يهود خيبر، البدو الصحراويين، مجرد حنين رومانسى، أو أحلام عن سحر الشرق. فهى لم تكن مجرد حلم، فالإستيطان اليهودى فى فلسطين كان قليل العدد، والبلاد ترزح تحت وطأة السلطة التركية الفاسدة والمتخلفة؛ وكانت رموز القوة والدفاع حارس مترجل أو فارس، بدوى فى أغلب الأحوال، يحمل سيفاً أو رمحاً أو بندقية بدائية؛ وكان أسطول الآليات المنقول فى البلاد قبل الحرب العالمية الأولى عبارة عن سيارتين. أما المدافع، فلم يكن يوجد منها إلا مدفع رمضان. لذا فقد تطلع اليهود الى إيجاد حل لمشكلة الأمن والوجود اليهودى فى البلاد إبان تلك الفترة، فحاولوا فى أحلامهم، أو لنقل فى أفكارهم، أن يجلبوا الى البلاد قبيلة بدوية يهودية بكامل فرسانها وأسلحتها.

٢- بين الرومانسية ومرارة الواقع

هاجر موشيه سميلانسكى(١٨٧٤-١٩٥٣) الى فلسطين عام ١٨٩١، وأقام فى البداية مع أسرته فى الخضيرة، ثم اشترى مزرعة فى رحوفوت وعاش فيها طوال حياته. وبدأ ينشر فى العقد الأول من هذا القرن قصصاً مستوحاة من حياة العرب ووقعها باسم، الخواجا موسى. وصدرت عام ١٩١١فى أوديسا مجموعته الأولى بعنوان "العرب، سجلات وصور من حياة العرب فى فلسطين". وفى إحدى قصصه الأولى "لطيفه" (١٩٠٦)، يصف حبه لفتاة عربية ذات عيون آسرة،

يزوّجها والدها فى النهاية لرجل مسن، رغماً عنها، فتذبل وتزول نضارتها خلال سنوات قليلة.

وتعد قصة "لطيفه" نموذجاً مثالياً لكتابات سميلانسكى عن حياة العرب وعلاقاتهم مع أعضاء المستوطنات الجديدة. ومنطلقه فى قصصه رومانسى وإنسانى، وإن كان إستعلائياً أيضاً: فاليهودى هو الفلاح، الذى يوفر فرصة العمل، ويعيش على قمة الهرم الاجتماعى بعيداً عن الفلاحين والبدو. وتتجلى الرومانسية الشرقية فى قصصه، خاصة فى أحداث البطولة، والحب والإنتقام، التى تقع بين الأسر والقبائل العربية، فى صورة روميو وجولييت، ودائما تكون التقاليد القبلية أقوى من رغبات الفرد وتطلعاته، لذا فهى تتحكم فى النهاية فى مصيره. ولا يظهر اليهود فى أغلب هذه القصص، ويرد فيها وصف حياة الفلاحين والبدو بعيداً عن أى وجود يهودى.

ويبرز أيضاً هذا المنطلق الرومانسى والانسانى عند سميلانسكى فى قصص أخرى ضمن نفس المجموعة، حيث يصف شخصيات هامشية وبائسة فى القرية العربية، ومعاناة الفلاح العربى من قسوة جباة الضرائب الذين عينتهم السلطة التركية الفاسدة، والذين اعتادوا نهب أغلب غلاته.

ونجد فى مجموعة يهودا بورلا "بلا نجم" (١٩٢٧) مدخلاً مشابهاً للتجاوب مع مصير الفرد العربى، ينطلق من قصص حب تقع بين أفراد أسر متناحرة، أو كراهية بين أبناء مدن عربية مختلفة فى البلاد، حيث تدور أحداثها حول حملات جمال باشا العسكرية لاحتلال قناة السويس خلال الحرب العالمية الأولى، ونفس الشىء أيضاً فى "إنتقام الآباء" (١٩٢٨) لإسحق شامى. وكلاهما، بورلا وشامى، أديبان من أصل شرقى، ومن مواليد فلسطين.

ولم يكتف سميلانسكى بإضفاء الطابع الرومانسى على أعماله الأدبية، والتى بدت متفائلة الى حد كبير، بل حاول توجهه السياسى العثور على أى صلة قرابة بين الشعبين، ولذلك فقد جاء هذا التوجه مثالياً وداعياً للسلام بين الشعبين. ولم يكن سميلانسكى منفصلاً عن الواقع؛ بل إنه كان فلاحاً من رحوفوت، ومن كبار رجال الأمن فى المستوطنة، وعمل كثيراً فى شراء الأراضى من العرب فى جنوب فلسطين، وكان أيضاً من قادة اتحاد المزارعين فى إسرائيل. وعلى سبيل المثال، فإننا يمكن أن نرى خوفه من اندلاع الصراع القومى فى روايته "هاداسا" (١٩١١). حيث يذكر حديثاً دار بين عمال يهود فى المستوطنة، بعد صدام مع العرب أثناء فلاحة أرض مشتراة من العرب، وقد جاءت هذه الفلاحة لتجسد ملكية اليهود للأرض :

"فى الحقيقة لقد جئنا نحن، العمال العبريين، لنواصل طرد أولئك الذين سبق أن طردهم إخواننا الفلاحون. فالملكية اليهودية للأرض طردت البدو من أراضيهم، وهاهو العمل اليهودى يصر على إبعادهم عن أعمالهم" [هداساه، كتابات موشيه سميلانسكى، المجلد الثانى، ١٩٣٤، ص ٨٥].

فى عام ١٩١٢ قام سميلانسكى بجولة فى لبنان وسوريا، وأدهشه عمق كراهية العرب القومية ومعارضتهم لعملية الاستيطان اليهودي فى فلسطين. وعاد من هذه الزيارة بانطباع سيء، ليقول "هل تأخرنا فى المجيء؟" - وتحدث عن ذلك تفصيلاً فى سيرته الذاتية "فى ظل البيارات"، التى نشرت بعد ذلك بسنوات طويلة. لكنه يسرد انطباعاته عن تلك الفترة فى مقاله "أعمالنا (١٩١٤)

والذي سجل فيه انطباعاته بعد أن غادر البلاد لأسباب عائلية فى الفترة من ١٩٠٩-١٩١١ :

"حينما عدت الى بلادنا لم أعرفها. فلقد تغير العرب تغيراً كلياً خلال الفترة الوجيزة التى انقضت منذ أيام الثورة السياسية(ثورة الشبان الأتراك عام ١٩٠٩). تغير العامل الذى يعمل فى المستوطنة، كما تغير أيضاً البدوى الجوال. فما بالك بتغير عربي المدينة. فهم جميعاً يعيشون آفاقاً فكرية جديدة؛ وتشعر فى أحاديثهم جميعاً بنبرة جديدة. وسرعان ما تدرك أن قوة هائلة هبت من سبات عميق، إستمر مئات السنين، قوة بدأت تشعر بذاتها، وقيمتها ومستقبلها. ونحن الآن على أعتاب انتفاضة عربية، وهى ليست مجرد انتفاضة سياسية-كما يبدو للعيان- بل هى أيضاً انتفاضة ثقافية وفكرية. لقد كنا حتى الآن نتعامل مع قوة شبه وحشية وشبه فوضوية، لكن سيصيرتعاملنا من الآن مع قوة منظمة، بدأت تنمو وتزدهر وأخذت تنظر الى كل ما يحدث حولها بعين فاحصة".

[كل كتابات موشيه سميلانسكى. المجلد الثانى عش، ١٩٣٤ ص١٤٣].

***

كان هذا هو واقع فلسطين حينما هاجر اليها يوسف حاييم برينر(١٨٨١-١٩٢١)عام ١٩٠٩. كان برينر أديباً مشهوراً قبل هجرته، الا أنه فضل أن يهاجر مخفياً إسمه الحقيقى وحاول أن يشتغل بأعمال يدوية، فالتحق عاملاً فى مزرعة الخضيرة، لكنه فشل. فتفرغ للطباعة والتحرير والمراجعة والكتابة والنشر والترجمة والتعليم. واتسمت كتاباته بالنقد الذاتى الثاقب والحساب العنيف لوضع اليهود فى تلك الفترة. وقد سيطرت على قصصه ومقالاته العديدة نظرة نقدية لاذعة متشائمة ولكنها فى نفس الوقت ليست قدرية. فلقد رفض برينر اعتبار الصهيونية والإستيطان اليهودى "قصة نجاح"، بل إنه رفض الكتابة عنهما بأسلوب رومانسى، مثالى، يفضل المأمول على الواقع، كما كان متبعاً حتى قدومه الى البلاد.

ولم يقبل برينر فى قصصه ومقالاته ومحاضراته الخطب الحماسية والدعاية الصهيونية، التى حاولت اعتبار التحول من السلبية الى الايجابية فى التاريخ اليهودى أمراً واقعياً. ويمكن أن نجد صدىً لهذه الآراء فى المذكرات التى كتبها شموئيل يوسف عجنون عن برينر عام ١٩٦١، بمناسبة مرور أربعين عاما على إغتيال العرب له فى أحداث مايو ١٩٢١:

"فى أيام هرتسل وفى صحيفته "دى فلت" نشر مقالاً جيداً جاء فيه أن تاريخنا يصنعه الآخرون منذ إبعادنا عن أرضنا. فكل ما تريد أن تفعله بنا الشعوب المضيفة تفعله بلا رادع. ولكن ما أن ظهرت الصهيونية حتى صنعنا تاريخنا بأنفسنا وقوتنا. ولقد أسرت هذه الفكرة قلوب الصهيونيين لدرجة أنه أصبح شائعاً على لسان أى داعية صهيونى أن يقول: نحن نصنع تاريخنا بالصهيونية وجاء برينر ليقول فى محاضرته، إن تاريخنا كان مضحكاً قبل الصهيونية ولا زال مضحكاً أيضاً مع الصهيونية. وهنا ندرك مدى الاسى والمهانة التى أحدثها برينر لدى أولئك الذين اعتبروا أنفسهم شركاء فى صنع التاريخ". ["يوسف حاييم برينر فى حياته ومماته"، مولاد، يونيو ١٩٦١، ص ٢٧٩].

وظهرت أيضاً هذه الرؤية النقدية الحادة للواقع الفلسطيني فى تناوله لشخصية العربى والمسألة العربية. فهو لم يكن واهما. ففى مقاله الذى نشر عام ١٩١٣ دخل فى جدل حاد مع نظرية صديقه ربى بنيامين، المثالية، الداعية للسلام بين الشعبين. حيث كتب يقول :

"فى رأيى أنه لا وجود لأى أخلاقيات فى هذه النظرة المثالية للعالم، وفى أحلام الطفولة والحساسية المفرطة، التى ليس لها أى أساس فى الغرائز الدفينة لدى الانسان. نعم، لا أخلاقية، لأنها لا قيمة لها ولأنها أيضاً نابعة من عدم استيعاب لكل عذابات الواقع ومرارته.[. . .] فلماذا يدعو ربى بنيامين الى ضرورة حب جيراننا أبناء البلاد، إذا كنا نحن فعلا أعداء لهم. نعم، أعداء. ولماذا نضع أيديولوجيات فى علاقة شعب بآخر، ونحن ندرك تماماً أنها لن تنجح؟. فدائماً وأبداً كانت العلاقة الأيديولوجية باطلاً لا أساس له. والوضع الحالي هنا يتطلب الإعتراف بأنه يوجد فى فلسطين الصغيرة، أكثر من ستماية ألف عربى، بخلاف مواطنيها، وهم على الرغم من تدينهم وعدم تحضرهم، إلا أنهم أسياد البلاد فعلاً، وجئنا نحن لنسكن بينهم، لأنه لا بد لنا من ذلك. وتسود بيننا الكراهية ولا بد أن تكون، وسوف تكون. إنهم أقوى منا بكل المفاهيم، ويمكنهم أن يسحقوننا، ولكنا، نحن بنو إسرائيل، اعتدنا السكنى كضعفاء بين أقوياء، وبالتالى، لا بد أن نستعد هنا أيضا لنتائج الكراهية ونستخدم كل الوسائل المتاحة لنا لكى نتمكن من الحياة على هذه الأرض. ألم نعتد على ذلك، ألم نُحطِ بالكراهية من كل صوب، هكذا يجب أن يكون. واللعنة على الضعفاء المحبين. إننا نحيا منذ أن صرنا شعباً، لكن أولاً وقبل كل شىء، يجب أن نعى حقيقة الموقف، بلا أخلاقيات ولا مثاليات". [كل كتابات برينر، دار نشر الكيبوتس الموحد ودفير. المجلد الثاني ١٩٦ ، ص ٣٢٣].

وتنبع هذه الكلمات العنيفة من رؤية شاملة لخطورة الصراع النامى بين الأغلبية العربية والأقلية اليهودية فى فلسطين فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى، ولكن القراء والمعلمين والأدباء والنقاد، بل وحتى الباحثين (وبعضهم ينقصهم المعرفة أو الفهم الكامل لكتاباته)، مالوا الى رؤية وصية أخلاقية وإنسانية فى نظرة برينر للمسألة العربية، معتمدين فى ذلك فقط على مقاله الشهير "خواطر مسجلة"، الذى كتب وطبع فى أبريل ١٩٢١، أى قبل عدة أيام من اغتياله فى الثانى من مايو فى نفس العام. وفى هذا المقال يسمى برينر جيرانه العرب باسم "بولنديو الشرق"، وليس هذا مدحاً، كما أنه لا يخفى هوة الكراهية بيننا وبينهم. لكنه بعد ذلك، وحينما يصف شاباً عربياً التقاه فى الطريق، يناديه بقوله: " أيها العامل اليتيم، يا أخى الصغير"، ويضيف "إننى أتحمل مسئوليتك" [خواطرمسجلة، ١٩٢١، نفس المصدر. المجلد الثانى، ص ٢١٢].

وهذا اللقاء المأساوى، هو تقريباً أول لقاء فى كل كتاباته، يصف فيه العربى كفرد. وهو لقاء غريب يتناقض مع كل ما كتبه برينر عن العرب والمسألة القومية العربية، حيث يتناولهم على أنهم جوهر مخيف وغريب ويكن الكراهية لليهود.

ومنذ أن بدأ الأدب العبرى أولى خطواته فى فلسطين وأدباؤه يتعاملون مع العرب والأرض من خلال منظور رومانسى ومثالى وإنسانى ويوتوبى. الخ. بينما نجد الأرض لدى برينر،

المتشائم، غريبة ومعادية فى أغلب الأحيان. وهناك علاقة تبادلية واضحة، إيجابية وسلبية فى آن واحد، بين هذين الموضوعين الرئيسيين فى الأدب العبرى منذ بدايته: منظر الأرض وصورة العربى. وهما ينعكسان بصورة واحدة لدى كل الأدباء، كل حسب مشاعره ووجهة نظره.

ولم يؤمن برينر بالرومانسية التى يمكن أن تسود العلاقات بين الشعبين فى فلسطين. سواء كانت هذه رومانسية سياسية، كما تجلت فى أعمال ربى بنيامين وإسحق إيفشتاين، أو رومانسية عاطفية، كما ظهرت فى قصص سمولينسكى ("لطيفه") وأدباء آخرين مثل آرئيلى -أورلوف فى مسرحيته "الله كريم" ("هاشيلوح" ١٩١٢)، الذين اتجهوا الى وصف علاقات الحب بين أشخاص من كلا الشعبين• وفى المقال الهام الذى كتبه برينر بعنوان "المسألة الفلسطينية ومشتقاتها" (١٩١١)، كتب يقول بسخرية متجادلاً مع الأدباء الذين حاولوا أن يعكسوا الواقع الفلسطينى وفقاً لما اعتبره برينر دلائل واقع ظاهرية فقط، ولا يمكنها، فى رأيه، أن تستوعب مرارة الواقع "يمكن للخواجه موسى أن يكتب عن حياة العرب كما يشاء، ولكنى عضو عامل فى الاستيطان اليهودى ".

كما أن برينر لم يعجب بالقرابة بين اللغتين الساميتين، العربية والعبرية، ولا حتى بالإحساس الذى ساد آنذاك بأن حياة العرب فى فلسطين هى التى حفظت حياة العبريين القدماء وأبقت عليها. فلقد اعتبر أن العلاقات مع العرب هى الإستثناء وليس القاعدة. أما على المستوى الأدنى- العلاقات الجنسية والعدوانية- فقد اعتبر أن تهديد العلاقات الجنسية الشاذةالبربريةوالحيوانية، وهى فى نظره أمراض شرقية، تشكل خطراً بالغاً على اليهود حال تعاملهم مع العرب، وهى لا تقل فى نظره عن خطر السيف، بل إنها قد تؤدى أيضاً الى تدمير الذات وتدفع الى اليأس.

لقد خشي برينر من الذوبان فى العرب، وهى ظاهرة تجلت له فى مستوطنات الهجرة الأولى، التى اعتمد أغلبها على العمالة العربية، حيث أقام بعضهم مع أسرهم بين أراضى الفلاحين، أما الغالبية فقد كانوا يأتون يومياً من القرى المجاورة. وبالتالى فقد كان من الطبيعى أن تظهر استخدامات الكلمات العربية، وصور الحديث والعادات العربية لدى أدباء آخرين معاصرين له، من أمثال سمولنسكى، للدلالة علي صلة القربى وعلى تجذر اليهود فى البلاد وسكانها القدماء، وهى محاولة لتفهم طبيعة الجار العربى، بل وأحياناً للتشبه به فى خصال البطولة والخداع والقناعة والتكيف مع البيئة. وهى أمور حينما تظهر لدى برينر على فترات متباعدة، إنما تظهر لتدل على عمق الغربة وعدم الفهم.

ويظهر هذا الوضع بوضوح فى قصةجنون "يحزقئيل حيفتس"، بطل آخر روايات برينر "الثكل والفشل" (١٩٢٠)؛ حيث يصاب بالجنون نتيجة لكابوس ينتابه كلما رأى الفتاة العربية فى المستوطنة، والتى تبحث عن أخيها المختفى. وترتبط أحداث ١٩١١-١٩١٣ فى خيال حيفتس المريض بتهمة الدم التى حدثت فى كييف[على الرغم من أن قضية بياليس الشهيرة لم تذكر تفصيلاً فى القصة]. وفى النهاية يصل حيفتس الى إنكار تام لأصله اليهودى ويدّعي، من خلال مونولوج صامت أثناء هذيانه، أن أحد القوقازيين اغتصب أمه خلال أحداث ١٨٨١، لذلك فإنه شبه يهودى، وليس مسئولاً عن الطفل الصغير الذى تبحث عنه أخته العربية فى الشوارع. ويتضح من

هذه القصة أن برينر يعيش بإحساس أن الواقع الفلسطيني هو استمرار للمنفى. وبالتالى، فإن شيئاً لم يتغير؛ فالغربة هى الغربة والرعب هو الرعب والإعتقاد بعدم وجود حل للمشكلة العربية- أساس الكراهية- يزيد من جنون الشاب المهاجر، يحزقئيل حيفتس، ويصل به فى النهاية الى تلقّي العلاج فى مستشفى للأمراض النفسية فى القدس. ويقضي فى المستشفى فترة عصيبة ومأساوية، تعد قصة فى حد ذاتها.

٣- كنا أغرابا ولا زلنا

جيل الأدباءالذين ظهروا بعد برينر، أو بالأحرى أولئك الذين هاجروا الى البلاد بعد موته، أدباء الهجرتين الثانية والثالثة بصفة خاصة، أى فى الفترة ما بين الحربين العالميتين-تأرجحوا جميعاً تقريباً فى تلك السنوات بين رومانسية "فى ظل البيارات"، فى قصص سمولنسكى، والتى تحاول رؤية الحياة العربية من الداخل، من وجهة نظر خاصة، وإبراز مظاهر العلاقة الايجابية بين أفراد من كلا الشعبين- وبين "البركان"، وهو التعبير الذى أطلقه برينر فى قصته "بين مياه ومياه" (١٩١٠) معبرا عن الخوف من البيئة العربية المحيطة؛ وهى نفس مرارة الواقع التى اعتملت فى كل أعمال برينر، الذى رفض أن يمنى نفسه بآمال لا طائل منها ولم ير إلا العزلة والكراهية فى الصراع القومى بين الشعبين، والذى سيزداد تفاقماً فى المستقبل القريب.

ونجد التعبيرعن ذلك فى كتاب ناتان بيستريسكى- أجمون "أيام وليالى" (١٩٢٦)، وهو أحد أبرز الكتب المعبرةعن تأرجح المهاجرين الشبان، أبناء الهجرة الثالثة، بين تقدير الشرق والجيران العرب، والحلم بأن تحدث فى الشرق ثورة اجتماعية-طبقية يتمكن من خلالها العمال اليهود والفلاحون العرب من الوقوف صفاً واحداً فى وجه الأفندية العرب والفلاحين اليهود- وبين الإدراك المؤلم، بأن التنافر القومى فى فلسطين كان ولا زال وسيظل أقوى بكثير من أى استقطاب طبقى يفخر بتجاوزه الحدود القومية.

" الآن ضرب الرجل الإسرائيلى بجذوره فى فلسطين، وصار الجلوس فوق ترابها للحلم بالوطن، أمراً ممكناً ".

ومن خلال العودة الى التاريخ، والتحول من سلبية المنفى الى إيجابية الصهيونية(التى سخر منها برينر كثيراً، لأنه لم ير فيها حتى تلك اللحظة سوى أفعال بلا أقوال)-والصراع الذى يظهر فيه العربى دائماً كعدوّ يحارب اليهودى، الذى حل بالبلاد حديثاً، من أجل السيطرة على الأرض، نجد أن مفهوم الإنتصارالذى لا يتحقق دائما بالإحتلال والتفوق، والإستشهاد والتضحية، يعدان أيضاً بمثابة ضرب للجذور، وهى أسطورة جديدة تقوى عبر السنين، كلما احتدم الصراع بين الحركتين القوميتين.

***

وربما كان أول وأعمق تعبير عن علاقة الشعبين بأرض واحدة ووطن واحد تتناقض فيه الأشواق، هو ما جاء فى قصة يعقوب شتاينبرج (١٨٨٧-١٩٤٧) "رجل من مزرعة حفظى

بك" (١٩٢٧). لقد هاجر شتاينبرج الى فلسطين عام ١٩١٤، وتصف قصته مستوطنة صغيرة فوق التل، الى الغرب من الخضيرة، (توجد الآن بقايا مزرعة "حفظى بك" فوق ناحال خضيرة، شرق الطريق السريع، فى منطقة لا تبعد كثيرا عن محطة القوى الكهربائية الجديدة).

ويتوسط هذه المستوطنة حجر كبير، يعتبر حجر أساس المكان، يشير الى حنين العمال الشباب، رجال الهجرة الثالثة، الي الوطن القديم-الجديد، ومع ذلك فانهم يشعرون حولهم بالرعب والغربة. ويوجد فى المنطقة حارس، حاج عربى، يسهر الليالى على حراستها. وربما كان ذلك لتأكيد العلاقة بقطعة أرض، هاجر اليها كثير من العرب عبر سنوات تأسيس الكيان الصهيوني، وهى حقيقة كاد يغلفها النسيان. ونظراً للإمكانات الإقتصادية التى فتح الكيان الصهيونى آفاقها أمامه، نجد أن الحارس ليس عربياً محلياً، وإنما هو مغربى، من شمال إفريقيا.

وتنتهى القصة بوصف لحظة الصراع والحسم بين القصاص اليهودى والحاج الغريب. وينتاب القصاص شعور شبه صوفى، حيث يتحد مع بيئته من خلال السير أثناء النوم، وفيه يصبح الألم متعة، وينجح الإنسان اليهودى فى احتلال كل شىء من جديد: الوطن والليل. ويصل الى حالة من التوافق مع الطبيعة التى سبق أن أنكرته وهددته، ويصبح سلوكه مراوغا، سلطوياً، ولا مبالى. ومن خلال تعذيب الذات يتغلب على خوفه من الألم والرعب من الغريب. وبالتالى فلا عجب من أنه بحكم تواجده فى هذا المكان، يوبخ الحاج العربى، حينما يلمس حجر الأساس.

ويصبح الحفاظ على حجر الأساس فى القصة تعبيراً ورمزاً للسيادة اليهودية على الوطن. ومن المؤكد أن هناك علاقة جوهرية بين هذا الحجر وحجر الأساس الذى أقيم عليه مسجد قبة الصخرة (مسجد عمر) فى القدس، والذى تقول عنه الروايات إنه قمة جبل الموريا، محور العالم، ومكان التضحية وحلم يعقوب، وقدس الأقداس، المكان الذى وضع عليه التابوت المقدس والألواح. وكما هو معروف فقد انتقلت قدسية هذا الحجر والروايات عنه الى الإسلام. ولسنا هنا فى حاجة للتحدث عن التوتر المستمر عبر التاريخ، والمستمر حتى الآن، حول هذا المكان.

ويدور مشهد شبه صامت، ذو مغزى واضح، حول حجر الأساس فى القصة، وهو مشهد صراع اليهودى مع العربى، على غرار صراع يعقوب مع الملاك. ويدور الصراع حول قدرة الانسان اليهودى على ربط نفسه بالأرض القريبة-الغريبة، وإحساسه بشعور الوطن والشعب. ويغضب الحاج العربى، فيضرب اليهودى بعصاه ويسبه، لأنه شعر بمجرد ظهور اليهودي أنه جاء ليحل محله عند الصخرة ويبعده عنها. ويُظهر العداء الجارف بينهما مدى تعقد نظرة كل منهما تجاه وطنه: فكلاهما متمسك به، واليهودى لا زال غريباً فيه، بينما صار العربى غريباً فيه. اليهودى لا زال يحمل منفاه معه، بينما ينتاب العربى شعور بالمنفى داخل أرضه. ويقول القصاص اليهودى: "عرفت أنه يريد إعادة إحتلال الوطن مثلى" [كل كتابات يعقوب شتاينبرج. دفير. ١٩٥٩، ص٢٦٤]. وبسبب وجود اليهودى، تصبح نظرة العربى لوطنه معقدة ومركبة أيضاً. فالعربى لا يستطيع تمالك نفسه. ويحسم الصراع بهروب الحاج العربى، وهو هروب إحتجاجى، ويبدو أنه هرب لينضم الى الجماعات السرية.

ويتكرر ظهور مشاهد اللقاء والصراع بين اليهود والعرب فى كثير من القصص العبرية منذعصرزئيف يعبتس وموشيه سميلانسكى ويوسف حاييم برينر، ولا يوجد تقريباً قصاص يهودى فلسطينى من هذه الفترات الأولى لم يتناول هذه الموضوعات. لكن يبدو أنه قد أضيف اليها لدى شتاينبرج، لأول مرة لونٌ سيريالي، رمزي، سيعاود الظهورمن جديد بصورة أكثروضوحاً فى أدب الستينيات ومابعدها، فى أوصاف الأرض وصورةالعربى فى"أمام الغابات"أ. ب. يهوشوع و"البدو والأفعى" لعاموس عوز.

وهذا الإحساس المنسوب هنا للحاج العربى، ورغبته فى إعادة احتلال وطنه، ومواجهة مشاعر الحنين الغريبة التى يمثلها اليهودى، والتى نتج عنها-إحساسه بالمنفى داخل وطنه نتيجة لوجود الآخر- سوف يعود للظهور من جديد فى مونولوج محمود درويش"السوسنة والشمس"(١٩٦٩)، وفى جزء كبير من أشعار الاحتجاج العربية-الاسرائيلية فى الستينات وما بعدها.

٤ - ١٩٤٨ : العربى كأزمة أخلاقية

تظهر الفجوة بين الأيديولوجية الصهيونية الإشتراكية والتعلم فى أحضان المؤسسة الصهيونية الانسانية(وربما أيضاً الطاهرة)-وبين الصدامات الدموية والحسم فى ميدان القتال، الذى داربين الشعبين فى فلسطين، فى أدب جيل البلماخ وحرب التحرير. وبصفة خاصة لدى سامخ يزهار(١٩١٦) حيث يقول فى روايته "أيام تسيكلاج"، التى تصف مشاعر وأحاسيس الجنود اليهود الشبان فى معارك حرب ١٩٤٨ :

" أمكن لهذه اليهودية التلفيقية أن تصف قيام أحد أبناء هذه الأيديولوجية الذين نشأوا على السعرات الحرارية والفيتامينات، والموز والقشدة، وأخلاقيات أهارون دافيد جوردون، وصرخة يوسف حاييم برينر الوجودية، بغمد سكين فى رقبة رجل عربى مدمر، أو ترقيد طابور منهم بدفعة من نيران مدفعه، لكذا وكذا. . وهذا هو الوضع ". [أيام تسيكلاج، عام عوفيد، ١٩٥٨ ص١٩٥].

لقد أحدثت حرب التحرير كارثة فى نفوس معاصريها، وبخاصة الشباب منهم؛ حيث برز اللقاء مع القتل والأعمال الوحشية، من كلا الجانبين، واختفاء عالم الطفولة الفلسطينية البريئة، وعدم القدرة على التأقلم مع صورة إسرائيل الجديدة، والحياة اليومية فى فترات الهجرة الجماعية و"تحلل القيم". وبرز أيضاً إحساس بالغربة لدى مواليد البلاد وهم يرون الصورة الإسرائيلية والبيئة الإنسانية، التى تغيرت كلياً مع الإحتلال، وهروب العرب، وموجات الهجرة، وأعمال البناء المتسرعة، التى عدمت الجانب الرومانسى. وليس من قبيل الصدفة أن يدور عالم أغلب أبطال يزهار فى فترة حرب ١٩٤٨ وما قبلها. فالعالم الذى سبق هذه الحرب، دمر أمام عيونهم، ولا يمكنهم التأقلم مع العالم الجديد الذى ظهر بعدها.

لقد عاش جيل ١٩٤٨ حالة من الحيرة والإرتباك فى فهم مشاهد الأرض وإدراك القيم.

ولذلك أيضاً ربما فهم أبناء هذا الجيل برينر وفقاً لما اعتبروه وصيته الأخلاقية فى مقاله "خواطر مسجلة"، وليس وفقاً لتعبيراته وتوقعاتة المتشائمة بشأن المسألة العربية، كما ظهرت فى باقى أعماله.

وتأتى رواية سامخ يزهار "خربة خزعه" (١٩٤٩) لتعبر بوضوح عن الفرق بين عالم ما قبل حرب ٤٨ والعالم الذى تلاها:

"بالطبع. على العكس، كيف لم أتوقع هذا من قبل. خربة خزعه تخصنا. مسائل الإسكان ومشاكل الإستيعاب، لقد سكن الصديق واستوعب. ثم ماذا : هل نفتح متجراً، وننشيء مؤسسة تعليمية، وربما أيضاً معبداً. ونكوّن أحزاباً، نتجادل فى أمور كثيرة. ونحرث الحقول ونزرع ونحصد. لتحيا خزعة العربية. من ذا الذى يظن أنه كانت هناك ذات مرة خربة خزعه، لقد طردنا أهلها وورثناها منهم، لقد جئناها، أطلقنا النار، وحرقنا، وفجرنا، قاومنا ودفعنا وطردنا. . . ليذهب كل ما نفعله هنا الى الجحيم". ["خربة خزعه، عن أربع قصص" الكيبوتس الموحد، ١٩٦٦].

وتعد الطفولة فى المستوطنة العبرية فى فترة الإنتداب البريطانى، والسكنى مع العرب، ودهاليز البيارات، ومشاهد ما قبل ٤٨؛ أمور تنتمى الى ماض انتهى ولم يعد له وجود. وجاء الآن دور الصحو المؤلم من قيم التعليم الصهيونى-الاشتراكى، ومن الإيمان بإمكان حدوث مزج بين الدولية اليهودية وأخوّة الشعوب، وهو الإيمان الذى انهار مع اندلاع الحرب.

"أُقتل جيداً، وبسرعة، أُقتل كثيراً، دفعة واحدة، وبحرفية، إثنان برصاصة واحدة، وثلاثة إذا إستطعت. لا مفر من ذلك. مع أنى أكره عدم وجود مفر من ذلك. ليس حسناً أن تكره ما ليس منه مفر. ومع ذلك فإننى أكره أن أكون ممهد طريق على جثث قتلى. إننى أكره الحرب، ومع ذلك أحارب. نعم، هذا قدرى وقدرنا جميعاً. هذا هو كل شيء. إننى من أبناءالجيل الذى ليس له خيار فى حياته سوى الحرب. جيل لم يجد أمامه شيء آخر. وهكذا أنا هنا. أكره وأكره. أحمل القتال على كتفى كما تحمل المدينة المحتلة محتلها المستبد. وأعيش ممزقاً بين الخوف والإحساس بالإحتقار. بين متعة المنافسة فى الساحة ومرارة إستكانتى لها، وسعادتى بها. ومع ذلك، فإننى أعرف جيداً أننى كلما تقلبت، لن أجد شيئاً آخر، وكل شيء مغلق حولى، ولا يبقينى على قيد الحياة سوى قبضة يد إنسان ورأس خرتيت. "[نفس المصدر" ص١١٠٠]. ثم يستطرد قائلاً :

"ألا يكفى ظلم العالم؟ من أسأل؟ ألم تنظر الى أرضى، ورفاقى، ورجالى كلهم يرقبوننى من فوق ظهرى: أُقتل جيداً، يا إبننا العزيز، أُقتل ملء ذراعيك، أُقتل لنا بقدر الخير الذى منحناه لك، وعلمناه لك، أُقتل كثيراً، حتى يصيرلنا فى النهاية عالم جميل هادئ. . وأُقتل واقتل واقتل". [نفس المصدر ص١١٠١].

ومأساة جيل الشباب، الذين سال دمهم فى حرب ١٩٤٨، هى أنهم لم يُعدّوا بما فيه الكفاية لكى يدركوا أن قوة المقاومة العربية ستكون شديدة، وحاسمة. وجاءت عدم رغبة أبناء هذا الجيل، وأدبائه، فى الإعتراف بذلك، لتحول دون إقناعنا للعرب، سكان البلاد والدول المجاورة،

بالموافقة على إقامة كياننا القومى فى عام ١٩٤٨، وأدى هذا كله الى وجود منحى أخلاقى لإتهام الذات، وإن كان لا يعدم أيضاً إحساس بتفوق إسرائيلى معين؛ وبأننا لو تصرفنا على غير هذا النحو، لما وصل الصراع الى هذا الحد. لقد كان الأمر فى يدنا وضيعناه بحماقتنا.

وتعد قصة سامخ يزهار" الأسير"[نوفمبر ١٩٤٨]، أشهر قصص هذا النمط من التخبطات الأخلاقية. حيث تصف بحدة تخبطات المؤلف، الذى نشأ على قيم احترام حياة الانسان، وحريته، وحرية الفكر، وإذا به يعيش حالة إفلاس محيرة حينما يرى زملاءه بعينيه وهم يتأهبون لقتل عربى عجوز وقع فى الأسر. ولم تسعفه آلامه الهاملتية للقيام بأي رد فعل، لأن أفكاره تقتل فى داخله أية أعمال. ويعيش حالة من الحيرة، ويدرس المبررات الإنسانية "المؤيدة"، ثمار تعليمه ووعيه، فى مقابل مبررات وقت الحرب "الرافضة". ولاتتقاطع أبداً دائرة المؤلف/ القاص مع مصير الأسير. فلا توجد أي علاقة شخصية بينهما. لكن الفرد العربى لا يوجد إلا كتجسيد لأزمة أخلاقية يعيشها الجندى الإسرائيلى. لكن المؤلف/ القاص لا يستطيع اتخاذ موقف إيجابى ضد تصفية الأسير،أو ضد طرده وإبعاده عن أسرته، وهكذا، وبسبب عدم قدرته على الفعل، نجده يتخذ فعلاً موقفاً يتيح تصفية الأسير أو إجلائه وطرده. وتنتهى القصة بنهاية مفتوحة. حيث لا يوصف فيها موت الأسير، على الرغم من معقولية حدوث ذلك. وعلى أية حال فإن الأسير لن يعود الى أرضه، وغنمه وأسرته ليعيش كما كان قبل هذه الحرب.

***

لقد كتب أبناء هذا الجيل العديد من الأعمال الأدبية التى تحمل روح التمرد الأخلاقى وإدانة الذات التى اتسمت بها قصة "الأسير". فها هى قصة أهارون ميجد(١٩٢٠)، " الكنز"(١٩٤٩)، تبدو وكأنها كتبت من وجهة نظر لاجىء عربى بعد حرب ١٩٤٨. وكذلك أيضاً "منافسة سباحة"[١٩٥١] لبنيامين تموز(١٩١٩-١٩٨٩).

ترجع بداية قصة الحدث فى "منافسة سباحة" الى ذكريات طفولة القصاص حينما صاحب أمه فى زيارة لمنزل أسرة عربية فى بيارة قرب يافا. ويلتقى هناك مع فتاة عربية فى عمره، تدعى نهيده، وعمها، عبد الكريم، الذى يكبره قليلاً. ويهزم عبد الكريم الفتى اليهودى فى منافسة سباحة أجرياها فى مسبح البيارة. وتمر السنين، وتظل رائحة العربى وأطايب مطبخه كحلم طفولة بريئة لايستطيع القصاص التخلص منه، وتملأه الأشواق والحنين "هل سأرى مرة أخرى نهيده وعبد الكريم الذى هزمنى فى المسبح؟". ["منافسة سباحة"، من مجموعة "قصص أنطون هاأرمانى، محباروت لسفروت، ١٩٦٤].

ويجد المؤلف نفسه فى حرب الإستقلال ضمن سرية إقتحام من جهة أحياء حولون البيضاء، صوب بيارة يافا، ذات الرائحة العبقة. ويلتقى المؤلف مرة أخرى مع عبد الكريم الذى وقع فى الأسر. ويتركه لحظة ليحقق أمنية ظلت تداعبه منذ سنوات: " سيأتى يوم أكبر فيه وأهزمك أيضا فى المسبح"(نفس المصدر). ينزل المؤلف الى المسبح القذر، يسبح وكأنه يمشى، فى نفس الوقت الذى يطلق فيه أحد الجنود النار على عبدالكريم ويرديه قتيلاً. هكذا ببساطة، دون حاجة لقتله.

يتقدم القصاص من جثة عبد الكريم، يقلبها قائلاً : "يبدو أنه رآنى بقلبه قبل لحظات من قتله، رآنى وأنا أسبح فى المسبح. فوجهه لا يدل على أنه إنسان خاسر. هنا، فى هذا الفناء، نحن جميعاً المهزومين.[نفس المصدر].

***

فى البعد الفلسطينى الرومانسى، فى قصص موشيه سميلانسكي القصيرة، نجد التعامل مع شخصية العربى كفرد جدير بالتقدير والفهم، والتقليد فى بعض الأحيان. أمابرينر، كظاهرة شاذة فى عصره، ورائد للواقعية فى الأدب العبرى فى فلسطين، فإنه لا يتعامل مع الشخصيات العربية كأفراد، بل نجده يراهم جوهراً عاماً معادياً، يهدد الوجود اليهودى الواهى وتصور المنفى فى فلسطين. أما أدباء الهجرة الثالثة فقد تأرجحوا بين النظرة الرومانسية للأرض، كما ارتسمت فى عيون جزء منهم قبل هجرتهم اليها، وبين مرارة الواقع. بينما نجد أدباء جيل ١٩٤٨، الذين ولد أغلبهم فى فلسطين أو نشأوا فيها، بعد أن هاجروا اليها فى سن صغيرة، لاينظرون الى شخصية العربى كفرد، بل كشخصية باتت تحمل من الآن دلالات اللحظة الحرجة، لحظة الحرب. ولا يُستهدف بظهور العربى كفرد فى أعمالهم، تصوير حياته العادية، أو صورته الواقعية الملموسة، بل يهدف أولاً وقبل كل شيء الى تقديمه كشخصية مفلسة، ومشكلة أخلاقية وأيديولوجية تواجه المحارب الإسرائيلى وتضع قيمه وثقافته المتنورة محل اختبار. ويخرج البطل الإسرائيلى من هذا الإختبار بإحساس صعب، حيث ينهار عالم قيمه فى أول لقاء له مع الواقع، وهو ما تكون له آثار بالغة على نفسية هذا الجيل وأعماله الأدبية، حتى فيما يتعلق بالصراع مع شخصية العربى ومواجهةالمسألة العربية.

٥- الإحساس بالحصار، العربى كابوس مرعب

إذا كان جيل ١٩٤٨ قد نظر الى شخصية العربى على أنها ممثل لمشكلة قيمية، فقد مرت السنون ولا زالت إسرائيل محاصرة داخل أراضيها، ومحاطة بدول معادية تناضل بدأب وتقوم بأعمال تخريبية داخل أراضيها. وقام جيل جديد من الأدباء تأثر كثيراً بالإحساس بالحصار ورؤية الشخصية العربية كجزء من الكابوس الحياتى للإنسان الإسرائيلى.

وتأتى قصة أ. ب. يهوشوع (١٩٣٦)"أمام الغابات"[١٩٦٣] لتعكس الإحساس العميق بالواقع الذى يرى فى وجودنا أمام العرب حالة كابوسية. ويضاف الى هذا الإحساس شيء خاص يمكن أن نسميه "التجاوب المازوخى مع مصيرالدولة الصليبية فى فلسطين". شاب عاطل، يناهز الثلاثين من عمره، وقد أخذ شعره يتساقط. يخشى أصدقاؤه من أن يصاب بالجنون، فيجدون له عملاً كمراقب غابات، فى جنوب البلاد. وينحصر دوره فى طلب النجدة حينما يندلع حريق. لكننا نجده، من ناحية أخرى، مستغرقاً فى بحث عن تاريخ الصليبيين. ويعيش فى منزل برج المراقبة، عربى مقطوع اللسان، مع إبنته الصبية. يهمس المراقب لنفسه: "الحملات الصليبية". ويشعر بسعادة غامرة لترديده هذه الكلمات. وهو واثق من أن هناك جانباً مظلماً فى هذا الموضوع

سيدهشه، وسوف يدهش هو به الآخرين". [أمام ألغابات"، الكيبوتس الموحد، ١٩٦٨ ص٢١].

ويقتحم عزلة المراقب زوار كثيرون : والده، زوجة صديقه وعشيقته فى نفس الوقت، وبعض الشخصيات العامة وضيوف أجانب يقيمون حفلات فى بعض قطاعات الغابة، وسائحون إسرائيليون، يبدون من بعد وكأنهم قافلة من الصليبيين(ص٣١). ويتضح أيضاً أن الغابات مزروعة فوق أنقاض قرية عربية، طرد سكانها فى حرب ١٩٤٨، وكان العربى مقطوع اللسان أحد سكانها.

ويعيش المراقب الاسرائيلى حالة من التوتر البالغ، توتر كابوسى، يسبق الإحساس بوقوع كارثة، وبقرب اندلاع حريق فى الغابة. ويتقاسم هذا التوتر مع العربى بصورة مدهشة؛ ويمكن القول إن حالة الترقب تصيب كلاهما بالجنون. حيث يقوم المراقب بإلقاء عود ثقاب مشتعل وأعقاب سجائر فى الغابة، وكأنه يأمل فى مكنون قلبه أن يندلع حريق. أما العربى فإنه يخبىء صفائح مليئة بالنفط فى أركان مختلفة من الغابة؛ والمراقب يعرف ما يقوم به العربى، لكنه لايمنعه؛ بل على العكس، حينما يعود الى الطريق بعد توديع زوجة صديقه، يجرى بنفسه محاولة إشعال بحضور العربى، ويستخدم الوقود الذى أعده العربى؛ وحينما تنطفىء النيران يخيب أملهما. ولكن اعتباراً من تلك اللحظة يعيشان وكأنهما قطعا عهداً على نفسيهما : يحدّثه عن الحملات الصليبية، بينما ينصت العربى للموضوع، بتوتر بالغ، ويمتلىء بالكراهية"[نفس المصدرص ٤٦].

ويظهر هنا أيضاً إيقاع الصيف ونهايته، الذى يمنح أغلب الأعمال الأدبية الأسرائيلية طابعها المميز. حيث تبدأ القصة مع بداية الصيف؛ ويبدأ التوتر فى التراكم، ويصل بصاحبه الى حالة الإنفجار. ونهاية الصيف هى لحظة وقوع الأحداث. فهاهى الفتاة العربية بدأت تنضج، ويتابعها المراقب باهتمام. ويقوم العربى بإشعال النار فى الغابة دفعة واحدة فى كل الأماكن التى خبأ فيها صفائح النفط. وتأتى النيران على الغابة كلها. وحينئذ، ومع بزوغ الفجر، تظهر من جديد أطلال القرية العربية التى أزيلت من الوجود. وربما تقابل تحقيقات الشرطة مع العربى بشأن إشعال النار، البحث الذى يقوم به المراقب، والذى لم ينته بعد، وربما كان هو البحث الحقيقى الذى تنجزه القصة.

ويعود القصاص الى المدينة. وتهطل بواكير المطر، قذرة، تلوث الطرق، ونصل فى النهاية الى إيقاع الصيف. فالصيف على وشك المضي ومن بعده سيأتى الخريف والشتاء. وبدا وكأن الوجود قد تنفس الصعداء بعد لفحة الصيف، وجدد نفسه ببواكير المطر. وفى الشتاء، مع البرد القارص، يجول القصاص لدى أصدقائه فى المدينة، وحيداً ومنطوياً على نفسه.

وفى أغلب قصص أ. ب. يهوشوع السابقة، يتكرر مشهد الرقابة المستمرة التى تنبىء بحدوث كارثة، ثم تحدث عملية التفريغ وهى فى الغالب تتم فى صورة تفريغ جنسى، كما فى "رحلة ياتير المسائية"[موت العجوز، الكيبوتس الموحد، ١٩٦٢]. ويتجلى هذا الإيقاع الوجودى، فى " أمام الغابات"، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقاتنا مع العرب. فهل يعد هذا أحد

وجوه الأحاسيس والمشاعر الحادة والمتفردة لدى الأديب، أم لأن الكابوس والرغبة فى تدمير الذات، والتى تظهر فى علاقاتنا مع العرب فى " أمام الغابات" هى التى تؤثر على عالم أ. ب. يهوشوع فى قصصه الأخرى وتعتبر حجر الأساس فيها؟.

ونجد فى هذه القصص صورة الأرض قاسية ومؤلمة، مرعبة ودرامية، ومحملة بالأخطار والكوارث، وتعدم الصورة الرومانسية الحالمة، المثالية؛ وسوف نجد صوراً من هذه المساوىء فى قصص عاموس عوز القصيرة.

ويصل الموقف الأخلاقى-الأيديولوجى لجيل ١٩٤٨، الى أقصى حالة من حالات التطرف الوجودى، بالتجاوب المازوخى مع المصير الصليبى، الذى عُبِّر عنه رمزياً بوضوح فى قصة "أمام الغابات"، حيث يأخذ أبعاد الإنهياروالميول الإنتحارية لدى أدباء "جيل الدولة" أمثال أ. ب. يهوشوع. ومكونات هذا التجاوب المازوخى هى حيرة هذا الجيل إزاء ما يتعلق بحقنا فى الأرض، والذى ينبع من عدم الإرتياح الأخلاقى تجاه العرب المقتلعين، والذى يصاحبه أيضا حيرة نفسية لدى أناس علمانيين يعتمدون قدر الإمكان على الوعد الدينى، والكتاب المقدس، كمبرر أخير يستحيل تحقيق الأهداف بدونه.

ويضاف الى ذلك أيضاً أننانعتبر أنفسنا نبتاً "أوربيا" غريبا فى المنطقة بسبب البيئة المعادية حولنا. ويأتى الجانب المدمر، الهدام، فى شخصيتنا كأفراد وكمجموع، ليعبرعن استمرار الحياة الإسرائيلية المنغلقة، التى شكلت جيلاً كاملاً منذ ١٩٤٨، إنطلاقاً من الإحساس بالحزن والحصار، وتحويل العربى الى شخصية كابوسية، شيطانية. ولا تقل رغبة المراقب عن رغبة العربى فى اقتحام الحريق، لأن التفريغ فى الكارثة قد يكون أفضل، فى نظره، من مسئولية المراقبة المستمرة.

وهذه الغابات الحديثة لها معنى واضح، وهو دولة إسرائيل، أو على الأقل الجزء المقام فيها على أطلال القرى العربية. ويأتى وصف الفعل الإسرائيلى القهرى المتمثل فى إلحفلات والرحلات ورجال الإطفاء، وقسم الغابات ورجال الشرطة، بصورة مغالى فيها، وكأنها تحدث على سطح هوة من الكراهية العربية الأبدية المليئة بالرغبة فى الإنتقام، والمراقب هو الوحيد الذى يشعر بهذا الكابوس فى وجودنا، على عكس الأصدقاء الطيبين، والأب المتحمس، والعشيقة العجوز المتصابية، ومشرف قسم الغابات العجوز، إبن جيل الهجرة الثانية أوالثالثة، الذين لايشعرون بهذا كله، ويعيشون فى جنة الحمقى.

وبعد الحريق الذى إتهم فيه المراقب والعربى، وإن كانت التهمة لم تثبت على المراقب، نجده يطلب من مشرف الغابات بصلافة أن يحل مشكلة الفتاة العربية التى بقيت وحيدة بعد سجن أباها. وحينئذ فقط يدرك المشرف العجوز الدور الذى لعبه المراقب فى الحريق. (ووجود المشرف عجوزاً إنما يدل على السخرية من القيادة الطاعنة فى السن التى أنشأت الدولة). وهنا ينقض المشرف العجوزعلى المراقب ويوسعه ضرباً بقبضاته، متهماً إياه بخيانة أمانة مهنته بسبب الكتب التى انكب على قراءتها، وبسبب ثقافته وصهيونيته الملقنة. فما هى " هذه الصهيونية الملقنة" - إنها رؤية

الإنحراف ومعايشته والموافقة عليه الى حد الإستمتاع فيه بالتدمير الذاتى، وقبول المازوخية التى تنعكس فى الوعى البائس لدى المراقب، وعزلته المريعة. ويصعب أن نعرف من الأكثر ثِقلاً هنا: هل هو المراقب الذى يبحث عن قطعة فخار أثرية يدغدغ بها جروحه النفسية، أم البيئة التى شكلته وجرحت نفسه؟.

ولا نجد فى" أمام الغابات" تخبطاً وحيرة أخلاقية، فلا يبرز فيها الشرخ الذى حدث فى الأيديولوجية، ولا حتى الحيرة التى اتسمت بها قصص الأسر والطرد لسامخ يزهار وأهارون ميجد وبنيامين تموز وغيرهم من أبناء جيلهم. فهنا فى"أمام الغابات" يتسم كل شىء بإدراك الإنحراف الوجودى، بلا توهم. وربما كان هذا هو المنطلق المثالى لجيل الأدباء الذين عاشوا وتشكلوا بعد حرب ١٩٤٨، خلال السنوات التسع عشرة الأولى من عمر الدولة، المحاصرة، والتى يحيط بها الأعداء من كل جانب.

***

يصف عاموس عوز (١٩٣٩) فى قصته"البدو والأفعى"(١٩٦٥) عالم "جئوله" إبنة الكيبوتس، المحبطة والمصدومة بالواقع. ففى إحدى جولاتها خارج القرية تلتقى راعياً بدوياً، رحالة، تصفه القصة كمخلوق بدائى، يكاد يكون حيواناً، دميماً وبائساً، ومع ذلك فإنه يستثير فيها الغريزة. ويبدو أنه سيغتصبها، وإن كانت قد انجذبت اليه، الا أن شيئاً لم يحدث بينهما، وتسرى رعشة اشمئزاز فى جسد الفتاة، على الرغم من أن البدوى لم يحاول أن يلمسها" ["بلاد إبن آوى، مجموعة قصصية، مساداه، ١٩٦٥، ص٣٦. والإقتباسات الواردة هنا مأخوذة عن الطبعة الأولى للقصة].

وفى نهاية القصة يتم العثور فى المساءعلى جئوله، بجوار حجرتها فى الكيبوتس، ممددة على العشب بين الشجيرات، بعد أن لدغتها أفعى. ويرد وصف لدغة الأفعى فى القصة وكأنه وصف لمشهد جنسى، "سرت فى جسدها رجفة متعة لذيذة، وبدأت تنصت للموجة العذبة التى تشق طريقها فى جسدها وتنعش دورتها الدموية، واستسلمت جئوله تماما لهذه الموجة اللذيذة المنعشة". [نفس المصدر ص٤٠].

ويمثل العربى هنا الجانب المظلم والغرائزى فى الوجود. كما أن استجابة جئوله المرجأة له، تعكس تمرد غرائزها على إطار الحياة الإجتماعية الإسرائيلية، المستأنسة؛ وتبدو الأفعى وكأنها قامت بالمهمة التى كان يجب أن يقوم بها العربى. والجانب الغرائزى المظلم، هو أيضاً الجانب الذى يؤدى الى الجنون والموت. ويبدو كأن العربى موجود فى الجانب المظلم من روحها، أى فى مقر الرغبة الحيوانية، اللاعقلانية، التى تدفعها الى تمنى الإنهيار، أى تمنى الموت فى النهاية.

والعربى هو أيضاً الصحراء والمرض : "لقد جاء المرض من الصحراء" [نفس المصدر ص٢٧]. ولقد جلب غزو الرحالة لمنطقة الكيبوتس مرض الحمى القلاعية، وتدمير الأراضى الزراعية، وبعض حالات السرقة البسيطة.

وفى رواية "مكان آخر"(١٩٦٦) يصف عاموس عوز المنطقة المحيطة بالكيبوتس الكائن على

الحدود، على سفوح الجبال، فى منحدرات الهضبة السورية، فى فترة ما قبل حرب يونيو ١٩٦٧ : "تحيط بالسور مجموعة قذرة تحاول أن تجد طريقها الى الداخل لتخل بالنظام" . ["مكان آخر" ، سفريات بوعاليم، ١٩٦٦، ص١٩٥].

وتعد الحدود والجبال هنا جزءاً من الواقع المؤلم، الذى يخنق أبطال عاموس عوز. ووجود الغريب، العربى، يضفى على هذه المناظر ألوانا مرعبة، تهدد حياة الإستيطان اليهودى.

وفى رواية "حبيبى ميخائيل "(١٩٦٨)، التى كتبت قبل حرب ١٩٦٧، يروى عاموس عوز قصة "حنّه" ، طالبة من القدس، تقع فى حب ميخائيل وتتزوجه، وينجبان إبناً. وبالتدريج تفقد حنّه صوابها تحت وطأة حياتهما التقليدية النمطية، التى لا توجد فيها أى أحداث عاصفة. ويتجلى الجانب المظلم فى حياتها، وتطور حالتها نحوالجنون، البعدالكابوسى، فى أفكارها المتكررة عن توأمين عربيين، عزيزوخليل، رفاق اللعب معها فى الطفولة البريئة. حيث أخذ تواجدهما يزداد فى هذيانها؛ ويصبحان متسللين، مخربين، يحملان الدمار، والخراب والموت. وعلى مدار القصة يتصاعد تواجدهما فى هذيانها ويصل فى النهاية الى القمة التى ترمز أيضاً الى استسلامها لجنونها.

"إمتدت أربع أيادى معروقة، تداخلت وكأنها فى حلبة رقص. أو فى حالة حب. إمتدت وكأنها تنبت من جسد ثعبان يتلوى، وعلى وشك الإنفجار. إنفجر. وأخذت الأجساد تغوص الى الأعماق.[. . .]حينئذ وعلى حين غرة، يدوى صوت انفجار شديد. ويبرق ضوء فى الأفق الغربى. وتتسلل بقايا أصداء صوت عبر صخور الجبل " . "[عزيزى ميخائيل، عم عوفيد، ١٩٦٨ ،ص١٩٧-١٩٨].

وهذا المشهد برمته لا وجود له إلا فى هذيان حنّه جوتين، التى تقوم فى هذه اللحظة بتحريض الأخوين التوأمين" ليتجردا من ملابسهما تحت سماء الليل المتسعة. سوف أحرضهما" . [نفس المصدر ص١٩٦].

ويأتى وصف ميخائيل عبر مراحل نمو الشخصية فى الرواية، كشخصية إسرائيلية نمطية: طالب جيولوجيا، ثم جيولوجى، ثم مجند فى الإحتياط، ويشارك فى حرب سيناء ١٩٥٦. ووجوده فى الرواية مباشر دائما، يملأ مساحة الحدث تماما من كافة أبعاده، شخصيته جافة الى حد ما؛ ويتسم بالعقلانية والقلق، وإن كان عديم الجاذبية والشعور الإنسانى. ويقترب الرجل-البطل هنا من رموز الواقع المشكل الكامل، العقلانى، بينما تمثل المرأة الجانب العاطفى، غير العقلانى، أى الجانب الخطير والمظلم فى الوجود. أما ما يتعلق بالجانب الإسرائيلى الخاص بالأرض المحاصرة، وأرضنا التى تخوننا أثناء الليل، فإنه يتجلى فى الحماقة والجنون، وهى الجانب المظلم من الحياة، متمثلاً فى كابوس التوأمين العربيين. وحينما تغويهما حنّه فى هذيانها، فإنها تغوى غرائزها المدمرة، غرائزها هى، المظلمة والمكبوحة، لكى تدمر مربع الوجود، المنطقى، أحادى الزاوية، المحبط، المغضب، الذى يؤدى الى الجنون، ولا يريده زوجها ميخائيل ولا تستطيع هى الإعتراف بالجانب التعبيرى والمسخى فيه.

وليس التوأمان هما السبب الوحيد، بل هما تعبير عن أزمة حنّه. ولا بد من تأكيد ذلك تجنباً

لأى لبس أو خطأ؛ فالموت والجنس والحماقة والجنون- والتى تمثل الجانب المظلم من الحياة - توجد أيضاً بدون وجود العرب. كما أن الموقف المثالى المتمثل فى السلام المطلق، وإزالة حواجز الكراهية، وحل المشكلة الفلسطينية، لن يخلص الإنسان الإسرائيلى من الأسباب الداخلية والعميقة لأزمته الإنسانية، وهى أمر طبيعى فى آنية الإنسان ونهائيته. ولكن تجليات هذه الأزمة الوجودية، لدى أدباء مثل عاموس عوز وأ. ب. يهوشوع وغيرهم، فى الستينات وما بعدها، تتسم بجعل العربى كابوساً، فى الجانب المظلل، فى نفس الجزء المظلم من الحياة التى نلقى عليها نحن بمخاوفنا وبالرعب والخوف الوجودى فى نفوسنا نحن. ومرة أخرى لا يظهر العربى كفرد واقعى، ولا حتى ممثلاً لمشكلة أيديولوجية وأخلاقية، وإنما يظهر كجزء من الكابوس الإسرائيلى. وليس للعربى وجود فى ذاته، أى وجود إجتماعى، وقومى، وحياتى يومى، بل هو عبارة عن أثر مرعب يخرج من نفس البطل الإسرائيلى المعذبة. وبهذا فإن العربى معوّق أكثر منه مخيف، ولا يدع الإنسان الإسرائيلى يحيا حياته كما يريد، منفصلاً عن التعامل الدائم مع الصراع ومع الحروب النابعة منا نحن.

***

لقد أخذت حدود إسرائيل حتى يونيو ٦٧ بعداً مخيفاً / مغرياً فى آن واحد، يلقى عليها البطل الإسرائيلى بنفسه مذعوراً، وكأنه يهرب من مواجهة مشاكله الحياتية. وهذا مانجده فى رواية إسحق أورباز "العين بالعين"(١٩٦٢)و"الحدود"(١٩٦٦)لموشيه شامير، وقصة ياريف بن أهارون "القتال" (١٩٦٦). ونجد البطل يلقى بنفسه نحو الحدود ويقتل، فى رواية "الحرب ليست للأبطال"، التى كتبها قبل يونيو ٦٧.

أما رواية "النمل"(١٩٦٨) لإسحق أورباز(١٩٢٣) والتى كتبت أيضاً قبل حرب يونيو٦٧، فإنها تحدثنا عن زوج إسرائيلى ينهار مسكنه فوق أحد أسطح منازل تل أبيب، بسبب هجوم غريب قام به النمل، حيث أكل جدران المسكن بالتدريج. ويدخل هذا الزوج، يعقوب، فى قتال مع النمل، فيبنى حائطاً أمام الجدار، لكن النمل لم يرتدع ولم يستسلم، وفى المقابل دارت عملية صراع وانهيارات متبادلة بينه وبين زوجته، راحيل، التى بدت وكأنها تستمتع بعملية التدمير، وكأن هناك تحالفاً سرياً، تعاونياً، وإلهامياً داخلياً بينها وبين النمل. وتمثل المرأة الجانب العاطفى الحسى للوجود مع الكابوس. ويصف يعقوب النمل بقوله : "إنها مخربة كريهة"، وتردد راحيل وراءه "إنها مخربة كريهة"، ثم تضيف بهدوء غريب: "رائع" [النمل، عم عوفيد، ١٩٦٨، ص٣٨].

ويصعب أن نخطىء فى فهم المعنى الرمزى الواضح الذى يشير اليه النمل، وهو معنى يقبع فى نفس المنطقة الوجودية للأزمة المظلمة، التى يحدث فيها كابوس إنهيار حنَّه جوتين فى "عزيزى ميخائيل"، وكابوس حريق الغابة فى "أمام الغابات". فكابوس النمل عند أورباز، بخلاف إشارته الى حياة رجل وامرأة وهما على وشك الإنفصال، إلا أنه مغموس بصورة واضحة فى الإحساس بالحرب والحصار، وفى النظرة الى شخصية العربى كعدو، وفى الإحساس بالإرهاق من الوضع الوجودى، الذى يصل الى حد كابوس تدمير الذات والإحساس بالفناء والضياع.

ولا ينحصر معنى النمل لدى أورباز فى استخدامه رمزاً لعدو خارجى يحاصرنا ويفرض علينا حالة حرب وحصار مستمر، بل يصبح - من خلال عملية تحويل واضحة ومخيفة - وصفا للبيئة المحيطة بالزوجين الإسرائيليين اللذين يشعران أن الخصال التى اتسم بها العدو خلال الصراع الطويل هى: اللاإنسانية، والإستبداد، والتفرد، وإقرار حالة الحرب، والتضحية بالفرد فى سبيل المجموع، والإقدام على الموت، والإقتناع التام بالوهم وحشد كل القوى للدفاع عن الوجود العضوى، دون أي اعتبار أو معان أخرى للحياة. ويصبح كل هذا واقعاً إجتماعياً ذاتياً يعيشه الزوجان، وتنهار حياتهما فى ظله. وتشبه حالة يعقوب وراحيل فى نهاية القصة ما تبقى من "فنان التعذيب" لكافكا. حيث يكفا عن تناول الطعام، ويبدو حبهما وقد "وحدَّهما"، وتدور أحداث هذا الحب من خلال الإنهيار الذى يقابل إنهيار الجدران الخارجية للمسكن.

والكابوس، أى رؤية الآخر بمنظور غير إنسانى، لا يسير دائما فى اتجاه واحد. حيث يمكن أن نجد النمل-كرمز للإسرائيليين- فى أعمال أدباء عرب مثل نزار قبانى. وبالتالى فإن اللاإنسانية، كثمرة من ثمار الكراهية والعداء، تعد عملية متبادلة.

٦- "قسمونى الى معسكرين معاديين"

تتحدث حمدا بن يهودا فى قصتها "قرة العين" (١٩١٠) عن إمرأة شرقية فى القدس، تدعى بوليسا مازال، شاء حظها العثر ألا تلد سوى البنات. ولما ضاق بها ذهبت الى ساحر عربى، فمنحها دواءًمعيناً حملت بعده وأنجبت إبناً. وبالغت فى رعاية إبنها. لكنه حينما كبر ظهرت عليه بعض الأمور التى تثير الشك فيه، وأخذ يتصرف وكأنه غير يهودى. ومرت الأيام وهاجر الى باريس، متخلياً عن أمه وإن كان لا يزال يستغلها ويستنزف نقودها. وتناهت الى الأم شائعات من باريس بأن إبنها قد أعلن صراحة: "إننى مسلم، إبن مسلم ".

ومرت السنون، ومرضت بوليسا، ولم يعد لها من مطلب سوى أن ترى إبنها مرة أخرى. ذهبت الى الساحر العربى، بعد انقطاع دام سنوات، وتوسلت اليه أن يعمل على استعادة إبنها. حصل منها العربى على عنوان الإبن، ويبدو أنه نجح فى إرسال معلومة معينة الى إبنها، دفعته الى الحضور ورؤية أمه لآخر مرة، قبل موتها.

ويبدوأن "قرة العين" هى أول قصة يرمز فيها بصورة بالغة الوضوح الى ولادة إبن نصف يهودى ونصف عربى من زواج يهودية من عربى. لكن نتيجة القصة ليست رومانسية كنبوءة ربى بنيامين فى "نبوءة مساء" عن الجنس العربى العبرى الجديد المشترك؛ ولكن لا، لايوجد مكان فى القدس لإبن بوليسا والعربى؛ فبعد أن عاد ليرى أمه قبيل وفاتها، يعود الإبن الى الإختفاء مرة أخرى.

ولا تنحصر القصة فقط فى قصة الحدث الفاضح، بل إنها تظهر لنا أيضاً، أنه آنذاك، حينما يصبح الإنسان نفسه ساحة حرب، تهرب "ساحة القتال من أرض المعركة، ولا مكان لإبن الزواج المختلط فى فلسطين ".

وفى رواية ميداد شيف(١٩٢٥)، "شمعون سهمورا"(١٩٥١)، نجد بطل الرواية "شمعون" ولد فى دمشق عام ١٩٢٠ لتاجر يهودى شرقى وإمرأة مارونية من مواليد بيروت، وماتت والدة شمعون أثناء الوضع، فنشأ شمعون فى تل أبيب وكبر أثناء فترة الإنتداب البريطانى. وحافظ البطل على علاقاته مع أسرة أمه، وكان يقضى وقته متنقلاً بين باريس ولندن، ثم يعود الى تل أبيب. وذات مرة فى ربيع عام١٩٤٨إعتقلته مخابرات الهجاناه، وأذاقته صنوف العذاب، ثم أطلقت سراحه بعد ذلك. ويجند فى الجيش الإسرائيلى تحت إسم مستعار، ثم يسرّح من الخدمة بعد الحرب، وقد توصل الى قناعة "ليكن المنتصر فى الحرب من يكون، قسمونى الى معسكرين معادين" [شمعون سهموريا، دار نشر طابرسك، ١٩٥١ ص٢٤٩].

وكان لشمعون صديقٌ يهودي من موشافاه، يدعى"جوجموم"، له توجهات كنعانية، يحلم بخلق شعب عبري جديد، ويلخص شمعون تطلعات صديقه بقوله: "إنه يريد أن يخلق شيئا ما، هو أن أكون أو ما أستطيع أن أكون منتمياً له" .[نفس المصدر ص٢٣٧].

لكن شمعون يدرك أن خلق ثقافة محلية جديدة يستطيع أن يحياها الإنسان اليهودى/ العربى مثله، أمر لا يمكن أن يوجد هنا، وبالتالى فإنه يقرر فى إحدى ليالى فبراير الباردة الممطرة عام ١٩٥٠، أن يترك تل أبيب ويجتاز الحدود، الى بيروت، ليذهب على ما يبدو الى بيت والدى أمه، ووصل بالفعل الى هناك.

وهذه الرواية مهمة لفهم وجهة النظر التى طرحت تصوراً آخر للحياة القومية للعرب واليهود إعتماداً على الأصل السامى المشترك، وهى بمثابة تكرار لفكرة ربى بنيامين فى"نبوءة مساء"، وكنبوءة يوناتان راتوش، رائد الحركة "الكنعانية"، أو" العبريين الشبان"، كما أطلقوا على أنفسهم. وحينما يعود شمعون من باريس الى تل أبيب عام ١٩٣٧، يقول: "رأيت اليهود الذين يزورون باريس. الأمر سهل بالنسبة لهم. حتى وإن كانوا أكبر منى. إنهم أغراب فى كل مكان، واستبدلوا الغربة بغربة أخرى، لكنى لست كذلك، أنا غريب فى بيتى" . [نفس المصدر ص٨٣].

وبمرور الوقت يشعر جوجموم إبن الموشافاه بنفس هذا الشعور: " أناغريب فى الوطن، لأن أغرابا جاءوا وجعلوه غريباً عنى" . [نفس المصدر ص٢٣٦]. ويرجع هذا الإحساس بالغربة الى أن موجات الهجرة اليهودية الى فلسطين تحتاج دائما الى ما يبدو له على أنه براعم الشعب العبرى الجديد. وهذه نظرة كنعانية واضحة :هذا الشعب العبرى الجديد، بعيداً عن قيود الصهيونية، والإستعراب، واليهودية والإسلام والمسيحية هو وحده الذى قد يكون فيه مكاناً للشمعونيين" .

ويتجسد رفض موجات الهجرة الجماعية، التى وقعت فى السنوات الأولى لقيام الدولة، فى حديث إثنين من الفلاحين من مستوطنة جوجموم، يشعران بحنين الى الفترة التى عاشا فيها محاطين بالعرب : "آه، ياحبيبى، أتذكر أمينة التى كانت تحمِّينى فى البانيو وأنا صغير؟ ومحمود. . . هل ما زالا على قيد الحياة؟ وأين أبناءهم؟ وأنت هل تحضر لى هؤلاء الناس الطيبين، كى يسعد قلبى؟"، فيقول الآخر: "لماذا تنتحب؟ لقد ذهبوا، وانقضى الأمر، أنك لن تعيد ما ضاع. لا يمكن أن تعثر على شىء. فهؤلاء ليسوا بشراً. إنهم متعفنين. لا بد من تعليمهم كيف يعملوا ولا يسرقوا ولا

يتحدثوا العبرية ويكونوا مثل البشر الآخرين" . ويقول الأول : " ألم يكن بمقدورهم أن يفعلوا كل هذا مع الفلاحين، دون حاجة لكل الحروب. ففيم ينقص الفلاحون عن هؤلاء الناس؟ والله، يالهم من مخلوقات تافهة" . [نفس المصدر ص٣٠٢].

وفى قصة جيل ١٩٤٨ القصيرة نجد أن العربى هو العدو وهو أيضاًالذى يطرح مشكلة أخلاقية أمام الإنسان الإسرائيلى. ولا يمثل شمعون مشكلة أخلاقية بل هو إنسان فى حد ذاته، وهو التجسيد الفعلى لإستحالة التعايش بين الشعبين. وفى نهاية القصة يسأل ميداد شيف : " ما هو أمل وطموح هذه المجموعة من البشر التى لا يوجد بينها مكاناً للشمعونيين».

***

بعد عشرين عاماً من" شمعون سهموريا" ،نشر بنيامين تموز "البستان (١٩٧٢)، وهى نوفيلا، أو رواية قصيرة، ساخرة، تصف تطور علاقات اليهود والعرب فى فلسطين منذ بداية القرن، من خلال قصة أخوين من أب واحد، دانيال اليهودى وعوفاديا عبد الله العربى. يصل العربى الى فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى، ويصل اليهودى بعدها. ويشترى دانيال بستاناً فى يافا من محمد أفندى التركى، ويتزوج أيضا من لونا، إبنته بالتبنى، وهى فتاة جميلة صامتة دائماً ولا أحد يعرف أصلها. وتحافظ طوال فترة زواجها من دانيال على علاقاتها الجنسية مع عوفاديا عبد الله، الذى كان يعمل فى البستان حينما اشتراه دانيال من محمد أفندى. وتتبادل الحديث مع عوفاديا فى جنح الظلام، بينما لم يحدث أبداً أن تحدثت مع زوجها دانيال.

وكلمةلوناتعنى القمر،ورمزها، الحالة،وهى تذكرنا بشخصية "جمولا" الحالمة فى قصة عجنون"عبدو وعينام" ؛ وإن كانت ترمز عند عجنون الى الوجود الإسرائيلى فى فلسطين إبان فترة الإنتداب البريطانى، والى الشريعة اليهودية التى سُدت كل الطرق المؤدية اليها- فإننا نجد أن نقطة إنطلاق تموز "كنعانية" وليست يهودية. فلونا هى الأرض. ولأن الأرض، والبستان، ولونا- كلها رموز جامدة، فلا تستجيب إلا لمن يعرف كيف يعمل فيها ويمهدها، ويحرث ويزرع ويحكمها كما ينبغى. لكن لونا فى نظر دانيال لا زالت هى الحلم المأمول، كما تخيل صورتها فى السفينة، وهو فى الطريق الى فلسطين. والأخوان اللذان يحتفظان بإمرأة واحدة، هما الشعبان الرابضان على أرض واحدة. عوفاديا عبد الله من أهل المكان، يحكم المرأة والأرض من خلال عمله وقوته الجنسية،ويوصف بأنه إنسان غرائزى لم يتعلم كيف يتحكم فيها. بينما نجد دانيال الذى تفوق ثقافته قوته الجسمانية، يشبه تماما الفتى القاص فى "منافسة سباحه" ، حيث يغرق فى آلام تشاؤمية، ترجع الى أصله اليهودى. وتسيطر عليه أحاسيس الذنب فيفترض أن أخاه العربى له أيضا نفس الحق وأحقية الوراثة مثله تماماً، فى البستان وفى لونا.

فى عام ١٩٢٥ أنجبت لونا إبناً، لكن أحداً لم يعرف هوية الأب. وظهرت على الإبن فى طفولته بعض السمات العربية وكان يشبه عمه عبد الله، ولذلك يقرر دانيال ترك منزل البستان ليقيم مع زوجته وإبنه فى تل أبيب. وحينما بلغ الإبن العاشرة من العمر، أقيم له حفل فى البستان. وأثناء الحفل تجرى مباراة فى المصارعة بين الأخوين ؛ وكان الحَكَم بريطانى، وهو مدير

القسم الزراعى فى حكومة الإنتداب. ويسقط الإثنان خائرى القوى، منهكين فى نهاية المباراة التى قد ترمز الى أحداث فترة الإنتداب البريطانى على فلسطين، والتى يرى المؤلف أنها تبنت سياسة فرّق تسد.

وفى الفترة التى سبقت عام ١٩٤٨ يصبح إبن لونا عضواً فى الجمعيات اليهودية السرية ويقول لوالده : "أخبر عمى العربى، أنه يحسن به الكف عن التجوال فى البلاد إذا كان يريد أن يبقى على قيد الحياة.["البستان" ، الكيبوتس الموحد، ١٩٧٢ ص٣١].

وبالفعل ينضم عوفاديا عبد الله الى العصابات العربية، مثل عبد الكريم، خال نهيده فى "مسابقة سباحه" . ويحلم مع رفاقه باحتلال تل أبيب واغتصاب اليهوديات، بل إنه يصرح بعزمه قتل دانيال. وبعد سقوط يافا عام١٩٤٨ ، يحتل الجنود اليهود البستان. وكان إبن لونا أحد هؤلاء الجنود. ويبلغ عوفاديا عبد الله بإقامة مباراة بينهما فى ساحة البستان: "وكما صارعت أبى، ستصارعنى الآن" . [نفس المصدر ص١٠٦]. ويتبادلان الضرب بالعصى فى البستان، خلف البحيرة، وفى النهاية يتمكن إبن لونا من قتل عمه أو والده، عوفاديا عبد الله.

ولعلنا نذكر المباراة المشابهة التى وصفت فى "منافسة سباحه" ، وإن كانت نقاط انطلاقها ونتائجها مختلفة. ففى منافسة سباحه، يشبه موقف المؤلف موقف دانيال الأخلاقى، وهو الموقف الذى أعتبر آنذاك "يهودياً جداً؛ ولكن هذا الموقف يصل فى "البستان" الى حالة الإفلاس، حيث يطرح المؤلف بدلاً منه موقفاً إيجابياً، يعدم التخبطات الأخلاقية التى اتسم بها إبن لونا.

وبعد موت الأخ العربى، وإحراز النصر فى حرب ١٩٤٨ ، تنتاب دانيال حالة من اليأس، ترجع الى ماضيه اليهودى، السلبى،المنفوى "إذا كان لا بد من قتل عبد الله، لكى نثبت صدق قضيتنا، فلماذا لا نكون نحن أيضاً غير عادلين بالمرة" .[نفس المصدر ص١١٢]. بينما نجد الإبن الذى يتحدث العربية ويعرف دهاليز البلاد شبراً شبراً، يشترك فى العمليات الإنتقامية ويجلب لأمه هدية من إحدى هذه العمليات، قرطاً فضّياً لا زالت شحمة الأذن عالقة به. فما كان من لونا، التى ترمز بحكم طبيعتها الى الأم/ الأرض، التى لا تملك أى نظرة أخلاقية ولا رؤية خاصة، إلا أن أمسكت بالقرط وتقلدته بسعادة غامرة.

وتنشأ قصة حب بين الأم والإبن، الذى يرمز هنا الى الجنس العبرى الجديد، القوى- على عكس ما يتسم به "والده" اليهودى، من ضعف وعقم- وهو الجنس الذى سبق أن بشر به ربى زئيف يعبوتس فى قصته "الخامس عشر من شباط-روش هاشاناه لإيلانوت "(١٨٩٢). وفى المساء يستحم الإبن وأمه فى البحيرة، ثم يذهبان الى مصنع التعبئة، "يلمعان عاريان فى الظلام بين الأشجار، ويدلفان الى الحجرة التى كان ينفرد فيها عوفاديا مع لونا" . [نفس المصدر ص١٢٤]؛ وكما كانت تحدث عوفاديا، تحدثت فى لحظة الإنفراد هذه مع إبنها الذى تدله بها واغتصبها.

وفى نفس الوقت الذى نمت فيه قصة الحب بين الأم وإبنها، يبدأ إنهيار دانيال. فهو يعرف ما يحدث بين زوجته وإبنه، الذى قد لا يكون إبنه فعلاً، لكنه لا يجرؤ على تأديب إبنه. فهو صورة لليهودى المتمرد. ووفقا لبنية القصة، ليس من طبعه القيام بأى عمل إيجابى، فيندفع الى تدمير

ذاته. "لقد قتلت أخى داخل البستان". [نفس المصدر ص١٢٦].

وفى تلك الأيام تحمل لونا ثانية، بينما تسكن دانيال العفاريت والأشباح، "حينما تنضج ثمار البستان، ويبدأ دانيال فى رؤية روح عوفاديا وهى تتجول بين الأشجار فيطاردها، يجرى فوق التلال ويطلب منه العفو". [نفس المصدر ص١٢٩]. ويحاول أن يحرق البستان، حتى تبقى فى النهاية جذوع الأشجار فقط وحينئذ، "يمكن أن يرى الساحة كلها من أدناها الى أقصاها، ويصبح كل شيء واضحاً تماماً أمامه». [نفس المصدرص١٢٧].

ونجد فى وصف تموز تطرقاً غير مباشر لقصة "أمام الغابات". حيث يعتبر يهوشوع تخبطات الطالب، الذى يراقب الغابات، جنوناً نابعاً من استقامة يهودية بالغة، اتسم به الجيل السابق الذى بدأ يفنى. بينما نجد الطالب لدى تموز، إبن لونا، يدرس ويصبح مهندساً جوياً، ويتخذ موقفاً مختلفاً تماماً، لأنه لا يملك شيئاً من الإرث اليهودى الذى كان -فى فترة أحداث القصة- مرادفاً للإنهزامية، التى تحمل معها قدراً من الإحساس بتأنيب الضمير فى الصراع بيننا وبين العرب.

وفى إحدى الليالى ينام دانيال فى حفرة، بين الأشجار، فى البستان. ويعثر عليه فى اليوم التالى ميتاً. وكان يراوده فى الآونة الأخيرة حلمٌ بأن الإبن الذى ستلده لونا، "سيحقق مصالحة مع روح عوفاديا، لأنه يعد امتداداً لذكرى الميت؛ وقد يغفر لدانيال فى النهاية". [نفس المصدر ص١٣٠]. ويفجر المتسللون العرب مضخة المياه فى بئر البستان فى نفس الليلة التى يموت فيها دانيال. ولعلنا نجد فى ذلك تناولاً غير مباشر من جانب الأديب لأفعال التوأمين-المخربين، فى أحلام حنَّه جوتين فى "حبيبى ميخائيل"، ولعلنا نجد أن تموز يغالى فى عدد أولئك الذين يصابون بالجنون بسبب عذاب الضمير، وينتهون إما الى الإنتحار أو الوفاة غير الطبيعية. وفى هذه اللحظة يصير المستقبل، وإدراك الفعل السليم، سمة من سمات الجنس الذى ينتمى اليه إبن لونا.

وبعد الإنفجار فى البستان (لا زلنا فى عام ١٩٥٥)، يحمل الإبن بندقية بمنظار ويقوم بعملية إنتقامية لحسابه الخاص ضد سيارات العرب التى تعبر الطريق عبر الحدود. وتحكم عليه السلطات الإسرائيلية بالسجن لمدة عام، ولكن "هذه الحكومة نفسها تعلمت منه". (ص١٣١) ودخلت فى حرب ضد المصريين عام ١٩٥٦، أى أن السياسة الإيجابية قد انتصرت.

ولا ينكر إبن لونا علاقته بأبيه اليهودى، ولكنه يرفض جوهره اليهودى. وربما كان ذلك بسبب النكبة، التى لا يشار اليها فى هذه الهجائية الساخرة، وهو تجاهل يرمز الى الإنتماء لها. فالإبن يقف دائماً الى جانب الأب، ينتقم له من عوفاديا عبد الله، ومن تفجير البستان، وهى علاقة جدلية "كنعانية». فجوهر الإبن المنتمى للأرض، والإيجابى، "العربى" والمتجذر-هو الذى يجعل منه الوريث المناسب للأب اليهودى. وهذا الإرث الفكرى الذى يقدمه الأب- كما تجلى فى أحداث القصة، لايناسب ظروف البلاد، حيث كانت اليهودية لا تزال تتسم بالفعل الأخلاقى وليس بالقوة الشوفينية، وبالتالى فإنه لا ينطبق إلا على الأحلام المثالية عن الأرض، كما فى "نبوءة مساء" لربى بنيامين، أو كحب دانيال لشخصية لونا حتى قبل أن يلقاها لأول مرة.

وماذا عن مصير البستان؟، هنا، وعلى غرار أدباء آخرين من جيل ١٩٤٨، يحن تموز الى

ماضى ما قبل الدولة، ويمقت الحاضر. فلقد اشترى السماسرة أرض البستان، وعما قريب ستأتى الجرارات لاقتلاع الأشجار، وتبنى مساكن على أرض البستان، حيث" تتطاير الملابس فى الهواء من فوق الشرفات، كأعلام احتفالات البسطاء فى المدينة "(ص١٣١).

والجندى القاص، الذى يعذب فى "منافسة سباحة"، لا زال يتخذ موقفاً يهودياً. لقد كان يعتقد أنه فى هذا الفناء، «كنت وكنا جميعاً المهزومين»، ولذلك فقد يكون مصيره مشابهاً لنهاية دانيال، الأخلاقى. لكن المستقبل يخص أمثال إبن لونا، الذى يستخلص النتائج من منطق الواقع الوحشى.

وتبعث بعض السمات الهامة من الماضى فى شخصية الإبن : رومانسية رجال"هاشومير" الإيجابية، كما تظهر مثلاً فى"رحلات عماسى الحارس" ليعقوب رابينوفيتس ؛ وهى وجهة النظر التى تبناها العديد من الأدباء فى بداية هذا القرن حول الأصل المشترك بين اليهود والعرب ؛ والحلم بجنس واحد ينشأ فى البلاد، بشرط أن يكون عبرياً، بالطبع ؛ وتدور "كنعانية" راتوش حول كل هذه الموضوعات، التى تنشأ بها فى فلسطين والمنطقة كلها قومية عبرية جديدة، علمانية، منفصلة عن علاقتها باليهودية وقادرة على أن تستوعب فى داخلها كل العرب الذين سيتخلصون من عروبتهم ومن إسلامهم، وبالطبع، ستضم أيضاً الأقليات الأخرى فى المنطقة، التى ستحافظ على هويتها وتفردها الطائفى والدينى على غرار التجميعية فى الولايات المتحدة.

وفقاً لهذه النظرة فإن اليهودى، الذى يحمل إرث الجيتو، الذى يعتبر مرضاً نفسياً يمكن أن نسميه"الأخلاق الزائدة"، لا يستطيع أن يرث الأرض من العرب. ولكن هذا ما سيفعله أبناء لونا، الذين قد يكونوا أشباه عرب، حيث سيواصلون إنجاب أبناء وأحفاد، حتى آخر جيل، من أمهم، أرضهم الخالدة.

٧-العربى بطلاً فى الأدب الإسرائيلى

فى رواية أ.ب. يهوشوع"العاشق"(١٩٧٧)، نجد نعيم، الفتى العربى، إبن الجليل، يشق طريقه من المرآب الذى يتدرب فيه فى حيفا الى فراش "دافى" الفتاة اليهودية إبنة أسياده. ونجد فى هذه الرواية محاولة لرؤية الوجود اليهودى فى إسرائيل كما يراه العامل العربي الشاب. وأيضا كمحاولة لإيصال صوته الى مسامع الإسرائيليين: "لقد قررتم أن تعيشوا مع العرب، فى الوقت الذى تسيطر فيه ثقافتكم على البلاد. وها هى الثمار- فتى عربى يردد أشعار بياليك ويتحول الى جزء من نسيج حياتكم؛ وعليكم أخيراً أن تقرروا-إما أن تنفصلوا عن العرب وتعيشوا فى دولة يهودية فقط، أو تجدوا صيغة يمكن أن يعيش فيها اليهود والعرب متساوين، دون أن يفرض على العربى، المنضم برغبته الى الثقافة المشتركة، أن يبدو مهرجاً وغريباً الى الأبد.

ويمكن اعتبار هذه الرواية ثمرة من ثمار عشر سنوات من التعايش بين العرب واليهود فى إسرائيل والمناطق المحتلة منذعام ١٩٦٧. والمسافة شاسعة بين شخصية العربى زارع الشر، مقطوع اللسان، فى"أمام الغابات"، وشخصية نعيم الهادئة والمتطبعة بالطابع العبرى فى"العاشق". ويعيدنا

تعديل خطوط شخصية العربى الإسرائيلى، الذى لم يعد عدواً يقيم وراء الحدود، الى روايات عبرية قبل عام ١٩٦٧، مثل رواية حمدا آلون "غريب لن يأتى" (١٩٦٢) ورواية عطا الله منصور "مع الضوء الجديد"، التى تعد أول رواية عبرية يكتبها أديب عربى/إسرائيلى، ورواية "فنجان قهوة سادة" (١٩٦٧) ليهوشوع جرانوت. وتدور كل هذه الروايات حول شخصية شاب عربى، يشق طريقه الى قمة السلم الإجتماعى فى إسرائيل، ويرتبط بفتاة يهودية تعد بالطبع، قمة تطلعاته، كما هو الحال فى الروايات التى تعتمد على الفروق الطبقية، وعلى غربة البطل القومية، فى مجتمع غير مجتمعه. والأساس القومى موجود فى هذه القصص، لكن يبدو أنه نحى جانباً بسبب البنية الأساسية للرواية الإجتماعية/الطبقية. وفى الأعمال التى تتناول العربى- الإسرائيلى، وعربى المناطق المحتلة فيما بعد، مثل قصة جدعون تلباز "الى أين تحلق العصافير" (١٩٧٧)؛ لم يعد العربى كابوساً يطارد البطل الإسرائيلى، ولم يعد جزءاً من واقع شمولى مرعب، بل نجده يُشكل فى هذه الأعمال كفرد/ إنسان.

ويوجد فى رواية "العاشق" جزء هام له مغزاه، وهو قصة خوض العاشق، جبريئيل أردينى، حرب يوم الغفران فى عام ١٩٧٣، وهروبه من المعارك فى سيناء متخفياً فى زى يهودى متدين، لكى يجد لنفسه ملجأ فى القدس لدى ناطورى كارتا(حراس المدينة)، أي لدى اليهود غير الصهيونيين، الذين يعد وجودهم غيبياً، ويتبنون نوعاً من الهروب من تاريخ إسرائيل المرير الى أبدية المعتقد اليهودى البحت، اللاتاريخى، بلا دولة. أي أنه هروب من الإيجابية وثمنها المأساوى الى ما يبدو على أنه استمرار للخط السلبى، الذى ينتظر الخلاص المسيحانى، ليس على يد طائفة مسيحانية-يهودية معاصرة تعتقد أنها تستطيع توجيه دفة التاريخ، ولكن على يد السماء، والسماء فقط. وتتجاهل هذه النظرة ثمن المنفى والنكبة، بالضبط كما تتجاهل النظرة المسيحانية المتطرفة المعاصرة، الثمن الفادح الذى دفعه الشعب الإسرائيلى فى سعيه الدؤوب وراء الحركات المسيحانية.

ونجد فى رواية ش.ى.عجنون، أمس الأول، هروبا مماثلا، هروب من التاريخ الصهيونى الى الإستيطان القديم، حيث تتحدث عن فترة الهجرة الثانية وهروب بطلها، يتسحاق كومر، رجل الهجرة الثانية، عائدا الى الإستيطان القديم فى القدس، حيث يموت هناك وهو فى مقتبل العمر، فى الأربعينات.

وأيضا فى قصة "سفر تنحوم" (١٩٤٢)، لإسحق شنهار، يرد وصفٌ لأحد رجال الهجرة الثالثة، يدعى تنحوم؛ بعد أن تقلب على أغلب الصور الممكنة فى البلاد، بما فيها الوقوف مع العرب، كشيوعى، ضد اليهود، متأثراً بفكرة حرب الطبقات، يجد لنفسه فى النهاية ملجأً فى الإستيطان القديم فى القدس، ويهرب من التاريخ المعقد لروائع العمل الصهيونى وصراعه مع المسألة العربية.

***

وتوضح سيرة سامى ميخائيل(١٩٢٦) الذاتية، قدرته الخاصةعلى دخول أعماق عالم العرب الإسرائيليين، ويتجلى ذلك فى روايته "وصاية" (١٩٧٧). ومعروف أن سامى ميخائيل ولد فى

العراق، وكان عضواً فى الحركة الشيوعية السرية وهو فى بغداد، لكنه بعد فترة هرب الى إيران وواصل نضاله من هناك ضد السلطة العراقية، ثم ذهب الى إسرائيل عام ١٩٤٩، بمحض الصدفة أو ربما ساقه قدره الى ذلك، وليست وجهة نظره صهيونية بأى حال من الأحوال. وكتب فيما بعد رواية ضخمة عن هذه الأحداث، "حفنة من الضباب" (١٩٧٩)، يصف فيها صباه وشبابه فى بغداد.

ويوجد فى رواية "وصايه" ثلاث شخصيات هامة ولها مصداقيتها، وهم ثلاثة من العرب الإسرائيليين، فتحى، ووصفى، وفؤاد. فتحى شاعر الإحتجاج المدلل، الذى يمتدحه قراءه العرب وصديقاته اليهوديات، وهو شخصية حساسة ومأساوية فى آن واحد. فهو عربى فقد هويته، ويتطلع للتمتع بكل متع الدنيا، إلا أنه متهم ومشكوك فيه فى نظر الجميع. وعلى الرغم من أنه يعبر عن روح شعبه، إلا أنه فى حقيقة الأمر مغترب عن شعبه، ويتجسد ذلك بصورة مضحكة فى وصف زيارته لجنين. وهو فى نظر عرب الضفة الغربية إسرائيلى صرف، يكاد يكون يهودياً؛ طائر غريب عنهم؛ مثل فرخ الوقواق. وهذه هى أيضا نظرة الفتيات اليهوديات له. وهو إنسان ليس عملياً بالمرة، ومع ذلك فإنه عاشق لنفسه ويهتم بذاته كثيراً. لكن تطلعاته القومية، إذا تحققت، فإنها تخبىء فى جعبتها الدمار الكامل له وليس لإسرائيل فقط. ولكنه لا يملك الجرأة على مغادرة البلاد والإنضمام الى منظمة التحرير، كما فعل صديقه فكرى. فهو لا يستطيع التخلى عن الواقع الإسرائيلى الذى نشأ فيه والذى يعتبر بالنسبة له الهواء الذى يتنفسه- ربما أكثر من أى واقع عربى آخر فى أى دولة أخرى أو فى الضفة الغربية ذاتها.

ويتطلب هذا الوضع من فتحى "أن يسير كالمهرج بين اللصوص والمسروقين". [وصاية، عم عوفيد، تل أبيب، ١٩٧٧ ص٦٤]. ولا يستطيع أن يفعل أكثر من وضع توقيعه على منشور مشترك مع أصدقائه اليهود، يدين فيه قتل أطفال أبرياء فى الحافلة التى أقلتهم الى المدرسة. وحينما نشر هذا المنشور، يستنكره بشدة أفضل أصدقائه السابقين، فخرى، الذى سبق أن انضم الى صفوف منظمة التحرير فى بيروت؛ وينشر هذا الإستنكار على صفحات الدورية الأدبية "الأديب"؛ فى صورة مقال هجومى حاد على فتحى ويسميه فيه باسم الخائن الذى يرقد فى أحضان العدو، شاعر يضع أبياته الجوفاء تيجاناً على رؤوس قتلة شعبه، وداعر مثقف يقع فى حبائل باعة السموم. [نفس المصدر ص٦٢].

ويرمز فتحى الى وضع المثقف العربى القومى فى إسرائيل، الذى تقاس كل أعماله وتعبيراته ويُحكم عليها من الجماهير مختلفة المشارب: الجمهور العربى فى إسرائيل، واليسار الإسرائيلى، والفلسطينيون فيما وراء الحدود، إضافة الى عالم الأدب العربى برمته، الذى يحاكم فيه فتحى ذات يوم على قيمته الفنية وليس لأنه أحد شعراء المقاومة المشهورين فى "الأرض المحتلة".

وشخصية فتحى أبعد ما تكون عن أى شخصية حية للعربى عرفناها حتى الآن فى الأدب العبري؛ بدءاً من شخصيات سمولينسكى، ومروراً برجل من مزرعة حفظى بك، والأسير، وعوفاديا عبد الله، والعربى فى "أمام الغابات"، وانتهاءً بنعيم فى "العاشق". ففتحى إنسان

مثقف، حساس، مؤهل، غريب ومنفى فى آن واحد، ويذكرنا الى حد كبير بالبنية النفسية للمثقفين اليهود فى دول الغرب، أو بالمثقفين اليهود من الدول العربية، الذين انتقلوا للإقامة فى إسرائيل، فعاشوا حالة من التمزق بين ثقافتين، وهويتين، وتطلعات قومية مختلفة، ودول منشأ متباينة، ويدفعون ثمن أي قرار يتخذونه، مما يزيد من حدة حساسيتهم وعقدهم النفسية.

وعندما اندلعت حرب يوم الغفران لجأ فتحى الى زوجة صديقه الطيب، الشيوعى اليهودى، مردوخ، الذي ذهب للحرب. وهو يأمل من ناحيته فى انتصار العرب، ومن ناحية أخرى، قلق على مصير صديقه الطيب ويريد أن يعود سالما. ويفكر فى أمرين أساسيين طوال فترة إقامته فى منزل مردوخ: الإنتصارالبادى للعرب على إسرائيل، والذى أغرى بتصديقه، واحتمال إغواء زوجة صديقه، شولاه، التى منحته ملجأ يحميه من اعتقال السلطات الإسرائيلية كى تضاجعه. وينتشى بما يسمعه من الإذاعات العربية، ومن تلعثم الإسرائيليين، لدرجة أنه يقوم فى منتصف الليل ليعرض على شولاه وابنها المتخلف السفر معه الى جنين: حيث يرد لها هناك، فى بيت صديقه الطيب، جميل، بعضاً من جميل صنعها معه، بعد أن فنى الجيش الإسرائيلى فيما بين القناة وتل أبيب.

ولا يفيقه من أحلامه الوردية السوداء سوى وصفى، أخو زوجته فيما بعد، والذى يرمز وجوده الى العربى الإسرائيلى الذى يَحمِل أمنه بأفكار مادية ومتكيف مع واقعه، ويعيش الواقع بكافة أبعاده، ويعمل ويربح جيداً من شراكته لليهود، ويستغل ثراءه ووضعه، ولكن ليس بصورة شريفة دائماً، ومع ذلك فإنه قريب من شعبه ويعرف كيف يكون مقبولاً لديهم أكثر من وصفى، الشاعر، المثقف. الثورى المقتلع والمدلل. فهو واقعى حينما يقول : "فتحى، تيقظ، إنك تحلم. إذا لم يقرر اليهود تفكيك دولتهم بأنفسهم، فلن ننجح نحن فى ذلك [نفس المصدرص ٣٤٣].

لكن فتحى، الذى يقضى وقته مع فتيات يهوديات ويتمتع بملذات المجتمع الإسرائيلى المنفتح، غير المحافظ، لا يستطيع أن يحول أنماط المجتمع الإسرائيلى الى طريقته هو، وفى النهاية يتزوج من فتاة عربية، أخت وصفى، التى ستدير بيته وتربى أبناءه بالصورة المحافظة التى لا زالت متبعة فى المجتمع العربى، الذى لم يدخله الإنفتاح المدنى الإسرائيلى بعد. وقد يشير ذلك الى أن المجال الذى يكبح فيه تمرد فتحى ليس هو المجال القومى/ السياسى، وإنما هو المجال العائلى تحديداً؛ فلا يستطيع فتحى أن يتزوج من فتاة يهودية متحررة، عرفت رجالاً مثله، بل إنه فى داخله عبد للتقاليد المحافظة، التى يُسمح فيها للرجل فقط أن يمارس الحب بحرية، بينما تظل المرأة حبيسة إحباطاتها، وإلا اعتبرت زانية، وداعرة، ويُحل دمها.

أما فؤاد، أحد الزعماء المسنين فى الحزب الشيوعى، والذى بدأ الشباب ينحونه جانباً لأنه ليس متطرفا بدرجة كبيرة، ولا زال يأمل فى حل المشكلة بروح أخوة الشعوب، وروح المقولة اليهودية -العربية "بلا حرب"، فإن مصيره مأساوى الى حد ما، دون أى سخرية من جانب المؤلف. فزواج فؤاد يرمز الى حل المشكلة؛ حيث يتزوج من يهودية ويجد أنه يحاول فى حياته أن يحقق وحدة الشعوب، لكنه يواجه مشكلة، فتنهار أسرته ولا ينجح فى رأب الصدع فيها.

ويحاول أ. ب. يهوشوع فى "العاشق" أن يصف رحلة الشاب العربى المستقيم، نعيم، من قريته فى الجليل الى داخل المجتمع اليهودى المتمدن فى حيفا، حتى يعود ثانية الى قريته فى أحضان الجبال. ويعد نعيم صورة من فتحى فى بعض سنى شبابه. فلقد اكتشف الكثير من متع المجتمع اليهودي فى إسرائيل، كما اكتشف أيضاً التعالى والإحتقار الذى يكنه له هذا المجتمع، لكنه لم يدرك بعد أنه ليس له مكان حقيقى فيه، ولا أن طريق عودته الطويل المؤلم الى هويته الفلسطينية ووجوده العربى القومى، الموثوق، سوف يحيي فيه إحباطات كثيرة، بل إنه سيعتبر متعاوناً مع اليهود، وكأن عقليتهم علقت به.

ويعد فتحى شخصية مركبة وهامة، وأكثر إقناعاً من شخصية نعيم؛ ولا يرجع ذلك فقط الى أن القارىءيشعر بأن نسيج الحياة العربية أكثر قرباً وإدراكاً لدى سامى ميخائيل منه لدى أ. ب. يهوشوع، بل لأن نعيم، مثله مثل أبطال عرب سابقين فى الأدب العبرى، لا زال يمثل منظور أن العربى يُعد مشكلة للإنسان اليهودى فى إسرائيل، ولذلك فإنه يظل يمثل تعرية لشخصية غريبة عنا. ولكن ليس الأمر كذلك مع فتحى، الذى يتوسط القصة كالمهرج الكوميدى المأساوى، الذى تعد إسرائيل والعالم العربى والفلسطينيين، مشاكل عليه أن يواجهها من داخله. وفتحى بطل إسرائيلى تماما كما هو بطل عربى وفلسطينى. فنحن نتجاوب معه من الداخل، مع وجهة نظره، على الرغم من أنها تختلف عن وجهة نظرنا؛ فنحن، فى نظره، جزء منهم، تماماً كما يجب علينا أن نتعامل مع موقفه منا.

***

وتشير رواية "حفنة ضباب" الى قرب اندلاع حرب ١٩٤٨، وتصف حياة اليهود وجيرانهم فى بغداد فى تلك الفترة. بينما تصف"وصاية" الجو فى البلاد، وبخاصة فى حيفا، قبل وأثناء فترة حرب أكتوبر ١٩٧٣. كما أن أغلب أحداث "نفير فى الوادى"(١٩٨٧) تقع فى حيفا، وتنتهى بحرب لبنان فى صيف ١٩٨٢. ولقد لعبت قصص سامى ميخائيل دوراً فى تغيير وتشكيل صورة العربى فى الأدب العبرى؛ فلم يعد العربى شخصية رومانسية، بدائية، يمثل مشكلة أخلاقية وسياسية أو كابوساً، بل هو إنسان من لحم ودم، بطل يتوسط قصة حدث رواية عبرية؛ ويتجاوب القارىء معه ويرى الواقع من زاوية رؤيته هو: بطل ممزق بين ثقافتين، ولغتين، ودينين أو ثلاثة أديان، وهويتين قوميتين. وعلى الرغم من أن أحداث روايات سامى ميخائيل تقع فى فترات عاصفة : ٤٨/ ٧٣/ ٨٢، إلا أنها تميل تحديداً الى وصف الحياة اليومية وذلك النسيج الواهى، الذى يعيشه اليهود والعرب، فى بغداد أو فى حيفا.

وتدور أحداث القصة حول حياة أختين عربيتين مسيحيتين، هدى ومارى، وجدهما إيمان، والرجال الذين فى حياتهما، المقاول القروى، وحيد، واليكس، عاشق النفير، المهاجر حديثاً من روسيا، إضافة الى العديد من الشخصيات الفرعية من أقرباء الأسرة، والأصدقاءوالجيران. ويوصف الحدث فى القصة بسخرية، واعتدال، وبحماسة درامية، حيث يتم التركيز على العلاقات الإنسانية ذاتها: شئون العزوبة، والحمل قبل الزواج، والعثور على عريس

الخ. وتعيش هدى، التى جعلها سامى ميخائيل، راوية الحدث، فى عدة عوالم، ولكن آلامها وإحباطاتها ليست سياسية ولا ثقافية، بل ترجع الى عزلتها وخوفها من إقامة علاقات مع الرجال. وليس هذا خشية من قيود عرقية عامة. ففى النهاية تعيش الأختان حياة منفتحة الى حد كبير، وعلى الرغم من أن مارى تضطر الى خداع وحيد المستقيم لكى يعتقد أنه والد طفلها، إلا أن الحدث لا يعد نتيجة حتمية للواقع العربى المحافظ؛ فمثل هذه الأعمال يمكن أن تحدث أيضاً فى مجتمع يتمتع بالحرية الجنسية.

ويعتقد القارىء حتى نهاية القصة تقريباً أنه سوف يقرأ فى هذه المرة رواية غير عادية فى الأدب العبرى، قصة حدث عن أختين عربيتين، وزوج إحداهن القروى-العربى وعريس الأخرى اليهودى الروسى، الذين يعيشون فى تفاهم، بل إنهم يقومون فى نهاية الأسبوع، برحلة مرحة الى إيلات، وينجحون فى التغلب بالسخرية والفهم والروح الإنسانية العميقة على العوائق التى كان يمكن أن تعتبر حتى الآن فى عالم الأدب، أكثر مما هى فى الحياة، نقطة انكسار للعلاقات؛ ويتضح ذلك، على سبيل المثال، فى رد الفعل على مقتل إبن عم الشقيقتين، عضو منظمة فتح، فى غارة مظليين إسرائيليين على الطريق الساحلى فى بيروت؛ ولكن هذه المجموعة غريبة الأطوار التى يعرضها سامى ميخائيل فى روايته، تنجح فى استيعاب الموقف وتجاوز هذا العائق أيضاً، وتحيط نفسها بإطارات من حكمة الحياة الشعبية، القوية، المشتركة بين الشقيقين المصرى-القبطى، واليكس، واليهودى مفتول العضلات، الجاهل القادم من روسيا. ولا يكاد القارىء يصدق عينيه، فهل يعقل أن تكون نهاية الرواية نهاية سعيدة"؟.

لا. فإن الصورة المأساوية والمستحيلة للواقع تغزو قصة الحدث فى الصفحات الأخيرة. حيث يقتل اليكس فى حرب لبنان، بعد أن جُند فى القوات الإحتياطية. وتحمل هدى إبنه فى رحمها؛ فهل تستمر هنا وحدة الحدث فى ميدان القتال، بدءاً من "قرة العين" لحمدا بن يهودا، ومروراً بشمعون سهمورا لميداد شيف، وإنتهاءً ببستان تموز؟-لا. لقد قررت هدى عدم الإبقاء على الحمل، لأنها لا تعرف ماذا تقول لابنها حينما يكبر.

وتحاسب هدى نفسها فوق قبر اليكس: " ستعرف آنذاك وضعى، حينما أضطر الى تسليم إبنك الى حرب أخرى. سيرغب فى الإلتحاق بوحدة مختارة، لأنه سيحاول طوال حياته أن يثبت ذاته لأن لـه أما عربية وسيكون أيضاً غريباً بين العرب واليهود "[نفير فى الوادى، عم عوفيد، ١٩٨٧ ص٢٣١].

وتصف هذه الرواية مجموعة من المهاجرين أو الأغراب فى وطنهم: هرب الجد من مصر منذ سنوات طويلة. والأم والفتيات لاجئات أو مقتلعات من جذورهن. صحيح أنهن لم يطردن من البلاد، لكنهن فقدن كل ما يملكن ويعشن فى حالة من الفقر النسبى، وانفصال عن أسرهن. واليكس ووالديه أغراب فى البلاد، لذلك لا يعوقه شيء عن أن يحب هدى وإبداء رغبته فى تكوين أسرة معها. كما أن حبيبته التى هجرها فى روسيا ليست يهودية. أما الجيران العرب والأقارب فى القرية، الذين انتسبت لهم مارى، الأخت الصغرى، بالزواج، فإنهم يعيشون فى حذر، لإدراكهم

حدودهم كأقلية، لكنهم يحققون من ذلك أقصى فائدة إقتصادية. وبالفعل، يسود بينهم جو من صحبة المهاجرين أوصحبة الأقلية فى العالم الخاص الذى ينسجه أمامنا سامى ميخائيل، ويتيح له أن يمنحهم حياة دون أن ينساق الى قوالب وأنماط جامدة، ودون أن يتوقف أمام أسوار يستحيل تجاوزها وهى موجودة بالفعل فى الدولة ثنائية القومية، والتى تكثر فيها المشاكل. ويبدو أنه يشير الى أنه كلما زاد اقتلاعنا، وصرنا أكثر هامشية وبلا جذور، سيزداد احتمال أن ننفتح كل على الآخر ونعيش فى مجتمع واحد، محتمل، لا ترسم فيه الحدود التى تقسمه وفقاً ليهود وعرب، يعيش خلفها كل منهم منغلقاً على ذاته منذ أجيال طويلة.

***

تتكون رواية أنطوان شماس (١٩٥٠)، "أرابيسك"(١٩٨٦) من خطين متوازيين. الخط الأول، طفولة المؤلف فى قرية "فسّوطة" فى الجليل ويصاحبه فى الرواية انطباعات وقصص وأحداث وروايات أسرية: قرية معزولة فى سوريا، ترجع اليها عائلة الأب، بينما ترجع عائلة الأم الى بيروت، وكذلك قرية "فسّوطة" ومناظر الجليل الطبيعية، بالإضافةالى حيفا؛ وبعض البعثات الى الأرجنتين وأماكن أخرى هاجر اليها بعض أفراد الأسرة عبر السنين. وفى فترة ما بعد قيام الدولة تضعف قوة الذاكرة، ربما لأن البطل وأسرته غادروا القرية خلالها.

والخط الثانى هو قصة حدث الرواية. وبطلها، كما فى الخط الأول، هو المؤلف المسمى باسمه الحقيقى، أنطوان شماس، وهو شاب بالغ، إقتلع نفسه من القدس، خلال زيارة قصيرة لباريس، إستمرت عدة شهور فى مؤتمر دولى للأدباء فى أيوبا سيتى. وتظهر فى هذا الخط أيضاً ذكريات من فترة سكناه الأخيرة فى القدس، وزياراته للضفة الغربية، فى ظل الإنتفاضة.

ويبدو الأسلوب العبرى لدى شماس وكأنه يريد إظهار مدى نجاحه فى اللغة العبرية، وهى ليست لغته الأم، أكثر من الأدباء الذين ولدوا يتحدثون بها. لكن يبدو أنه لم يتمكن إلا من إثبات أنه غير حساس لطبيعة اللغة العبرية. وصحيح أن اللغة البلاغية والإصطناعية موجودة أيضاً لدى أدباء عبريين آخرين معاصرين، سواء ولدوا والعبرية لغتهم الأم أم تعلموها بعد ذلك، لكننا لا نجد هذه اللغة عند شماس مجرد بلاغة، وإنما هى ضعف يرجع الى فائض خبرة. فلقد سبق أن قام موشيه ستيبسكى فى كتابه الموسوم "القرية العربية"(١٩٤٦)، بإرجاع أوصاف من حياة القرية العربية الى الكلمات والمصطلحات المعبرة عن ذلك فى المصادر العبرية، من عهد قديم ومشنا، كما فعل ذلك أيضاً العديد من الأدباء الرومانسيين الذين أرادوا رؤية شخصية آبائنا من فترة العهد القديم فى نمط الحياة القروية. ولكن شماس إنساق وراء إظهار الخبرة والحنكة، وهو أمر يدعو فعلاً الى الإعجاب- فإنه يكتب بعبرية تحتاج فى كثير من الأحيان الى قاموس لكى نفهمها- ولكن هذه الظاهرة تشير الى عدم فهم لروح اللغة العبرية كلغة حية، وليس مجرد لغة حديث، بل هى أيضاً لغة أدب؛ (بينما) يتعامل شماس معها بصورة إصطناعية، يبحر فيها كما يشاء.

"وقفت بباب المعصرة. وقد زكمت أنفى رائحة بقايا الزيتون من عبق السنين. هذه هى الرائحة المركزة، الخام، التى تحيط حواسك وتزكمها وتضعف حينما تهب ريحاً محملة ببرودة

الخريف. وبينما أنا واقف بباب المعصرة، إذا بحصان يتصبب عرقاً يجول فى دوائر لا نهائية حول رحاة العصر، وهى من الصوّان، وأخذ يجذب نطاقها حول محور ارتكازها الذاتى المربوط فى ثقب فى سرة البغل، وأخذت شظايا الزيتون تتطاير وترتفع مهددة بتجاوز حافتى الصخرة، الى أن جاء الكنّاس وكبح جماحه. المعصرة صغيرة جداً لدرجة أننى خلت حركة الحصان الدائرية هى التى تمسك الجدران عن السقوط حول محور المعصرة. وأنا واقف بباب المعصرة، فى يدى كسرة خبز رقيقة خبزت لتوها على بعد بضعة منازل، وأخذت أنظر الى الحصان الذى عكسه المصباح الخافت على الجدران وفوق أكوام النفايات، وتاقت نفسى لأبى، الذى تمسك يداه الآن مقبض المعصرة وتنزل بإيقاع ثابت بالعصا الحديدية التى تعصر الزيت من بين ثنايا سلال الزيتون، المرتبة حول محور المعصرة الذاتى، وينساب الزيت الى بئر التجميع، حيث يمكن أن آخذ من هناك قليلاً من الزيت أغمس فيه كسرة الخبز الساخنة["أرابيسك" ،عم عوفيد،١٩٨٦ ص١٠٣]. وهذه ليست مجرد قدرة لغوية فائقة، بل يبدو أنها تخبىء فى جعبتها إتجاهاً أيديولوجياً. فلقد وصف الأدب العبرى الرومانسى الحياة الزراعية المتجددة فى فلسطين؛ وكان لهذه الأوصاف الزراعية غاية واضحة، هى إبراز أن كل جزء من الحياة اليومية فى القرية العربية له مقابل فى أصولنا، ونحن نعرف منه الكثير عن حياة آبائنا فى فترة العهد القديم؛ حيث يبدو الفلاحون والبدو وقد حافظوا لنا على هذه الحياة لكي نرثها ونواصلها، بصورة عصرية بالطبع.

وهنا فى أرابيسك، جاء إبراز خبرة شماس فى أصولنا لكى يسخر من جمهور قرائه العبريين، حيث أغلبهم من إسرائيلي المدن (أوليس هو نفسه مدنياً انفصل عن هذه الأنماط الحياتية القروية، والتى بدأت تتلاشى من العالم، حتى بين أبناء شعبه). وهو هنا يحاول أن يخلق نسيجاً لغوياً عبرياً ثرياً، قديماً فى بعض الأحيان، من واقع خياة آبائنا، يرمز الى أن الوريث الشرعى للعبريين القدماء، لا يوجد إلا فى شماس وأوصاف طفولته، كمثل لواقع عرب فلسطين(الذين أثروا على مخيلة آبائنا) ؛ وأسلوبه يختلف عن أعمال عبرية أخرى معاصرة له، تتردد كثيراً فى استخدام لغته العبرية "الزراعية القديمة" ، والتى يبدو أنها اختفت مع انتهاء الإتجاه الرومانسى الذى ساد الأدب العبرى فى بداية هذا القرن.

***

وتعيدنا قصة "المنوّمون"(هاعير١٩٨٩) ليعقوب بوتسن(١٩٤٦) الى خاصية الشعبين اللذين يعيشان على أرض واحدة ويتمسكان بها. ويذكرنا الصراع بين آساف وعصام على المرأة، وصيد الخنازير والعلاقة الحقيقية بالأرض- الوطن، بالصراع الذى دار بين دانيال وعوفاديا عبد الله حول لونا، البستان والعلاقة بالأرض، مع إختلاف بسيط وهو أن هذه حدثت أيام الإنتداب البريطاني قبل قيام دولة إسرائيل كدولة يهودية ذات سيادة. بل إن رسم شخصية دانيال- آساف وعوفاديا وعصام- متشابه فى بعض الخطوط، خاصة فى التركيز على التعارض بين الإرتباط العربى بالأرض والمدنية اليهودية المقتلعة.

والان وكأننا عدنا الى أيام الإنتداب البريطانى. يعيش الآن شعبان على أرض واحدة، فى

دولة ثنائية القومية، وكأنه لا وجود لدولة إسرائيل، مع إلغاء الفترة التى انفصلت فيها هذه الدولة عن البيئة المحيطة بها كدولة يهودية فى أساسها، وصحيح أنها دولة محاصرة، لكنها ليست مقسمة من الداخل.

واعتباراً من الآن بدأ العربى، كفرد/ إنسان، يظهر فى الأدب العبرى المكتوب فى هذه الأرض القديمة-الجديدة، الأرض التى أصبحت منذ يونيو١٩٦٧، دولة لشعبين، ولم تعد الرومانسية تظهر فى شخصيته، ولم يعد هناك تأرجحٌ بينها وبين مرارة الواقع كما فعل برينر، ولم تعد هناك كتابة صادقة عن حياته من الداخل، ولم يعد يظهر كمشكلة أخلاقية تواجه المحارب الإسرائيلى الذى يعتبر نفسه قادراً على كل شىء، قوياً ومتهماً أمامه، ولم يعد يظهر حتى ككابوس مرعب، فلم تعد هناك مشكلة إجتماعية- قومية فقط للعربى الإسرائيلى-بل هناك شعبان يعيشان على قطعة أرض واحدة، فى وطن الأشواق المتناقضة، وفى صراع مرير، متواصل، يتم فى صور مختلفة، ولم يعد يوجد لأحداث القصص نهايات متفائلة.

وحتى الحنين الى الماضى كما يبرز فى قصة ش. شامير(١٩٣١)"ليل الجدي" . [يديعوت أحرونوت، ١٩٩٠]،التى تطرح بقوة شخصية المرأة العربية فى سنوات ما قبل قيام الدولة، فى المنطقة المسماة الآن جوش دان، والتى كانت قبل أقل من خمسين عاماً عالماً مختلفاً تماماً، يطرح بتجاوب وحساسية مفرطة ودون أى تطرق للبعد القومى، لكن هذا الحنين لا يكفى لتهدئة الصراع المستمر، والذى لا نعرف من الذى سيرث مسئوليته فى النهاية ؟.

***

حمدا بن يهودا

قرة العين

من لا يعرف بوليسا مازال؟. لقد ماتت، لكن حتى الآن، إذا ذكر اسمها، يلوذ الأولاد بالفرار، لأنها رحمها الله، كانت مجرمة كبيرة. توفى زوجها قبلها بثمانية وعشرين عاماً ويقال إنه توفى فجأة وهو فى ريعان الشباب، لأنها نغّصت عليه حياته، وهو الإنسان الطيب. ولقد عانت بناتها منها أكثر مما عانى اليهود فى عبودية مصر، ومع ذلك أحببنها حباً جماً، بلا حدود، واحترمنها وقدرنها أكثر من تقديرهن لأبيهن. لكنها لم تضع كل هذا فى الإعتبار، ولم تحاول أن تلقى له بالاً، لأنها اتجهت بكل مشاعرها الى إبنها الوحيد، نسيم، والذى يدعونه ميركادو. بينما كانت تدعوه هى "قرة العين"، وهو الإسم المحبب لديها. ودفعت به فور ولادته الى جار فقير يعلمه مقابل خمس مجيديات(عملة فضية كانت منتشرة فى فلسطين إبان الحكم التركى-المترجم).

كان عمرها خمسة عشر عاما حينما زوجوها، وظلت عاقراً عشر سنوات. أنجبت أكبر أبنائها وهى فى الثالثة والعشرين، لكنه مات قبل أن تحظى بافتدائه. وسقط حملها الثانى، ثم أنجبت أربع بنات، فبلغ بها اليأس مداه: كانت تخجل حتى أمام زوجها، وجيرانها، ومعارفها، فما قيمة نسبها وحسبها وحكمتها وجمالها وثرائها وكل ممتلكاتها، إذا لم تنجب قرة العين. وكانت جاراتها الدميمات يسخرن منها وسعدن بذلك، وأرجعوا ذلك الى انتقام الله منها لسلاطة لسانها وعينها الحاسدة.

جربت كل ما أتيح لها من وسائل وأدوية عرفتها فى هذا الشأن، سواء من أمها، أوحماتها، أوخالاتها وأخواتها وكل الأقارب، أو مما أخبرتها به العرافات اليهوديات والعربيات. لكن دون جدوى، الى أن تخلت عن كبريائها فى النهاية وذهبت الى ساحر عربى، يدعى عبد الرحمن، وكاشفته بسرها وبكت أمامه بكاءً مريراً. فطيب عبد الرحمن خاطرها وأخبرها أن هذا كله لأنها فائقة الحسن. وكانت بوليسا فعلا رائعة الجمال، ولا يضاهيها أحد فى جمالها وهى فى الخامسة والثلاثين؛ كانت بيضاء ممتلئة، عيون سوداء واسعة وقوام ممشوق بإبداع، يكادالجمال ينطق على شفتيها. وأضاف اليها رداؤها الأزميرى مزيدا من الحسن؛ وقد التف شريط من القطيفة السوداء حول رقبتها، كتاج عملات ذهبية متراصة فوق بعضها. وتدلى من فوق ظهرها شال أبيض خفيف الى خاصرتها يعقده عقد من اللآلىء الكريمة تدلى على وجنتها. وحول رقبتها، عقد نجوم مسبوكة من الذهب الخالص، وحول معصمها أساور ذهبية تملأ ذراعها؛ وفستانها مفتوح فوق صدرها

كاشفاً أعلاه بفتحة على هيئة قلب، ويغطيه شال خفيف يمتد حتى خاصرتها. وكانت ترى أن الفتحة ليست كبيرة، والشال ثقيلاً، لذلك كانوا فى بلدتها يدعونها "المتبجحة". لم تخف شيئاً على الساحر. فطلب منها أن توسع "صدرها"، وفور عودتها الى البيت تستبدل شالها بآخر أكثر شفافية. وأمرها أن تنذر نذراً، بألا تتزين بحليّها حتى تنجب ذكراً، وقام بنفسه بنزع العملات الذهبية عن رأسها، وعقدها وأساورها. لم يترك لها الا الأحجار الكريمة قائلاً : "هذه أحجار جميلة متواضعة". لم تعارض، نفذت كل ما أمرها به، بعد أن أسرها بعينيه التى أطلت من السماء بزرقتها. وكان من الطبيعى أن يستبقى الساحر المجوهرات لديه ولم تبصرها عيناها بعد ذلك، فلم تجرؤ على طلبها منه، لأن ذهابها اليه كان سراً ولا بد أن يظل سراً دفيناً طالما هى على قيد الحياة. لقد أقسمت له على ذلك، وفيم الضرر؟ المهم أنها أنجبت إبناً. نسيم، ميركادو، قرة العين. لم تخبر زوجها الا بالنذر بألا تتقلد حليها، وما أن أنجبت حتى كافأها زوجها بحلي جديدة أضعاف ما كان لديها، تقديراً وعرفاناً بالتضحية التى قامت بها.

وفور ولادة الصغير قامت إثنتان من صديقاتها بجمع الهدايا من الفضة الخالصة، وصنعوا له من كل ما جمعوه حجاباً كبيراً قلده له العرَّاب الحكيم، يوم ختانه، ونصحتها خادمتها العجوز التى وهبتها لها أمها وأوصتها برعايتها، بألا يستحم قبل بلوغه عامين، وحتى ذلك الحين تمسحه بالزيت فقط، ولا يلبس إلا هدية أو صدقة من أغراب. ونفذت بوليسا كل ذلك، وبعد كل هذه المعاناة حظيت فى النهاية بلقب الأم التى تسعى الى قص ضفائرها الذهبية فى احتفال "لاج باعومير" فى ساحة الصديق شمعون، عند باب القبر.

كبر الولد وازداد جمالاً، وأصبح الإبن المدلل لوالديه وأخواته وكل الأقارب والجيران والأصدقاء. واندهش الجميع من طلعته، فهو لا يشبه أباه ولا أمه، ولا أحد من أفراد الأسرة. لأن لهم جميعاً عيون سوداء وشعر كالح، بينما كان هو أبيض (وقد شابه أمه فى ذلك) وعيناه بلون السماء وشعره أحمر صافى، يتلألأ بشعيرات حريرية مذهبة.

كانت أمه تقول : " عيونه السماوية هبة من السماء! " فلقد رفعت عيونى الى السماء طيلة خمسة وثلاثين عاما أطلب قرة عين لى. أما شعيراته الذهبية فقد ورثها عن أخى، اليس معروفا أن الأبناء يشبهون الخال.

وحينما بلغ الرابعة بدأ يدرس لدى الحاخام. فى الخامسة قرأ صلاة الجنازة على روح والده. فلقد مات فجأة بعد مشاجرة لها مع الجيران وأدرك أن الحق معهم، لكنه لم يستطع أن يقول لها شيئاً، وحينما شرع فى محادثتها مزقت رداءها وأمسكت ثدييها بيديها ونظرت الى السماء صائحة بصوت عالٍ : " ياإلهى! أريد منك حكماً عادلاً! " وظلت على هذه الحال بضع لحظات وأخذت شفتاها ترددان همسا : "يا عبد الرحمن، يا عبد الرحمن"؛ وظن الجميع أن بها مس من الجنون، فسقط مغشياً عليه، ولم يمض وقت طويل حتى وافاه الأجل.

بكت زوجها الطيب طويلاً، لكن بكاءها لن يبعثه من قبره. وتدهورت صحتها حتى هرمت قبل الأوان. لكنها وجدت بعض العزاء فى إبنها، قرة عينها. وكبر الإبن وازداد جمالاً على جمال؛

فقد شب طويل القامة، جميل الطلعة، نبيلاً، فخوراً بنفسه، حكيماً وحصيفاً، قارئاً للتوراة. لكنهم علموه أيضاً علوماً أخرى تتفق ومتطلبات العصر. لكنها بهذا أخطأت فى حق الرب وفى حق نفسها وحقه. فقد فتحت هذه العلوم أمامه عالماً آخر خارج القدس وأصر بعناد على رؤيته!.
وما أن وصل الى سن البلوغ حتى زوَّجته أمه من فتاة جميلة متواضعة ظانة أنها بذلك يمكن أن تنسيه تطلعاته الغربية. لكن زوجته لم تنجب له سوى بنات، لذلك دعاه أصدقاؤه وجيرانه "أبو البنات"، وأغضبه هذا جداً، فكره زوجته، وكرهتها أمه أيضاً وضايقتها كثيراً، بينما كانت كل رغبات إبنها مقدسة، وطلباته كلها مجابة. وحينما كبر لم يعد يستشيرها فى شيء. وملأ البيت بالغالى والنفيس، سرير ذهبى كسرير سليمان، وغطت المرايا الكبيرة كل جدران البيت، واكتست أرضية المنزل بالسجاد العجمى، وملأ "ولى العهد" كل الحجرات بالأثاث النفيس الذى جلبه من كل المدن ومن خارج البلاد أيضاً. من دمشق وإستانبول وباريس ولندن. وكان كريماً مضيافاً يقدم الطعام لضيوفه بسخاء فى أدوات من الفضة المطلية بالذهب. وملأت أمه كل القاعات والممرات بإصص الزهور الجميلة. فكان بيتهم يسمى فى المدينة "بيت السلطان". فعلت كل هذا إرضاءً لإبنها، وحيدها، وقرة عينها. لكن كل ذلك لم يكن يأسر هذا المستهتر إلا للحظات، يعود بعدها من جديد الى ثورته وغضبه. ولم يكن يغضب إلا من زوجته وبناته. وما أن بلغ سن الرشد وأصبح قيِّماً على أملاكه حتى سافر الى مصر ومنها الى إستانبول ثم الى باريس. وترك زوجته مهجورة. كان يراسل أمه على فترات متباعدة. وغضبت المدينة كلها من هذا الجحود، لكنها كانت تدافع عنه بصلابة، "أليس هو قرة عينها".

وخلال فترة وجيزة خسر كل ماله ورهن كل المبانى والأراضى التى ورثها، وطالب أصحاب الديون ببيعها. وهنا تدخلت أمه العظيمة وقالت إنها لن تسمح بأن يمس أحد أى من ممتلكات إبنها إلا أمامه؛ وتراجع الجميع أمام شخصية هذه العجوز المدهشة.

وأمام كل توسلاتها له بالعودة، كان يعدها بتنفيذ رغبتها، لكن بشرط أن ترسل له المبالغ اللازمة لتغطية ديونه وتصفية أعماله. فأرسلت له المرة تلو الأخرى كل مالديها الى أن صارت معدمة وعانت سراً من الجوع والحرمان. حينئذ ثارت ثائرة بناتها وطلبن منها أن تبيع جزءاً من الممتلكات الكثيرة المكدسة بلا فائدة فى منزلها، لتعول نفسها، وزوجة إبنها المهجورة وحفيداتها. لكن حبها الجارف لإبنها، قرة عينها، جعلها تعتبر أن كل ما مسته يداه، أو نظر اليه بعينيه، أو وطأته قدماه، أو تشبع بأنفاسه، أشياء مقدسة؛ وإذا تركتها ليستخدمها أشخاص آخرون بسطاء ومرضى لا يصلون الى كاحل إبنها، كبير عصره وزمانه، فإنها ترتكب بذلك خطأً جسيماً لا يغتفر.

حينئذ بدأ أفراد الأسرة المقربين يدفعونها الى كراهيته، وحدثوها بكل مساوئه، وأخبروها أنه خسر دينه وترك إلهه وتزوج من مسيحية بلا عرس ولا كتاب، بل إنه رغب فى تغيير دينه ليصبح مسلماً. وقدما لها شاهدى عدل كانا فى باريس سمعاه يقول" أنا مسلم إبن مسلم"، لأن زملاءه كانو يقولون له ذلك وهو صغير كلما أرادوا استفزازه. وكانت أمه آنذاك تطردهم من بيتها وإذا

تمكنت من الإمساك بأحدهم كانت توسعه ضرباً. وفى الحقيقة كانت سحنته وعاداته وخصاله تحمل الكثير من السمات العربية، وكان طوال حياته مرتبطا باللغة العربية ويتعامل معها بحب بالغ. وكانت حياة هذا الشعب المستعبد قريبة من قلبه، ولو تطلب الأمر، لضحى بحياته من أجله.

لكن أى الجرائم يمكن أن يغطيها حب الأم؟. دائماً وجدت له المبررات، ودائماً غفرت له كل شىء، وجلست البائسة شهوراً طويلة خلف النافذة تنتظره أو على الأقل تنتظر خبراً منه. لكنه فى الاونة الأخيرة لم يعد يرسل لها خطابات، فماعاد يستطيع الكذب عليها أكثر من ذلك، ولم يعد قادراً على وعدها بوعود كاذبة، ومع ذلك كان وقت الشدة يرسل لها برقية يقول فيها :

"أمى الغالية العزيزة. أنقذيني من الضياع وارسلى لى فوراً خمسة آلاف شيقل. أقبل يديك. نسيم. ".

حينئذ كانت هذه البائسة تبيع حليها، وأشياءها الثمينة وترسل له المبلغ المطلوب. ومرة أخرى ما من جديد من إبنها، حتى تنقضى عدة شهور، لتصل برقية أخرى من هذا النوع. لكنها أخيراً لم تتمكن من تلبية طلباته كاملة، فكانت ترسل له نصفها فقط، ثم الثلث، الى أن نزلت المبالغ الى ألف ثم مئات. وانهارت العجوز وخارت قواها من شدة الوله والعذاب، وباتت تسير بصعوبة وضعف بصرها من شدة البكاء، وبعد أن نفذ صبرها أدركت أن الأدعية التى أمرت الحكماء بقراءتها، ضاعت كلها هباءً، واحترق الزيت الذى قدمته بسخاء فى كل المعابد مع تبخر آمالها فى رؤية شىء من إبنها الوحيد.

وذات يوم طلبت من صغرى حفيداتها أن تقودها.

-سألتها الطفلة : "الى أين ياجدتى؟".

-" لنذهب وسأدلك على الطريق. فقط إدعمينى وحذّرينى من العربات العابرة والجمال والحمير، لأننى لا أرى جيداً".

نزلا الى بوابة يافا ومن هناك على البطرك، عبر "باب الزيت" الى "باب حطة"، حيث يعج المكان بالمسلمين. ودخلت العجوز مع حفيدتها عبر باب منخفض فى فناء صغير، وأخيراً وبعد جهد عثرت على مقر الساحر، عبد الرحمن. وأمرت الطفلة بالوقوف خلف الباب ودلفت هى الى الداخل. نفس الحجرة المظلمة، ونفس السحر. لكنها لم تعرفه ! لقد صار شعره أبيضَ كالثلج، وانحنى جسده ولم يعد يستطيع القيام منتصباً، كما كان من قبل؛ وغطت عينيه الزرقاوين سحابات العمى؛ وسقطت أسنانه، وتقريباً لم تفهم شيئاً مما قال لها. طلب منها أن تتحدث بصوت عالٍ لأنه لا يسمع. فلملمت بوليسا بقايا قواها وتمكنت، بجهد بالغ، من تذكيره بما أنساه الزمن. وروت له ما حدث منذ ثلاث وثلاثون عاماً دون أن تخفى شيئا!. أنصت لها الرجل العجوز، وصمت، أخذ يفكر وقد تقطب جبينه كالتاج حول أنفه الضخم، ثم قال :

-"ولماذا تركت الأمور تصل الى هذه الحال ولم تأتنى؟!".

وبدلاً من الرد أخذت تبكى بكاءً مكبوتاً. فرَق لها قلب الرجل، وقال : "أحضرى لى ورقة بها إسمه وإسم أسرته ومكان إقامته الآن. وسأرفق صلاتى بهذه الورقة وأرسلها...الى الخليل،

الى قبر الآباء فى مغارة المكفيلة. أصبرى ولا تملى الإنتظار، وثقى فى كرم الله الرحمن وسيأتيك الخلاص! " .

أخرجت من صدرها خطاباً قديماً، أصفراً، ضاعت كل حروفه تقريباً من القبلات الكثيرة التى طبعتها عليها والدموع التى ذرفتها فوقها. قطعت جزءاً من آخر الخطاب مدوناً فيه عنوان إقامة إبنها، وسلمته للرجل. أمسك العجوز اليد التى مدت الورقة بإحدى يديه وتحسس رقبتها بالأخرى، حتى وصلت الى رأسها. فرفع اللآلىء الرخيصة عن رقبتها. . . ولم تعارض. سعدت وابتهجت وراودها الأمل فى عودة الحظ الى بيتها؛ وجلست الى نافذتها فى انتظار الخلاص. مر شهر، شهران، ثلاثة، وما من خبر عن إبنها ولا رد على خطاباتها. خبا بصرها من شدة البكاء، وانتابها اليأس. وذات يوم، بينما هى جالسة بعد الصلاة بجوار نافذتها تفكر : "أعبد الرحمن كاذب! " . حينئذ سمعت طرقاً قوياً بباب البيت، إمتلأت رعباً، خوفاً من بشارة سيئة. فتح الباب على مصراعيه ودخلت الى الحديقة عربة فاخرة بحصانين سريعين، وسرعان ما وقفت أمام مدخل البيت. وقفز من العربة رجل أبيض، ممشوق القوام، ذو عينين زرقاوين وشارب أحمر، مرتدياً ثياباً فاخرة. لم تتحرك العجوز، وأخذت تنظر عبر النافذة وسألته بهدوء :

-" ماذا يريد سيدى؟ " .

-" السيدة أمى! . . " وانحنى ليقبل يدها بحنان. . . . .

ظلت بوابة المنزل مغلقة لمدة يومين. لم يدخل منها قريب ولا صديق. لم يدخل سوى الطبيب الذى أستدعيَ ليقيم بصفة دائمة بجوار فراش المريضة. لا أحد يعرف ماذا قالت وبم اعترفت. لأن الطبيب لا يكشف سراً عرفه بحكم مهنته.

قرأ نسيم صلاة الجنازة على روح أمه، وغادر المدينة وانقطعت أخباره حتى اليوم.

(١٩١٠)

***

موشيه سميلانسكى

لطيفه

كنت أقول وأنا صغير " من لم ير عيون لطيفه، لم ير فى حياته عيوناً جميلة" . كانت لطيفة آنذاك، فتاة عربية عذراء.

ومرت السنون، ولا زلت أقول ذلك.

أيام سبتمبر. . وقفت فى الحقل على رأس مجموعة من العرب، أجهز أرضى لأول زرعة. كان قلبى مفعماً بالتفاؤل، وتفاءلت المنطقة كلها مثلى. فاليوم جميل وصحو. والجو صاف ونقى، دافىء وصحى. سطعت الشمس فى الشرق وألقت بضيائها الأحمر على الكون؛ جذبت نفساً عميقاً وكأن رئتي أرادتا ابتلاع كل الهواء مرة واحدة. إكتسى كل شيء حولي بالخضرة ونبتت فوق الهضاب غير الممهدة بعض الأزهار البرية، لتضفى على المشهد جمالاً وروعة.

رأيت بين الفتيات العربيات اللائى أخذن يجمعن الأحجار والحشائش، فتاة جديدة لم أرها من قبل. كانت فتاة غضة، فى الرابعة عشر من عمرها. ممشوقة القوام، خفيفة الحركة، ترتدى فستاناً أزرق، ويغطى شعرها طرف منديل أبيض، أما باقى خصلاته فقد تدلت على أكتافها.

سألتها عن إسمها لأسجله.

التفت الىَّ وجه صغير، أسمر ينطق بالجمال، تلمع فيه عينان سوداوان: "لطيفه!" .

كانت عيناها جميلتين : كبيرة، سوداء، لامعة؛ تشع منهما السعادة والرغبة. قال عطا الله، الشاب العربى الذى انهمك فى تلك اللحظة فى انتزاع حجر ضخم : "إنها إبنة الشيخ سوربجى!" . خرجت الكلمات من فمه وكأنها عن غير قصد. وأخذ يغنى بصوته الرخيم مقطعا من أغنية وهو يغمز لى بعينيه : " كنجمتين فى ليل صيف جميل" . . .

وجدت موضوعاً جديداً فى عملى يشغلنى؛ فحينما كنت أشعر بالملل والإكتئاب، أنظر الى عيون لطيفه، فيزول عنى التعب والإرهاق وكأن يداً سحرية مسَّتني.

كثيراً كنت أشعر ببريق عينيها الدافىء يختلس النظر إليَّ.

وذات يوم لمحت مسحة حزن وأسى فى نظرتها.

إمتطيت حمارى الصغير الرمادى، كى أذهب الى الحقل. وقابلت لطيفة عند البئر، وعلى رأسها جرة ماء، فهى التى تجلب الماء للعمال.

- "كيف حالك يالطيفة؟".
- "أبى لا يريدنى أن أعمل".
إنطلقت هذه الكلمات القليلة من فمها بسرعة، وكأنها أفرغت ما كان يثقل على صدرها. كان صوتها حزيناً، وكأنها تعيش كارثة.
- "اليس الجلوس فى البيت أفضل لك من العمل؟..".
نظرت الىَّ، وقد ضاقت عيناها قليلا، وكأن شيطاناً مسها. وسادت لحظة صمت.
- "يريد أبى أن يزوجنى إبن شيخ "آجير".
- " وأنت؟".
- " خير لى أن أموت".
وصمتت مرة أخرى. ثم عادت لتسألنى :
- "ياخواجا، هل صحيح أنكم لا تتزوجون إلا واحدة؟".
- " واحدة فقط، يالطيفه".
- " ولا تضربون النساء".
- " لا. كيف للإنسان أن يضرب من أحب؟ كيف يضرب محبوبته؟!". -" وهل تتزوج الفتيات عندكم ممن أحببن؟".
- " مؤكد".
- " وهم يبيعوننا كالحمير...".
فى تلك اللحظات بدت عيون لطيفة أكثر جمالاً، وأكثر عمقاً وسواداً.
أردفت بعد لحظة قائلة :
- " يقول أبى إنه كان يمكن أن يزوجنى لك لو كنت مسلماً.
إنطلقت منى ضحكة رغماً عنى. فرمقتنى، وقد امتلأت عيناها بأسى عميق. فقلت لها:
- " تهودى وأنا أتزوجك...".
- " يقتلنا أبى معاً...".
فى اليوم التالى جاء الشيخ سوربجى الى حقلى، ممتطيا صهوة فرس بيضاء، تتراقص وتهتز من تحته برشاقة. كان رجلا مسناً ذو ذقن بيضاء جميلة، وعلى رأسه طربوش طويل. ألقى التحية على العمال، فانحنى له الجميع احتراماً ولاذوا بالصمت. رمقنى بنظرة غاضبة، ثم القى علىَّ التحية وهو يجز على أسنانه. فرددت له التحية ببرود بالغ. حيث لا يوجد ود بين المستوطنة والشيخ؛ لأنه يكره اليهود كراهية عمياء. وما أن رأى إبنته حتى استشاط غضباً. وصاح فيها قائلاً :
- "ألم آمرك ألا تذهبى الى اليهودى؟.
ثم نظر الى عماله وقال لهم :

-" يالعار المسلمين الذين يبيعون كدهم لغير المؤمنين! " .
وانهالت عصاه عدة مرات على رأسها وكتفها. . . .
تملكنى الغضب، وتحركت نحوه، لكن عيون لطيفة السوداء المليئة بالأسى والدموع، نظرت الىَّ متوسلة : أسكت ! .
أخذ الشيخ إبنته ومضى. وتنفس العمال الصعداء.
قال أحدهم : "ياله من رجل متوحش" .
وقال آخر: "إنه غاضب لأنه لم يتمكن من أخذ العمال بنصف الأجر، ويسخرهم فى أعماله ما بين حقل وآخر. . .إن اليهود ينافسونه.
قال عطا الله وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة :
" وأنا أعرف السبب فى غضبه اليوم" .
لم تعد لطيفة الى العمل.
ذات يوم، بعد عدة أسابيع، حينما غادرت البيت بعد الظهر، قابلتها. كانت تجلس على الأرض فى الخارج وفى يدها بعض الدواجن تعرضها للبيع. وما أن رأتنى حتى هبت واقفة. ورأيت عيناها أكثر جمالاً وأكثر أسى مما كانتا.
-"كيف حالك بالطيفه؟ " .
-" شكراً ياخواجه" .
كثيرا ما كانت لطيفه تحضر دواجن للبيع، وبالذات فى وقت الظهيرة. . .
قال لى عطاالله ذات مرة :
-" ياخواجه، لقد ذهبت لطيفه الى "آجر" ، وتزوجها إبن الشيخ. . .شاب قصير القامة ودميم. . . " .
شعرت وكأنى تلقيت طعنة فى قلبى.
سمعت بعد ذلك أن الخلافات دبت فى منزل زوج لطيفه، لأنها هربت الى بيت أبيها وأعادوها الى زوجها بالقوة.
مرت سنوات أقمت خلالها فى منزلى الذى بنيته، وأنستنى عيون سوداء أخرى، عيون لطيفه.
وذات يوم، حينما خرجت فى الصباح، وجدت إمرأتين عربيتين عجوزين تبيعان الدواجن.
-" فيم ترغب؟ .
قامت إحداهن عن الأرض وأخذت تنظر الىَّ.
-" الخواجه موسى؟ " .
-" لطيفه" .
نعم إنها لطيفه. . . إمرأة عجوز، وجهها ملىء بالتجاعيد، شمطاء، لكن ذاك البريق الأول لا زال يلمع فى عينيها. .

قالت هامسة دون أن ترفع ناظريها عنى : " لقد تغيرت، أصبحت ملتحياً. .

-" كيف حالك يالطيفه؟ لماذا تغيرت هكذا؟. . " .

-" كله من عند الله ياخواجه" .

-همست : " هل تزوجت ياخواجه موسى"؟ .

-" نعم يالطيفه. . " .

-" ليتنى أراها. . " .

ناديت زوجتى لتخرج الينا. نظرت لطيفه الىّ طويلاً، وبدت الدموع فى عينيها. . . ولم أر لطيفه منذ ذلك الحين.

(١٩٠٦)

***

ى.ح. برينر

الشكل والفشل أو سفر التخبطات

(فصلين)

- أ -

وقعت هذه الكارثة فى أحد أيام آذار ثاني، ساعة الظهيرة. كانت سنة كبيسة ممطرة وشديدة الحرارة فى نفس الوقت. فى ذلك اليوم القائظ كلفه الكيبوتس بتحميل البطونيات. إنهمك فى العمل داخل الحقل مع مناحم، العامل المؤقت؛ وقف مناحم فوق العربة، بينما عمل حيفتس تحت. كان مناحم يعمل بلا أدنى مجهود، وبهدوء، كدأب كل العمال المؤقتين، الذين يعملون اليوم فى دان وغدا فى بئر سبع. أما حيفتس، العضو الدائم فى الكيبوتس، والذى يتمتع بكل الحقوق والواجبات، فقد عمل بحماس وتفانٍ زائد، كعادته، وبخاصة فى الآونة الأخيرة، بعد أن عاد من الخارج. سالت حبات العرق على وجهه ولمعت عيناه ببريق انتصار العزيمة وإثبات "أننى لست أقل من الآخرين"!. لم يكف لحظة عن استجماع قواه ليرهق شريكه فى العمل ويفنى نفسه فى العمل المتواصل. ولم يتمكن مناحم، ثقيل الحركة، من ترتيب كل ما ناوله إياه. ففى كل مرة تصدمه حزمة أكبر من سابقتها، وكأنها قرون بقرة قوية. إمتلأت العربة بالحصاد؛ وأخذت المسافة تتسع بين الحمالين، وزادت معها الرغبة فى العمل. إنزلقت كوفيته الى الأرض لكنه لم يهتم. واتقدت الشمس كعادتها، أكثر من أي يوم آخر. فى هذه اللحظة صدرت عن حيفتس آهة خفيفة وانحنى قليلاً هو والحزمة الجديدة التى وضعها على مقدمة الشوكة. نظر مناحم الى أسفل وإذا بالحزمة الضخمة الثقيلة تهوى الى الأرض وحاملها يتلوى بجوارها من الألم. صاح مناحم "ياللهول"!، وهرول نازلاً الى زميله. ماذا حدث؟ ضربة شمس؟ حمى؟ قشعريرة برد؟، لا. لا. إنها مجرد وخزات. . .وخزات فى الجزء السفلى من جسمه. يا إلهى!.

فى المساء تجمع أعضاء الكيبوتساه فى مطبخ العمال وقرروا نقل حيفتس الى القدس على نفقة صندوق المرضى. صحيح أن يافا أقرب من القدس، لكن له فى القدس أقارب من بعيد يمكن أن يتابعوا حالته ويعنوا به. كان رئيس الكيبوتساه أحد أعضاء بوعالى يهودا المخضرمين،وقضى تسع سنوات فى العمل الإجتماعى. يحب العزلة فى النهار وكتابة الأشعار فى الليل، رجل ليست يداه قويتان لكنها صلبة، ذو نظرة حادة، لكنها ليست مرعبة. يتمتع باستقامة كبيرة وذو ذاكرة حديدية. وقف رئيس الكيبوتساه فى تلك اللحظة وقال إن لحيفتس قصة طويلة، حدثت منذ بضع سنوات، حينما اضطررنا لنقله الى القدس. والى القدس بالذات. القدس أو بيروت. . لأن

المؤسسة العلاجية التى تعنى بحالة كهذه لم يكن لها وجود فى يافا. لكن فى ذلك الوقت تعجل حيفتس وسافر الى خارج البلاد، وهكذا بدأت القصة وانتهت. لكن يبدو أن الإنسان لا يمكن أبداً أن يهرب من قدره... وهكذا...

نعم، لا زال عدد من أعضاء الكيبوتس القدامى يذكرون لحظة التجمع لبدء رحلة حيفتس الى خارج البلاد وما سبقها من أحداث. و أكثر "مشاكس" المجموعة من وصفها بألوان واضحة، وهو عامل رشيق، يترك عمله دائما إنطباعاً بحداثة عهده بالعمل، كما اتسم أسلوبه دائماً بالمباهاة والترويع فى آن واحد، وعما قريب سيحصل من أخيه على تذكرة سفر الى البرازيل، ومنذ أكثر من خمس سنوات وهو يهوى الإيقاع بين زملائه، وكان دائم الإحتجاج بصفة خاصة على الطاهية، التى لا تؤدى دورها، دور طاهية فى كيبوتس عمال يهود فلسطينيين. نعم، نفس جنون حيفتس وهو جنون كنا نتمنى جميعاً أن نحققه فى الحياة، وليتنا نستطيع دفع ذاك الأخ البرازيلى ليخلصنا منه. نعم، حدث نفس هذا الجنون منذ بضع سنوات. لم تكن هذه الكيبوتساه موجودة، لم تكن توجد كيبوتسات بالمرة. لم يكن لها وجود، وكان الجميع، بما فيهم حيفتس يعملون فى الموشافاه. والآن إسمعوا وتعجبوا!، لقد حدث أن مرض قبيل عيد الفصح، كما هو الحال الآن تماماً، وهذه حقيقة، كان مرضه آنذاك أيها السادة، مختلفاً. مرض يمكن أن نسميه "غضب نفسى". كيف أقول ذلك؟. لقد بدا آنذاك وأن به مرض نفسى. يجب أن أقول الحقيقة وما من داع للكذب. لا يمكن القول إنه أصيب فى عقله؛ لكن على أية حال لم يكن جنونه خطراً على الآخرين. كيف؟ نعم، نعم، تعريف أحد الزملاء كان صحيحا؛ كان مرضاً يخص صاحبه فقط. كيف أقول ذلك؟ لقد تعرض لرعب شديد....

وأضاف باقى الأعضاءالقدامى الذين كانوا من أوائل المتحدثين: كان فعلا رعبا حقيقيا... ولكن بصورة عامة... كانت الحالة المعنوية بين العمال فظيعة. لقد كانت فترة إنتقالية وتعرض العمال اليهود فى الموشافاه آنذاك للحظات أزمة حقيقية.... آنذاك عانى حيفتس من الحمى كثيرا، واحتسى عدة جرامات من الكينا، لكنه ضعف جداً؛ ولم يكن هذا بالأمر الجديد عليه؛ ولكن لضعفه وعدم قدرته على العمل نهاراً عمل فى الحراسة الليلية. صحيح أن مخاطر الحراسة آنذاك لم تكن كبيرة، كما هى الآن، لكن لأن أعصابه كانت متوترة، ونظراً لعدم اعتياده على هذا النوع من العمل، (فهو لم يكن أبداً بطلاً مغوارا! لذا جاءه دعم هامشى وقبله عن طيب خاطر). فإنه كما يقولون، كان يخاف من أي شيء في الليل... كان خياله يرعبه وتخيل أن هناك من ينقضون عليه... وبلا شك كان مرضه آنذاك نتيجة للخوف....".

تنهد المشاكس على غير عادته، وأجاب قائلاً: "مهما كان. فقد عانى حيفتس كثيرا. ولم يكن سفره آنذاك عملا حكيما. كان فى استطاعة آخرون أن يسافروا آنذاك ولكنهم لم يفعلوا، وكان يمكنه ألا يسافر لكنه سافر، وحدث ما حدث: من المؤكد أن رحلته كانت آنذاك ثمرة لجنونه. فهل لا بد أن يصاب المرء بالجنون لكى يغادر البلاد. ألم يفعل حيفتس ذلك أيها السادة؟ ولكن بما أن هذا قد حدث... فهناك أيها السادة فى خارج البلاد توجد طاهيات أفضل بكثير من

طاهيتنا، . . .ولقد جلب معه من هناك ما يعينه على الحياة– معدة وذراع – هذه هى كل الهدايا التى جاء بها حيفتس. . . ويبدو أنه هرب من مرضه النفسى، وأشك فى أنه برأ منه، لكنه بدلا من أن يشفى جلب لنا معه، بقايا جسد، وها هو الآن على وشك الفناء. أيها السادة، إن كيبوتسنا سيء الحظ ! " .

وتعمد رئيس الكيبوتساه أن يوقف حديث زملائه، فقال:

" ولكن من منا ينقله؟ . وكعادته دائماً حينما يكون الأمر متعلقاً بالمجموع نظرت عيونه الجريئة الى الأرض. (كانت عينا المدير جميلتين فعلاً!، وحينما ينظر أحد اليهما، لا يمكنه التأكد مما إذا كانتا كبيرتين أم صغيرتين، سوداوتين أم خضراوتين)، وأخذت نظرة هذا الشاعر المغمور الجريئة كل الإهتمام. أي قصائد تلك التى يكتبها هذا العامل القديم أثناء الليل؟.

وأثار هذا السؤال العملى من الرئيس جدلاً واسعاً ونقاشاً حاداً. حيث أسرع المتقاعسون عن الذهاب مع المريض الى القدس بعرض "ترشيحاتهم"، أي أنهم عرضوا تضحيتهم من أجل المجموع. لكنهم مع ذلك سعوا الى تسوية الأمور بصورة تجعلهم لا يضطرون الى السفر. وعلى الجانب الآخر تواجد الراغبون فى الراحة بضعة أيام من أعمال الكيبوتساه، وبالمناسبة يرون مدينة القدس بلا أى كُلفة على عاتقهم. لكنهم حاولوا،بكل ما أوتوا من قوة، التمويه على رغبتهم فى السفر والتهرب للحظة من هذا الواجب الصعب، إلا إذا أجبروا عليه. فهم ليسوا أحراراً فى قبول أو رفض هذا الأمر. . .

فى تلك اللحظة سمعوا أصواتاً مرهقة تقول : أيها السادة! الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل ولا بد أن ننهى هذا الأمر. . . !.

حينئذ قرروا إجراء قرعة.لكن مناحم، العامل المؤقت، عرض خدماته. كان شاباً فى الثانية والعشرين من العمر، وسبق له أن طاف العالم كله. والتقى مع حيفتس فى أحدى مدن الغرب قبل حضوره الى فلسطين. أعجب به وأحبه. كان ضليعاً فى الجغرافيا. وبالطبع فهو لم يعرف هذه المعلومات من الكتب. كان يعرف بالضبط المسافة بين هذه المدينة وتلك فى النمسا، وإنجلترا وفرنسا، بل وحتى بلجيكا وهولندا. كان يهوى الوقوف فى محطات القطار وشراء تذاكر السفر. وكانت حكمته فى الحياة: "السمكة تبحث عن المياه العميقة، والإنسان يبحث عن المياه العذبة" . كانت عيناه مستديرتين كعيون البومة، لكن تعبيراتها لا تشبه تعبيرات البومة، بل كانت واضحة مبتهجة، لونها كلون العسل الطازج، الذى أُخذ لتوه من الخلية، يلمع من شدة نقائه. وكان كلما ذهب الى مكان جديد يدخله بطريقته الخاصة، وكأنه يغرق فى الجو الجديد، أويغرق فى جدول عذب، وحينما يلتقى مع شخص جديد يمط كلمة"سلام" بسعادة غامرة، وكأنه يستمتع بأن يعكس بريق عسل عينيه على من يقابله أيضاً. كان يجد متعة فى السير حافى القدمين. لكنه لسبب ما لم يترك لدى حيفتس الإنطباع السيء الذى يتركه الحفاة المتأنقون: " أنظروا، ها أنا أسير بلا حذاء!. وقد غطت السعادة الطفولية البريئة على كل شيء.كان دائما يفضل هذا القسم: "وحياتى! " . ويسب"يا للشيطان! " . كان يغرق فى الضحك ويثرثر عن فتيات الموشافاه القريبة،

ويقص نكاتاً خارجة، كان حيفتس يستسلم آنذاك له ويضحك من أعماق قلبه لكنها لم تنفر مستمعه منه، لأنها بلا سموم، ولأنه كان يقولها بصوت ناعم، كوميدى الى حد ما. ومع صديقه حيفتس إعتاد أن يقول صراحة: "لا أحب التحدث عن المشاكل!وحياتى! ويالشيطان!، لو أننى عرفت أن حديثى عنهم سيزيل الغم، لتفرغت يوما كاملاً للحديث، وتحدثت طول اليوم عن المشاكل، مثلك، ولكن، ها أنت ترى بنفسك!" . . . . . .

كثر الجدل حول اقتراح مناحم. أولئك الذين يخشون السفر ويخافون من خطوب الدهر، ومن أن يضطروا لهذا الأمر غير المرغوب فيه، أشاروا، عرَضاً، الى "المبرر" المنطقى، حيث أن هذا العامل المؤقت، الذى جاء مع حيفتس من خارج البلاد، يجب أن يكون مرافقه حال خروجه من المزرعة؛ لكن كانت هناك أيضا مبررات مضادة قوية، تبناها الجانب الآخر، وأهم مبرراتهم أن رجلاً لا ينتمى للكيبوتساه، لا بد وأن يسافر على نفقته الخاصة وليس على نفقة الكيبوتساه. . . وجاءت موافقة صاحب الإقتراح على هذا الشرط لتعجل بإتخاذ القرار أخيراً لصالحه.

وهكذا رافق مناحم حيفتس الى القدس.

وبينما هما فى الطريق، وعلى مقربة من القدس، تصور حيفتس أنه بدأ يتماثل للشفاء، "وندم على الموضوع برمته" . بدا له أن المسألة كلها لا تعدو أكثر من خيال، وأن"هذه هى خصلته السيئة. يصنع موضوعا من لا شىء!" . لقد سبق أن سقط أثناء العمل. فهل يستدعى ذلك أن يهرول لتلقى العلاج؟، ألا يمكنه الصمود قليلاً ! يالها من خصلة سيئة !.

بصق مناحم بطريقته المعهودة، عبر أسنان، وأخذ يشد من إزره. إذا لم يكن هناك خطر، فكل شىء سيكون على ما يرام ! ولكن ألا يوجد ألم. وهل يستطيع العمل فى الأيام القادمة؟ وحتى إذا حدث ذلك فما الذى سيفقده؟.

استمع له حيفتس وسرعان ما هدأ؛ لكنه أعلن مقدماً، أنه لن يطلب أطباء فى القدس. يجب على الإنسان ألا يجعل من نفسه هزءاً. ما من شك فى أن الطبيب سيسخر منه. لقد توهم ذات مرة أنه مريض، وشعر فعلاً بألم بالغ، لكنه ما أن ذهب الى الطبيب حتى تلاشى الألم ولم يجد ما يقوله ولا ما يشكو منه. . . كما أنه لم يشأ إبلاغ قريبه فى المدينة بأنه جاء بسبب المرض. لأنه يعرف أنه سيقول ببساطة أنه إنما جاءالى القدس لحضور إحتفال عيد الفصح. وإذا أضطر للإقامة فترة أطول، فسوف يقول الحقيقة ٠ سيقول إنه مصاب بالحمى، وأن الملاريا تمكنت منه. ولم تعد الكينا مجدية، ولا بد له من تغيير الجو. لذلك فسوف يقيم فى القدس ولن يعود الى المزرعة. . .

لا، فعلى الرغم من كل ذلك، لم يكن بحاجة للسفر. . ولكنها خصلته اللعينة. . السفر والسفر. . .

وحتى هذه الرحلة، لماذا قام بها؟. . . إنه حينما جاء الى البلاد كان عمره عشرون عاماً، كان سليما معافى مفعما بالقوة والحيوية، رجل لا تزيد مطالبه عن حاجاته، وبالتالى كان مختلفاً بعض الشيء، لكنه كان محترماً. وما كان أن يصبح محترماً فى أي بيئة أخرى(لم يكن محترماً فى صحبة

الطالب حميلين، خارج البلاد)؛ كان شاباً غير متفتح، وغير متسرع، لا تبعث صحبته على البهجة، لا يجيد مصادقة الفتيات، وباختصار، كان العكس المطلق من الشخصية الجديرة بالإحترام. . .نعم. رجل مثله فى مكان آخر لا يمكن أن يكون محترماً بأى حال! ولكن فى نُزل عمال الموشافاه، وسط المثقفين والمتحذلقين، الملتحين، أصدقاء الكتاب وعشاق العمل، حيث يعد كل شخص "أصيل" ، أو لنقل "عجيب" ، هناك فقط يمكنهم إحترام حيفتس، كعضو وزميل جيد، على الرغم من أنه لم يكن كأغلبهم "رجل خلافات ومعارك فى كل البلاد" . فإنه لم يناضل ولم يبد بطولة مع المشرفين ولم يتشاجر ولم "يتجمهر" ولم يمارس السياسة، إنطلاقاً من إحساس بالكآبة وميل الى الخلافات، مع المخربين. . . . .

ولكن لا فرار من هذه الخصلة اللعينة. . لقد سافر. . . وحتى قبل ذلك، على مدى سنوات عدة، طوال فترة إقامته فى الموشافاه، كان ينتابه إحساس غريب داخله. . إحساس بأنه يعيش داخل نفق، وأنه لا زال فيه حتى الآن ولكن نهايته ستأتى بعد ذلك، لا بد أن تأتى. لكنه عاش فى أوهام غريبة، غير واضحة المعالم، مضحكة لكنها ممتعة. وعلى أية حال، فإنه سيستمر هكذا الى الأبد، دون أن تتحقق هذه الأوهام. أليست هذه هى الغايةالقصوى. وليس المهم ما هى حياته الآن، فهى حياة سيئة، يتطلع الى أحسن منها. وصحيح أن هذا التطلع لا يعدو أكثر من تطلع سطحى، لكنه متمكن منه فى الأعماق. . . .كان تطلعا كبيرا. . . أليس كل شىء حولنا جاف وقاس ومر: الهواء الجاف اللافح، الذى يجفف العرق، والنُزل الحقير القذر، والطعام السىء والمسمم، والغربة المقيتة. فى ظل هذا كله ما كان من الممكن سوى التطلع الى مسكن جميل، ووجبة طعام جيدة، تطلع الى فىء شجرة وغدير عذب، وغابات كثيفة وأشجار متراصة. . .ولكن على أية حال ليس هذا هو لب الموضوع. . .بل العكس: لقد رفض بعناد أى محاولة لتحسين معيشته والخروج، ولو للحظة، من حالة الإهمال واللامبالاة والمعاناة. . .لكنه كان يرى دائما أنه لا معنى لهذه الحياة؛ وتصور استحالة استمراره فى هذه الحياة الكئيبة "كعامل زراعى" ،يبحث عن عمل وحينما يجده، يخرج فى الصباح ويظل طوال النهار فى منافسة مع العرب "الأغراب" الذين يأتون من كل صوب، ثم يعود فى المساء الى النُزل، يأكل طعاماً حامضاً ينبىء بالشر للبطن، ثم يذهب بعد ذلك الى نادى العمال، يتثاءب قليلا وهو يقرأ فى جريدة قديمة، ثم يعود الى النُزل ثانية، وينام نوم العازب فى صحبة كل أصناف الحشرات القارضة. ويستيقظ مبكراً مع رنين الجرس، ويخرج ثانية الى عمله حتى المساء. . .والعمل لا ينتهى ولا يقنعه. فغايته أبعد من ذلك بكثير، صحيح أنها مشوشة، وغير واضحة المعالم حتى الآن. . .وهكذا يعيش عاماً، عامين، عشرة أعوام، الى الأبد. . .بلا تغيير ولا تبديل، وبلا أمل. . .ما هذا؟ هل يقول مناحم أن كل الناس يعيشون هكذا؟ نعم، من المؤكد أن هذا صحيح. وبلا شك فإن الشكوى من هذا النمط وهذه الكآبة التى يشعر بها شىء عادى. . .وحيفتس يعرف ذلك، وسبق أن أدركه. .لكنه عانى الكثير من هذا الوضع. .لقد تمكنت منه اللامبالاة، وأهمل تماماً كل ما يتعلق بالمأكل والملبس والمسكن. . .صحيح أنه كان مستعدا لعدم تغيير قميصه لعدة شهور. .ومستعدا لأن ينام طول الأسبوع على فراش غير

مريح، ولا تغير ملاءاته من السبت الى السبت، ومستعدا لأن يخطيء أو لا يخطيء فى خيالاته وأوهامه. . فلقد كره رفاقه فى النُزل، لأنهم ينهضون فى الصباح يرتبون حجرتهم. . . وحدث آنذاك أن انتابه مرض غريب. . . لا تنطبق عليه كلمة "وباء" . . . فيبدو أنه أصيب بالاكتئاب من الحياة، وألَمَّ به قدر من الإشمئزاز من كل ما يحيط به، وعافت نفسه كل أنواع الطعام، وازداد نحافة يوما بعد يوم، وكان يواصل الحلم والحديث كلما قلل من تناول الطعام، وكأنه بذلك يهرب من الفزع الداخلى؛ وهو الذى لم يكن أبدا ثرثاراً. . . فيم تحدث؟-لقد تحدث عن كل شيء ما عدا أوهامه وأحلامه، فهى أمور غير مستباحة. . . --- تلك الفتاة الغضة التى رآها منذ عدة شهور، حينما زار مدرسة الموشافاه، سوف تكبر يوماً وتصبح ملكة الجمال والكمال، حيث تتحد فيها روح رجل وجمال امرأة. عمرها الآن سبعة عشر عاماً. . . وهو خمسة وثلاثون؛ أي أن عمره ضعف عمرها. ياله من أمر محزن ومخيب للآمال. . . لكنها ستقول له: ما عليك. . لقد رأيت عذاباتك، وها أنا ذا أريد أن أكون شريكة حياتك المعذبة. . أبى أغنى أغنياء الموشافاه، وأنا أجمل الفتيات. . لكنى سأتخلى عن كل شىء وأمضى معك، لأنى اخترتك. . . " . لا، إنها لن تقول ذلك، لن تحدثه بهذه اللهجة الجافة. . . ستتقدم منه وتضع كفها عليه دون أن تتفوه بكلمة. . . فيفهم هو كل شىء وتصبح الحياة مفعمة بالسعادة والهناء. . .

تحدث طوال هذه الفترة الغريبة عن كل شيء، لكنه لم يتطرق أبداً الى أحلام يقظته وجنونه هذا. وتلقائياً، وكأنه عن غير عمد، دار حديثه فى الغالب حول الأمور العامة. أى أنه تحدث عن أمور حتى وإن كانت قد آلمته بعض الشيء على مر الأيام، إلا أنها فى الحقيقة وخاصة فى الأوقات العصيبة، لا تعنيه ؛ فلقد أعرب بصفة خاصة عن بالغ غضبه من الأمور التى تخص المجموع، ولا يستطيع هو أو رفاق حديثه إصلاح أى شىء فيها. . تحدث عن أشياءكثيرة، مثل الحركة العربية والإحياء العربى. وعن كراهيتهم الوطنية وبالغ فى الإهتمام بتهمة الدم، والتكهنات، والمشورات. وقال أيضاً : حدث ذات مرة أن جاءت إحدى فتيات الأسر العربية فى المستوطنة الى نُزل العمال القريب من بيتها، وسألت الجالسين على المقعد خارج النُزل، ما إذا كانوا قد رأوا أخاها الصغير، الذى ذهب يقضى حاجة لكنه ضل الطريق. وسرعان ما إكفهر وجه حيفتس. لم ينقض عليها ولم يدفعها بعيدا- فهو لم يصل بعد الى حد الإنقضاض على شخص أو دفع إمرأة بيديه- ولكنه حينما سمع منها كلمة "صغير"، قفز عن مقعده وكأنه تلقى طعنة خنجر. تراجع الى الوراء، حتى الباب، وكأنه يبحث لنفسه عن ملجأ يأوى اليه. وأخذ يضرب الأرض بقدميه وهو يصيح: "صغير. . صغير. . لقد عرفتك. . . نحن لسنا من أكلة لحوم البشر. . ولا مصاصى دماء. . . ولكن هل يجب أن نثبت لهذه الفتاة العربية أن أخاها الصغير ليس عندنا؛ فى الوقت الذى يُبعث فيه العرب من جديد. . ويزدهر فيهم داءالكراهية والشك، . . . هاهى أيام عيد الفصح تقترب. . . إذهب واثبت لهم أنه ليس عندنا! . . .

وإذا لاحظنا ظروف المكان، لفهمنا بسرعة أن رفاقه لم يهتموا به كلما تصرف على هذا النحو؛ فطالما أنه يتحدث فى أمور عامة ويطرح شئوناً جماعية، لا ينتبهون للتغييرات التى تطرأ عليه، وإن

كانوا يلحظونها. لقد دار كل هذا فى أجواء المرضى العصبيين، القلقين، والمصابين بمرض المجموع، حيث يعد كل شيء لديهم مسائل عامة تخص الكل وليس الفرد؛ وحينما يسافر أحدهم الى خارج البلاد، لا يعد سفره هذا مجرد ذهاب، وإنما هو اعتبار أن من يترك مكانه هذا ويذهب الى مكان آخر، فإنه "يترك" المثالية و"يخونها"؛ واشتغال أحدهم بحراسة حقل، فهو لا يحرس حقل فلان، وإنما هو يقف مستعداً لحراسة حقل فى أرض الآباء؛ ألم يحدث هذا فى ذاك النزل، حيث تحرق الطاهية الطعام، ومتى لم تحرقه؟. والجميع يلحظون ذلك، لكنه موضوع ليس محل نقاش. فهى ليست طاهية سيئة فى نظر مضيفيها، وإنما هى امرأة لا تعرف وغير مؤهلة، لاتؤدى واجبها تجاه رواد مائدتها" . . .

لكن سرعان ما جاء رد الفعل، وأدرك الجميع فجأة أن حيفتس ليس ضحية للمجموع، وثبت ذلك من التغير الأخير الذى طرأ عليه. فلم يعد وجهه مبتسما، وزاغت عيناه، واختفى لسانه تماما. صار صامتا. ولكن ليس كل الصمت متشابه! مرت أيام كاملة دون أن يتفوه بكلمة واحدة! حينئذ أدرك الجميع، أن ما قاله قبل ذلك شيء ومرضه شيء آخر لأن مرضه لا يرجع الى الإحساس بمعاناة المجموع !. ولكن يبدو أنها كانت سببا أساسيا فيه؛ أى أن الآلام الشخصية، التى لا تتعلق بالوضع العام مباشرة والتى لا تمس الآخرين ولا يجب أن تمسهم، قد هزت أعصابه ووترته. ما العمل إذن؟ فى الإجتماعات السرية التى خصصت لمناقشة حالته وإن كان يعلم بأمرها، دار الحديث كثيرا عن الرغبة فى علاجه، مجرد علاجه، أى "وضع ضمادة على الجرح القديم للمسألة التى التأمت، والذى يبدو أن قشرته تلاشت وبدأ ينزف دما" . وصحيح أن "الدواء التقليدى" ينفع فى مثل هذه الحالات، لكن لأنه علاج مؤقت، فلا بد من نقله الى القدس أو بيروت.

بمرور الوقت تقلصت مظاهر الإحترام الشكلية له وظهرت المشاعرالداخلية الحقيقية، حينما بدأ حيفتس، صاحب الموضوع وصاحب الآلام، يعلن-بخجل واضح!- أنه "مسافر" نهائياً، وأنه سيغادرالبلاد. وعلى الرغم من أن عدد المغادرين قد زاد آنذاك - وكما هو الحال دائما-عن عددالقادمين والمستقرين، إلا أنهم لا زالوا يتذمرون صراحة-وبعضهم بالتلميح -من "خونة المهمة القومية" و"الذين" يهربون من المعركة" .

لقد مرض حيفتس. . . لكن ماهى حقيقة مرضه؟. لقد سافر. . لكن لماذا سافر؟ كان يقول دائما أنه يريد أن يرى العالم الكبير، لكنه كان يضيف فى قرارة نفسه : "أريد أن أعيش، أن أحيا" . . لكنه لم يفصح عن ذلك، وما كان فى استطاعته إبلاغ الآخرين بذلك، على الرغم من كل الحقوق التى أتاحها له مرضه فى أن يتحدث عن هذا. لكنه فى قرارة نفسه كان يعرف الاحتياجات الإنسانية التى تدفعه بعيدا عن هنا. . الإحتياجات البدائية، حتى وإن قلنا إنها ليست احتياجات حسنه، وبالتالى لا يمكن تلبيتها. نعم. لقد مرض حيفتس من الحياة أحادية اللون، الثقيلة، والرتيبة التى لا تحمل أى قدر من السعادة. خاصة أنه يعيش بلا امرأة. لقد رغب فى التخلص من هذه الحياة بأى شكل، وأن يخلص رقبته من نير هذه الحياة. . . وحتى أحلامه وتطلعاته هنا،

وأحلامه البعيدة العقيمة، تحولت كلها أخيرا الى أحلام غريبة عنه، وأصبحت أزمة مقيتة يعيشها. . . كان فى قرارة نفسه يعرف ما يحلم به، كان يحلم بهناك؛ هناك. . .حيث توجد مدن كبيرة. . مدن أوربا. . .هناك مباهج الحياة. .هناك فرص كثيرة. .وهناك أيضا سيعمل. . .سيعمل هناك بجد. . ويستمتع بالعالم. . .سيعيش قدرا من الحياة الإنسانية. . . مثل كل الناس. . .وسينسى وضعه هنا. . .سيتنزه مساء فى الشوارع، حراً طليقاً، سيرتاد المراقص والمسارح كما يشاء. . .ومن المؤكد أنه ستكون هناك لقاءات هامة، رائعة. .وسيرتاد أيضا بيوت الآخرين دون حرج. .وهناك أيضا سيتعرف على فتاة جميلة غضة. . .

لقد عاودته الأحلام والأوهام من جديد، عاوده التطلع الى آمال بعيدة المنال!. . .يالها من خصلة ملعونة. . .

– ب –

رمقته المرأة الزنجية، زوجة حارس الفناء العربى، وفتحت باباً صغيراً فى الفناء، فظهر أمامه عدد كبير من قمم الصخور الموجودة فى الفناء الخالى المجاور؛ الساعة الآن تقترب من الرابعة فى يوم خريفى، لذا فقد برزت أمامه الأحجار المتراصة فى الشمال وقد اصفر لونها بعد أن انعكست عليها الأشعة الحمراء من المنازل الجنوبية الغربية. وتعددت الوان الأحجار، ووجد نفسه وحيداً بلا عطف أب ولا حنان أم، لكن عيونه هذه المرة لم تمتلىء رعباً ولا خوفاً. منذ عدة أيام تجول هناك فى التل القريب وصاح هامساً: "أحجار. .أحجار. .أحجار. . ؛ ولم يعرف لم كل هذا، وحينما عرف أدرك أنهم لن يرجمونه بالأحجار، فيكفى الزج به فى هذا السجن للتهمة التى اتهمته بها الفتاة العربية، هناك فى الموشافاه. . .قبل الفصح. . لأن طفلها ضاع. . وحينما عرف أدرك أنه يمكن أن يثبت أن دمه غريب. . ألا يسيل دم الأغيار فى عروقه. .لقد ولد بعد تسعة شهور كاملة من الأحداث الأولى. . .وهو ليس يهوديا بالمرة. بل إنه غريب عن اليهودية. . .ثمانون فى المائة منه عنصر سلافى. . .فكيف لا تفهم العربية أن "صغيرها" ليس عنده؟.

أزعجته هذه الأحلام الغريبة. ما هى الصورة الغريبة التى رسمها فى مخيلته لهذه الأحجار، التى نظر اليها من علٍ، وعن بعد، مرتعداً منهار الأعصاب، ممزق الملابس، حائر الفكر؟، لم يتذكر شيئا فى تلك اللحظة ولم يشأ أن يتذكر. لقد انقضى هذا كله. أى رعب انتابه آنذاك. . .إنه يشعر به الآن. . .لكنه يمضى أيضا، الباب مفتوح الآن أمامه على مصراعيه، وهو ممسك بحقيبته، رفيقه القديم، ولم يرتد القميص الطويل الممزق، قميص المستشفى الذى مزقوه، وإنما يرتدى ملابسه الضيقة، القديمة، ملابس الشخص السليم المعافى، وهاهو يسير بين نزلاء النُزل، بل يسير متخذا طريقه للخروج نهائياً من هذا المكان. ها هو يتجه فوراً الى اليمين، ثم الى الشرق، الى "بوابات يهودا"، الى "مساكن إسرائيل" و"خيام يعقوب"، ومن لم يعرفه ولم يره فى هذه الدار، قد لا يعرفه، لأنه أقام فيها ستة شهور متتالية، مغلوباً على أمره، ورغماعنه. والآن الى الحرية، أين !. .الى الأمام!. . .الى الهواء الخارجى. . والأحجار التى أمامه؟ ها هى تتداخل مختلفة مع ظهور الماعز. . .التى تمرق بين الهضاب وترعى فيها. . .والشمس تسطع بأشعتها الذهبية

الحمراء على كل ما فى المكان. . . لا يوجد ما يدفعه الى الصياح. فلا شيء سوى الأحجار، وها هو الآن يمر فوقها ويمضى الى حال سبيله.

أشارت مشرفة الدار برأسها نحو حيفتس قائلة : " لقد تعجل، هذا المسكين تعجل الخروج من هنا! ".

ودافع عنه المشرف المقيم، وهو يهودى دميم، إمتلأ وجهه ببقع الجدرى، وتكمن قوته فى خاصرتيه، وجعله التعارض بين يهوديته وقوته البالغة شخصا فريدا، جنساً إنسانياً خاصاً.

تلكأ حيفتس عن غير عمد وبدا كأنه يسير فى مكانه.

سمح له المشرف بالذهاب وقال له برقة متعمدة : " إذهب. إذهب بسلام، لا تنظر خلفك وليعافِك الرب!. المهم ألا تتحدث كثيرا ولا تقل ما لا داعى له!. . ولا تنظر الى المكان الذى لا يجب أن تنظراليه. .تمالك نفسك. . ها هى نصيحتى الصادقة لك. أنا لا أكرهك، بل على العكس، أنا صديقك. . .تجنب الخوض فى الموضوعات التى لا يجب الخوض فيها".

واصل المشرف الدميم التأكيد على صداقته له، ويبدو أنه كان محقاً فى الإعتقاد بأنه من حق حيفتس أن يتشكك فيه. فصحيح أن هذه الصداقة الشفوية من "مُطلق سراحه" لا تعنيه فى شيء، لكنه لا يكن أى ضغينة له بسبب تصرفاته معه طوال فترة مرضه. هذا بالإضافة الى أنها لن تعاوده الآن، بل سيتذكرها حال خروجه من البوابة، حيث تبرز لديه وكأنها تهدف الى إسكات المشرف والتقدم منه هو، بدا آنذاك وكأن بريق الذاكرة قد انتعش داخله. . .ألم يسبق أن كان كذلك. . . فى لحظة الضرب. . .كانت الذاكرة آنذاك تعاوده وتبرز لديه فجأة.

- -

- -

" . . .لِمَ يضرب مريضاً هادئاً مثله، ألا يعد هذا قتلا".

قلد المشرف بغضب صوت خادمة جناح النساء التى تدخلت آنذاك فيما لا يعنيها : " إنه هادىء. . هادىء جداً. . ، إنه يمزق ملابسه. .ويلوث الطعام الذى يقدم له. . .

-" ألم أخبرك أنه لا يأكل حساء الطماطم، لماذا قدمته له؟".

-" قدمته لأنى رغبت فى ذلك. وإذا لم يأكله، خيرا يفعل، المهم ألا يلوثه!". ثم أضافت "طالما أن المريض لا يسيء الى الآخرين، يجب أن نكون حذرين معه".

أما هو، صاحب الموضوع، فقد قال بصوت متوسل، وكأن أحدا لم يفترسه. . .

"طماطم. .هل أنا فعلا أمقت الطماطم؟. إننى مقهور، أشعر بالقهر الكامل. . .مقهور من أسفل ومن أعلى ومن المنتصف. .قلب الإنسان فى المنتصف. . .القلب فى قلب الإنسان. . .لكننى لا أمقت. . .فالطعام شيء مقدس، والأشخاص الأكثر قدسية يهتمون بأن يتوفر الطعام للجميع. . .وليست هذه اشتراكية، لا قدر الله!، لكنها إشتراكية الفم! حيث يقاس كل شيء ويحسب ويعد فماً ! ولا يقدمون للعالم أشياء باطلة !. . .فدائما ما يأخذ المنسقون العصير

لأنفسهم. .وكفى! حتى يتوفر لى ولجارى ما نأكله ويفيض عن حاجتنا. . . . بينما تقدمون أنتم لى الطماطم ؟!. . ألم أخلق فى ظل الرب ؟. لم يحافظ عير ولا أونان على عهد الرب – والوقح يقص بلا خجل !- أفسدوا فى الأرض أيها الأوغاد. . . وغير الأوغاد، كلنا أوغاد، وكلنا غير أوغاد. . . لا يوجد أوغاد. . . ولا يفرح غير الوغد. . هذه حقيقة. كان بنو يهودا أشراراً وأوغاداً فى نظر الرب. . . ولكنى ؟ سيء. . حسن، لا أنكر، لكنى لا أفهم، ولا أعرف. . . لا أنكر أننى مريض. . وأنه يجب أن أدخل المستشفى. . . وكان فى ذاك اليوم، كان العالم كله مستشفى. . . ولكن هل كان سجناً ؟!. . هل هنا مكانى ؟ هنا ؟ بين السجناء الذين تأكل خيولهم الحلاوة؟. .

غمز المشرف بعينه للخادمة التى تتدخل فى شئونه وقال لها:

-" ما هذا، خيولهم تأكل الحلاوة ؟. . ياله من نصر مزدوج ".

أسرع المريض بتبرير موقفه، فقال :

-" هل يعنى هذا أننى لا أشكو من شيء. . .حلاوه بدون خبز. . حلاوه مع فطر. . يجب أن تكون كذلك. . . هذا ليس أسوأ سجون العالم. .فى " القبر " الأمر أسوأ من ذلك بكثير. . . فالعذاب هناك لا يحتمل. . . ومع ذلك فإن الطعام الذى تقدمونه لى لا آكله. . صدقونى. . لا أستطيع ! السجناءكثيرون وأنا واحد. . . فلماذا تصرون على أن تقدموا لى طعاما وفيرا ؟. . كوب ماء يكفينى. . كوب ماء بدون حليب. . بصل، وإذا توفر لديكم. . . باللغة الأجنبية شيبلس، وبالعبرية فى صيغة الجمع " بتساليم "، إشارة الى عناية الرب (كلمة " بتساليم "فى العبرية تشبه فى حروفها كلمة " فى عناية الرب" -المترجم). . . . وما من ضير فى ذلك. . . لكنى لا أريد الطماطم ؛ أنا لست كارهاً لها. . مهما كان رأى الطبيب. أنا أعرف النساء منذ ثمانية وعشرون عاماً. . منذ السنة السادسة. . ومنذ اليوم الأول. . . ست وعشرون، ثمانية وعشرون وليس ست وثلاثون. . . وهناك من يقولون إن من يعرف طريق النساء يفقد رعاية الرب. . . ولكنى لست كارهاً. . وليقل الطبيب ما يشاء. . لا تصدقوه. . "

أبدت خادمة جناح النساء إهتمامها به. تقدمت منه، هندمت له قبعته واستغلت الفرصة وضغطت عليه بكل جسدها الطويل النحيل وتنفست على مقربة منه، وقالت :هل هذا صحيح؟ أليس كل ما يقوله الطبيب صحيحاً؟ ".

-" ولكن ما هذا ؟ هل أنا كاره؟ طماطم! الفم ! يالها من أسماء كئيبة تطلق على فاكهة فلسطين وإيطاليا. . هذا مؤكد ! لقد حدث فى إيطاليا. . . إنها قصة طويلة. . . .

وأخذ يقص عليها القصة الطويلة. قصة رجل إيطالى فقير، فاشل. ليس لديه ما يقدمه، فامتدت له الأيدى بالصدقات، عانى الكثير وجال هائماً عدة سنوات. كان يتهرب. . لكنه لم يهرب. وحدث ما كان يجب أن يحدث إن آجلاً أو عاجلاً. . دارت الدائرة. وعاد الى مكانه ثانية. مرت أربع سنوات، وتكرر نفس الشيء مرة أخرى. بم أفادته إيطاليا ؟ ماذا أفادته المزرعة ؟ ها هو الآن يترك المزرعة مرة أخرى. . . أتسمعين هذا اللحن : مزرعـه؟ ياويلتى. . يا ويلتى. . . مزرعه. . . .

-" وما هى نهاية القصة " .

-" النهاية بسيطة للغاية. ليس لديه ما يقدمه لأنه فقير، وضعيف، وبائس. لكن حب الحياة لا زال أقوى وأكبر من الفقر. وهذا هو الرد. لقد أحب الفقير الإيطالى الحياة، لكنه شعر أن جذوره فى الحياة تشبه جذور البصل. . لكن المريض لم ير بصلاً فى فلسطين حتى الآن. . . فى أى مزرعة. . " وعاد ثانية الى ثرثرته.

-" يقولون إن فلسطين هى المركز، ياله من أمر مضحك، المركز !. . إن المركز فى هذه الجولة هو، مركز الهاتف. . نعم جولة، أى أنه مابين جو - و-له يهز رأسه ويتلقى برقية. تأتيه البرقيات من كل أنحاء العالم. الجميع يخبرونه بأمر جنونهم. سهام دقيقة وحادة تخرج من كل أنحاء العالم لتصيبه وتبلغه كل شيء. صدر منشور يقول : " الأرملة فى إيطاليا مات عنها زوجها وترك لها ستة أولاد، بخلاف الفتاة. فالفتاة لا تدرج فى الحساب. فهى تعوق العمل وتربكه. هى نشيد " حواء"، هى التى فى حاجة الى الرحمة. لقد ذهبت الى حال سبيلها، أعطوها هى الطماطم ! لكن الأولاد الستة كلهم جوعى، كلهم مرضى، ثلاثة فى فراش واحد. . . الأكبر عمره عشر سنوات، والثانى تسع والثالث ثمانى والرابع ست والخامس أربع والسادس ثلاث. أما هى، الأم، فهى السابعة ! آه، إنه يجيد العد. إنه مصلح إجتماعى وليس مجنوناً !. . الجميع جوعى والكل عراة. . الكل مرضى. . يحتاجون الى الشفقة. سيتعلم الطب، لكن الطريق طويل بينه وبين ممارسة الطب. . وما من دواء الآن وما من منقذ. . وحتى هو، ذاك الفقير الإيطالي، لا يمكنه أن ينقذها. . . لقد طعنته سبعة خناجر (والفتاة ليست فى الحساب!). الأول طوله عشرة أقدام، والثانى -تسع والثالث- ثمانية والرابع -آه ؟.

-" ماذا عن الرابع؟" .

-" ماذا تظنون، ألإن أحداً لا يزورنى، إنتهى العالم ؟ ياله من خطأ فادح! إننى أعرف الجميع وأزور الجميع. . أثناء الليل. . فى البئر المظلم فى أعماق أحلامى. . فى أعماق الأعماق. . بئر ملىء بالعيون. . عيون معارفى وأصدقائى. . وعيون مساجين آخرين. . . ألا تصدقوننى ؟ مجموعة من الأزرار فى يد الهاتف. . ولا تظنوا أنها لا تمس القلب ! فالواقع لم يغتال بعد. . . . " .

فجأة وبصوت عال وأسلوب شخص عاقل تماماً :

-" لا زلنا هنا لانعرف شيئاً عن العالم. وبالتالى لا نملك أى منظور للحياة. لا يوجد هنا سوى مسدس صغير معطل يملكه إنسان بسيط. فما قيمة هذا الإنسان لنذكره هنا ؟ إنه فرد. فرد مريض. وليس من حق الفرد أن يناقش فى أمور تخص المجموع. يمكن للفرد أن يقول فقط: مالى والكل ؟ إننى لا أستحسن ذلك، وبالتالى فليس كل شيء جميل فى نظرى. لكن الكل أيضاً صادق فى تبريره : إذا لم يرقك ذلك، فما الذى يمكن أن تفعله ؟ إنزع شعيرات رأسك، ولكن ماذا تعلمت أنا وتعلم الكل من هذا الموضوع؟" .

عاد وجهه فجأة للشرود مرة أخرى :

-" ولكن! لغز العالم لم يحل بعد. . والواقع لم يغتال - وما زال العالم غامضاً !. . . تداخل

غريب فى مركز الهاتف.. والبرقيات غامضة... البرقيات التى تأتى من ساحة القتال يشوبها الغموض... البئر مظلم... لم تسلط عليه بعد أى أضواء... الأمور تتدهور جداً بدون هاتف... فبه تفضح الأمور، أو بصورة أكثر دقة، تتعرى... تُرفع عنها الغلالة ويسقط الغشاء... أشعر أن بداخلى شرخ عميق. ولكنى لا أحب الطماطم... ولست كارهاً لها... أنا لست هابيل، بل أنا قابيل... لأن قابيل أنجب مهلئيل، ومهلئيل أنجب ياراد وياراد أنجب حنوخ... وحنوخ أنجب حزقيال... فهل استمع حزقيال لنصيحة بوزى وكوهين ؟. لا ! لا هذا ولا ذاك، وإنما استمع الى حزقيال فقط...كما قال حزقيال أيضاً " إن الإنسان يضع آثامه عائقاً أمامه ".

(١٩٢٠)

***

إسحق شامى

جمعه الأهبل

- أ -

فوق جبال النقب الجرداء، حيث حرارة الشمس اللافحة، وقف جمعة الأهبل يرعى قطيعاً من الأغنام قوامه أربعون رأساً. بعضها ملكه وأغلبها لآخرين سلموها له يرعاها ويحرسها لهم، وهم فلاحون تضافروا معاً وحددوا له أجره بالسنة، من الدياسة الى الدياسة: "عباءة وقميص عنزروتى أزرق ومداسين وكيس من الدقيق، وخليط من الذرة والحنطة بالتساوى.

لم يكن جمعة يمتلك أى قطعة أرض من أراضى القرية الخصبة، ولا حتى فى حقول السهل المتاخمة للنبع، والتى تعد مصدر ثروة القرية والدخل الرئيسى لسكانها. وقد قسمت هذه الأراضى عبر الأجيال الى قراريط صغيرة. وفى كل خريف، أثناء توزيعها على الشركاء وشركاء الشركاء، كان يكثر العراك الذى ينتهى دائماً ببطن مبقورة كالصبار المقطوع أو رأس مشجوجة كالبطيخ. ويعقب ذلك ثأر، واقتلاع أشجار وإضرام النار فى أكوام الغلال، ثم شكوى لأقرب هيئة و"للباب العالى"، يعقبها وفود لتأديب القرية. وذات يوم نفذ صبر الباشا المتطلع الى تطبيق العدل، وقرر أن يقر السلام بالقوة، فصادر أرض القرية المتنازع عليها، وأعلنها ملكاً للسلطان، ووضعها تحت وصاية وإشراف مندوبه، أى الباشا نفسه. ومنذ ذلك الوقت وهو يؤجرها للأقوياء وأبناء الأسر العريقة. وبعد أن وافقوا على هذه التسوية، وزع عليهم الأرض القاحلة والأراضى الجبلية بالأجر.

كان والد جمعه من فقراء القرية الذين تأثروا بهذا الظلم. فخرج فى النهاية صفر اليدين. وحتى يتمكن من إعالة أسرته، عمل فى كل ما أتيح له من أعمال. قام باحتطاب الأشجار، وأجيرا باليومية فى محارق الفحم، وقاطع أحجار لأفران الجير. وذات مرة إنشطر القالب من شدة الحرارة، فتطايرت منه كتلة جير لطمت وجهه وأحرقت عينيه. ولما فقد بصره نفض عنه عبء إعالة أسرته وتركها على الله فى السماء، وعلى كاهل زوجته، خديجه، إبنة الأصول، كما اعتمد على رحمة الناس وعطفهم ولم يعد يزاول أى عمل. كان يقضى أغلب يومه فوق مزبلة القرية، وفوق مصطبةالصلاة عند بئر الماء، أو فى مضيفة المسجد؛ أما فى الليل فقد كان يشارك فى ذكر الدراويش الجديد، الذى أقامه الشيخ كيرى، منذ عهد قريب، فى جنوب القرية. وأصبحت القرية منذ ذلك الحين تسمى قرية الدراويش. كان يردد معهم شفاهة آيات من القرآن ويقرأ الذكر بصوت أجش رتيب، وهو يزبد على شفتيه وينسال لعابه من جانبى فمه، محركاً رأسه الى الأمام والى

الخلف، ويتمايل جسده العارى من الوسط فما فوق فى كل الإتجاهات، وبالتدريج يفقد حواسه الى أن يركع فى النهاية وكأنه مصاب بداء الصرع.

أما جمعه فقد ولدته أمه بالألم وربته بالقلق. أينما ذهبت لتعمل تسحبه معها كالقطة التى تجر صغارها. كانت تضعه فى مهده المصنوع من سجادة بالية باهتة، معقودة من طرفيها، وحينما تحمله على ظهرها تلتقى العقدتان فوق رأسها. وما أن تصل الى مكان عملها حتى تعلقه فوق فرع شجرة زيتون أو على غصن شجرة تين. ويظل يرفص هناك بيديه وقدميه، بينما هى تشعل النيران، وفى موسم الحصاد ينام فى ظل الصبار، وينوح وينتحب الى حد الإختناق فى فترة جَنْيِ الثمار وجمعها، أو يمص إبهامه وهو ينظر فى الظلام مبتسماً للسحب المتطايرة والظلال المتراقصة تحتها.

فطمته حينما بلغ الثالثة. لكنه لم ينهض بعد على قدميه ولم يتكلم، كان يحبو يجر بطنه المنتفخة تحته بصعوبة بالغة. وحينما ينهشه الجوع، يطلب طعامه بصراخ غريب وبمقاطع متقطعة ومشوهة، كشبل الحيوانات. كانت ساقاه مقوستان ونحيلتان كأغصان القطن الرفيعة. بطنه متضخمة، وتبرز عيونه المتورمة كعيون الضفدع. كان يجلس دائماً بجوار برميل القمح خلف الطاحونة، أو فى الفناء القذر، حيث يطن الذباب ويدور حول رأسه كغلالة متطايرة ثم ينزل الى جسده العارى وفوق وجهه. وكان يمكن أن تدرك بوضوح من حركة حدقاته أنه ثقيل السمع وبطيء الفهم. وكانت الجارات ينظرن اليه بقلق ويحركن أصابعهن حول أصداغهن، للدلالة على أن عقله مختل وأنه "أهبل" منذ ولادته.

ربنا كبير، عالم بكل شيء وقادر على كل شيء. فبعد أن تخلى عنه فى طفولته، عاد وأحاطه بجناحيه وأخذه تحت حمايته، وقسم له نصيبه فى الحياة. لكنه ظل عديم الحيلة، ضعيف العقل، معتاداً على الصمت، يهرب من صحبة الناس ولا يصادق أقرانه، أولئك الأولاد الذين أشعروه دائماً بضعفه، وكانوا يعذبونه بوحشية الأطفال، وأقحموا أنفسهم فى حياته أينما ذهب.

مرت طفولته بسرعة. وحينما بلغ السادسة كان يلتقط حبات الصبار والتين ويجمع أقراص الجلة، ويساعد باقى الجياع فى البيت فى تناول آخر قطعة خبز ولعق قدر الخبز وحساء الخرشوف بكفه الصغير. وفى السابعة، كان الصبى الفلاح يشبه الرجل فى كل شىء، فهو يعمل على كسب قوته، ويشارك فى كل الأعمال.

كان سادته يطردونه من مكان العمل مصحوباً باللعنات واللطم والركل، حتى قبل أن يتمكن من ربط الإزار على قميصه الأزرق البالى، الملوث. الذى يظهر جسده من بين شقوقه. وما أن أدركت أمه أنه لن ينجح فى أى عمل، حتى دفعت به الى أحد الرعاة، يخدمه ويتعلم منه مهنته. بدأ برعي القطعان التى فطمت لتوها. فهذا العمل لا يتطلب مهارة خاصة ولا عقل ناضج. وجد جمعه نفسه فى هذا العمل وابتسم له الحظ، وارتفع قدره فى نظر الناس. كان راضياً عن عمله، ورضي عنه أيضاً أصحاب العمل.

هكذا رسمت حياته: قضى سنوات عديدة يسير خلف القطيع، حافى القدمين، عارى الرأس؛ يجرى مع الكلاب لجمع القطيع، أو يجذبه الكبش الخائف وراءه وهو ممسك بقرنيه،

يسحبه معه لكي يجر القطيع وراءه. وكان هو آخر من يعود فى المساء الى القرية مع الفتيان الرعاة، بعد أن تظهر النجوم فى السماء. كان يدخل القرية حاملاً النعجة الوالدة أو المتعسرة فى الولادة؛ وعلى يديه طليان صغيرة ولدت فى هذا اليوم، يتدلى شعرها الندي ويعلق تحت بطنها. وكان أول من يهب مبكراً مع بزوغ الفجر، وبسرعة يلتحف فراءه الذى يستخدمه أيضاً مضجعاً له. وفى ظلام الزريبة الدامس المليء برائحة الأغنام والحليب وروائح الروث الفجة والرطوبة والعرق، كان يشق طريقه فوق الأرض الطينية الرخوة، التى تبدو وكأن رعدة انتابتها وإذا بها تعرق وتتحرك بتثاقل تحت قدميه. كان يسير بين المرضعات اللائى وقفن على أقدامهن، تنظرن اليه، ترمقنه بعيون زجاجية، ثم تقترب منه وتحتك بأقدامه. وبسرعة يلتقط الطليان من بين ضروعها ويدخلها الى النفق فى ركن القاعة، ويغلق الباب بالأشواك، ثم يعود الى الحظيرة التى ملأتها صيحات القلق من الأمهات الثكالى، وعلى الجانب الآخر صرخات منزعجة من الرضع المتروكة فى الظلام وكأنها فرقة موسيقية. ومع بزوغ الشمس، يعود كل شيء الى طبيعته. والآن تظهر وراء القطيع سياجات الصبار العالية الكثيفة، التى تحيط بمدخل القرية، وجمعه ممسك بعصاه فى يده ونايه فى فمه، يسير بخطى هادئة مدروسة نحو قمم الجبال، حيث رؤوس العشب ندية ولذيذة ومليئة بالعصارة والرائحة الذكية.

وعلى الرغم من أن جمعه كان بطبعه ثقيل الحركة كالكبش المسمن، عنيداً ضعيف الفهم كالتيس، شكاكاً وانعزالياً كالضبع الهارب من الفخ، الا أنه التصق بالراعى العجوز، معلمه، أحبه ولم تفارق يده يديه أبداً. أينما ذهب، كان معه. وأينما نام، ينام؛ أكرمه العجوز وعلمه أشعار الرعاة وأحاديثهم، علمه العزف على الناى والعزف على الربابة. وحينما تأكد من صلاحيته، علمه أسماء الأعشاب والجذور، وفقاً لروايات القدماء، وأطلعه على خصائصها، والأمراض التى تعالجها، ولقنه أيضا أسرارها وسحرها الخفى. وتعلم منه جمعه علاج الحيوانات، الجرب بدهان الزفت، والحمى بخليط من زيت الزيتون والقطران وبعر الجحش، الذى يجمع فى الربيع أثناء اكتمال القمر بدراً. والإسهال والدوار بخلاصة الأعشاب ومسحوق التوابل الحريفة المصنوعة من عصارة الزهور، والسيقان ونخاع الحشرات والذباب، ويتم تداول سر تركيبتها همساً وفى السر فى ضوء القمر، من جيل الى جيل، ومن راع عجوز لخليفته وللفتى الذى يخدمه بإخلاص.

بعد بضع سنوات كان جمعه قد عرف دروب النجوم ومسالك الصقور فى الأعالى، وأحاديث الحيوانات والطيور، وأوكار الأفاعى والبوم فى المغارات الخفية والدروب الملتوية. لم يكن له من أصدقاء سوى الأغنام والناى والطليان والكلب. كلهم لهم جزء فى طعامه، وكان يشاركهم طعامهم. كان يلعق معهم النباتات الصالحة للأكل، وينقب بين الحشائش ويروى ظمأه من أحواض الحيوانات ومن مجارى الغدران.

عرف جمعه القطيع كله وعرفه القطيع. كانت التيوس والجديان المسماة تهرول اليه، تنتشى حينما تسمع صافراته وسقسقاته، تركن مقادمها على صدره وتقف على أرجلها، تناطحه وهلة وتمد لسانها الى حزم العشب اللذيذ التى جمعها من أجلها، بينما هو يلوّح بها من فوق رءوسها. وكان

يعرف رغباتها واحتياجاتها من نوع الصيحة التى تطلقها. عرف كيف يعيد المعزولة الى القطيع، وكيف يضمد المكسورة، وكان يهرول لصوت التى تتعرض للإفتراس قافزاً من صخرة الى أخرى، كالوعل الذى يقفز فوق الأغوار، لكى ينقذها من براثن مفترسها.

وبمرور الوقت وهنت قوة الراعى المسن، وضعف بصره وانحنت قامته، لكنه صمد شهوراً طويلة ولم يشأ الإعتراف بضعفه ووهنه. كان يلملم قواه كل صباح ويخرج كعادته وراء القطيع. ظل ثمانون عاماً ينتقل بجسده الضعيف بين البرد والمطر فى ممرات الجبال الشاهقة، والشجيرات الشوكية، وحان الآن وقت راحته. فها هو يصعد الجبال بأنفاس لاهثة، ينحنى مع كل خطوة يخطوها، يلهج كالمنفاخ المشقوق، الى أن يصل، بصورة أو بأخرى، الى الصخور المشقوقة المعلقة على حواجز الجبال، حيث تلعق نعاجه فيها من أى أكمة خضراء وتقضم أوراق الجذور النابتة بين شقوقها. لكنه لم يعد الآن قادراً على الحركة ولم تعد قدماه الواهنتان بقادرتين على مساعدته أكثر من ذلك. بات يقف وقتاً طويلاً صامتاً، وكان يركن رأسه المشيب على العصا مباعداً بين قدميه، مطوقا العصا بقبضتيه المجعدتين المرتعدتين، وكأنه طائرمتعب يغفو على طرف فرع شجرة مخبئاً رأسه تحت جناحيه. كان يطيل النظر الى قطيعه المدلل وهو يبتعد مع جمعه الى تعرجات الجبال الشاهقة، وكأنه يودع أعزاءه الى الأبد.

كثيرا ما كان الفتى يعود أدراجه مهرولاً وكأنه تذكر شيئاً هاماً لا يمكن تأجيله، ينحنى على ركبتيه كالجمل أمام الرجل المسن، يميل اليه وينادى بصوت مرتفع وكأن فكرة جديدة واتته فجأة: " إركب ياعمى!. وحياة الله سأحملك على ظهرى! ". ودون انتظار موافقة سيده، كان يمسك بيديه المرتعدتين ويعقدهما حول رقبته ويحكمها الى صدره، ويحيط خاصرتيه بقدميه. وكانت عيونه الصغيرة الدامعة كعيون البقرة تشع بنور الفهم والشكر والعرفان. ينتصب واقفاً ويحمله مهرولاً الى القطيع. وتسمع آنذاك بين الجبال والصخور خطى متسرعة ودحرجة الحصى المتساقط من تحت أقدامه الى سفح الجبل.

وطالما كان كل شىء يسير على ما يرام ولم يقع أى حادث للغنم، وعلى الرغم من أن أصحاب القطيع لم يرتاحوا لهذه الصداقة، إلا أنهم تركوا المياه تسير فى مجاريها، وتظاهروا أنهم لا يرون شيئاً.

ذبل العشب فى بداية الخريف. وكلما تبرعم فى الربيع وازدهر فى الصيف وذبل فى موسم الحصاد، صار غنيمة لرياح الجبال، وصارت الأرض كعادتها صلبة متصدعة، تتحجر فيها الأشواك والحشائش. وكان لا بد من المضي الى الجبال البعيدة، والتجول فى الحقول المحصودة والهيام فى الأماكن المهجورة والنوم مع القطعان أينما وجدت شجيرات اللوز والخروب. وذات مرة وقع حادث سيء، حيث افترس أحد الضباع نعجة الشيخ دبور البنية، الموهوبة نذراً. وكان فى عنقها قلادة زجاجية ملونة وقرط فى شحمة أذنها. وعلى الرغم من أن شيخ الرعاة قد جلب الكارعين وشحمة الأذن فى أحضانه وأطلع الجميع عليها وأقسم على ذلك، إلا أن الشيخ دبور أقام الدنيا وشق صياحه ولعناته سماء القرية.

حينئذ حل فى المضيفة الشيخ درينى(قاضى شئون الغنم) وهو من أشراف قبيلة الطرابين، وعرض عليه الشيخ دبور عظام نعجته وطلب أن يدفع الراعى المسن "الأربعة" ووهبة القاضى كما جرت العادة. وحينما حكم القاضى ببراءة الراعى، دخل الشيخ دبور حياة الرعاة ورفض أن يسلمهم أغنامه لرعيها. وتبعه آخرون من أتباعه والخاضعون لإرادته.

إتسع الخصام وزادت هوة الخلاف. واشتعلت فى القرية من جديد الصراعات القديمة، كما هو الحال فى كثير من القرى الأخرى. ولولا وجود الحاج سليم، لما عرفنا ما يمكن أن تؤول اليه الأمور. فقد أقام الحاج سليم وليمة ذبح فيها الذبائح ودعا الخصوم اليها. وتوسط بين المدعويين، وبموافقة كل الأطراف،تم عزل الراعى المسن من عمله وتعيين جمعه بدلاً منه، بحيث يكون الراعى مسئولاً أمام أصحاب القطيع، ويقسم الدخل بينه وبين جمعه بالتساوى.

- ب -

وهكذا وصل جمعه الى درجة راعى دائم وصار محترماً فى نظر الناس. وبالتدريج أدركوا ميزاته وصار الجميع يمتدحونه. وذاعت شهرته كخبير فى مهنته، وكانوا يسألونه المشورة فى حالة حدوث مرض أو تفشى وباء بين القطعان. وأخذت الفلاحات يتسللن خفية الى مكانه يطلبن أعشاب العلاج وشراب الحب.

وعلى الرغم من ذلك فقد لازمته كنيته وهو طفل، والتصقت به صفة"أهبل" مضافاً اليها كلمات استخفاف أخرى، وصارت كالقراض الملتصق بجسد الأغنام أو كالشوك العالق فى أصوافها المجعدة. أينما ذهب كانت جماعات الغلمان تهيل عليه التراب وهى متشبّثة سعيدة بأماكنها، يجلسون فى صف كأسراب العصافير على أسلاك البرق أو يرجمون الأحجار على أفراخ الغربان التى تعشش فى أغصان أشجار الزيتون الضخمة، وما أن تصلصل أجراس القطيع وتتصاعد أعمدة الدخان إشارة الى قدومهم للقرية، ويبرز رأس جمعه المبسوط كالسندال من بين أمواج زبد الأغنام الأبيض، حتى يعطى أحد الفتيان إشارة لزميله وسرعان ما يوقف الجميع العابهم، ويختبئون خلف جذوع الأشجار منشدين :

أهرب يا راعينا،
الضباع افترست نعجتنا
والثعبان، طليانا
حظيرتنا خاوية
وبئرنا مثقوب
ومختارنا أعرج
وإمامنا أعمى
ومعلمنا حافى القدمين
وراعينا أحمق
أهبل !..أهبل!..أهبل.

وفى أغلب الأحوال كان ينتهى الموضوع على لا شىء. فعقل جمعه لا يستوعب عدة أمور مرة واحدة. كان يمر بجوار الحقل المحروث دون أن يلتفت يميناً أو يساراً، وبدون أن يُسمع صوت عصاه. فقد كان عقله وقلبه مشغولاً فى ترتيب أمور قطيعه. لكن القطيع إنطلق من الجبال واقترب من شجيرات الصبار وقد اشتعلت أعواد الخيزران النابتة حول البئر من شدة حرارة النيران وحمرة قرص الشمس القرمزى المائل للمغيب، وتغوص فيها صغار التيوس مطلقة صيحات شوق لا تنتهى، تتقافز وتلتحم ببعضها، تقفز كل على الأخرى، وينقسمن الى جماعات ويختفين داخلها. يجرى جمعه ويمر أمامها، يقف بجوار البئر حيث تتشعب الدروب، ويلوح بعصاه الطويل فى الهواء، يوجه مسيرتها وهو يصيح: ياصابحه، يانعمه، الى هنا أيتها السوداوات! . . الى أين أنت ذاهبة يا ذات الشعر المعقوص. . وبينما هو ينادى، يدفع لها بطرف عصاه ليوجهها الى الطريق الصحيح. وتتسلل النعجة الضالة هاربة كى تبتعد قبل فوات الأوان.

حينئذ يتقدم منها الفتيان ويجذبون سلاسلها بقوة وهم يصيحون، لكن جمعه لا يحرك ساكناً، ويختفى مع ما تبقى من الغنم داخل الدروب المتعرجة، التى تغلفها ظلال حلول الظلام. وتصمت الأصوات من تلقاء ذاتها وتتلاشى بهدوء فى الليل. ويتفرق الغلمان الى منازلهم، بعد أن يتأكدوا من أن كل ما بذلوه لإغضاب الراعى، ذهب سدى.

ويقف جمعه فى مكانه حائراً مبلبلاً. يركز كل حواسه ويرهف السمع لكى يفهم ما يحدث حوله. وما أن يدرك الأمر حتى يشتاط غضباً ويجن جنونه. وتهتز الأوردة الزرقاء البارزة فى وجهه وتزداد زرقة، ويسرى فيها السم وتحمر عيونه الملوثة. وتبرز رقبته القصيرة بين أكتافه العريضة، ويحولها بصورة غير مباشرة نحو الفتيان، يحركها يميناً ويساراً وكأن مشنقة التفت حول رقبته. وينقض عليهم مزمجرا كالثور الناطح، ويسيل لعابه على ذقنه، يدور مهرولاً فى دائرة حول نفسه وهويضرب بعصاه بقوة على أغصان الأشجار لكى يهز تيجانها.

ضجة وحيرة. تتفرق نعاج القطيع فى كل صوب ويلاحقها الكلب بنباح غاضب، يجرى هنا وهناك، يمسك بأرجلها مجتهدا فى إعادتها. أما الفتيان، فحينما يرون جمعه يقترب منهم، يهرولون بانزعاج متفرقين فى كل الطرقات ويذهبون الى منازل اللبن الصفراء، أو يختبئون خلف أكوام القش بجوار الحائط. ينظرون اليه عبر الشقوق بابتسامة وهم يتقافزون من فرط السعادة، وتزيد ضحكات الرضا من اتساع وجوههم الآثمة، وتهتز أقدامهم وهم ينتظرون ما سيحدث بفارغ صبر. ولقدتحقق مرادهم هذه المرة.

يشتاط جمعه غضباً ويهتاج مفرغاً غضبه فى الصمت والنباتات؛ يرفع الأحجار الضخمة فوق رأسه ويلقيها بقوة، يركل سياجات الصبار، والأشجار والشجيرات والأسوار والأخشاب المغروسة على جانبى الطريق. فتبرز العصافير الهاجعة بصورة منزعجة وتتفرق فى كل صوب؛ وتفيق الغربان فى قبة السماء وتطير صائحة نحو الجبال.

وما أن تنتابه هذه الحالة، حتى يفك إزاره، ويتخلص من فرائه ويمزق قميصه، ويسير بلا هدى عارياً كما ولدته أمه. تخرج من حلقه صيحات مبحوحة ومضطربة "لا إله إلا الله!".

ويظل يكرر هذه الآية بحماس حتى تزداد حركات رأسه، ويتشنج وجهه وكل حواسه، وتتحرك عيونه التى تغلفها غلالة ساحرة وتبرز من بين مآقيها ويسيل اللعاب من بين فتحات فمه. وما أن يصل الى ذروة حماسه، حتى يتوقف فى مكانه، يباعد بين ساقيه ويهز رأسه الى أعلى وإلى أسفل. وتخرج الكلمات من فمه بنحيب غريب وطنين ثقيل مخنوق. ثم يخبط بقبضته على رأسه ويهرش بأظافره حتى يسيل الدم.

وتتعالى أصوات متداخلة من كل صوب: "خراب ديار! وقعه سودا! بلوه!. وتهرول الفتيات اللائى وقفن طويلاً يتجاذبن أطراف الحديث بجوار النبع، تصاحبهن صيحات الخوف والإضطراب، وهن يضعن أكفهن على عيونهن بخجل متصنع. أما العجائز اللائى سقطت أسنانهن، وتآكلت كالعملة البالية، وبات شعرهن أشعثاً كالساحرات، فقد عبرن القرية هرولة الواحدة تلو الأخرى، الى بيتها وهن يحتفظن تحت براقعهن بلدائن صفيح صدئة ومثقوبة أو بقايا جرار وخزف عليها غبار جمر مشتعل، إستعاروها من الجارات لإشعال النار فى أفرانهن. وما أن يشعرن بجمعه عن بعد، حتى تسقطن ما فى أياديهن، وتستدرن صائحات:

إرحمونا يا ناس!... أنقذونا!. فى تلك اللحظة تفتح الأبواب بعنف. وينطلق الرجال والنساء، الشيوخ والشباب والرضع منزعجين. ويُسمع وطأ الأقدام المهرولة وتتصاعد أصوات أسئلة وأجوبة يلقيها الذين هبوا لنجدتهن.

ويصل الراكضون تباعاً الى المكان المنشود، وكأنهم جاءوا لإنقاذ شخص من فك نمر أو لدحر هجوم عدو. وحينما يرون جمعه يتصارع مع نفسه، يصاب أغلبهم بخيبة الأمل، ويهزون أكتافهم. أما الشرهون والنهمون فإنهم سرعان ما يغادرون عائدين الى طعامهم الذى تركوه، وكل منهم يسخر مع زميله بكلمات السخرية الشائعة: " أحمر يابطيخ... وثغى الجمل.... ". أما المؤمنون والمهذبون فإنهم يقفون فى أماكنهم صامتين بلا حراك، ينظرون اليه برهبة وخشوع. فهم يعتبرون جنونه معجزة. نعمة من الله. أى أن نور النبى شع عليه. وهم يؤمنون بأن جبريل قد مسه بعصاه النارية، وأضفى عليه من روحه لدرجة أنه لم يعد يحتمل، فيلقى بها على أرواح وأشباح غير مرئية. لا يراها إلا المؤمنون، وهى لا تختبىء إلا بين الشجيرات وشقوق الصخور.

أما النساء فقد كن أكثر حساسية تجاه هذا المشهد الذى يتكرر فى بعض الأحيان كل صيف فى موسم تموز وحرارته. كان يسرى فيهن كومضة برق من أخمص أقدامهن حتى جذور شعيرات رأسهن. كن يتابعن حركاته ويلتقطن صرخاته بعيون محملقة. وتحدث كل صرخة من جمعه أمواجاً فى داخلهن وتملأ قلوبهن خوفا عذباً ودهشة الهية. فتفتح فيهن ينابيع الرحمة والشفقة حتى يذرفن الدمع، وأحياناً يصل الأمر الى حد تجمعهن، يمزقن شعورهن ويتمرغن على الأرض.

وبينما كان الرجال يلتفون حول جمعه مكتوفى الأيدى ولا يسرعون بوضع حد لهذا الموقف، ويكتفون بمجرد بعض نداءات التشجيع مثل: "ربنا يعطيك الصحة يا جمعه!..." و" يعينك النبى شعيب:.. " لا حول ولا قوة إلا بالله.. "، كانت النساء تهرولن هنا وهناك لا حول لهن، يبعدن الأولاد، ويلجأن الى الرجال بكلمات التوسل والرجاء طالبات رحمة هذا اليتيم وتهدئته،

وإلباسه ملابسه ونقله الى كوخه.

وفى كل مرة كان يظهر بين الرجال بعض النبلاء، محبى الخيرومتقى الله، يستجيبون لطلبهن. وعلى الرغم من انشغالهم، كانوا يخلعون عباءاتهم؛ وينزلون سراويلهم الواسعة ويربطون أطرافها بالحبل المعقود على ظهورهم، وكمن يقومون بعمل بطولى، يذهبون أولاً الى جمهور النظارة يبعدونهم حتى لا يعوقونهم عن أداء عملهم.

وما أن تنتهى الإستعدادات، حتى يخطون الى الأمام رويداً رويداً، أياديهم ممدودة وأرجلهم مستعدة، وجذوعهم مائلة الى الأمام، وهكذا حتى يصلوا اليه ينقضون عليه معاً، يلتفون كالثعابين على رقبته وحول خاصرته، يضمونه الى صدورهم، يمسكون بيديه وقدميه حتى لايستطيع الحراك.

ويعجز جمعه عن التخلص من الأيادى الكثيرة التى تهاجمه كأسياخ الحديد ويثبت قدميه فى الأرض، يتشبث بها بكل قوته، ويصيح ملءفمه كالثور الذى يساق الى الذبح ولا يدع أحداً يحركه من مكانه. فى هذه اللحظة تنضم الى المجموعة قوات أخرى، الى أن ينجحوا فى تحريكه واقتياده فى النهاية الى مكانه، بصحبة جموع غفيرة تتدفق وراءهم. وفى محاولة لعدم إيذائه أكثر من ذلك، يكررون عليه بعض كلمات التهدئة :

"كفى، يارجل! . . إهدأ . . . لقد زال الغم، أخجلت عين الشيطان. . حققت الإتصال. . .

إنتهى المشهد. وبدأ قرص الشمس فى المغيب مخلفاً وراءه شعلة باهتة. وساد القرية مرة أخرى صمت المساء. وبدأ الصبار الناضج يميل الى الإصفرار. وتصلبت فيه دوائر الشوك واصطبغت باللون الذهبى بينما انغلقت أطرافها السفلى على نفسها وتشابكت ذابلة. ولا زالت الصخور السوداء المنتشرة فى قمة الجبل المنتصب فى الجانب الآخر من القرية، والتى تبدو من بعيد كأنها معلقة فى الجبل بمعجزة، تشع بنور أرجوانى، تتلألأ كأحجار ياقوت ضخمة، ثم تخبو ثانية. وفجأة تدرك العنزة التى تصيح بصوت عالٍ خطأها، فتكف عن الصياح. وتقرقر الدواجن بأصوات قصيرة وهى تغفو ثم تصمت وتفوح روائح الروث الجاف الفجة، وروائح أعواد الذرة التى تخبز على الصاج. ومن فوق ركن على سطح المسجد، ذو المأذنة شبه المنهارة والمعلقة بالكاد على سفح الجبل، يسرى صوت المؤذن لصلاة العشاء، عذباً، حالماً، يمس شغاف القلوب. حينئذ يخرج آخر المؤمنين الذين بقوا هنا وكأنهم فى انتظار استمرار الحدث، ويتدفقون صوب الصوت المؤذن، وهم يتنهدون بارتياح.

يعود جمعه فى اليوم التالى الى عمله ومعاناته. وقبل بزوغ الفجر، حيث يغط الرجال فى نوم عميق وتطحن النساء القمح لإعداد الخبز. وتنبثق عبر النوافذ أشعة ضوء خافتة من مصابيح الغاز، تخبو وتلمع، يكون جمعه قد اتخذ طريقه أمام القطيع يشق الدروب الضيقة بين المنازل المتراصة. وعلى غير عادته لا يضرب بعصاه على الأسوار مستحثا الغنم. وإذا وقفت امرأة طيبة تعرف جمعه فى ركن أحدى الحوارى فى انتظاره مع غنمها لتسلمها له، فإنه لا يلتفت اليها ولا يأخذ ما تعطيه له ليضمه الى قطيعه. يشق طريقه مغموماً الى الساحة المجاورة للبئر، حيث تتجمع

القطعان كل صباح. وبصخب وضجة تقسم القطعان الى ثلاثة رؤوس، بين الرعاة الثلاثة، أبناء أفقر الأسر فى القرية، والتى يشتعل القتال بينها دائماً. وهنا أيضاً لا يتوقف جمعه ولا يلقى بالاً الى الكلب الذى يقفز وينبح فيه، يعترض طريقه وكأنه يسأله بلغته، لغة القفز والدوران: " أين باقى الغنم؟. . . "لكنه يشق طريقه كالمنوَّم ويخطو مباشرة نحو الجبال التى يغلفها الضباب، بينما تنظر عيونه نظرة باهتة. من تتأخر فى الصباح تحتفظ بأغنامها فى بيتها، ترعاها بنفسها أو تهرول خلفه للحاق به.

يغيب عن القرية عدة أيام، مبتعداً عن حدودها. يهرب من الناس ومن زملائه الرعاة. وحينما يرى إنساناً يهرول مع قطيعه الى الخربة الخالية التى هجرها أصحابها بعد الحصاد. ينعزل فى الكهوف الكثيرة والوديان المحيطة بها، ويعيش كالثعبان بين الصخور، يلتقط الأعشاب والأكمات وجذور النباتات، يجمع جلود الثعابين ويصلح النايات. هذا هو جمعه، الذى يبدو وهو فى القرية بطيء الفهم، معقود اللسان، لا يتفوه إلا بمقاطع متقطعة، غير مفهومة. كل شيء يتغير هنا تماماً، بعيداً عن عيون الناس. فلم يعد الفتى الغبى كما كانوا يتصورون، فهو يحنو على القنفذ المنزعج، ينحنى اليه يلاطفه، ويمسك بالسلحفاة التى تعترض طريقه ينفخ فيها بفمه، ويهمس لها طويلاً بهمسات حب، فيستقيم القنفذ وتخرج السلحفاة أقدامها وتمد رقبتها؛ وتلمع عيون الثعابين وهى تحملق فيه بثقة ودهشة. وعرف الكثير من المقاطع والألحان التى تعزفها أجنحة الطيور، وكان يرددها بحرية مطلقة.

وإذا لحق به أى ضرر ومرضت نعجة أو تعثرت ساقها وسقطت من فوق الصخور، فإنه يعنى بعلاجها بشتى الوسائل. يجلس على الأرض ساعات طويلة الى جوارها، يداعب مؤخرتها ويلامس رأسها بوجهه. ويردد فى تلك اللحظات الكثير من كلمات الحب والإسترضاء، ويصدر أصوات نداء وألحاناً عذبة مهدئة.

سطع النهار وأخذت الأغنام كفايتها من المرعى. فيقودها عائداً الى غدران الجبال الباردة المنبثقة من بين الصخور، تروى عطشها وهى تتدافع بأجسادها وأكتافها بسعادة غامرة، وتعاود الكرة ثانية وثالثة، ويسبقها جمعه نازلاً الى فيء الوادى الهادىء، حيث تُسمع أى حركة وأى دحرجة صخرة كصوت البرق. وهناك بجوار شجيرات الدلفى الملساء، يوقف قطيعه فوق الأرض الرطبة الندية، وهو ينشد لها الألحان بمزماره. ويجلس هو أيضاً يرتاح فوق إحدى الصخور، ينحنى الى الأرض ويركن رأسه على ذراعه. . وبأنف مرفوع وعيون مفتوحة عن آخرها يستنشق الهدوء داخله، ويستشعر الرطوبة المنعشة، مستمتعاً بنقاء الجو. ويتشمم أنفه كمنخار كلب صيد أو ظبى، بينما وجهه الى أعلى يعبر عن ارتياح السجين الذى تخلص من أغلاله، يرتعد جسده منتفضاً تحت عبء ذكرياته القاسية.

زحف الظلام وأخذ النهار فى المغيب، فيصعد جمعه مرة أخرى الى الرعى مع قطيعه. وحينما يجن الليل يدخل أحد الكهوف، ويشعل ناراً أمام باب الكهف، يفرد عجينته على طرف عباءته، يخبز فطيرة على جمر النار المشتعلة، ويأكل بعد أن يعطى كلبه نصيبه، ويستمتع باستنشاق رائحة

القطيرة ويلعق فتاتها باستمتاع، ويسيل لعاب أغنامه داخل الكهف وتلعق بهدوء ما جمعته أثناء رعيها فى النهار. وما أن ينتهى من طعامه، حتى يبسط فراءه على الأرض، يتمدد بجوار المدخل، ويسده بجسده. كلبه تحت قدميه وعصاه بجانبه، يتكور حول نفسه ويثبت عيونه فى سماء الصيف العميقة الزرقاء المليئة بالنجوم المتلألئة؛ وسرعان ما يغالبه النعاس، فيغمض عينيه وينام مرهقاً، نوماً هادئاً، حالماً، بلا كوابيس.

- ج -

من طبيعة الراعى أن تكون حواسه ثاقبة أكثر من أى شخص اخر؛ وذاكرته أقوى وإحساسه مرهف. لكن لأنه يضطر دائماً أن يحيا حياة عزلة وصمت، فإنه بمرور الوقت يعتاد الإنطواء على نفسه، مخفياً مشاعره، ويكاد ينغلق تماماً على ذاته.

وعلى الرغم من أن جمعه يبدو للوهلة الأولى رزيناً حيث لم تعد عيناه تتلصصان وتزوغان فى كل اتجاه متشككة فيما حولها، ولم تعد تعلو وجهه تعبيرات بقرة الساقية الجامدة المستسلمة لقدرها، ولا تلقى بالاً الى آلامها ومعاناتها وتواصل جذب نيرها، إلا أن أحاسيس الغضب والإمتهان لا زالت تلهب جسده وتثقل على قلبه كالعبء الثقيل. وحينما يتصاعد الضباب من الماء، ويغطيه تماما، يشعر بعذاب لا نهاية له، عذاب ما بعد إنهيار الأعصاب. وسرعان ما ترتسم أمام عينيه حياة طفولته، وعالمه العقيم، صفوفاً طويلة من الأيام الكئيبة المليئة بالأسى والمهانة والمرارة التى تفوق مرارة الأغنام التى عمل دائماً على رعايتها. كان دائماً محل سخرية واستهزاء رفاقه، واستغله أرباب العمل دائما وظلموه فى الأجر. لم يتمكن من الزواج. أحمد الأبتر تزوج وطلق ثلاث مرات، وهو الآن فى الثلاثين ولا زال وحيداً؛ وكلما ادخر لهذه الغاية بضع عشرات من رءوس الأغنام، بعد عذاب سنوات تضيع كل مدخراته هباءً فى بعض المناسبات: دفع البدلية، الذبائح والفِردة التى يفرضها عليه أفراد أسرته الآخرين، ثم العطايا التى أشركه فيها أقرباءه رغماً عنه، حتى صار معدماً. وكان شيوخ أسرته يصبرونه بمعسول الكلام وهم يقتادون قطيعه:

" الله أعطى والله أخذ".

كانت أحداث حياته تمر أمامه تمس قلبه كمكواة ساخنة وتجعله يكره الجميع. ولم يقلل من معاناته سوى ابتعاده عن حدود القرية، ولم يعد يعيد الغنم الى أصحابها فى المساء، وأحاط نفسه بسياج من الصمت. وحينما يلقاه الحصادون لم يكن يعيرهم اهتماماً ولم يرد تحيتهم، وإذا تناهت نكاتهم الى مسامعه فإنه لا يفهم مغزاها. كان يقف متحجراً فى مكانه حائراً، مكتئباً، يرمقهم بنظرات دهشة ثم يعرض عنهم، وهو يتمتم بكلمات حمقاء، هو نفسه لا يعرف معناها.

وإذا طلب أصحاب الأغنام الإطمئنان عليها، أو أخذ شاة لذبحها، كان يلبى طلبهم بصعوبة، يقفز من مكانه بوجه غاضب وكأن حية لدغته، يمد يده المشعرة ويمسك بالشاة المطلوبة بحركة واحدة، ينظر فى عيونها مبتسماً، كالأم التى تضطر الى فطام رضيعها، ويسلمها لهم غاضباً، وهو يعض على نواجذه ويصدر صوت بكاء مخنوق، ويهرول منسحباً، بينما يواصلون هم الحديث.

كانوا يقولون: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! . . . ويبتهجون بسرعة إبتعاده المذعور، المشوب بالدهشة. كانوا فى القرية يطلقون عليه شائعات كثيرة، غير صحيحة. هؤلاء يقولون إنه على علاقة بقوى خفية، وعلى اتصال بإبليس والجن، وأولئك يؤكدون أنهم رأوه بأنفسهم يقف على صخرة، وشعره الأشعث يتطاير فى الهواء، وجهه مغطى بالدم وهو يلوح بالعصا السحرية التى يسيطر بها على الأرواح الشريرة.

وأدى كل هذا الى حديث الجميع عنه وخشيتهم منه فى آن واحد. وباتوا يحذرون من التواجد معه فى مكان واحد. لكنهم كانوا يحتاجونه ويلجأون اليه حينما تقع كارثة أو تصاب غنمة بوباء، وكانوا على ثقة من أن أحداً لن ينقذهم سواه، كانوا يذهبون اليه بالشاة المريضة، يحدثونه بأزمتهم، ويطلبون منه الدواء.

– د –

يوم قائظ من أيام تموز. إتشحت الشمس ببرقع منذ الصباح، وأطلت كدائرة فولاذية مظلمة من وراء مادة ملوثة، وارتفعت الى كبد السماء تلهب الجميع بأشعتها الحارقة غير المرئية. ونزل الحر القائظ على الناس كالجبل، وصعدت الحرارة من الأرض، وانطلقت من بين الصخور، ونزلت من السماء العالية. وكانت تهب أحياناً من الشرق ريحٌ تلهب أوراق الزهور البرية المجعدة، فتطويها كالورقة الجاهزة للإحتراق. أماقطيع جمعه الذى توغل منذ الصباح فى منحدر التل على مقربة من القرية، فقد كف بدوره عن التحرك بحثاً عن المرعى. بل كف أيضاً عن الرغاء. وتمددت الأغنام الحوامل على الأرض بلا حيلة، تلهج بين الأشواك الصفراء والأوراق المتساقطة. وقد طوت أقدامها تحتها، وطالت رقابها، وركنت ذقونها على الأرض وكأنها تريد أن تبرد فيها جسدها المتقد. ربض القطيع كله بلا حراك، دون أن يحرك ساكناً لطرد أسراب الذباب التى تحوم حوله، محاولة إيذائه.

وحتى مسعود، كلب الصحراء، مبتور الأذنين، ذو الذنَب الذى يشبه ذنَب إبن آوى، أخذ منذ الصباح يهرول وقد تدلى لسانه ويحارب الناموس الذى أزعجه، وينبح بمعدل ثابت، ويهيم يهّوى على نفسه مرة هنا وأخرى هناك. وبعد أن تخور قواه يكون قد تمكن من التخلص من لسعها وهاهو الآن يرقد منطوياً فى ظل نتوء صخرة، يغالبه النعاس، ينام نوم الكلاب اليقظ، حيث يفتح أحياناً إحدى عينيه ويلقى بنظرة على الأغنام عبر شق ضيق بين جفونه. كل شيء على ما يرام، فيخلد للنوم مرة أخرى يائساً من الكآبة والأفكار.

لم ينزعج سوى جمعه، الذى ظل مشغولاً فترة طويلة؛ فقد جلس منحنياً فوق نتوء صخرة، وركز وجهه الذى يغطيه ذقن أشعث امتدت شعيراته حتى مآقيه، على العباءة المبسوطة الى جواره وعلى الصوف المجزوز فوقها. كان يمد يده أحياناً، ينزع بعضها، يمشطها طويلاً بمشط حديدى معقوف الأسنان الى أن تصبح ملساء ومستقيمة كالزهرة بعد غسلها. وفى أحيان أخرى يهز رأسه ويرفع يده يمسح بها حبات العرق المتصببة على جبهته.

رفع الكلب رأسه فجأة، تشمم بأنفه وحرك رأسه فى كل اتجاه. إنتفض وهب من مكانه مهرولاً نحو الوادى كالبرق. بعد فترة أخذ ينبح نباحاً مسعوراً نحو جمعه وكأنه يقول له: "تعالى ساعدنى!".

فى تلك اللحظة تناهى من أسفل الوادى صوت جهورى ينادى: " جمعه! ياجمعه...!.

سرى الصوت بين الجبال وازداد قوة، ونزل ككرة الثلج من تل الى آخر وترددت أصداءه من كل اتجاه. إرتجفت الأغنام وأخذت تنهض عن مكانها وتقف على أقدامها بتكاسل. وتحرك جمعه وكأنه أفاق من حلم، خلص أطراف قميصه من بقايا الصوف الذى غطاه بطبقة سميكة، وأمسك بعصاه، وهى نبوت الشجرة التى سقطت عنه بفعل الزمن، أغلب المسامير النحاسية التى ثبتت فى رأسها كالأزرار، أما ما تبقى منها فقد اسوَّد واعتلاه الصدأ. مد جمعه جسده الى الأمام بتكاسل، وسار مهدلاً يداه فى أعقاب الكلب بين أشجار اللوز والفسدق والزيتون البرى، التى أتت القطعان على أغلبها. شق طريقه بين شجيرات الحسك الحادة، التى غرست أوراقها فى أقدامه كالإبر. وما أن سار فوق ركام الأحجار التى هوت من القمة وتجمعت هنا أسفل الهضبة، حتى أهَّل براحة يده على جبهته ونظر متفحصاً الوادى الذى فتح كالهوة السحيقة تحت قدميه، الى أقصى مكان تصله عيناه.

عاد الصوت يعلو بقوة من جديد : جمعه!.. ياجمعه!.. فهرول الكلب عائداً الى سيده وأخذ ينظر اليه وكأنه يسأله: " ما العمل؟"، أرغى وأزبد، ثم عاد يهرول ثانية الى السفح وأخذ يطلق نباحه صوب أسفل الوادى. ثبت جمعه ناظريه على الجهة التى أتى منها الصوت. فى تلك اللحظة ظهر من بين الأدغال فجأة شخص يجر خلفه بغلة وقد أمسك لجامها بقوة وأخذ يصعد بصعوبة فى درب الرعاة الدائرى الضيق فى سفح الجبل.

عرف جمعه أن القادم ما هو ألا أبو دبور وبغلته، التى اشتهرت فى القرية بأنها بغلة جامحة، ترفس أصحابها وتخرب ممتلكاتهم. إكفهر وجهه فى تلك اللحظة، ودفعه القلق الداخلى الى تحريك طاقيته قليلاً ليهرش رأسه وكأنه يفكر. تفحصت عيناه يد الشيخ دبور الملوحة، وأخذ يلوح بدوره فى الهواء وكأنه يشير اليه من بعيد. رأى جمعه خطوة البغلة البطيئة المتثاقلة، ومحاولات الشيخ دبور ومساعيه لحثها على المسير، فأدرك سبب الزيارة. فهدأت نفسه ولوح له بعصاه إشارة الى أنه ينتظره، وصفَّر لكلبه الذى كان لا يزال ينبح، ويعض نواجزه تجاه هذا الغريب، وينظر الى صاحبه وكأنه يريد أن يفهم مقصده.

أمره جمعه بحزم وهو يمسح عليه بيده لتهدئته: "كفى.. كفى"... فسكت الكلب على الفور. وحينما عاد جمعه الى قطيعه جرى ومر أمامه وهو ينفض التراب ويهز ذيله، تكور حول نفسه وعاد الى غفوته.

أخذ جمعه يتجول برهة فى كل صوب. ويقف أحياناً بجوار صوفه وكأنه يستعد للعودة الى غزل الصوف، لكن ظلت يده معلقة بوهن. كان مظهره يدل على الإنتظار والترقب. وكان أحياناً يرفع رأسه ينظر الى الشيخ وبغلته. ولأن البغلة مريضة، فإنه لم يصعد من المرتقى القصير، المتعرج

الذى تعوقه الأحجار والشجيرات، بل ظل يتهادى فى الطريق الطويل غير المباشر، الأكثر مناسبة للبغلة. وبعد بضع خطوات كان قد أوشك على الإنهيار، فحرك رأسه صوب البغلة وأخذ يجفف العرق بذراعه من فوق وجهه ورقبته.

وما أن وصلا الى التل المنبسط حتى تنفس الشيخ دبور الصعداء، وضغط يده بقوة على صدره اللاهج، تنفس بعمق، وأشار الى جمعه الذى خطا بضع خطوات نحوه لاستقباله، بأن يتقدم منه وسلمه لجام البغلة، محاولاً أن يرسم على شفتيه النحيلتين ابتسامة شكر، وسار بتكاسل، والقى عليه التحية: "السلام عليكم! . . . . "

أجابه جمعه وهو ينحنى ليقبل يده ويرفعها الى جبهته، "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته". أخذ اللجام وأمسك البغلة التى شرعت تهز رأسها الضخم بقوة وكأنها تطرد عنها ذبابة مزعجة. ربط بيد مدربة سلسلة اللجام الحديدية الطويلة عدة مرات حول جذع شجرة انتصب بين شقوق صخرة، وغرس كُلاَّب الفقرة الأخيرة فى الحلق. عاد بعد ذلك الى ضيفه وقاده الى حائط الخربة الشمالى، حيث يغطيه الظل. وبينما هو فى الطريق أخذ يجمع الصوف ويضعه فى الكيس. ضغطه جيداً وأغلق عليه؛ وبذلك خلَّص العباءة، فبسطها على الأرض، وركن الكيس الى الحائط وأعد مجلسا لائقا للشيخ دبور.

خلع الشيخ دبور نعله الأحمر المصنوع من جلد الماعز الخشن، وخلع أيضاً عباءته البيضاء، طواها ووضعها فوق الكيس. عقد ساقيه تحته وجلس باسترخاء. رفع قبعة الدراويش البيضاء، المدببة الطويلة، ذات الزر الأخضر، والشريط المعقود حولها، وأخذ يجفف بمنديله صلعته التى احمرت كالقرنفلة من شدة الحرارة والإرهاق. كما جفف وجهه الجامد، ثم مد يده الملتهبة فى صدره وأخرج مسبحة الدراويش السوداء؛ فعل كل ذلك بهدوء شديد. لكن سرعان ما زاغت عيناه وألقت بنظرات صارمة فى كل صوب. واصل الصمت وهو يحرك حبات المسبحة بين أصابعه وكأنه يراجع حساباته؛ الى أن عاد فى النهاية وبادره بالتحية:

-"صح بدنه".

وضع جمعه راحة يده على صدره بأدب جم قائلاً: "يا أهلاً!".

- كيف حالك؟ وكيف حال الغنم؟ . . . لقد تعبت كثيراً الى أن عثرت عليك". ثم تراجع قليلاً الى الوراء وأشار الى جمعه الذى ظل واقفا أن يجلس على العباءة.

-" الحمد لله! أنا فى خدمتك. . كل شيء على ما يرام. . ".

جلس جمعه على طرف العباءة متردداً تاركاً مسافة بينه وبين الشيخ، أنصت اليه وكأنه ينتظر حديثه.

-" إسمعنى ياجمعه. . . صلى على النبى!". صمت الشيخ برهة ثم أردف: " ما جئتك إلا لأمرين. . . لقد علمت أنك أول أمس وبينما أنا غائب عن القرية، تصرفت بحماقة. . . وعدت الى التعبد والذكر، وأنت لست "عضواً" ولم تدخل "الجماعة" بعد. . . ولا تعرف شيئاً عن الطريقة الصحيحة والمذهب، فهل كل من يهمس ويعلو ويهبط ويفرد جناحيه يصبح درويشاً. . . هذه

فضيحة. . .إنتهاك للإيمان. . جريمة. .كفر". وكان غاضبا طوال حديثه، يرتعد منخاره من شدة الإنفعال، ومع كل كلمة كان يهز رأسه تهديداً ووعيداً، ويدير مسبحته بقوة وكأنه يعد تهم جمعه على حياتها.

لم يفهمه جمعه بعد، فأخذ ينظر اليه بعيون حائرة. حينئذ إرتقى الشيخ دبور قليلاً عن مقعده، واقترب منه وأخذ يوضح له :

"يجب أن يهدف ذكر الدراويش الصحيح الى تحقيق التواصل مع الروح المجردة الخاطئة، الروح الضالة في فضاء العالم، الروح التى تسرى فى الرياح كأوراق الشجر فى العاصفة. ويجب أن يخلصها الذِكر من معاناتها وينفخ روحاً فى أجنحتها، ويرفعها الى الملجأ المستقر الهادىء، الى باب الجنة؛ لكن التعبد الزائف يدفعها الى الهاوية والى الصحراء المتقدة، حيث يزرع المحصول بالكد وترويه الدموع. وحينما يحين الحصاد لا تجنى سوى أعشاباً ذابلة، تولد ثعابين وأفاعى. . . انظر الى ربك ياجمعه ! أنت مخطىء تماماً.

ظل جمعه حائراً واجتهد فى العثور على كلمات يبرىء بها ساحته، وكان كالرضيع الذى بال، أحنى رأسه وتمتم بصوت خفيض متوسلاً :

-"علمنى الطريقة ياعمى!أدخلنى من فضلك فى الطائفة. .إنحنى الى قدميه، قبَّل ركبته، ولمس مسبحته وعلق ناظريه بها آملاً.

-" لا يا جمعه! لم يحن الوقت بعد. . .لقد ألحقت بنفسك الضرر بفعلتك الأخيرة. .وفى محاولة لإضفاء نبرة استرضاء على حديثه، أضاف قائلاً :

-" لا زال هناك وقت. لكن يجب أولاً أن أتحدث فى هذا الشأن مع الشيخ كيرى. .لا تقاطعنى يا جمعه! يمكنك الثقة بي. . لقد كنت صديقاً لوالدك، رحمة الله عليه. .ولكن، كل شيء بيد الله. .

تحرك الشيخ دبور مرة أخرى الى الوراء، واعتمد بظهره على الكيس، وأتى بحركة من يده تدل على نفاذ الصبر وكأنه ينهى حديثه معه عند هذه النقطة. واستغرق فى الصمت. وما هى إلا لحظات حتى اكتسى وجهه بالقلق، وقال بصوت أكثر اتزاناً، علمانى وعملى :

-"أترى هذه البغلة ياجمعه؟. إنها غالية وعزيزة لدىّ. أصابتها عين منذ أسبوع، ففقدت شهيتها، ولم يعد يروى ظمأها دلو ممتلىء، فهى عطشى دائماً. .بخرتها قبل سفرى الى المدينة ورششتها بماء مطلقانى(مسحوق عشب ضد العين الحاسده)، وحبستها فى الحظيرة وحظرت على النساء ألا يتركن الدلو مفتوحاً، وأن يحافظوا عليها ولا يعرضوها لتيارات الهواء. . . لكن من يعتمد على النساء، كمن يعتمد على حائط مائل. . . وبالأمس لم ترق لى. . وفى رأيى أنه لا علاج لها إلا الكى بالنار. . .فالنار تقتلع الأمراض من جذورها. . .إفحصها بنفسك وليكن الله معك. . يدك خفيفة. . ولك باع فى هذا الشأن. . . وقد يكون شفاؤها على يديك. . .

تنبه جمعه وهب واقفاً، ثم قال :

-"تحت أمرك، على عينى وعلى رأسى!، إن شاء الله سينتهى كل شيء وسيصير خير. .

سنعمل المطلوب حالاً وعلى الفور».

قام الشيخ دبور عن مقعده، عدَّل إزاره، وأدخل المسبحة فى صدره، وانتعل حذاءه، وسارا معاً نحو البغلة.

دار جمعه عدة مرات حول البغلة التى وقفت مطأطئة الرأس، تنتفض من شدة الألم. فحص جمعه كل أعضائها بعناية بالغة، حتى لا يخفى عنه شيء. أمسك بلجامها جيداً، فلم تبد البغلة أى معارضة ولو برمشة جفن. فى البداية تفحص عينيها، اللتان خبا بريقهما وبدتا مرهقتان. حرك صدغها السفلى وفتح تجويف فمها بيد مدربة ماهرة ولمس بإصبعه لسانها المفلوج الجاف كجلد متشقق. بعد ذلك ترك اللجام للشيخ وانحنى تحتها، تحسس صدرها فى كل مكان، وضغط على عظامها الواحدة تلو الأخرى، وأخذ يعد العظام بصوت مسموع من كلا الجانبين. وفى النهاية دعك جانبى بطنها مرة واحدة بكلتا يديه، وكانت بطنها منتفخة ومشدودة كالرق، لمس فيها كتلة ضخمة كالبيضة، فركلت البغلة بقدميها الخلفيتين دفعة واحدة وفى كل اتجاه.

صاح الشيخ دبور وهو يتراجع الى الخلف مذعوراً: " فتِّح عينك ياجمعه! إحذر!..الملعونة إصابتها بالغة..إنها مخادعة كالثعبان تحت التبن..حى هو الله! إحذر أن تقضى عليك"...

تمكن جمعه المنحنى من القفز قبل فوات الأوان. قفز بخفة القطة ووقف على قدميه، وكأنه مبارز رأى خصمه وهو ينقض عليه، أحنى ظهره الى الوراء، وتابع دورانها وحركات أرجلها وبموجبها وجه قفزاته وتحركاته. وسرعان ما خارت قواها، ووقفت ساكنة فى مكانها تلهج وترتعد فرائصها. حينئذ تقدم منها جمعه ثانية، نظر اليها كمن يدرس ويفحص ما يمكن عمله. وفجأة ربَّت بيده على صدره وهز رأسه دلالة على أنه اتخذ قراراً، ثم قال بهدوء :

-" لقد صدقت ياشيخ أبو حسن! إنه خرَّاج داخلى. وعلاجه الوحيد هو الكى بالنار المشبعةبالقريعة(إسم نبات له جذور طويلة)...وهو دواء مجرب ! خيراً فعلت بتعجلك القدوم" .

ثم أردف وكأنه يهدىء من روعه :

-" سأكوِها بنفسى وبحذر. وإن شاء الله لن تظهر الندبات وستبرأ بسرعة. وتجلب لك الخير...".

أجابه الشيخ دبوروهو يحرك يده على ذقنه دليلاً على الرضى والموافقة:

-"إكوِها ! إكوِها يا جمعه!.. إفعل بها ما تراه لازماً، كما تعلم وتفهم...لا تضيع الوقت... إننى أعتمد عليك فى كل شىء...البغلة بغلتك.. وكان الله فى عونك...".

وبعجلة لا علاقة لها بسنه، أنزل الشيخ دبور سرواله وشد حول خصره العريض أطراف جلبابه المصنوع من خيوط حريرية حمراء وزرقاء وظهرت ملابسه التحتية البيضاء المدلاة حتى كاحله؛ وخلع عن رأسه قبعة الدراويش بحذر، وأعد نفسه لمساعدة جمعه فى مهمته.

قال له جمعه بصوت جهورى، صوت رجل خبير وفنان يكره تدخل أى غريب فى عمله: " إسترح ياعمى.. العمل أمامنا كثير ولدينا وقت كاف.. إجلس الآن فى الظل، ولا ترهق نفسك.. وحينما يحين الوقت سأخبرك" .

إنصاع له الشيخ دبور؛ تنحى جانباً وأخذ يرقب استعداداته بارتياح؛ وأخذ جمعه يجرى هنا وهناك بتركيز شديد وإيقاع سريع. غاب عدة مرات فى ظلال الخرابة، وكان يخرج ثانية حاملاً فى يده شيء ما. سحب حزم من الأشواك والعسلوج، وجذور أشجار وأحبال، عاد ثانية وأخرج من خباء، جراب جلدى منتفخ مملوء عن آخره وقد اصفر لونه وصار طرياً بفعل الزمن. فتحه وأخرج من أعماقه كل أنواع الخردة، معدات مكسورة، وقطع قماش، وشرائح زجاجية وفخارعلى جميع الأشكال تكسوه القذارة والفطريات، وعلب جلدية وأخرى من الصفيح الصدىء، مربوطة بخيوط مختلفة الألوان. أفرغ كل هذا بحذر فى حِجره وأخذ يرتبه حوله. مد يده مرة أخرى وسحب من قاع الجراب أدوات مهنته: إبرضخمة، مثقابات، ملقط، وأسياخ حديدية. وأخذ يتفحص مايحتاجه منه. بكل دقة. وبسعادة الأطفال الذين يخرجون مدخراتهم، مرر أمامه أشياءه العزيزة، وهو يرتبها على الأرض على مقربة منه، حتى تكون فى متناول يده وقت الحاجة.

أبعد الجراب الى مكان آخر وعاود الجلوس على ركبتيه. حرَّك الطوب وجهزه على هيئة فرن. جمع القش والأشواك المناسبة للإشعال فى حفرة أعدت خصيصاً لذلك. ورتب الأخشاب فوقها، ثم مد يده فى صدره وأخرج نبتة أذن الدب الجافة وزلط. أحكم إبهامه بالنبتة على الزلطة، وضرب بقوة الى أن انطلقت الشرارات حوله. وما أن ظهر الضوء فيها حتى دفع بها بين الأشواك، وأشعل النار بالنفخ وبأطراف قميصه، وتصاعدت أعمدة الدخان وأدمعت عيناه. تعالت السنة النيران ملامسة ما حولها وقد اصطبغت بلون الكبريت الأصفر، وبرائحة الزعتر الفجة المتصاعدة مع اللهب ومصحوبة بأصوات طرقعات. أسرع جمعه وأضاف " القريعة " الى الشعلة كتلة وراء أخرى. وكان من الواضح أنه حذر من الإفراط فى هذه الجذور العزيزة.

إشتعلت النار وتأججت فأدخل فيها أرفع قضيبين عنده وجعل الجمرات تحيط بهما، ثم هب واقفاً، وفرك يديه بسعادة غامرة، وهز رأسه وكأنه يدعو الشيخ للإستماع الى ماسيقوله وتمتم بصوت خفيض: " من خيرك ياعمى! . . . كل شىء جاهز الآن. . علينا الآن أن نربط البغلة ونبدأ العمل.

تمطى الشيخ دبور ونهض بهدوء. ثم اقترب من جمعه ووقف على مقربة منه وسار فى أعقابه منفذاً تعليماته.

إقتربا من البغلة بخطى حذرة، وبينما أمسك الشيخ بلجامها بقوة تحت ذقنه، قام جمعه بإدخال شفتاها بين قطعتى خشب ومد حبلاً عبر الثقبين فيهما، وربط الحبل جيداً فقيد أسنانها وكمم فمها. بعد ذلك لمتح ربطة خيوط الكتان السميكة وشدها الى الأرض، عقد أطرافها ثم زحف على بطنه كالثعبان، وبأصابع خفيفة كالريشة، أو كالجراد الذى يطير فوق صفحة الماء، مرر العقد فى كواحلها الأربعة وعقدها بعقد مزدوجة، ثم قفز من تحت بطنها ومد الطرف الثانى للشيخ دبور، بينما أمسك هو بالطرف الاخر بكلتا يديه، وصاح من شدة الإنفعال: " شِد ياشيخ أبو حسن! . . . إسحب! . . . ياخليل الله. . جذبا الحبال مرة واحدة بقوة بينما بقيت البغلة مكبلة بقيودها. جذبا بقوة أكبر، إنحنيا الى الوراء بقوة، بدأت البغلة تهتز، الى أن بركت مكبلة

الأظلاف. قامت بمحاولة يائسة للتخلص من قيودها، فغاصت الحبال عميقا فى كواحلها، فبركت على جنبها ساكنة، وخضعت فى انتظارمصيرها.

خلط جمعه الجمرات المشتعلة، وأخرج القضبان وأخذ يتفحصها فى الضوء. أسرعا مرة أخرى وانقضا على ظهر البغلة كالقرود. أرقداها على جانبها وأثقلا بكل جسديهما عليها. دفع جمعه بالقضبان فى جسدها الواحد تلو الآخر، فأحدث فيها دائرتين متداخلتين ووصل بينهما بخطوط متقاطعة. لم تكف البغلة عن محاولة النهوض. لكنها مرَّغت الأرض تحتها بروثها بحركات ذيلها كالبندول. وبرزت حبات العرق من كل مسام جسدها، وغمر جلدها زبد أبيض. كانت ترفع رأسها بين الفينة والأخرى وتنظر الى معذبيها بعيون دامعة، وقد غمرها الدم الذى إنبثق من ثقوب جسدها، فتعاود التمرغ فى الأرض من شدة آلامها وعذاباتها.

ملأ جمعه راحته بحفنة غبار ونثرها على أماكن الكى، وفك وثاقها الخشبى، وحل عقد الحبال وأطفأ النار.

حينئذ نفض الشيخ دبور الغبار عنه وعدَّل ملابسه ولم يكف عن امتداح جمعه. ربت على كتفه بحب وقال :

-" حى هو الله الذى مكنك من إتمام العمل. إنك تساوى وزنك ذهباً ياجمعه. ومن يقول غير ذلك أفقأ عينيه بأصابعى هذه. . .هيا بنا نستريح".

إرتسمت على وجه جمعه المذهول إبتسامة لا مبالية وأشار بيده رافضاً. لكن الشيخ دبور أمسك به من ذراعه وجذبه خلفه :

"هيا بنا نأكل معاً. .لقد انقضى النهار وأنا "على الريق". الملعونة كادت تصيبنى بالجنون.

جلسا على مقعدهما الأول ووجههما نحو البغلة والأغنام. مد الشيخ دبور يده الى عباءته المطوية على الكيس وأخرج منها كالسحر ربطة كبيرة لم يعلم جمعه بوجودها قبل تلك اللحظة. فك رباطها فبرزت من داخلها قطع كثيرة من الخبز الغموس فى السمن ومتبلة بالزعتر، نثرها على الأرض، فانطلقت منها فى كل إتجاه قطع بيضاء دائرية كالجوز وصلبة كالصخر، وأخذ يتناولها دون أن يكف عن دعوة جمعه وتحفيزه لتناول الطعام : " مد يدك الى الخبز يارجل! . .فالزيت يلطف جسدك، ويزيل عنك التعب ويزيد من تركيزك.

إستغرقا صامتين فى تناول الطعام. وانحنى الكلب جانباً ينظر بعيون طامعة الى كل قطعة خبز يضعها أسياده فى فميهما. أبعد الشيخ يده بسرعة عن الحنطة المتحجرة، بعد أن عجز عن قضمها بأسنانه. ورمق الزعتر بغضب وأخذ يهز رأسه ويتوعد امرأتيه، الصغيرة والكبيرة، اللتان تكيدان لبعضهما وتلقى كل منهما التهمة على الأخرى. لكن صدغى جمعه الضخمين إستمرا يمضغان بلا توقف وباستمتاع هادىء. أخذ يستطعم كل قطعة وهو يشمها وعلت وجهه ابتسامة رضى ككبش جائع يلعق بشهية جذور النباتات على الهضاب.

نظر الشيخ دبور الى شريك طعامه وهو يلتهم الطعام بشهية بينما يشعر هو بآلام فى معدته. أخذ يرقب جمعه طويلاً وهو يأكل، وأجبر نفسه على مشاركته حتى لا يفرض على ضيفه أن يكف

هو الآخر قبل أن يشبع.
شبع جمعه، والتقط الفتات بيده والقى به دفعة واحدة الى فمه. ثم نظر الى مضيفه واضعاً يده على صدره قائلا" الله يعوض عليك".
أجاب الشيخ دبور: " بالهناء والشفاء!". وبينما يمسح فمه وأصابعه براحة يده، أخرج مسبحته من جيب جلبابه، أدارها وربطها حول إصبعه وهو يسأل جمعه :
-" ما رأيك فى البغلة؟ هل تستطيع أن تأتى معى؟".
أجابه جمعه وهو يهز رأسه بالرفض المطلق :
-"لا. لا!..إستعذ بالله. أتريد أن تقتلها؟..الخُرَّاج مفتوح وتخلصت من السموم لتوها. إنها منهكة تماماً وفى حاجة الى راحة تامة، يحسن أن تتركها هنا اليوم. إذهب أنت الى حال سبيلك.. الله يسهل لك، وارسل صباح الغد أحد الفتيان ليأخذها. وللعلم أنصح ألا تطعمها غداً أيضاً، وإلا لن تسترد قواها".
قال الشيخ دبور وهو راض عن القرارالذى لم يفكر فيه من قبل : "حسناً..الله معك. هذه هى أفضل طريقة. لا يوجد فعلاً أفضل منها".
نهض وهو يتحدث، وثبَّت على رأسه القبعة التى يستمد منها مهابته ووضع العباءة مطوية على كتفه.
وقبل أن يمضى تقدم من بغلته، تفحصها ونظر اليها طويلاً، أدرك بخبرته أنها بدأت تتعافى بعض الشئ، فاستراح بالاً. تراجع بضع خطوات الى الوراء نحو جمعه الذى كان يقف خلفه فى انتظاره. التفت اليه قائلاً :
-"لست فى حاجة لأن أوصيك...بخاطرك ياجمعه!..عد الى القرية ولا تبتعد عن الناس...ألم يقل الشيخ نبهان، رحمة الله عليه : "من يبتعد عن الناس، يبعده الله عنه يوم القيامة".
أجابه جمعه وهو يودعه :
-" بخاطرك ياعمى! ربنا يسهل عليك، ريَّح بالك ولا تفكر. إعتمد على الله...سوف تعيش البغلة وسيكون كل شيء على ما يرام...".
إبتعد الشيخ واختفى داخل الوادى. وتنهد جمعه برضا وكأنه أزاح عن كاهله عبئاً ثقيلاً. ثم سار بخطى ثابتة أمام البغلة ونظر اليها طويلاً. بعد ذلك تخطاها ومضى وأمر قطيعه الذى انتشر فى جماعات، منه من ابتعد سعياً وراء الخضرة الجيدة للأكل، ومنه من وقف صامتاً، راكناً أقدامه على نتوءات الصخور، مشرئب الرقاب، مادا لسانه الى فروع الأشجار وسعف النخيل النابت بين شقوق الصخور. فى تلك اللحظة انهمك فى التناطح إثنان من التيوس الكبيرة، معكوفى القرون. تراجعا الى الوراء لكى ينقض كل منهما على الاخر بكل قوة وجرأة. أمالا رأسيهما الى الوراء وأبرز كل منهما جبهته للآخر. وعقد كل منهما قرنيه استعداداً لضربة قوية ردت عليها الجبال بالصدى. وعلى الرغم من جهودهما، لم يتمكن أى منهما من زحزحة الآخرعن موقعه قيد أنملة.

وما أن رأيا جمعه يمر بجوارهما حتى كفا عن العراك وهرولا اليه بقفزات وحشية، ففهم جمعه مقصدهما، لاطفهما وداعب ظهريهما، ثم ابتسم لهما وصاح : " أنتما عطشى؟ . . تريدان أن تشربا؟ اليس كذلك؟ . . حالاً! سننزل حالاً الى النبع! " . رفع ناظريه الى أعلى وهو يتحدث باحثاً عن الشمس، لكى يعرف التوقيت الآن؛ حدد موقعها وفقاً للأشعة الخافتة المنبثقة من بين أبخرة الحر القائظ، وكأنها تتسرب تحت قطعة قماش مغموسة فى الزيت. وعلى الرغم من أن النهار لا زال طويلاً ولم يحن الوقت بعد لسقيا الغنم، إلا أنه تناول عصاه وأطلق عدة صافرات رفيعة متواصلة لاستدعاء القطيع. وصفَّر للكلب. أمسك بالتيس ذو القرنين ووجهه نحو النبع. ففهم مقصده وراح يهرول وهو يحرك قرنيه، ناثراً أصداءً جميلة فى كل اتجاه. أسرعت الأغنام منزعجة نحو الصوت. تداخلت وتدافعت، وهرولت من حاجز الى آخر، وانسابت على السفح نحو صحن الجبل، الذى تحرك فيه البوص والصفصاف برقة بالغة.

رووا جميعا ظمأهم من غدير الجبال المنبثق من داخل شق صخرة ملساء مغطاة بطبقة من الطحالب الخضراء. جلس جمعه على طرف الصخرة، وتدلت قدماه الحافيتان الملوثتان، وقد غطت أكفهما طبقة جلدية سميكة، وتركهما للتيار بارتياح يهزهما ويتسلل عبر الأصابع. جذب جمعه الناى البوصى من حزامه وقربه من فمه، أمسكه بكلتا يديه، وأمال رأسه واستغرق فى أداء لحن عذب ساحر. سرت أصداءه وتناثرت بين الصخور المنتصبة وابتلعتها الشقوق المفتوحة كهواء مسوخ عملاقة.

على غير عادته كف جمعه فجأة عن العزف، وهب واقفاً على قدميه، وكأنه تذكر شيئاً هاماً لا يمكن إرجاؤه. رفع عصاه، ونبه القطيع بأن يعود أدراجه. حركت الأغنام رأسها نحوه بدهشة؛ وحتى الكلب وقف برهة في مكانه حائراً، مدَّ ساقيه بتكاسل، وأحنى ظهره حتى لامست بطنه الأرض، وأخذ يحرك شحمات أذنه الطويلة غاضباً محتجاً، مثبتاً ناظريه فى سيده وكأنه يسأله: ماذا حدث؟ وهل صدر الأمر هكذا فجأة بأن نترك هذه البقعة الجميلة بسرعة؟ . . . " غيَّر جمعه الأمر بغضب، أمسك بمؤخرة التيس العنيد الذى غرس أظلافه فى الأرض رافضاً التحرك، سحبه جمعه بكل قوته وانهال عليه بالعصا. آنذاك تحرك الجميع صاعدين الجبل وتدافعوا عن غير رضى بهذا الأمر الجائر. وصل جمعه أخيراً الى منطقة الخربة، وبسرعة بحث عن البغلة، نظر اليها طويلاً بقلق بالغ. كانت البغلة قد نهضت على قدميها وبدا عليها التحسن بوضوح. ظهر التغيير فى عينيها اللتين نبضتا بالحياة، ولم يعد يسيل اللعاب على جانبى فمها، وأخذت تحرك ذنبها هنا وهناك، تلهب به ظهرها ومؤخرَتها. إتسعت عينا جمعه. هرش صدره المشعر بكلتا يديه بارتياح وافتخار، وابتسم لنفسه بهدوء. إنتشى وسار بضع خطوات وأخذ يحدِّث البغلة ببضع كلمات تشجيع واسترضاء. لكن البغلة أرخت أذنيها وأسبلت جفونها ورمقته غاضبة بنظرة جانبية مهددة، وبازدراء واضح.

وتخلص جمعه بسرعة من قلقه الدفين. شعر بالوهن يسرى فى كل أعضاءه. صعد الإرهاق من أخمص قدميه وسرى فى كل جسده. تحرك بصعوبة الى أن وصل للمكان الذى ترك فيه عباءته. القى بنفسه عليها، تمدد على بطنه، وعقد يديه تحتها واعتمد على مرفقيه. عاد جسده فى تلك

اللحظة الى أصوله، فلقد كان جمعه كأحد نباتات الأرض، وأكثر صمتاً من الأرض ذاتها.

حملق فى نقطة واحدة بضع لحظات، وبالتدريج خلا ذهنه من أى تفكير، وأُغلقت جفونه، ونزل رأسه على ذراعه، وانطلق شخير قصير متواصل من منخاره وفمه المفتوح.

– هـ –

إستيقظ من نومه على نباح مسعود المذعور، المنزعج، طالباً النجدة، وعلى طرقات مكتومة من الحوافر والأظلاف التى تضرب الأرض. هب من مكانه واقفاً كطائر تائه، وغرق ذهنه تماماً فى الظلام ولا يدرى ما يحدث. إستعرض كل شيء حوله، وإذا بالمكان يعج بالضجيج والإرتباك. عالم عاد الى الفوضى. ورأى الأغنام مبعثرة، تهرب فى فوضى فى كل صوب، وفى ظلمة الشمس الغاربة بين جبال السحب المتفرقة، الحمراء، الصفراء بلون الكبريت. ورأى الأغنام وقد تسلق بعضها الصخور الصعبة، ووقفت بين الأشواك، محشورة بلا حيلة بين الشجيرات. وتدحرج كثير منها فوق بعضه، وأخذت تتقافز بانزعاج فى كل اتجاه، وكأن هناك من يطاردها. وأخذت البغلة تدور بينهم فى دائرة كبيرة، بعد أن تخلصت من أغلالها بحركات مستمرة من رأسها، وأخذت تهددهم كاللبؤة، بشعرها المتهدل وذنبها المرفوع، وهرولت تجرجر أصفادها المربوطة الى رأسها، تجرها بين أقدامها، تتعثر فيها وهى تجرى، تقع وتحاول من جديد محدثة الضجة والإنزعاج بين القطيع. أدرك جمعه ما حدث بسرعة، فتناول عصاه واتجه نحو مسعود الذى وقف الى جواره ينبح بصيحات متقطعة، وأمره بغلظة وحركات فظة : "عليها! . . . عليها! . . . إمسكها. . . " .

لكن الكلب قبع فى مكانه من فرط جزعه على نفسه ولأن ما حدث فاجأه، فواصل النباح واضعاً ذنبه بين قدميه ولم يتحرك من مكانه.

صب عليها جمعه لعناته عبر شفتيه المرتعدتين من شدة الغضب: " الويل لك، ياكافرة! . . . إنتظرى، ياعاهره، سأريك! " . أخذت البغلة تجرى بسرعة كالمجنونة، وقطع جمعه عليها الطريق، قفز أمامها وانحنى قليلاً ليمسك بلجامها.

وصل اليها – ورأى فى عيونها فى تلك اللحظة تعبيراً حاداً وكأنها حيوان مفترس يوجه قفزته بدقة ويحدد مكان إصابته. لفتت مؤخرتها بسرعة البرق، واستنفرت قواها، ثم رفعت مقدمتيها مرة واحدة. وقبل أن يتمكن جمعه من الهرب ركلته فى صدره بكل ثقل جسدها. صاح جمعه بشدة وهو يسقط على الأرض. فقد أصابته الضربة بقوة لدرجة أن كرات نار انطلقت من عينيه. سقط الى الوراء وتدحرج كالكرة، إرتطم وتوقف عند كتلة صغيرة بارزة فى الأرض على بعد ياردات وظل ممدداً بلا حراك.

وحينما استرد وعيه بعض الشيء وأفاق من غيبوبته، سمع بكاء الكلب ونباحه المخنوق وكأنه يأتيه من خلف جدار سميك. وشعر ببخار لسانه وأنفاسه الساخنة تتصاعد على جبهته. رفع يده بما تبقى لديه من قوة، ووضعها على رقبة الكلب الذى أمسك تلابيب قميصه بأسنانه وأخذ يجذبه فى كل اتجاه وكأنه يحاول أن ينهضه. شعر الكلب بملمس سيده، فصمت على الفور وربض بجانب رأسه، لكنه لم يعد الى هدوئه. كان جسده ينتفض بين فترة وأخرى كما تهتز أوراق الموز فى

العاصفة، وكأن قشعريرة ثقيلة سرت فيه. ظل ينبح ويهرول، مرسلا بنباحه المتقطع الى الفضاء المظلم.

باعد جمعه بقوة بين جفونه الثقيلة كالرصاص وفتح عينيه؛ الظلام يحيط به من كل جانب. نظر حوله وفوقه طويلاً، متعلقاً بأهداب الحياة. ورأى بين السحب المسرعة فى السماء البعيدة كالأغنام الضالة التى تهرول وراء القطيع، الدب الأكبر الذى انقلب الآن وأمال ذنبه نحو الأفق، ووصل تقريباً الى منحدرات الصخور التى بدت وكأنها تشق كبد السماء. فأدرك أن أغلب الليل قد انقضى. وهبت ريح الجبال مرهقة مهرولة فوق التل فخشخشت أغصان الخروب بخوف وزأرت جذوره الضخمة تحت طبقات الصخور. مد جمعه يده ولمس شعيراته التى بللها العرق البارد فالتصقت على جبهته، ومسح شفتيه بمرفقه. فى تلك اللحظة نزل عليها ضوء القمر الذى تسلل عبر أصابع يده السميكة واندهش حينما رأى أصابعه وقد غمرها الدم. شعر بنبض قلبه السريع فى صدره وأنامله ورأسه. وبدا كأن طائراً متوحشاً نقاراً ضرب رئتيه، فشعر بشىء ما ضخم ومستدير يعلو من قلبه طافياً ويخنق حلقه. إنتابه خوف مريع. وتملكه إحساس غريب باليتم والفناء. غاصت يداه لحظة فى الصخرة ونهض قليلاً بوجه متوسل مزقه الألم؛ لكن سرعان ما خارت قواه فسقط مرة أخرى منهاراً وأخذ يسعل من حلقه. هدأ كالفأر وارتكن الى الصخرة بلا حركة، وفغر فاه كالسمكة التى تبحث عن نسمة هواء تتنفس بها، وبعيون محملقة نظر صامتا فى ظلمة الليل الأبدية والى العالم المظلم الذى بدأ يشق طريقه نحو حدوده.

(١٩٢٨)

***

يعقوب شتاينبرج

رجل من مزرعة حفظى بك

خرجت ذات يوم من الخضيرة، أجمل أحراش المنطقة، وصعدت الى حدود الكيبوتساه، الموجودة فى مزرعة حفظى بك. المكان، منظر طبيعى خلاب، حيث تترك تشكيلات الصخور المطلة على البحر، إنطباعاً بالعزلة التامة والإختلاء مع نفسى بعيداً عن الناس. مكان لا تفصل بينه وبين الخضيرة المزروعة أى قطعة أرض. أعجبنى المكان جدا فمكثت به بضعة أيام. لم أتمكن من الحصول على موطىء قدم بسرعة؛ حيث بدت لى الشجيرات التى مررت تحتها فى سفح الهضبة، يانعة وتغص بالعصافير؛ وبدا لى شريط الماء الأسود الذى يشق طريقه نحو البحر عبر غدير ضيق عميق، وكأنه يمر داخل الهضبة، ويشذ عن نظام رموز الوطن العادية. ولم أجرؤ على النزول الى الماء الذى يعد أغلى ما فى بلادنا؛ وحينما مالت الشمس للمغيب وهدأت حرارتها، فضلت الجلوس على الساحل المتعرج وأخذت أرقب صفحة الغدير المتعرج، الذى بدا لى وهو فى نهاية طريقه، كلما اقترب من حضن البحر، كأنه لا يحمل أصداء المسافات البعيدة. متعت عينى برؤية امتداد البحر فى الأفق، حيث تظهر مساحة كبيرة منه فى هذا المكان المرتفع. لكن هذا البحر الكبير، الذى كلما نظرت اليه تراه كإكليل يحيط بأرض غالية، بدا لى فى تلك الأيام جمالاً بلا أسياد، كإطار براق أو زخرفة أقتلعت منذ أمد بعيد من أرض الآباء القدامى. وتلألأت فى اليمين هضبة جرداء جدباء، تعد النهاية الصفراء للأرض التى يفترض أنها السامرة، وبدت لى من هناك صورة الوطن، فهمت به حباً. وفى هذه الساعات من الهيام لم تكف نفسى عن حب الأرض، من دان الى بئر سبع، وبدت وكأنها تشتاق الى جبل أفرايم وحده، حيث السعادة الأولى التى تشكل بها القدر، ووصف بها وطن جميل إنتهى قبل الأوان.

أما الأشخاص الذين قاسمتهم كدى عدة أيام، فلم يخاطروا بالخروج والدخول الى هذا المكان، بل إنهم أيضاً لم يكثروا من الحديث، كان جمعهم الصغير يجلس بارتياح حول مائدة الطعام، التى تشبه مائدة الأهل فى أسرة كثيرة النسل. ينظرون عبر الباب المفتوح الى الساحل، والى مجرى الغدير والهضاب الرمادية عبر الجانب الآخر. ودلت تعبيرات وجوههم أثناء تناول وجبة العشاء، أنهم يتطلعون الى أوهام. ولم يبد الحديث كما كان مألوفاً، حيث ساد حول مائدة الطعام صمتٌ كصمت الرهبان، وساد للحظة هدوء بالغ وهم ينفضون عن المائدة. لم يتناه الى المكان سوى صوت الرجل الذى عليه الدور للخروج بالحصان والعربة لجلب الماء. تابعه كل المجتمعين عند عتبة الباب بصمت وهو يخرج الى الغدير؛ صلصلت الأجراس ببطء دون ضجة فوق رقبة

الحصان؛ وأخذ الصوت فى التلاشى. كان يبدو أن الحوذى نزل الى أرض سفلية سرعان ما سيعود منها. وهاهى الضجة العادية تصمت، ويختفى المشهد المتكرر يومياً، وأخذ الناس يسترخون متكئين على جدار البيت أو على صخرة اعتلاها التراب، إستعداداً للرقاد. يبدون عندها وكأنهم نبلاء، يجلسون بلا جهد فى انتظار أن يأتيهم شيء ما عظيم. وجلس الى جوارهم المرهقون الذين لا يبالون بشيء. لم يجمعهم هكذا إلا مشهد واحد: غفوة ممتعة القى بها هواء السامرة على كل الحضور، وإن كان قد أضفى عليهم أيضاً دهشة لا مبرر لها. وبرز بين هذه الهضاب الغريبة، التى تنساب مع مياه النهر الغالية الى البحر، حب غير واضح لوطن يكاد يكون غريباً، وطن حسم مصيره قبل الأوان وضاعت حياته الحلوة بلا تفسير. هنا تفاخروا بنبوءة الوطن الذى لا يقل عن يهودا المفعمة بالذكريات وعن الجليل المبجل. لكن الحب هنا كان ممزوجاً بأحاسيس كاذبة منذ البداية. ولدى انتهاء يوم العمل الشاق، وفى ساعة الغسق، كان لا بد من التفكير فى شيء ما، وتذكر صورة بعيدة جداً. لقد كان الأمر أكثر فهماً ووضوحاً فى يهودا؛ حيث لا تهفو القلوب هناك الا الى المستقبل العظيم، الذى يسهل أن ننشد له الأغانى والقصائد من قلب طيب، وتحفر صورته فى الأحلام. أما هنا فى السامرة مفروض على الناس أن يفكروا أيضاً فى الماضى، فى أوقات الحنين والهدوء والصفاء، حينما يهيم أعضاء الكيبوتساه القلائل، بين شجيرات الشوك فوق الهضاب المهجورة أو بين الشجيرات عند السفح المزروع. فى لحظات كتلك، كان يبدو أن حزن البعض على أفرايم، الطفل المدلل، لا زال موجوداً.

كان المكان يحمل رجاله يومياً فى صمت وكأنه يخفى عنهم شيئاً ما، لكن كرامات النهار كانت تظهر فى الليل، فقد يمتلىء الظلام بنجوم متلألئة، وقد يقف الهلال فوق صفحة المياه الفضية الممتدة من تحت، لكنه فى الليالى المقمرة، بل وحتى فى الليالى المظلمة، كان يبدوا لأعضاء الكيبوتساه وكأنه عين تحمل ذكرى طيبة. فها أنت تجلس برهة على الصخرة الضخمة المثبتة فى منتصف الساحة المواجهة للبيت، والتى تعتبر حجر أساس المكان، وتعجل بتوجيه أحاسيسك ومشاعرك نحو الهضبة الكبيرة، حيث تنتشرالشجيرات القصيرة فتراها فى مخيلتك وقد أضيئت كل منها بدائرة صغيرة، مصنوعة من تربة رخوة جيدة، وسرعان ما يهدأ قلبك وأنت تتوق الى قبس من رقة أم وحنو أب. هذا هو سر الليل الذى يحل فوق مهد الطفل، حينما تنحنى عليه الأم وتمتلىء به كما تمتلىء به أبداً فى وضح النهار. كان الإحساس بالمكان غريباً جداً فى الليل. فالليل يشوه الحدود ويقلصها، وفى ظلمة الليل يعرف الخيال كيف يتكهن بسهولة بقانون واحد، ومصير واحد ووطن واحد، وطن يحب أفقر رجاله أن يتحدث فى الليالى عن مناظر أرضه الجميلة، وتضاف الى هذه المناظر أيضاً، السامرة التى ضاعت قبل الأوان. ففى ضوء القمر تبرز صورة الوطن معكوسة كالبهاء أو كاللؤلؤ، وفى ضباب ليالى الصيف يبحر الوطن تغطيه غلالة رقيقة، ويلقى علينا تحية الوداع فى ظلال الهضاب وراء البيت المقابل، كجبال تمنحنا الحدود والأمن. وكان هناك رجل لا يخرج إلا فى أوقات محددة، يتخذ طريقه فى المساء الى الخضيرة، ينزل بخطى سريعة، وكأنه طفل من أبناء الجبال يتوق الى الهيام فى البرارى التى يعرفها جيداً، البرارى الخصبة المزروعة

بالبيوت والضياع. وتم تداول أمر هذا الرجل بين الجالسين وكأنه إحساس جديد. وكبرت الخضيرة التى فى الوادى، بل تحولت الى مكان يغص بالجيران الطيبين والمحترمين، الذين وسعوا إقامتهم فى كل صوب. وفى ليلة كهذه، حيث ينقص عدد الناس، كانت تستعد جماعة المتأخرين التى تنتظر المارة؛ ويتمرغون فى ندى الليل، يتبادلون أطراف الحديث عن نقاط الإستيطان، التى أقام فيها المجهولون أو مروا عليها قبل حضورهم الى هذا المكان. وتترك أسماء هذه النقاط، فى مخيلة السامعين انطباعاً عميقاً واضحاً؛ وكان الرجال يشبهون الملاحين الذين يعدون الفنارات التى يمرون عليها أثناء تجوالهم. وكلما طالت جلستهم، تشعبت الموضوعات ؛ تحدثوا عن بعض الشجعان وتوقعوا أن الأرض تختزن بطولات لا حصر لها وتحفظها؛ وذكروا في المرة الثانية والثالثة صور استيطان بالية، وحسبوا بسرعة تزايد بركة صورة الحياة الفريدة. وفى النهاية، حينما يبحر بخار الندى على سطح القمر يأتى همس البحر وكأنه يأتى من أرض بعيدة، وفى هذا الوقت فى منتصف الليل يصل صوت نباح إبن آوى، الذي يحيط بالهضاب ليبث الرعب فى قلوب المجتمعين ويترك لديهم إحساساً بالوطن الكامل؛ بدقائقه التى تبعث على الرعب كالسباب، ومحاسنه التى تختفى عبر الف عام وكأنها اختفت بالأمس فقط؛ وحقيقته التى صنعتها أجيال عظيمة وبعيدة حينما وطأت أقدامها هذه الأرض لأول مرة. ولكن ها نحن نسمع وقع خطوات، فهل هذا هو السارى الذى عاد؟. لا. لقد ذهب للمبيت فى واحة الخضيرة، والرجل الذى جاء طويل القامة، معكوف المنكبين، وتزين وجهه ذقن مشيبة ممشطة ويحمل فى يده عصا غريبة وضخمة. إنه الحاج الذى يلحق بالحراسة فى الليل، هذا هو الغريب الذى يقال عنه إنه رفض مغادرة المكان حينما اشتراه السادة الجدد وفضل البقاء مع الرجال وأن يعمل حارساً الى أن يحين الأجل. وها هو يمضى الى حجر الأساس، يضرب الأرض بعصاه ببطىء، وكلما مر سرت روح جديدة بين المجتمعين؛ من هذا الرجل، الذى لا يعد من عرب المنطقة، وتقول الشائعات إنه غريب.

كنت أستيقظ أحياناً فجأة فى قلب الليل، وهى فى الحقيقة يقظة منتصف الليل بلا أحلام، ولا خفقات قلب ولا بقايا نوم. إن الشجعان المجهولين حينما يقعون فى الحب العذرى لأول مرة، يستيقظون فى منتصف الليل ويهيمون فى الحبيبة بعيون محملقة؛ ويقصر يومهم، وليلهم ولا يعيشون إلا كبد الليل. ولا أعتبرمسألة الإستيقاظ هذه أمراً عجبا، ففى تلك الأيام، وقبل أن يدور الحديث عن شعب يستعد فى أرض يهودا، أحب كثيرون هذا الوطن الأول، بلا غاية وبلا أمل، وبدون تحديد صورته. لقد بحثنا وشرَدنا مع أفكارنا أياماً وليالى، ولكن فى الخفاء تاق القلب لإعادة احتلال كل شيء من جديد؛ وفى كل مرة، حينما كنت أستيقظ قبل الموعد، كنت كمن يعرف أمراً سلفاً. كنت أرتدى ملابسى وأجتاز باب البيت بهدوء وخفة. ولكن فى الخارج، وحينما يأتنى صوت نباح كلب الحارس، كنت أتردد فجأة. وبعد لحظة يصمت الكلب، سواء عن تكاسل الشيخوخة أو لأنه تشممنى واشتم رائحة المكان، فأواصل المسير ببطىء، وكأننى أتجاهل المكان الغريب. وفى ضوء القمر، الذى كان بدراً فى تلك الليالى، رأيت هيئة الحاج العربى الضخمة وهى منحنية فوق حجر الأساس، وبرز فى يده عصاه الضخم، وقد جلس بلا حراك،

لذلك كان يبدو وكأنه شديد البأس. لم يستدر، على الرغم من أن وقع خطواتي كان مسموعاً فى هدوء الليل وسكونه، مضيت حتى اقتربت ولم يتحرك. كان هذا المشهد يتكرر كل ليلة: الكلب ينبح ويصمت، وأنا أسير وراء ظهره فلا يحرك ساكناً. إستدرت لأمر من أمامه، لكنه أيضاً لم ينظر اليَّ. ذات مرة القيت عليه السلام من بعيد، فأجابنى؛ لكن جاءنى صوته أجشاً، ربما بسبب الشيخوخة أو العزلة أو الغضب. إبتعدت بسرعة عن هذه الدائرة السحرية التى أحاطت بحجر الأساس وعدت بعد فترة الى كوخى، وأخذت أفكر طول النهار فى أمر هذا الحاج الغريب، الذى يسحر نفسه كل ليلة ويجلس نائما على الحجر؛ لم أعد أستيقظ فى منتصف الليل لأذهب الى حفظى، لكى أفكر وأفنى وقتى فى أشواق الليل السرية. لقد هيأ لي الشيطان شيئاً ما.

ذات مرة حُل اللغز، ذات ليلة غريبة حفرت فى ذاكرتى ولا يمكن أن أنساها، إستيقظت وقلبى يخفق، إرتديت كل ملابسى وكأنى مسافر الى البعيد؛ إستقبلتنى فى الخارج أبخرة الضباب البيضاء، التى ارتفعت كحائط رطب بسرعة فائقة. غاب القمر وراء السحب المتطايرة على وجهه فبدا وكأنه على وشك الإبحار، وأضفى على المكان سحراً غريباً. كان الجو مليئاً بالدخان والبخار والرطوبة. وعلى الجانب الاخر، وراء الهضاب، تكدست سحب متراكمة كثيفة بلا حركة، كانت تبدو وكأنها تغطى سطح هوة سحيقة. عقدت ذراعى على صدرى لأن عظامى إصطكت من البرد، لكن قلبى ظل يخفق بقوة وكأنه يتوقع حدوث شيء ما. مضيت قدماً غير مكترث بالطريق، ومع كل حجر عثرة فى طريقى كان يسرى فى داخلى تيار ألم ممتع، وضعت يدى على قلبى بما تبقى لدي من قوة وكأننى ألملم قواى. شعرت بتحسن، فقد أعدت اكتشاف كل شيء: الوطن والليل. نظرت عيناى نحوهما، والى الأبخرة المهرولة فى فضاء العالم، فبدت وكأنها حنيناً مجسداً. لا أدرى ماذا انتابنى فى تلك اللحظة، هل ما أراه هو الحقيقة؛ تمتمت شفتاى بصوت خفيض، وأسرعت بالمضى. لكنى فجأة تمالكت نفسى للحظة، لأننى اصطدمت بحجر الأساس. وبدت هيئة العجوز التى برزت من بين الأبخرة المتلاشية وكأنها استطالت بالعرض محدودبة، لكنى لم أندهش وسرت حول الحجر، وأنا أرطن بشفتى وأستحث الخطى بقوة. ولم تكف عيناى عن اختلاس النظر نحو الحجر؛ وفجأة ضربت العصا، ضربة عراك واحدة، أزعجتنى. توقفت وإذا بالعجوز وقف مرة واحدة غاضباً؛ وأخذ يضرب الأرض بعصاه بسرعة بالغة، وانطلقت منه أصوات لا تشبه الحديث العادى، قذف بها فى وجهى. عرفت أنه يسبنى، لكنى وقفت بلا حراك. وفجأة طوى أطراف عباءته على جسده وأخذ يسير نحو هضبة الغدير. تابعته بنظراتى، وأنا أرتعد من الدهشة والفهم معاً. نعم الفهم الذى يواتيك أحياناً بسرعة البرق حينما يكون اللغز مبهماً. وأتاني هذا الفهم بسرعة فى اللحظة التى اختفى فيها الحاج بين الضباب؛ عرفت، أنه أعاد احتلال الوطن مثلى. وملأت الهواء ليلة وراء أخرى بحنين غريب. لكنه لم يدخر جهداً؛ وها هو يهرب، تلاشت هيئته، غلفها الضباب. ها هو يبدو منحنياً على السفح ؛ يبدو أنه يهبط الى الهاوية. لكن كلبه ظل ينبح نباحاً مكبوتاً.

(١٩٢٦)

***

أستير راف

مربة ورد

هدل الحمام داخل أشجار الفلفل المتشابكة، وسطعت الشمس وألقت بأشعتها الذهبية على الأسطح الممتدة وشقَّت الأدغال أعنان السماء بسيقانها، وأضفت الحدائق الصغيرة أمام المنازل بثمارها على ما تبقى من رياح الليل قبل أن يسطع النهار. وتسلق الياسمين الندى الوفير سياجات الحدائق، ولا زال ظل ندى يختبىء بين أغصان الورد البرى المتشابكة وأشجار المانجو.

سماء الصحراء مكشوفة وواسعة بلا نهاية، تحلق بعيداً، تتسامى من لحظة لأخرى، وفى المقابل تمتد شوارع طويلة بيضاء تظهر نهاياتها فى الأفق. وبدأت بائعات اللبن السمراوات يشققن السماء بصوتهن السوبرانو العذب داخل الصباح الندى. وسرعان ما يخرج الصيادون خلفهن من النيل، يحملون سلالهم الندية على رؤوسهم، وبصيحة قصيرة مفاجئة يبشرون بقدومهم الى المدينة من كل جنباتها. . .

وفى الممر الصاعد من النيل،على صفحة ساترالصحراء الترابى الأصفر، تزحف طوابير من الرجال والنساء والحمير؛ الجو صحو وحركة القافلة تظهر بكل تفاصيلها؛ ينجذب الناس البسطاء كمجموعة من النمل على سطح قطعة قماش، يحملون ثمار واحات الصحراء: الحليب، والبلح، والثمار الأخرى عبر ضفتى النيل الخصيب، والذى يضفى اللون الأخضر كسجادة منْ القطيفة تمتد الى داخل الأرض القاحلة.

تمددت كلامنتين، إبنة الستة عشر ربيعاً، فوق المراتب البيضاء، تحت غلالة رقيقة، كخنفساء بنية جميلة. ورسمت أهدابها السوداء صفين من الحرير الناعم على وجهها، وظهر بعض الشعر فوق الوجنات السمراء الوردية. مدت كلامنتين ذراعها النحيلة بتكاسل فى الهواء، فهذا هو" اليوم الحلو"، يوم إعداد المربة، مربة الورد. لقد أحبت كلامنتين هذا اليوم، ولديها فستان خاص محبب لديها ترتديه خصيصاً فى هذا اليوم. فستان وردى، جميل، تظهر فتحاته الثديين الناهدين. وتمتد ضفيرتها وراءه كسوط أسود يزدهر الورد فى آخره برباط سميك.

وفى الحديقة القديمة ذات المسابح الرخامية تصطف حقول السوسن يغطيها الورد الكبير المورق كالكرنب، جذب " اليوم الحلو" عمال الحقل السمر الذين يظهرون مع نسائهم وأطفالهم. وتقوم الأصابع السوداء باغتيال السوسن وتلقى بأمواج من الورود على مصاطب القش المبسوطة، وانطلق دخان الشعلة وامتلأ القدر النحاسى بالسكر المغلى.

وتشرف على الجميع الأم العجوز التى وقفت منتصبة بطريقة تبعث على العجب، وقد ارتدت السواد وبرزت ضفيرتاها الطويلتان، وانسابت قوافل من بهاء شبابها من داخل عقدها وأخذت تتراقص على رقبتها، وتوهج وجهها المجعد، وأخذت تشرف بصوتها وبيدها على "اليوم الحلو".

محمد، أصغر العبيد، بربرى عريض المنكبين، يداه وقدماه كأسياخ حديدية رفيعة وجمجمته ضيقة مطلية بالنحاس الداكن، خلع ملابسه العلوية وأخذ يتجول بين الحين والاخر، وهو يحدث زميله باللغة البربرية التى تشدو محدثة ضجيج العملات المبعثرة؛ رمق كلامنتين بنظرة جانبية بعيون كلب مسعور، فى الوقت الذى كانت تتنقل فيه بين شجيرة وأخرى ورداء "اليوم الحلو" مبسوط على رقبتها. بعد ذلك رفع محمد صديريته بسبب الحرارة، وبقى بقميصه الأبيض فقط.

شقت الشمس طريقها الى كبد السماء، وسرعان ما سيطرت على المكان، وأرسلت حرارتها بلهيب مركز على رمال الصحراء؛ والبقع الخضراء؛ فظهرت القرى المتناثرة ناصعة البياض، ثم تلاشت كالصفر فى بحر من الرمال البيضاء.

إنبعثت من المربة فى القدر رائحة شذية ودافئة، رائحة يسميها المواطنون"عطر المرأة"؛ وتجمعت الجوارى فى ظل المنزل، بينما بدت أوراق السوسن التى لا زالت فى السلال، رهن الإعداد، وكأنها فراشات ميتة، وقد صارت رائحتها نفاذة؛ والرضيعات اللائى كن طوال الصباح يتخبطن فى أقدام العاملين، أخذن يتدلهن على والديهم والنوم يداعب أعضاءهم الصغيرة السوداء.

فى تلك اللحظة وقع الشيء الغريب والمدهش: أصدرت كلامنتين أمرها بإخراج القنينات الزجاجية من القبو وملئها بالمربة الجديدة؛ وبينما هى بباب القبو المظلم، الرطب، إذا بمحمد يبرز بجانبها، وكأن الأرض انشقت عنه. وأمسك بصدرها بحركة واحدة، ضغط على ثدييها الصغيرين بأصابع حديدية، ثم أنزلق منهما على كل جسدها ذهاباً وعودة. وكالحشرة السوداء المجنونة داعبت يده فستانها الذى بدا الآن أبيضاً فى ظلام القبو؛ وفاحت رائحة السوسن التى امتصها الثوب، تسمرت كلامنتين فى مكانها ولم تستطع أن تحرك ساكناً، فما حدث فى هذه اللحظة أمر مفهوم فى حد ذاته وغريب فى نفس الوقت؛ الحدث نفسه جعلها تتحجر. وفى نفس اللحظة أغلق شخص ما ضوء المدخل فتراجع محمد الى الوراء؛ وتدحرجت إبنته الصغيرة على سلالم المدخل حتى وصلت الى قدميه وبدأت فى النحيب. ركلة وسباب مخنوق، فطارت الصغيرة الى الخارج. رتبت كلامنتين شعرها، وعدلت الفستان ورفعت الزجاجات التى أحدثت صوتاً بين ذراعيها المرتعدين...

معروف أن كلامنتين مخطوبة لنجيب، الشاب الطويل الأبيض. ويقال إنه مدمن على الأفيون وأنه أحضر أيضا خليلته من باريس. ولكن أليس هو أوربى، جنتلمان. وبخلاف رباطات عنقه الصارخة وحركات يديه السريعة، لا يمكن التفرقة بينه وبين مستر جيمس الذى يسكن فى القصر.

إنها لم تر خطيبها نجيب إلا ليلة العرس، حينما قدم لها الخاتم الذى تلألأ فى إصبعها. وهى تخشاه، كما تخشى زميلاتها أزواجهن وخطابهن. وهى تعرف القصة بتفصيلاتها منذ أن بلغت الثالثة عشر، تعرف أنه فى الليل وفى النهار أيضا يمكن أن يسحبها الى مرقده كما حدث مع أختها

الكبرى. فهى تذكركيف هربت أختها بعد أسبوع من الزواج، وعادت الى بيت أبيها وعيونها محاطة بهالات زرقاء، ترتعد تحت عبء عقد اللآلىء والأحجار الكريمة. وبعد ذلك عادت الى زوجها ومنزلها ممتلىء الآن بالأولاد، وهى الآن منهكة كباقى زميلاتها فى الخامسة والعشرين، وتقيم ضرتها معها فى المنزل. عرفت كلامنتين ذلك، وها هو العبد الأسود يقف أمامها كإله مصرى قديم فى متحف القاهرة.

لم تهب أى ريح. وشُدَّ سعف النخيل نحو السماء البيضاء الملتهبة، واختبأ اليمام فى أحراش الحديقة أو هبط ليغطس فى مياه البحيرة. وزحف على طول الرمال بعض الأشخاص كالنمل الذى ضل طريقه. وتصاعدت أعمدة البخار من صفحة النيل البعيد، وقد ثقلت مياهه وازدادت زرقة بين حقول النخيل. وأبحرت المراكب على صفحته كالزغب الأبيض، وهى تمر من جزع شجرة الى أخرى وتبتعد عبر النهر فى طريقها الى الصعيد.

تجمد الناموس على الجدران فى الحجرات، إستعداداً لليل. وساد الصمت المطبق. وحينما تتحرك إحداها باسطة جناحيها فى فراغ الحجرة، يُسمع طنينها الطويل والمنفرد كصافرة قوية مدوية.

غفت كلامنتين على حافة الأريكة، تهدل شالها بين أحضانها، وظهرت بعض حبات العرق على جبهتها بينما تمدد أبناء أختها على السجادة يغطون فى نوم عميق، وشفاهم الصغيرة مفتوحة وممطوطة الى أعلى، لتتنسم بعض الهواء الجاف الساخن. سمع نجيب نداء أحد الباعة المتأخرين وكأنه طنين ناموسة، أفاقت من سباتها قبل الأوان. وكانت النوافذ تشع ناراً بيضاء من الخارج، وحينما تصطبغ جنباتها بعض الشىء باللون الأحمر، يدرك السكان انذاك أن النهار بدأ فى الإنتهاء.

فى ذلك الوقت كان سعف النخيل المنحنى قد شُدَّ كخطوط ظل طويلة على وجه الأفنية والجدران البيضاء، واهتزت الأكمات، وفتحت ثغرة صغيرة فى إحدى الحوائط الصماء، وظهر فيها رأس أسود، أخذ يتنسم الهواء، وأرسل النيل بعضاً من الرطوبة والبرودة الى الأراضى الجافة. وفتحت النوافذ الواحدة تلو الأخرى، وسمعت أصوات من كل صوب وظهرت المقاعد فى الشرفات الواسعة، وبسطت أقداح القهوة المعطرة وتعالت أدخنةالنرجيلة، وبدأ باعة المانجو والكستناء يعلنون عن بضاعتهم وأخذت الجدران الصماء ترد عليهم بعصبية وخضوع.

إتسعت فتحات أنف كلامنتين الضيقة، وغرست زهرة ياسمين ندية فى شعرها الأسود، وبدأت تلهو مع الصغار فى الناحية، بعضهم يقفز عليها فتوبخهم، الى أن تمكنت فى النهاية من الإمساك بأجملهم : " ياقلبى، ياروحى، ياحبيبى "، وانهمر سيل من القبلات العاصفة على الصغير الذى أخذ يتلوى ويصرخ بين ذراعيها. . .

(١٩٣٣)

***

شموئيل يوسف عجنون

تحت الشجرة

ذهبت ذات مرة لأجلب بعض الشتلات لدجانيا. وبينما أنا في الطريق ترجلت عن ظهر الحمار لآخذ قسطاً من الراحة. نظرت وإذا بشيخ كبير من شيوخ العرب جالس فى فيء شجرة زيتون. القيت عليه السلام وبادلنى التحية.

قال لى الشيخ، الى أين أنت ذاهب؟ قلت له، ذاهب لأغرس بعض الشتلات فى أرضنا فى دجانيا.

قال لى، إجلس معى بعض الوقت، فلا زال النهار طويلاً والشمس حارقة. فجلست معه.

نظر الشيخ الى الشتلات وقال، ثمار جديدة؟ قلت له، بعد إذنك ياسيدى.

هز الشيخ رأسه قائلاً : حسناً إنكم تروضون الأرض، تجربة تلو أخرى، وزرع وراء آخر، وثمار وراء أخرى، وخضرة تليها خضرة، اننى أتعجب، أما زال هناك ما لم تفعلوه بها.

قلت له، إننا نفعل كل ما يمكن عمله.

قال الشيخ، وهى تلفظكم. أعتقد أن الأرض لا تستجيب إلا لكم. قلت له، شملتنى كرمك وغمرنى.

وسرعان ما انطلق الشيخ وأخذ يمتدح إسرائيل الذين يحولون صحارى فلسطين الى حدائق غناء وجنات ويضيفون قرى جديدة الى قراها.

أومأت له برأسى ولسان حالى يقول، فى الوقت الذى يقف فيه أبناء إسرائيل على الأرض، نجد كل أمم العالم تسخر منهم. طوبى لمن يتحد مع الأرض ويعمل على استيطانها، فإن كل من يوحد نفسه مع الأرض ويعمل على استيطانها إنما يوحد إسمه الكبير فى السماء والأرض ويزيد من مهابة إسرائيل، مثله كمثل الزرع الذى يزرع فى الأرض فينبت ويعلو إلى السماء.

قال لى الشيخ، إننى أراك حكيماً وقد منحك الرب المعرفة، وإذا كان لى أن أسألك، قل لى، لمن هذه الأرض ومن الذى يمسك بزمام الأمور فيها ؟

فكرت ملياً. ماذا أقول للشيخ. إذا قلت له إن الأرض وما عليها ملك للرب، فلقد سبق القول بأنه منح الأرض للإنسان. وإذا قلت له إن من يمسك فيها بزمام الأمور يستمر ملكه فيها، تكون إجابتي خداعاً فى خداع، ذلك لأن هذه الأرض أرضنا وسوف يعيدها الرب تبارك وتعالى أيضاً، ولا توجد أى أمة أو لغة يمكن أن تسيطر عليها إلا الأمة الإسرائيلية. قلت له أخبرنى

ياسيدى، ألا تعرف لمن أعطى الرب تبارك وتعالى أرض إسرائيل ومن وعده بأن يعيدها اليه.

وضع الشيخ رأسه بين ركبتيه وصمت.

خِلت أنى عنفته، فقلت أنا لم أقل ذلك، بل هذا ما جاءت به التوراة.

رفع الشيخ رأسه وقال، أنا أحد قادة جيوش مولانا الملك السلطان المعظم عليه السلام والبركة. لقد دمرت قرى كثيرة بإسمه، وقتلت شعوباً كثيرة من أجله، وجمعت الجباية من أقاليم كثيرة وذاع صيتى باسم الله الرحمن الرحيم، وأحسن الله الىَّ وبسط يديه وأرضانى. وكنت أعتقد أن العالم لم يخلق إلا لنسعد به، الى أن هاجمت الممالك سيدنا السلطان وأعلنت عليه الحرب. تذكرت الإنتصارات التى أحرزتها. وحينما تقوم القوات بفرض الحصار وتطلق الصيحات والصرخات، يدفعنى مصيرى للخروج فوراً الى الحرب ضد العدو، لأنتصر أو أهزم. فتركت بيتى وقبَّلت إبنى ومضيت الى مولانا الملك وركعت أمامه ووضعت نفسى تحت إمرته قائلاً، السلام عليك ياسيدى الملك، لتحل بركة الله عليك، إن أمير المؤمنين يعلم أنه لو أمسكت يد ضعيفة بسيف معيب لأمكنها أن تصيب العدو. نظر الملك الىَّ قائلاً، خذ جيوشك يا إبراهيم واخرج لملاقاة الكفار ومحاربتهم لا تأخذك بهم شفقة ولا رحمة ولا تضع رأسك على الفراش قبل أن تبيدهم من تحت سماء ولاياتى. وما أن سمعت ذلك حتى خفق قلبى وأخذ يدق بصوت كصوت الطبول ولمعت عيناى كبريق السيوف. وضعت يدى على عينى وقلبى وركعت ثانية قائلاً، درع الله ورسوله لسيدنا الملك، وكما أمرنا الله ورسوله، يفعل عبدك إبراهيم، يا أمير المؤمنين. باركنى الملك باركه الله وودعنى بسلام. ولم تكد الشمس تغرب حتى تجمعت قواتى وخرجنا لملاقاة العدو.

ودارت رحى الحرب فى ركن الصحراء. تزودنا بكل احتياجاتنا من المياه والغذاء، والخيول والجمال، والحمير والبغال، والسيوف والرماح والأقواس وباقى معدات الحرب الى أن امتلأت الصحراء بها وتقدمنا لمجابهة العدو.

ظهر العدو أمامنا مزوداً بكل أنواع الأسلحة. كان لديه كل أدوات الشيطان. دارت الحرب سجالاً بيننا، ومن المؤكد أن الأمر كان سينتهى لصالحنا.

لكن الكفار حاربوا ببسالة. إنحنى بعضهم وسقطوا لكن بعضهم استجمع قواه ونهض للقتال وكانت المعركة حامية الوطيس. ولمعت السيوف والرماح واصطدم الحديد بالحديد، وتدحرجت الرقاب المقطوعة وتطايرت الأذرع المبتورة، ووطىء الإنسان والحصان تحت الأقدام وامتلأت الأرض كلها بالدم. تزلجت أقدام الخيول وهربت من تحت فرسانها، وسال دم الشهداء وجن جنونهم، وعملت آلات الشيطان ولمعت وافترست وقتلت. ومن سقط لم ينهض ومن ركع وطأته الأقدام. وفى النهاية لم يبق من كل الحشود سوى فلول من هنا وفلول من هناك.

لكننا لم نرفع أيدينا عن العدو ولم يرفع العدو يده عنا. حيث جمعوا صفوف جنودهم وجاءونا بغضب جارف وقفزنا نحن فى مواجهتهم تحدونا الرغبة فى الإنتقام. إنقضّ عليهم الفرسان أولاً، ومن بعدهم جاء دور المشاة، كل ما تبقى من القوات. ووقعت مذبحة كبيرة فى ذلك اليوم. حيث

عملت السيوف فى رقاب الكثيرين وطارد سيل النيران والبارود آخرين. أما أولئك الذين نجوا بأنفسهم من المعركة وهربوا فقد أبدناهم وأغلقنا كل الطرق. وهكذا قسمت الجيوش، هؤلاء وضعوا على حراسة الأسرى ودفن الموتى وأولئك خرجوا لافتراس الهاربين فى الجبال والصحارى.

مكثنا ثلاثة أيام نقتل ونواصل المسير، وفى النهاية وصلنا الى مكان لا نعرفه. سقطت جمالنا وخيولنا من الأرهاق وتعفنت الأرض بهم. حيث كان حملة المياه والمؤن بعيدين عنا مسيرة ثلاثة أيام. ولم يكن معنا سوى بعض القِرَب لم تحتو على الكثير. فلقد أنهكت الحرب الجميع ونضب الماء. وكان النهار قائظاً كالفرن ولا يوجد أى ظل نحتمى به. ولم تكن الشمس حارقة فى السماء فقط بل كانت الأرض تغلى. إذا رفعت رأسك احترقت، وإذا أخفضت وجهك احترق. ولم يبق شارد ولا وارد من كارهى المؤمنين، فمنهم من أُفترس وتملكته الدهشة، ومنهم من تمدد جثة هامدة، ولا يعلم عدتهم إلا الله، وتعفن روثهم وروث بهائمنا.

وعلى الرغم من أننا بقينا على قيد الحياة، إلا أنه لم تكن بنا حياة. فلم يتبق من طعامنا شيء ولم يوجد فى قربنا سوى ما يرطب الفم. نظرنا الى أعلى، فلم نجد سوى جبال الرمال والأحجار. ثبتنا أنظارنا فى الأرض، فكانت الأرض كلها ناراً ملتهبة. لا توجد شجرة ولا نبع ولا بهيمة أو أى طير. ولم تنبت الأرض شيئاً سوى أشواك الصحراء. وهى أشواك لا تصلح حتى للجمل، ولكن لأننا رأيناها فقد وضع كل منا رأسه داخلها وأخذ يمتص منها كالمسيحى الذى يمتص لحم الخنزير، الى أن دخلت أشواكها فى ألسنتنا وأصبحت كأوراق الصبار.

فى تلك اللحظة إنهارت معنوياتنا ولعنّا الساعة التى جئنا فيها الى هنا وصرخنا بكل ما أوتينا من قوة. فإذا لم يمن الله علينا بالماء والطعام لهلكنا. صلينا للرب كى يتقبل صلاتنا وينقذنا من الهلاك. ورفعنا رؤوسنا الى أعلى قائلين، لا إله إلا الله، محمد رسول الله. نزعنا الأشواك عن ألسنتنا وجففنا القرب الخالية كى نجذب الماء ولكنها لم تجذب، عضضنا بأسناننا على تلك القرب فتصاعدت رائحتها. ولم يكن بمقدورنا مواصلة السير، لأننا لا نعرف وجهتنا، ولم نستطع الوقوف، لأننا ضيعنا الطريق. صعدنا فوق جبل عالٍ، علَّ الله يُظهر لنا نبعاً أو شجرة أو حتى شجيرة.

كل ما ظهر أمامنا كان مثل المكان الذى جئنا منه. فلم تنبت شجرة وما سبق أن تفجر نبع فى هذا المكان، ولم يشدُ طائر، ولم يصدر رجع صدى. تداخلت الجبال والصحارى مع بعضها. ألقينا أسلحتنا وجلسنا منهكين خائرى القوى. وكانت جلسة قاسية، فلقد احمرَّت أعضاؤنا وجفت حلوقنا كالقربة التى نضبت مياهها.

سألت رفاقى، هل لدينا ما نأكله؟ قالوا، قرب جافة مشققة. قلت، أطبخوها لنأكلها. أشعلنا الخشب الموجود فى أسلحتنا وشوينا قرب الماء، وحينما انتهت القرب شوينا أحذيتنا، ولما لم يتبق لدينا شيء نزلنا الى أسفل. ولكن كان نزولنا كخروج الإنسان من صحراء الى صحراء أخرى.

مالت الشمس للمغيب وأظلم النهار. فتمنينا قسطاً من الراحة، وجنَّ الليل، ولكننا لم نهدأ

ولم نرتح. فلقد ظهر القمر والنجوم بتكاسل فى السماء، ولم تبرد الرمال وظلت الرياح محبوسة بين الجبال.

ولم تكن الليلة التالية أفضل أيامنا. حيث سكنت الرياح طوال الليل ولم يحدث أى تغيير فى الجو. وامتلأت قلوبنا فى تلك الليلة بحرارة شديدة. كنا نأمل أن نرطب شفاهنا بالندى أثناء الليل ونبرد عظامنا، لكن الليل كان قائظاً كالنهار. نظرنا الى أعلى، وإذا بالقمر والنجوم والأبراج تعانى نفس ما نعانيه.

جاء الهجيع الثالث من الليل، وغابت النجوم والأبراج فى السماء وبدأت تهب ريح خفيفة. ولأن الشمس كانت متقدة فقد اتقدت هذه الريح أيضاً. وفى النهاية إشتركت مع الريح العاتية، فوضعنا وجوهنا فى الأرض ونحن ملتحفين بأرديتنا، وبكينا حالنا من شدة الرياح.

وهكذا جلست طويلاً، وجهى الى الأرض وعيناى منخفضتان الى أسفل. وأنا الذى يخشى الجنود من نظرة عينى كنت أخشى آنذاك من أن أرفع وجهى خشية ذرات الغبار. كم كانت جميلة تلك الأيام التى ترأست فيها قواتى وكان الجميع يخشى حديثى. وكم كانت جميلة تلك الأيام التى قبعت فيها فى بيتى وعبيدى وإمائى يقفون على خدمتى، هذا يضع جمرة فى النرجيلة وتلك تهوى بالمروحة، والآبار فى الحديقة تقذف مياهها حولنا كزخات المطر.

وحينما أفقت وقفت ونزعت عنى ردائى ورفعت رأسى قائلاً، هيا بنا نصعد. لكن كان صوتى كمن ينادى فى المقابر. فلقد تمدد كل رفاقى موتى. أما من لم يمت منهم فقد كانوا فى عداد الأموات.

تمنيت الموت فى تلك اللحظة. وتذكرت كل مباهج الحياة التى عملت من قبل لصالحى، لكن تلاشى كل شيء فجأة وها أنا ألفظ أنفاسى فى أحضان صحراء لا يوجد بها ماء لتطهير الجسد ولا قبر أدفن فيه. رفعت عيناى الى أعلى وقلت، لا إله إلا الله، ليفعل بى ما يشاء.

ما زال ملاك الموت لا يرغب فى أن يمد يده الى هذا الإنسان. وبينما شعرت بالحزن على بيتى الذى سيبقى بلا عائل وعلى أبنائى الذين سيتيتمون، سمعت صوت أنين ورأيت بعض رفاقى ينتفضون. قلت، حى هو الله، لقد أبقاكم أحياء حتى لا تموتوا فى الصحراء. تنفسوا بعمق وهيا بنا نصعد الى الجبل المواجه، فإذا كان نزولنا عبثاً فربما لا يكون صعودنا بلا فائدة.

وهكذا وقفت بين الأحياء والأموات، رفعت صوتى مرة وهمست أخرى، لا لأوقظ رفاقى، الذين يئست من قيامهم، وإنما لكى أشعر بأننى لم أمت بعد. لكنى فى النهاية لذت بالصمت أيضاً. وتحجر لسانى، وصمتت شفتاى.

لكن الله أدخل صوتى فى آذان رفاقى. وقام بعضهم يحبو حتى استقاموا فى النهاية على أرجلهم.

وقبل أن نمضى الى حال سبيلنا أهلنا التراب على الموتى، رحمة الله وبركاته عليهم وعلى كل المؤمنين، وأقمنا عليهم صلاة الجنازة. ولم يكن لدينا ماء لغسلهم. ليغسلهم الله من ذنوبهم ويخفف عنهم وعنا.

كان هذا الجبل منتصباً وأملساً، حتى البرغوث كان ينزلق عليه ويسقط. وما كدنا نصل الى قمة الجبل حتى تدحرجنا وسقطنا وتحطمت أعضاء رفاقي ولم يبق سواى وثلاثة آخرين.

وما أن وصلنا الى قمة الجبل حتى وقفنا ورأينا حقولاً وكروماً وأشجار نخيل وغنم وأبقار، وتهب نسمة خفيفة تجلب معها روائح طيبة من العطور، وينابيع مياه. رفعت نظرى الى السماء وقلت، مبارك الرب الذى ألهمني الصعود، والحمد والشكر لله العظيم الذى أتى بنا الى هنا، ليس أمامنا إلا أن نتزل الى أسفل ويتم إنقاذنا.

كان النزول أصعب بكثير من الصعود، وحتى من لم ير نهاية رفاقنا كان يتضرع حتى لا تتراكم العظام، لكننا نحن رأيناهم وهم ينزلقون ويسقطون، منهم من تهشم رأسه، ومنهم من تحطمت أعضاؤه. لكن هذه الرياح المحملة بالروائح العطرة أعادت الينا الحياة، الى أن انتعشت نفوسنا.

قلت لرفاقى، هيا بنا نهرول الى أسفل. وإذا وصلنا الى هناك أحياء، فهذا حسن، وإذا لم نصل، فيحسن أن نسقط بقايانا فى مكان آهل أفضل من أن نسقط فى الصحراء، لأننا إذا متنا بين بشر فإنهم سيدفنوننا، وإذا متنا فى الصحراء، فسوف تنهشنا الطيور الجارحة كالكفار الذين لعنهم الله، ممن يتركون موتاهم نهباً لطيور السماء الجارحة. وافقنى رفاقى وقالوا حسناً ما قلت، إذا متنا، نموت بين بشر يدفنوننا وإذا عشنا نعود الى ديارنا نأنس آلنا ونقبل أولادنا. وحمل كل منا روحه على يده ونزلنا نحبو. وما هى إلا لحظات وجيزة حتى وجدنا أنفسنا فى مكان مفعم بالحدائق الغناء والحقول الخضراء وأشجار النخيل الباسقة وباقى الثمار الطيبة، والسنابل تتراقص والأرض تتفجر بالمياه، لكن يبدو أن كل ما سعينا اليه لم يكن سوى النزول الى أسفل. فبينما نحن واقفون سقط رفاقى. وسقطت أنا أيضاً، لا أعرف إذا كنت حياً أم ميتاً.

لا أعلم كم من الوقت رقدت وما كانت بى قوة لأحرك أعضائى، فما بالك بأن أقف فى مكانى. أغلقت عيناى وأخذ جسدى ينهب الأرض تحته، كمن يحفر لنفسه حفرة لتستقبله الأرض فيها وتأسره. فكرت فى حالى، إذا كانت هذه ميتة فليس هناك ميتة أفضل منها. حاولت أن أسأل رفاقى عما يشعرون به، لكن أخرسنى الإرهاق الذى نال منى.

سمعت وأنا راقد صوت جدْي يرغي بين المراعى، لم يكن رغاء سعادة ولا خوف فهدأت بالاً ورحت فى نوم عميق مرهقا من القتال. تخيلت أننى عدت الى بيتى ووجدته كما كان وأبنائى أحياء يرزقون. ألقيت عليهم السلام وأجابونى. قبلتهم قائلاً، الحمد لله، ها أنا ذا جالس معكم ولن أترككم ثانية، حتى آخر العمر، الى أن القى مصيرى. جلست هادئاً وآنست آل بيتى وأنجبت العديد من الأبناء وأسعدنى الله وأرضانى. لكن كل هذه السعادة والهدوء لم تدم طويلاً. فلقد سمعت نداء الحرب ونسيت ما لا يمكن نسيانه وتركت بيتى وخرجت لملاقاة العدو. وأخذت أقتل وأمضى الى أن صنعت كوماً من جثث القتلى. وما أن جثوت على ركبتى غارقاً فى دمائى، حتى ارتعدت الأرض، وكأنها فغرت فاها لتبتلعنى. تخيلت أننى خرجت من العالم وأنهم يقتادوننى الى جهنم لينزلوا بى الى الجحيم السفلى. ذكرت أمام الرب كل الحروب التى خضتها ضد الكفار وقتلى

للكثيرين منهم، كى أبرأ فى يوم الدين وتخف عنى خطاياى وأخذت أصيح لا إله إلا الله.

وقبل أن أقول محمداً رسول الله، جاءنى شخصان طويلا القامة كشجرالأرز ورماحهما فى أياديهما تشبه أشجار النخيل التى تناطح السماء. فأدركت أن الضجة التى سمعتها لم تكن سوى وقع أقدامهما. قلت، إذا كانوا قد جاءوا للسلام فإنهم لم يأتوا إلا بوصايا الرب لإنقاذنا من الجوع والعطش، وإذا كانوا قد جاءوا للحرب، فشرف للبطل أن يموت بيد هؤلاء الجبابرة.

لكن الله وجد المؤمنين به مؤهلين أمامه لكشف خبايا عالمه، ومنحنا القوة والبطولة لمواجهة الحياة، الى أن يحين موعد استرداده لروحنا ثانية. رفعت عيناى الى أعلى وتعجبت من خلق الله تعالى وهما ينظران الينا الى أسفل وفتحا جرة ماء رطبنا بها شفاهنا وسألونى ما سألوا. لاحظا أننا خائرى القوى، أخذا بأيدينا وسارا بنا الى مكانهم، حيث توجد خيام محيطها كمحيط مشارف دمشق واسطنبول وسألونا بلغة تشبه لغتكم. رفعت عينى فرأيت أناساً يرتدون ملابس مشقوقة وملونة، مسلحة بكل ألوان الأسلحة. فأدركت أننا جئنا لدى أبناء خيبر، الذين يسيطرون على كل تلك الأماكن ولا سلطان عليهم إلا منهم ولا ملك أعلى سوى ملك السماء. باركت الله العظيم الذى أتى بى اليهم، حيث أن هناك عهداً مقطوعاً بين رسول الله وقبيلة خيبر ولو أن حياة رفاقنا قد طالت بعض الوقت لوصلوا معنا الى هنا وأسعدوا أنفسهم بماخلقه الله فى عالمه، لكن الله تعالى يحسن الى خلقه بكرمه، يحكم على هذا وذاك كما يشاء، وحكم على رفاقنا أن تسقط عظامهم فى الصحراء وحكم علينا أن نعيش ونشبع من كرمه فى هذا العالم.

وما أن جلسنا حتى جلبوا لنا ماء لنشرب، ماء طعمه كندى الصباح على الجبال. وبعد أن شربنا وحمدنا الله الذى خلق ينابيع طيبة ليحيى بها نفوس المؤمنين به، قدموا لنا القهوة. لقد شربت فى حياتى قهوة كثيرة، لكننى لم أشرب أبداً قهوة كهذه، لا فى رفقة أمراء كبار، ولا فى صحبة مولانا السلطان، يرحمه الله. وبعد أن جلسنا بعض الوقت قدموا لنا حساءً، ليس حساء لحم بقر ولا دواجن ولا حتى من أى المخلوقات التى حرمتها التوراة، لكنه حساء خضرة، لأنهم طوال إقامتهم فى الصحراء لم يمدوا يدهم لقتل الحيوانات، بل إنهم يتعيشون من الأرض وثمارها. وقدموا لنا فى النهاية فرشاً طرية. ألقينا بأنفسنا لننام ورحنا فى نوم عميق طوال الليل والنهار التالى، الى أن غربت الشمس وأظلم النهار وآن وقت العودة للنوم مرة أخرى. ثم جاؤنا بمائدة عليها كل صنوف الطعام، اليوم قليل وغداً كثير، وبعد غد أكثر، الى أن اكتست عظامنا باللحم واستعدنا عافيتنا وعادت الى سابق عهدها. بل إنهم أيضا كسونا بالملابس والنعال وأعطوا كل منا لفافة رأس.

وهكذا مكثنا معهم أسبوعين ورأيت ما لا يمكن أن يقال. لكننى أريد أن أقص عليك بعضاً مما رأيت. عددهم كثير كرمال الصحراء وملابسهم أنيقة ويتشحون بأوشحة من الصوف لها أهداب، ويركبون الخيول وجيرانهم خاضعون لهم ويقدمون لهم الضرائب، وهم لا يستعبدون جيرانهم، بل يعاملونهم كبشر. وكل واحد منهم بعشرة أبطال. ومنهم من يحمل فى يده عربى وهو يركب على حصانه ويقذف به الى أعلى، يلقى بالعربى ويتلقى الحصان وهكذا، وما من أحد منهما

يلامس الأرض. وحينما يبدأ النهار يذهب الى حقله وكرمته ونخله ومرعاه، وحينما يجن الليل يجلس الى الشيوخ ليسمع منهم توراة موسى ربكم. وتجلس نساءهم وبناتهم فى الخيام تطبخن وتخبزن وتحلبن البهائم وتصنعن الزبدة والجبن ويغزلن وينسجن ويحكن ويعقدن الضفائر، ولا تظهر وجوههم فى الخارج، حتى لا يفتن أحد، لأن الله زيَّن أعضاءهن أكثر من كل النساء ووضع فيهن كثيراً من الجمال. فهناك نساء لهن أجساد جميلة لكنهن لسن بجميلات، ونساء جميلات ولكن ليست أجسادهن جميلة، أما هن فأجسادهن جميلة ووجوههن أيضاً. منهن من تشبه الشمس فى سطوعها، كل من ينظر اليها تضعف عيناه، ومنهن من تشبه البدر فى اكتماله، كل من ينظر اليها يهيم فى سحرها. وهن لا يغطين وجوههن كنسائنا، لأن الله وضع لديهن غلالة شرف وتواضع ولا أحد ينظر اليهن إلا أزواجهن، وهن جميعاً يقمن مبكرات كل صباح للصلاة ويؤدين ثلاث صلوات فى اليوم. وأثناء أدائهن للصلاة تتجهن نحو القدس. أما فى السبت فلا يخرجن من باب الخيمة، بل يجلسن طوال النهار والليل يشكرن الله تعالى لأنه أعطاهن السبت راحة. ويضفن من أيام الأسبوع الى السبت قبله وبعده. وقبل السبت يخلع الرجال ملابس الأيام العادية ويرتدون ملابس مذهبة ويتركون أسلحتهم، لأن السبت يحميهم، ويشعلون إثنتى عشرة شعلة ويستقبلون السبت كالإنسان الذى يستقبل الملك فى بيته، ويقيمون الولائم على شرفه، وفى كل مأدبة يغنون الأغانى وينشدون المدائح. فى المأدبة الأولى يذكرون إسم إبراهيم الحبيب عليه السلام، وفى الثانية يذكرون إسم إسحق عليه السلام، وفى الثالثة إسم يعقوب عليه السلام. وحينما ينتهى السبت يجتمعون معاً ويأكلون ويشربون ويسعدون ويحضرون كأسا ذهبية ومقعد مذهب كبير مزين بالأحجار الكريمة والياقوت والمرجان، ليجلس عليه أحد المسنين يرتدى ملابس مذهبة براقة. ويجرى أمامه ستون بطلاً وستون آخرون خلفهم يطلقون الصيحات فى الأبواق بكل أنواع الآلات الموسيقية ويقولون، داود ملك إسرائيل حى وموجود. وعلى الفور يخرج الجميع من الخيام يرددون وراءهم، داود ملك إسرائيل حى وموجود، وتنظر اليه كل النساء من النوافذ. بينما يعقد هو يديه قائلاً، الملك لله. وهنا يخرج شيخان، أحدهما يقدم له عصا والآخر يقدم له جراب، وينزل هو عن مقعده ويدخل الى معالف الغنم، يطعم الجديان والتيوس، ويجعل فراءهم يمر عليه ويغطى رأسه ويتشح بطاليته ويذهب الى الشيوخ قائلاً، أيها السادة لم أحضر الى هنا الا لكى أتعلم. فى تلك اللحظة يضع الأبطال سيوفهم ويرتدون ملابس أيام الأسبوع العادية ويخرجون الى أعمالهم. هذا ذهب الى حقله وذاك الى كرمته ونخيله وهذا الى أغنامه وأبقاره، الى أن يعيد الله لهم السبت ثانية.

وهكذا أقمنا لدى بنى خيبر ورأينا قوتهم وبطولتهم وكرمهم وودهم، لدرجة أنى نسيت كل الحروب والإنتصارات التى أحرزتها ومهابتى فى بلاد المؤمنين وسعدت بوجودى لدى كرماء شعب إبراهيم المبارك، بارك الله مباركيه ببركته. لكنك يمكن أن تنسى كل شىء، إلا سطح بيتك الذى كان أول ما رأيته حينما ولدتك أمك. ولم تكن أياماً سهلة، الى أن جاء صاحب الأحلام وأظهر لى بيتى والفتحة التى يخرج منها الدخان وشممت رائحة الطعام الذى يطهونه هناك، فاشتقت له.

وما حدث لى حدث لرفاقى أيضاً. فعلى مر الأيام إزدادت رغبتهم فى العودة الى ديارهم وشرب مياه آبارهم وأكل زبدة أغنامهم وتعليم أولادهم الخصال الحسنة التى تعلموها فى بلاد الغربة.

واستجاب الرب لدعائنا. وذات يوم أخذونا الى خيمة أخرى رائعة الجمال، تفوق فى جمالها كل خيامهم، يجلس فيها ثلاثة شيوخ وتشع وجوههم بنور كالنور الذى خلق فى أول أيام الخلق، وذقنهم كأكمة النخيل. فرهبناهم وسقطنا على وجوهنا مقبلين تراب أقدامهم وقلت، نحن عبيدكم.

لاحظت أنهم لا يفهمون لغتنا، وبدأت أتحدث بكل اللغات التى أعرفها، فهز الشيوخ ذقونهم وعرفت أنهم يفضلون سماع حديث البهائم والحيوانات والطيور عن أن يسمعوا لغة الكفار. ولكن أمكننى أن أعرف من تعبيرات وجوههم أنهم لا يحملون لنا أى ضغينة.

إطمأنت نفوسنا وحمدنا من لا يحمد سواه على فضائله وقبَّلنا تراب أقدامهم ثانية وقلنا، ليحمى الله أبطاله ويوقر شيوخه.

ولم يمض النهار حتى أركبونا على جمال سريعة وأعادونا الى ديارنا، ربما فى ثلاث ساعات وربما فى ساعتين وربما فى ساعة واحدة، مسيرة عدة أسابيع وعدة أيام وودعونا بسلام. يحمهم الله ويرعاهم.

دخلت بيتى وألقيت السلام على أبنائى، لكن تحيتى تيتمت، فلأنى لم أحضر خرج أبنائى ولم يعودوا. وكذلك أيضاً أصدقائى لم يحضر أى منهم لتحيتى. عرفت أن أبنائى وأصدقائى لقوا مصيراً واحداً، فلقد ماتوا جميعاً فى الحرب. بل إن روح مولاى السلطان صعدت الى بارئها.

وحتى الملوك الذين دخلوا معه الحرب ماتوا أيضاً. منهم من مات ميتة طبيعية ومنهم من أغتيل. إنقضت عصور وفنى ملوك. لكن ذاك الصوت "داود ملك إسرائيل حى وموجود"، لا زال يرن فى أذنى. ربما كان هذا الصوت كالنار المشتعلة أو عذباً كفيء نخلة. إننى أعرف لمن وُعدت فلسطين، لم يوعد بها سوى إسرائيل، ومَن مِن إسرائيل؟ أولئك الذين وضع فيهم الله تبارك وتعالى المهابة والإحترام والقوة والبطولة والكرم والسخاء، وينفذون مشيئته عن حب، هم الذين سوف يملكونها وسيكون ملكهم مستمراً فيها الى أبد الدهر.

نهضت وقلت مبارك الرب اله إسرائيل الذى مكنك من أن ترى ما رأيت. فهناك من يرى ولا يعلم ماذا رأى، لكنك رأيت وعرفت ما رأيت. يا لسعادتنا لأنكم تعرفون أيضا لمن وُعدت فلسطين.

طوبى لإسرائيل لأنهم حفظوا توراتهم، وبقوا هنا فى الأرض التى كُتب فيها، "وترثونها وتقيمون بها وتحافظون على كل الشرائع"، لكن النهار قصير والعمل طويل. لقد فرض علينا المكان أعمالاً كثيرة، فرض علينا أن نحرث ونزرع ونحصد ونحزم ونذرى البذور ونزرع ونرعى الغنم ونقطف ثمار العنب ونهرسها، نقطف الزيتون ونطعم البهائم والطيور ونجز الغنم ونحافظ على كدنا وعرقنا من المخربين ومن اللصوص، لكن توطين فلسطين عمل كبير، فهى تزن كل

وصايا التوراة، وها أنا أذهب لأجلب الغرس على كتفى أزرعه فى أرضنا، كما جاء فى التوراة، "إزرعوا الكروم واشربوا الخمر وأعدوا الحدائق وكلوا ثمارها"، والشعب الذى زرع فى أرضه لن يقتلع مرة أخرى من الأرض التى منحهم الرب الهك. لقد ربط الرب تبارك وتعالى زرعه بزرعنا، فإذا زرعنا لا بد أن ننفذ زريعة الرب تبارك وتعالى. ومبارك عالم الرب الذى وزعه على خلائقه كما يشاء، أخذ عيسو وإسماعيل ملء العالم وقتل بعضهم بعضاً وأباد كل منهم الآخر من أجل الملك الذى يسعون اليه، وحصلنا نحن من الله العلى على هذه الأرض الصغيرة، ولم نأت ليكون لنا ملك ولا لنسيطرعليها بل جئنا لنحرث ونزرع ونغرس، لكى نحافظ على وصاياه وننفذ توراته.

لم يفهم الشيخ كل ما قلته. لقد أقام لدى يهود خيبر مدة قصيرة لم يتمكن خلالها من تعلم الكثير. ولكن بدا من تعبيرات وجهه أن كلامى ترك عليه أثراً كبيراً.

هكذا جلسنا طويلاً حتى غاب النهار وبدأت تهب ريحٌ غربية. فقام الشيخ عن مكانه وودعنى بسلام.

نظر الى الشتلات فى يدى وهو يودعنى ثم قال، كم سنة تحتاج هذه الشتلات لتثمر؟ أبلغته، فتنهد قائلاً، لن يأكل منها سواكم أنتم وأبنائكم وأحفادكم. رفعت نظرى لأعلى قائلاً : بكرم من الرب تبارك وتعالى.

(١٩٤١)

***

ش.ي. عجنون

من عدو الى حبيب

قبل أن تبنى مستوطنة تلفيوت، كان مَلَك الرياح يسيطر هناك على كل الأرض، وكان نوابه وعبيده ريحاً قوية وعنيفة يجلسون هناك فى الجبل والوادى وفوق الهضبة وفى الوادى العميق يفعلون كل ما يحلو لهم. وكأن الأرض ملكاً خالصاً لهم.

ذهبت ذات مرة الى هناك، أعجبت بالمكان وبهوائه العليل وقبة السماءالزرقاء الصافية والأرض المنبسطة، تنزهت لأستمتع بالمكان. مستنى الرياح. قالت لى، ماذا تفعل هنا؟ قلت: أتنزه. قالت، أمتنزه أنت؟ ربتت على رأسى وألقت بقبعتى. إنحنيت لالتقاطها، فبعثرت ملابسى وقلبتها على رأسى فأضحكتنى. رفعت ملابسى عن رأسى. وقفت الرياح وأسقطتنى أرضاً وأطلقت ضحكة مدوية. عاودت الوقوف مرة أخرى، فأخذت تصيح بى: أهرب، أنج بنفسك. ولما رأيت أننى لا أستطيع منافسة من هو أقوى منى، مضيت الى حال سبيلى.

عدت الى المدينة ودخلت منزلى. إكتأبت فخرجت ثانية. ولا أدرى كيف قادتنى قدماى الى تلفيوت. تذكرت كل ما فعلته بى الرياح. أخذت قطعة قماش وبضعة أوتاد ونصبت لنفسى خيمة، ملجأ أهرب اليه من الرياح العاتية العاصفة.

مكثت هناك ليلة واحدة. وفجأة إنطفأ النور. خرجت لأرى من الذى أطفأ النور، فوجدت الريح واقفة فى الخارج. سألتها، ماذا تريدين؟ صرخت فى فمى وأذنى. عدت الى الخيمة ثانية. فقامت الريح بنقل أوتادى وقطع أحبالى وقلبت خيمتى وبعثرت حاجياتى. بل إن يدها طالتنى أيضاً وتقريبا أوقعتنى أرضاً.

رأيت أننى لن أقدر عليها. فعدوت عائداً الى المدينة. جلست بين الأسوار. إستاءت نفسى وحاولت الخروج الى مكان به هواءعليل. ولأنه لا يوجد فى البلاد كلها أجمل من جو تلفيوت، ذهبت اليها ثانية. وحتى لا تؤذينى الرياح، أخذت معى الواحاً خشبية، صنعت منها كوخاً. كنت أعتقد أننى وجدت راحتى، لكن الرياح كان لها رأى آخر. فلم يكد ينقضى النهار حتى ضربت على سقفى وهزت الألواح. وما هى إلا ليلة واحدة حتى نقلت الكوخ كله وتركتنى بلا مأوى. عدوت عائداً الى المدينة. وتكرر ما حدث لى فى المرتين السابقتين. جئت الى المدينة واستاءت نفسى وجذبنى قلبى الى المكان الذى هربت منه قبلاً. قلت فى نفسى، ألا ترى أنه لا يمكن العودة الى المكان الذى طردنا منه. وغير الممكن مستحيل. لكن قلبى كان له رأى آخر. وإذا قلت له ألف

مرة أنه مستحيل لقال لى ألف مرة ألف ممكن وممكن.

جلبت أخشاباً وأحجاراً وبنيت لنفسى بيتاً. ولن أمتدح بيتى، لأنه صغيرولن أخجل منه لأن هناك بيوتاً أكبر وأحسن منه. نعم بيتى صغير، لكن فى بيتى متسع لإنسان مثلى لا يسعى الى العظمة.

رأت الريح أننى بنيت لنفسى بيتاً. جاءت تسألني: ما هذا؟ قلت لها، إنه بيت. ضحكت قائلة، وحياتك ما رأيت قبلاً شيئاً يبعث على الضحك مثل هذا الذى تقول إنه بيت. فضحكت قائلاً، ما لم ترينه حتى الآن أرينى إياه. فضحكت وقالت، ما معنى كلمة بيت؟ ضحكت قائلاً: بيت يعنى بيت. ضحكت وقالت، هيا نتفحصه. مدت يدها وتفحصت الباب. فكُسر الباب وسقط. مدت يدها مرة أخرى وتفحصت النوافذ، كُسرت النوافذ وسقطت. وفى النهاية رفعت نفسها وصعدت الى السطح. وما أن اعتلته حتى سقط. سخرت منى الريح قائلة: أين بيتك الذى بنيته؟ وأنا أيضاً سألت أين بيتى. لكنى فى هذه المرة لم أضحك.

فى المرة الأولى حينما كانت تطردنى الرياح، كنت أعود الى المدينة. وفى النهاية وقعت أمور لم تمكننى من العودة الى المدينة، فقبعت بين الصخور لا أعرف ماذا أفعل، لا يمكن أن أعود الى المدينة بسبب الأحداث التى وقعت هناك، ولا يمكن أن أعود الى تلفيوت لأن الريح طردتنى من هناك. وإذا صنعت لنفسى خيمة أو كوخاً، فليس لهما مكان، هل أبنى منزلاً صغيراً؟، إنه لن يصمد أيضاً أمام الريح. ياويلتى !، ما معنى أنه لن يصمد أمام الريح، هل لأنه صغير ومتواضع. وهل سيصمد لو أنه كان كبيراً وقوياً. أخذت بعض الأخشاب القوية وعوارض الأحجار الضخمة وبعضاً من الجير والإسمنت، واستأجرت عمالاً مهرة وأشرفت عليهم ليل نهار. وألهمنى تفكيرى بتعميق الأساسات. وفى النهاية إكتمل البيت ووقف شامخاً.

وما أن اكتمل البيت حتى جاءت الرياح وطرقت على الحواجز. سألت، من الطارق على نافذتى؟ ضحكت قائلة، جار. قلت لها، ماذا يريد الجار من جاره فى ليل عاصف كهذا؟. ضحكت قائلة، جار جاء يبارك لجاره تدشين البيت. قلت لها، وهل من عادة الجار أن يأتى من النوافذ كاللص؟. جاءت الريح وطرقت الباب، قلت لها من يطرق بابى؟ قالت إني جارك. قلت لها ياجارى، هيا أدخل. قالت لى، أليس الباب مغلقاً؟ قلت لها، الباب مغلق، لنرى إن كنت قد أغلقته. أجابتنى بقولها، إفتح. قلت، إننى أخشى من البرد، إنتظرى حتى تطلع الشمس وأفتح لك.

وما أن سطعت الشمس حتى خرجت لأفتح لها، لكني لم أجدها. وقفت أمام بيتى ورأيت أن الأرض كلها خراب، فلا توجد شجرة ولا حديقة، بل رمال وأحجار. قلت لنفسى، أزرع حديقة.

أخذت قطيعا من الأغنام أرعاه فى الأرض. وما أن حرثت الأرض حتى جلبت شتلات أزرعها. جاءت الأمطار وروت الشتلات، وجاء الندى وأزهرها، وجاءت الشمس وأنبتتها. ولم تمض أيام كثيرة حتى أصبحت الشتلات التى زرعتها أشجار ضخمة باسقة.

صنعت لنفسى مقعداً وجلست فى الظل..

وذات ليلة عادت الريح وأخذت تضرب فى الأشجار. فما كان من الأشجار ألا أن ضربت الريح ولم تعد للريح قائمة. فاستدارت وعادت أدراجها ماضية الى حال سبيلها.

ومنذ تلك اللحظة وحتى الآن هدأت عاصفة الرياح، وباتت تأتى بطريقة عادية. ولأنها تتصرف معى بطريقة عادية، تصرفت معها أنا أيضاً بطريقة عادية. فحينما تجيء أخرج اليها وأطلب منها أن تجلس معى على المقعد فى الحديقة بين الأشجار. فتلبى وتجلس. وحينما تأتى تجلب معها نسمة لطيفة من الجبال والوديان وتلوح لى بجناحيها. ولأنها تتصرف معى بصورة جديدة تماماً، فإننى لا أذكرها بأفعالها السابقة معى. وحينما تودعنى وتمضى أطلب منها أن تعاود الزيارة مرة أخرى، كما يتَّبع مع الجار الحسن. وفى الحقيقة، فإننا جيران طيبون، أنا أحبها حباً جماً، وربما هى تحبنى أيضاً.

(١٩٤١)

***

سامخ يزهار

الأسير

إستحال الدخول الى المكان دون إحداث ضجة، مما ينتفى معه الهدف من الجولة، ذلك لأن الرعاة انتشروا بقطعانهم بين الصخور الصماء، وأكمات البلوط، ومناطق الورد الجبلى الشاسعة، بل وحتى فى الوديان التى افترشتها أوراق الخردل الجافة وعيدان الأذرة بتوهجها الذهبى الأخضر الصيفى، والأرض من تحتها صلبة كالجوز، وتتحول الى دقيق رمادى بمجرد ملامسة أى قدم لها.

جلسنا فوق الأحجار نبحث عن أى شخص، وأخذنا نجفف العرق المتصبب فى ضوء الشمس. كان كل شيء فى المكان ينبض بالصيف، وتداخلت الألوان بين ذهب الحقول الجبلية المزروعة بالأذرة الندية الصفراء، وخضرة الهضاب، وسمرة الزيتون الأسود وقبة السماء المتوهجة. وساد المكان هدوء تام، مما بعث فى قلوبنا الشوق الى كلمة سعادة. ظهر الرعاة من بعيد وهم يقتادون قطعانهم وسط الحقل بهدوء تام، كانوا ينطلقون ببساطة بين الحقول والجبال وتنعكس فيهم الأيام الخوالى الجميلة، حيث لم تكن هناك شرور بعد، وتعيدنا الى ذكريات الأغنام الهادئة، أغنام تعود الى أيام إبراهيم وإسحق ويعقوب كانت ترعى هنا فى مكان ما. وهنا فى مكان ما أيضاً غفت القرية البعيدة، التى كللتها أشجارالزيتون، وتجمعت الأغنام فى شقوق الهضاب والجبال البعيدة. وكان من الواضح أن مؤامرات أخرى تتقاطع من تلقاء ذاتها مع هذا المشهد.

أطال قائد فصيلنا النظر بمنظاره وهو يجذب نفساً من سيجارته، ثم يضع خططه وفقاً لما يرى. أولاً، لم يعد هناك أى معنى للمواصلة والمضى قدماً فى طريقنا. وثانياً، لا يعقل أن نعود خاليي الوفاض. لا بد أن نلقى القبض على أى شخص من الرعاة، أو حتى على بعضهم، أو على الأقل لا بد من القيام بعمل ما، أو نحرق أى شيء. المهم أن نعود بشيء حقيقى، شيء يعد حقيقة واقعة. كان قائد فصيلنا متوسط الطول، غائر العينين، ذو حواجب كثة معقودة، وأتاح له غطاء الرأس أن يظهر جبهته ويترك خصلات شعره نهباً للرياح. كنا نتابع إستعراضه للمنطقة. رأى ما رأى، بينما رأينا نحن عالماً من الهضاب تغطى الخضرة قممها وتنتشر الصخور وأشجار الزيتون فى أفقها البعيد، عالم تتقاطع فيه وديان الأذرة الذهبية، كان عالماً يبعث فيك الإحساس بالسكينة والهدوء والحنين للأرض الطيبة الخيِّرة،التى تشعل فيك النار وتحفزك الى ممارسة العمل اليدوى فيها، والإمساك بترابها، وتدعوك الى الدخول فى عالم آخر غير هذا العالم الذى لا تعدو فيه أكثر من فرد فى طابور يحكمه قائد الفصيل، ويفكر فى كيفية الدفع به الى أرض صامتة فى فترة ما بعد الظهر.

وكان قد حزم أمره بالفعل، فلقد اكتشفنا راعياً يجلس فى فيء إحدى الأشجار، وقطيعه يرعى أمامه فى حقل الأذرة. وعلى الفور فرضنا حصارنا حوله، ووضعت كل التفصيلات حول دائرة الحصار ليصطاده أحدنا حياً. وخرج الصيادون فعلاً. إختفى قناص الفصيل بين الشجيرات والصخور عن يمينه، وخرج قائد الفصيل مع آخرين لتطويقه من اليسار ومن أسفل، حتى يسقط بغتة ويقع الصيد فى أيدى الكامنين من أعلى. وتسللنا تحديداً داخل حقل الأذرة الذهبية، وداست أقدامنا شجيرات بلوط مجدوعة، أتت عليها أسنان تلك القطعان. وأحسنا استغلال المنطقة، وطبيعة الأرض والنباتات الطبيعية وحصانة " المناطق الميتة " ، وانطلقنا مهرولين نحو الفتى الذى كان يجلس بهدوء فوق صخرة فى فيء شجرة. هب الفتى واقفاً، وسرعان ما انتابه الخوف والإنزعاج والقى بعصاه وهرول خائر القوى كالظبية المطاردة، واختفى وراء المنحدر، لتتلقفه مباشرة أيدى الصيادين.

يا له من موقف مضحك! قمة المتعة! لم يهدأ قائد فصيلنا، وسرعان ماتوهجت لديه فكرة جريئة مفاجئة : نأخذ القطيع أيضاً! نقوم بعمل متكامل. ضرب كفاً بكف وأنهى حديثه وهو يفرك كفيه بهدوء، قائلاً: " يمكن القول إنه سيكون وجبة دسمة " . وأنهينا جميع استعداداتنا للمهمة تدفعنا متعة المنتصرين ومكافأتهم. مما جعل قائد فصيلنا يتحمس قائلاً : هيا بنا! .

لكن هذا الصخب أزعج الغنم، فمنها ما رفع رأسه ومنها ما حاول أن يعرف ما ستفعله تلك التى اعتزمت أن تفعل شيئاً. وبغض النظر عن كل هذا، كيف سنقود القطيع؟ كنا نضحك ونسخر من الموقف. وهذا أيضاً ما قاله قائد فصيلنا، وادعى أن أشخاصاً مثلنا متعلمين وكسالى، ليس أمامهم إلا الإستخفاف بأى شيء جميل. وبدأ يطلق أصوات بررررر. . ، بج. . . .بط ع ع ع ع ط ع ع ع، وكل الحروف والأصوات المعتمدة منذ الأزل بين الراعى وقطيعه، وطلب أن يذهب أحدنا ليقود تيسا من رأسه ويرغى مثله، ويرفع كل إثنان منا بنادقهم من الجانب كعَصى الرعاة ويشرعون فى الغناء بنغمات الرعاة لقطعانهم، ويسير من الخلف ثلاثة أو أكثر بنفس الطريقة، فبالطاقة والجهد والضحك يمكن أن نسيطر على حماقتنا المترددة، الحائرة الى حد ما، ولنكن أفضل وأجمل أيها الجنود.

ونسينا خلال هذا الصخب أنه يوجد وراء أحد الصخور فى المنحدر، شاب يجلس بين قبضتى بندقيتين وحذاءين ممسمرين، أسيراً يرتعد كالأرنب، عمره أربعون عاما أو ما يقرب من ذلك، له شارب يتدلى عبر شفتيه، وأنف بليد وشفاه مفغورة، وعينان معصوبتان حتى لا يرى، ولا أعرف ما هذا الذى لا يراه.

وحينما وصل قائد الفصيل إليهم طلبوا منه أن ينهض، حتى يرى القائد، غنيمته الحيةبالكامل، من أسفل الى أعلى وقالوا له بافتخار : "أظننت أننا لن نقبض عليه؟، لقد أمسكناه! وكيف. معنا لا يعد هذا عملاً حكيماً. لقد أمسكنا به دون طلقة واحدة، لقد أدرك بسرعة أن عليه الإستسلام ورفع يديه. إمتدح القائد مرؤوسيه قائلاً : " أنتم ممتازون! تقدموا أنتم القطيع والراعى! ماذا يقولون حينما نعود! قمة الجمال والروعة! ثم التفت الى الأسير، فرأى نوعاً من

البشر قصير القامة، ذو ثوب بالٍ، ترتعد أنفاسه خلف العصابة على عينيه، ينتعل صندلاً مخاطاً بسير واحد على إصبع قدمه، وفى النهاية نظر الى أكتافه المقوسة وقال:

" إرفعوا العصابة عن عينيه، لكن قيدوا يديه، فهو الذى سيقود القطيع أمامنا! " . كانت هذه فكرة رائعة أخرى من أفكار قائد فصيلنا، الذى ولَّدت فيه نشوة النصر تألقاً وسعادة سرت فينا جميعاً . رفعوا عنه العصابة السوداء، وربطوا يديه جيداً، وأخذوا يضعون الرباط فوق الرباط حتى أحكموا وثاقه، ثم قالوا له : "نبى الغنم قدامنا! " .

لا أعرف فيم فكر الأسير حينما لمعت عيناه، وماذا أضمر فى قلبه. وماذا سرى فى دمه، وغلى فى عروقه، لا أعرف إلا أنه أخذ يطلق صافرات وإشارات بينه وبين قطيعه، وكأن شيئاً لم يحدث. وأخذ يهبط من صخرة الى أخرى بين الشجيرات، والقطيع المندهش المذعور يسير خلفه، ومن بعدهم وحولهم نشاذ غنائنا ووقع أقدامنا وصخب بنادقنا، كنا ننزل الى الوادى تسبقنا ضحكاتنا الصاخبة.

إستغرقنا فى ذاك تماماً لدرجة أننا لم نلحظ عدداً من الرعاة الآخرين، برزوا بين صخور الهضاب (التى غمرها صمت مطبق وأسى صامت)، كانوا يتنقلون همساً ويهربون بأغنامهم وهم يرقبوننا من بعيد؛ ولم نر الشمس التى كانت طوال تلك اللحظة الصاخبة تتأهب للرحيل، وقد إصطبغت باللون الذهبى. وفجأة حينما أحاطت بنا الجبال من كل جانب لفحتنا موجة ضخمة من الضوء أعمت عيوننا: كانت موجة دائرية متربة لافحة، لدرجة أنها بدت لنا وكأنها محنة قاسيةعليا، تقودنا الى ما هو أكثر من ذلك، وطبيعى أننا لم نكن متفرغين لذلك، فلقد انشغلنا بالقطيع والأسير! هذا يتفرق ويرغى، وذاك يقلص نفسه صامتاً، إنتابه نوع من الخرس والضعف، وكان على يقين من أن كل شيء بعده ضائع، وكل شيء أمامه يبعث على اليأس، كان يسير صامتاً، عبوسا، مكتئباً.

ويطول بنا الحديث حول مسيرتنا فى الوديان بين الهضاب التى يغلفها صمت الصيف القائظ، وكيف كان القطيع المذعور يتدافع على غير عادته، وكيف غلف الصمت أسيرنا، صمت النبات المقتلع، وكأن هناك شيء بائس فيه يدفع الى السخرية، كان خائفاً، ينتفض ثم يعود ليقع على رأسه بمنديله المعصوب رغما عنه حتى حاجبيه، كان شيئاً خائفاً، مرتعداً وفى نفس الوقت يبعث على السخرية، وكيف تألقت الأذرة بلونها الذهبى، وكيف واصلت الشمس بهاءها الصامت، وكيف لامست الطرق الترابية على جانبى الحقل والجبل والممرات وكأنها تحمل عبئاً إضافياً وهى صامتة، وخلاصة القول : كنا نقترب من مكاننا.

بدأت تظهر علامات نقطة حاكمة. كانت مهجورة يغطيها التراب ويغلفها الخراب. وتناهت الى أسماعنا أصداءٌ متقطعة. وبدا أمامنا تل نمل مهجور، وأسمال باقية تشير الى أن أحداً كان هنا، وعنكبوت نسج خيوطه بعد أن شعر بأنه مهجور، مكان عفن تملأه البراغيث، قفر، كل شيء فيه يشير الى فقر وقذارة قراه البائسة. وفجأة ظهرت أطراف المكان، أضواء المنازل والأفنية، التى تكشف عن عورة سكانه ودنوهم وفقرهم، وها هم قد جفت وجوههم وصار منظرهم يبعث

على الإشمئزاز. خواء مفاجىء، وموت بالسكتة، وبالإحساس بالغربة والعداء واليتم.

صحيح أن هؤلاء المواطنين، الذين لا يعد طعامهم طعاما ولا ماءهم ماءً، ولا نهارهم نهاراً ولا ليلهم ليلاً تجولوا هناك، فى أعلى، فى الحفر المتربة، إلا أن كل ما سيفعلونه وكل ما سيكون سيذهب هباءً، ويضيع فى الجحيم كل ما سبق أن كان خيراً وجميلاً ومقبولاً، وليتعفن العفن، ونطلق لحانا، وتتبجح ألسنتنا، وتلتصق الملابس المبتلة بالعرق بجسد غير مغتسل، يعتصره الألم. ونطلق النار على الكلاب الضالة التى تتخلف متبجحة، نجلس فوق التراب اللزج، والقذارة اللدنة، وننام فوق الروث وتقسى قلوبنا من كل شيء، - لا يهم !.

بدأت تتضح علامات النقطة الحاكمة، فاتسمت خطواتنا بالكبرياء؛ كبرياء العودة بغنيمة كهذه نفتخر بها! وبدأت معدلات الإنضباط تتسرب الى خطواتنا. تدفق القطيع الراغى منزعجا، بينما أخذ الأسير يجر ساقيه ويتعثر خائر القوى بعد أن أحكموا العُصابة على عينيه (حفاظاً على أسرار النقطة الحاكمة)، وتلقى الإهانات والتعنيف بسعة صدر. وبخلاف ذلك، لقد ملأنا إحساس الفخار وساد بيننا رضى وقناعة حقيقية. فحدث كهذا يعد عملا ضخماً! كنا نتصبب عرقاً ويعلونا التراب، لقد كنا جنوداً رجالاً. أما قائد فصيلنا فماذا نقول عنه: كان يشعر بسعادة منقطعة النظير! ويسهل أن نصف الإستقبال الذى نظموه لنا مصحوباً بالضحكات الصاخبة، والإنشراح، كانوا كالبراميل التى تفككت أربطتها.

آنذاك تقدم من قائد فصيلنا شخص غارق فى الضحك وأشار الى الأسير معصوب العينين، وقال:

أهذا هو؟ هل نصفيه؟، أتسمح لى بذلك! ".

أستمر قائد الفصيل فى الضحك وأخذ يشرب الماء ويجفف عرقه وينظر بعيون براقة، ثم قال:

" لا، دعك من ذلك، ليس هذا من شأنك".

وما أن سمع المحيطون بنا ذلك حتى انفجروا فى الضحك. ما هو الموقع الذى جلبتموه منه؟ وما هى المتاعب التى تعرضتم لها؟ وما هى الظروف التى صاحبت ذلك؟ هل ينقصهم النظام؟ ألا ينعمون بالحرية، كل الأسئلة من هذا النوع، هل يمكن أن نحصل على الكثيرين من أمثاله. آه، هل توجد خيول طاعنة فى السن؟ إن اللجام لا يكبح الجماح فقط، بل على العكس، إنه يغطى على العديد من الضربات الموجعة وغير الموجعة، ويتلاءم بسهولة مع إنحناءة الظهرالذى أضعفته هذه الأيام العصيبة.

قام أحد الأشخاص بتصوير هذا العمل الضخم كله. وفى الإجازة سيظّهر الفيلم ويستخرج منه صوراً. وجاء شخص آخر من خلف الأسير ولوح بقبضته المكورة بكبرياء ثم انسحب متراجعاً صاخباً بين باقى الرفاق. وآخر لم يتأكد من صحة ما نفعله، وهل يجب أن نفعله أم لا. وكان يجول بعينيه طالباً معونة الأخوة بأى رأى، أياً كان. وآخر قلب جرة على فوهتها وشرب منها كاشفاً عن أسنان مفلوجة، بينما أخذ إصبع يده اليسرى يلوح فى الهواء لجمهور سامعيه بأنه يشرب السائل ويواصل السخرية "مما فيها"، وهو دائرة واحدة من عدة دوائر من الزيت النقى. وشخص

آخر كان يقف بفانلته الداخلية، أخذ ينظر بدهشة وفضول كاشفاً عن أسنان متآكلة، حاول فيها كثير من أطباء الأسنان عبثا، وليالى طويلة بلا نوم، وحجرات ضيقة بلا هواء، وإمرأة نحيلة سمّاوية، وبطالة، وعمل فى الحزب، "ما سيكون هو ما سيكون"، شيء أبدى. وانشغل أيضاً فى العمل عدد من الرفاق، وآخرون يصعدون سلماً، والبعض ساء حظهم بلا مبرر، وغيرهم أسرعوا الى السينما والمسرح ومسرح "هاأوهيل"، و"ها مطآطيه"، وقرأوا ملحق السبت فى جريدتين. وآخرون كانوا يعرفون جزءاً من ملحمة هوراس والنبى إشعيا وحاييم نحمان بياليك وشكسبير. وغيرهم أحبوا أبناءهم وبناتهم حبا غريباً، وأحبوا الحديقة الملحقة بالبيت ونعال البيت. وكان هناك أيضا من كرهوا الحماية، التى يدّعون أنها عادلة، وكرهوا أيضاً ما يسمى برائحة ظل الظلم ويجأرون بالصراخ. وهناك من صبوا جام غضبهم على الضرائب وعلى أجر المسكن القذر الذى يأتى على كل ما معهم. وهناك من لم يكن لديهم بالمرة شيء يفكرون فيه. وهناك من هم فعلاً كما هم. وقف كل هؤلاء فى دائرة سعيدة مبتهجة حول أسير واحد معصوب العينين، وقد بسط إحدى يديه المتضخمتين والتى لا يمكن أن نعرف أبداً ما إذا كانتا ملوثتان أم لا، بخلاف كونهما كفى قروى.

قال الأسير بنبرة مرتعدة خائفة ومندهشة فى آن واحد، وبدون أى إنفعال "فيه سيجاره؟"، مما أثار صخب من يتمتعون بملكة الضحك، والأصابع المحذرة ممن لديهم حساسية من التبجح.

وربما كان هناك أيضاً من فكر فى موضوع السيجارة هذا. لكن كل شيء إنتهى انذاك بصورة أخرى، أكثر عسكرية، لأن قادة الفصائل وقائد السرية، نزلوا آنذاك من مقر القيادة، تسلموا الأسير واقتادوه، ولأنه لا يرى، فقد اضطر للإعتماد على ذراع مرافقه، قائد الفصيل، ولطيبته، تحت تأثير الموقف، مد ذراعه لكى يحسن الإعتماد عليه. بل إنه أخذ يرشده فى سيره المتحسس، وسادت آنذاك لحظة بدا فيها أن كليهما كانا يسعيان الى إجتياز العراقيل بسلام، وساعد كل منهما صاحبه وكأنهما شخص واحد، وكأنهما وحدهما، الى أن استفزه الأسير المندهش قبل الوصول الى المقر وكرر ما سبق أن قاله: "فيه سيجاره؟"، بنبرات أفسدت الموقف بسرعة، وبسببها جذب مسانده اليد التى إتكأ عليها، والتى تشابكت تقريباً فى ذراعه، وخلص نفسه من كل شيء، ورفع حاجبيه بغضب، وقد استاء جداً، ثم قال فجأة: "أرأيتم هذا!" - فاصطدم الرجل بسلالم المقر، دون أن يأخذ حذره، فسقط الى الأرض، وتقريبا لامس أنفه الأرض، ثم انطلق بحركة قلقة، منزعجة، محاولاً تفادى السقوط، فاصطدم بمقعد، وتوقف عند الطاولة، عديم الحيلة، أرعن، واندهش من قوة انفعاله، ومما يمكن أن يحدث الآن، فجذب يده وترك نفسه، وانهار، فى إنتظار كل ما سيحدث له.

جلس على الجانب الآخر من نفس المائدة بعض القادة الجادين فى انتظار بداية الحفل، وجاء دخوله المندفع الى الغرفة ليخلط ما أضمروه فى قلوبهم مع الهواء، وذاك المتصب عند الباب، وقادة الفصائل، ونائب قائد السرية، الذى كان عليه أن يسيطر على الموقف ويعيد تنظيم كل شيء من جديد، وبغضب.

أما ذاك الجالس فى المنتصف، فقد كان طويل القامة. منتصب الشعر، حاد القسمات، عصبى. وجلس عن يساره شخص لا يختلف عنه فى شيء، وكان هو نفسه قائد الفصيل، وظهرت صلعته الى حد ما، وبدا أن شعر ذقنه قد شاب، وفى جبهته بعض شعيرات داكنة وفى فمه سيجارة ملفوفة، كان يتصبب عرقاً، مفعماً بالحيوية، فهو البطل اليوم. وليس هذا العمل إلا بداية أعماله. وبعيداً عند الحائط، جلس فى عزلة واضحة، شخص فى مقتبل العمر، وأخذ يختلس النظرات من خلال أهداب منخفضة، بنظرة شخص يعرف حقيقة معينة وينتظر أن يعرف كيف ستظهر هذه الحقيقة فى النهاية، وبدون أى احتمال آخر.

ما إسمك؟.

بدأ طويل القامة السؤال بسرعة، لدرجة أن الأسير، الذى كان مستغرقاً فى دهشة دخوله الى القاعة، لم يفكر فى السؤال. أما ذاك الشاب الذى اعتمد على الحائط، فقد ظهرت تقطيبة تأكد واضحة على شفتيه، وكأنه كان يتوقع سلفاً.

كرر سؤاله بصورة بطيئة: " ما إسمك؟.

-" من ؟ أنا؟" . خاف الفتى ورفع يده بتردد الى العصابة على عينيه، لكنه سحبها وهى فى منتصف الطريق وكأن ناراً لفحتها.

كرر منتصب الشعر مرة ثالثة" ما إسمك؟"، وجاءت هذه المرة أكثر وضوحاً وتركيزاً على كل نبرة فيها.

"حسن" . قالها مرتجفاً وقد أحنى رأسه فى محاولة للإحتراس فى عماه الجديد.

-"حسن ماذا؟" .

-"حسن أحمد" . قالها بسرعة، وكأنه فى حيرة ورغبة واضحة فى أن تكون إجابته مجدية.

-"كم عمرك؟" .

-"يعنى، لا أعرف ياسيدى" . إرتعدت شفتاه المبللتان ولسبب ما أيضاً ضحك، فرقص شاربه المبتل قليلاً، "عشرون، وربما أيضاً ثلاثون" .

-"وماذا لديكم فى القرية؟. واصل الطويل أسئلته بنفس الهدوء الواثق، الذى يؤكد العاصفة التى تليه أكثر مما يشير الى الهدوء الطبيعى. إنه هدوء التربص الخبيث بالقادم من بعيد لينقض فجأة وبصورة مباشرة على الشريان الرئيسى داخل صدره. . .

-إننا نعمل فى القرية ياسيدي"، ورسم له الأسير صورة عن حياة القرية، وقد استشعر الشر الذى سيحيق به من مكان ما.

-"تعملون ماذا؟ ماذا تفعلون دائماً؟"، قرَّب المحقق خطواته بطريقة العنكبوت، بينما بدأ أحد خيوطه الكثيرة يهتز وينبىء بالإفتراس.

-"نعم ياسيدى" . إتضح أن الذبابة تتصرف بطيش وتتهرب من الخيوط المعقدة.

بات من الواضح الآن أنه يكذب، ولم يعد هناك مجال للشك فى ذلك. من واجبه أن يكذب، ونحن كشفناه، سوف نريه هذا الكلب الحقير. وكان واضحاً أيضاً آنذاك أننا لن نخرج شيئاً من

فمه ولن يقول شيئاً " بهذه الطريقة " ، وكان من الواضح أيضاً أنه فى هذه المرة ، ومعنا نحن وأمام هؤلاء الموجودين هنا ، لن يتمكن من خداعنا ، فلن يجدِ خداعه معنا ، وسوف يتحدث شاء ذلك أم أبى .

ضم النسر جناحيه فوق فريسته : " ومن عندكم فى القرية؟ " .

-لم يستوعب الأسير السؤال ، فقال "آه؟ ، ولعق شفتيه بشيء من القناعة ، كثعبان يلعق شفتيه .

ذهب المحقق بعيداً وكأنه مدرس ينصب فخاً للتلميذ : "يهود ؟ إنجليز؟ فرنسيين؟ .

- " لا ، ياسيدى ، لا يوجد يهود ، يوجد عرب فقط " . أجاب بجدية ، وكأنه لا يتهرب ، ثم عاد ومد يده عرضاً الى عصابة عينيه ، وكأن الخطر قد زال . بينما القى المحقق نظرة الى رفاقه فى الحجرة ولسان حاله يقول : " أرأيتم! إنه مبتديء . هكذا يجب أن تعرفوا كيف تخرجون منه المعلومات " .

وبدأ عملية تطويق جديدة :

- " متزوج؟ ، وهل لديك أولاد؟ وأين والدك؟ وكم عدد الأخوة؟ ومن أين تشربون فى القرية؟ . هكذا نصب المحقق الطويل شبكته وهكذا سعى واجتهد الأسير أن يكون مقنعاً وهو يهز يديه ويحركهما بحركات مغالى فيها ، لا معنى لها ، وظل يحرك رأسه ويلوى لسانه ويدخل فى تفصيلات صغيرة تغضب المحققين ، وتضعه فى حيرة . قصة إبنتيه ، والقصة التى حدثت للإبن ، لكنه خرج ، ليس بدون إدانة إخوته ، ومرض ، وتوفى . وأثناء هذا كله كان يمد إصبعه الى عظام ظهره ليهرش فيه صاعداً هابطاً ، بل إنه ضم أصابعه الأربع على إبهامه حينما اجتهد فى أن يخرج من بين تلعثمه كلمة واحدة مرغوبة ، فأثار اشمئزاز كل سامعيه .

لحظة توقف . آنذاك أخذ الواقف بالباب يستبدل ساقا بأخرى . وبات من الواضح من تعبيرات وجه الشاب المرتكن الى الحائط ، ومن قيام قائد فصيلنا الأصلع عن الطاولة أنه لم يعد لدى الأسير ما يقوله ، وأن شيئاً لن يجدى معه ولا بد من الضرب .

ثم تحدث المحقق قائلاً : " إسمع ياحسن ، هل يوجد فى قريتكم مصريين؟ "

(سيتحدث الآن . لا بد أن يبدأ . ومن المؤكد أنه سيشرع فى الكذب) .

رد الأسير ببساطة تدعو الى خيبة الأمل : " نعم " .

" نعم . . . "رددها وراءه المحقق بنبرة شك مشوبة بنبرة سخرية ، وكأنه عجّل له الأمور . فأشعل سيجارة وتمعن فيما إذا كان يجب أن يحرك الآن القلعة أم الحصان .

تصدَّر قائد فصيلنا الحجرة وأخذ ينظر اليه بازدراء ، من أعلى إلى أسفل ، ثم عدل مقعده ، وهندم قميصه وسرواله ، ثم استدار لينظر من النافذة ، عن غير رغبة ، وحتى ذاك الشاب الواقف عند الحائط كان يمرر راحة يده على وجهه ، وكلما انتهى يمسك أرنبة أنفه قليلاً ، ويهّوى وينفخ بحدة وغضب : يجب أن نعرف كيف "نأخذ" شيء ما!

- "كم عددهم؟ " .

- "يعنى- ليسوا كثيرين".

(آه. لقد بدأ فى الكذب. منذ فترة وهو ينوى الكذب. لا بد من الضرب).

- " كم عددهم؟ ".

- "عشرة، وربما خمسة عشر، . . . "

- "إسمع ياحسن، يحسن لك أن تقول الحقيقة".

- "الحقيقة ياسيدى، كل ما أقوله حقيقة".

- " ولا تكذب".

- "نعم ياسيدى". لم يعرف الأسير ماذا يفعل بيديه التى ظلت ممدودة أمامه بدهشة، فسحبها.

إشتاط الطويل غضباً فأضاف قائلاً: " عندنا لا نعمل شيئاً، فهل لا بد من هذه الإضافة، كم جندى عندكم؟ ".

- "خمسة عشر".

- "كداب! ".

إستدار الأصلع الذى كان ينظر من النافذة، وبدت عيناه تضحكان، وتملكته تلك السعادة التى يستمتع بها الإنسان لحظة خروجها من مكمنها. وفى نفس الوقت يستمتع بكبحها ويطول وجودها للحظة عذبة. ثم أشعل سيجارة فى زاوية شفتيه المبتسمتين المغلقتين. وتبادل الخمسة الذي كانوا يحملقون فى فضاء الحجرة نظرات مختزنة للمتعة. أما ذاك الواقف بالباب فقد عاد وغيَّر وقفته من ساق الى أخرى. فقال الأسير: " وحياتى ياسيدى خمسة عشر".

- " لا أكثر؟ ".

- " أبداً، لا أكثر".

- " من أين لك أن تعرف أنهم ليسوا أكثر من ذلك؟!. أدهشنا المحقق بهذا السؤال الذى يثبت أنه ليس من الذين يصدقون الكذب بسهولة.

- " لا أكثر".

- " وإذا وجد أكثر؟ ". (بم يمكن الرد على سؤال كهذا؟).

- "لا أكثر".

لانعرف من أين انطلقت آنذاك ركلة بسرعة البرق. وكأنها استنفذت صبرها وتحررت أخيراً، إنطلقت بزاوية مائلة، من وضع غير مريح، ومن ساق قصيرة، لتعطى ركلة ممتازة. فأغضبت الفتى معصوب العينين، الذى لم يكن يتوقعها لدرجة أنه أطلق صيحة مفاجئة، أكثر مما هى صيحة ألم، ووقع على المائدة وكأنها مباراة غير متكافئة أكثر منها أسلوباً "لسحب الكلام". شيء غير متوقع، وغير طبيعى، لا يجب أن يسير الأمر على هذا النحو، وليس هكذا.

- " الآن تحدث، واحذر من ألا تقول غير الحقيقة! ".

- "ياسيدى، وحياة عينى، وحياة الله خمسة عشر! ".

بات من الواضح أن الشاب الواقف عند الحائط يشك فى وجود من يصدق هذا الكذب المفضوح. كان يحمل فى يده عصا طويلة، أخذ يقلبها بين أصابعه ويجذبها منها وكأنه يجذب سيفاً. ثم وضعها على المائدة فى صمت. صمت اللبيب بالإشارة يفهم.

إنسابت الأسئلة مرة أخرى، مكثفة، وبدون أن تترك له فسحة من الوقت. كانت تقذف المرة تلو الأخرى، بصورة أكثر سهولة وطبيعية، وركلة وراء أخرى، ركلات هادئة، وركلات بلا غضب، لكنها ركلات مدربة. وكان يبدو بين الفينة والأخرى أنها فى غير مكانها، لكن سرعان ما كان يتضح أنه لا بد منها فعلاً.

إذا كنت تريد الحقيقة إضرب. وإذا كذب الرجل، إضربه. وإذا قال الحقيقة، لا تصدقه!. إضربه حتى لا يكذب. إضربه حتى لا تكون هناك حقيقة أخرى، إضربه لأنه فى قدميك. لأن تحريك الشجرة يسقط الثمار الأكثر نضجاً، هكذا هز الأسير يوِّلد الحقيقة الأكبر. ومن الواضح أن هذا ما يتم الآن. وإذا لم تكن تعتقد ذلك، فلا تجادل معه؛ فمثل هذا لا يصنع حرباً. لا ترحمه؛ إضربه. فهم أيضاً لن يرحموك. وبخلاف ذلك، فالغريب معتاد على الضرب.

وصلوا الآن الى قضية الرشاشات الموجودة فى القرية. إنها نقطة مشتعلة. وهنا مضطرون للضرب. قلبوا الأمور كثيراً، وعادوا لتقليبها ثانية ولم يبق إلا اليقين بأنه يكذب. وبعد ذلك مباشرة وصلوا الى قضية التحصينات. حكموا عليه أن يصف تحصينات القرية. وهنا احتار الأسير تماما. وجد صعوبة فى الوصف التفصيلى والجبر والرياضيات، أنزل يديه، وركل بقدميه وقطع هنا وهناك محاولاً إقناعهم بحركات دائرية من يده، وقد أظلمت عصابته كل شيء أمامه، كان كل شيء محيِّراً لا معنى له، وكان من الواضح جداً آنذاك فى الحجرة أن هذا كله ليس إلا تعقيدات كذب.

تجادل معه المحقق يائساً: " أنت كذاب. إننى أرى فى عينيك أنك كاذب! وهدد بقبضته أمام عينيه المعصوبتين.

لم يحرزوا تقدماً. كان الوضع كئيباً. صار الموقف كله مقيتاً. لقد تورطوا فى تحقيق بارد مستمر، معقد، ولم يتحمس له أحد، ولم يسخن معه. ضربوه بلا رغبة فى الضرب. وكان الشيء الأكثر إثارة للدهشة حينما نزلت عليه من مكان ما ضربة عصا على ظهره. كانت ضربة غريبة، مدربة.

حسناً، وصلوا الآن الى قضية المدفعية. كان الأسير يدعى أن ماسورة المدفعية ليست أطول من يده، بدءاً من كتفه وحتى كفه، وبينما يقيس أبعادها نزلت ضربات مطرقة من الكف اليسرى تحديداً على جذع الكتف الأيمن وإلى منتصف قطعة الكف الأيمن، أى من هنا الى هنا، تقريباً. عاد الضرب من جديد حتى زال كل شك، ولا أحد يعرف ما إذا كان ذلك يكفى أم لا، ولا بد من الإستمرار، وظهرت التقطيبة على شفتيه وحول شاربه.

إنتهت الأسئلة.

أما ذاك الواقف بالباب، والذى كان ينتقل من قدم الى أخرى؛ ويحملق بين الفينة والأخرى

بعينيه فى فضاء اليأس، فإنه ربما كان يبحث فى تألق السماء عن شيء ما مختلف عما هو موجود فى ظلمة الحجرة القذرة هنا. كان يزداد فى داخله الشك فى أن شيئاً فظيعا سيحدث هنا الآن. ولم يكن هناك أى خيار، لأنه لم يبق إلا أن يقولوا له: "خذ هذا الحيوان وانه المسألة معه!.

إضطجع المحقق على مسند مقعده، محاولاً الإنتهاء من هذاالموضوع. وفرك سيجارته فى الأرض بعد أن نفذ صبره وقال: "هكذا، لم يعد لدىَّ ما أفعله».

فأخذ الأصلع الموضوع على عاتقه، وقال وهو يقذف سيجارته بإصبعه الأوسط من الباب الى الخارج: " يمكننى أن أقضى عليه " .

وقال أحد قادة الفصائل" إنه أحمق تماماً" .

وقال الثانى: "إنه يتظاهر بالحماقة" .

أما ذاك المعتمد على الحائط فقد قال وهو يزم شفتيه مستخفا بحقيقة كفروا بها " يجب أن تعرفوا كيف تخاطبونه " .

فى تلك الأثناء شعر الأسير أنه يعيش فترة توقف طويلة، فلعق شفتيه الغليظتين، ومد يده الممتلئه ثم تحدث قائلاً:

"فيه سيجاره، ياسيدى؟" .

كان من الواضح أنهم لم يلقوا بالاً الى هذا الأحمق.

فجذب الأحمق يده الممدودة بعد برهة، فكر ملياً واعتدل فى جلسته، أحمق ما يكون، إنحنى بينه وبين نفسه قائلاً: "آخ ياربى" .

ثم ماذا؟ والى أين؟ هل نذهب الى أطراف محجر القرية؟ أم ترانا نذهب الى التعذيب، الذى يفتح فمه، لنفصل الكذب عن الحقيقة. وهل لدينا وسيلة أخرى غير ذلك؟. كيف نخرج منه الحقيقة؟ . . . هل نعطيه سيجارة ونطلق سراح هذا الأبله، ليعود الى بيته. هل نقول له إذهب على ألا نراك مرة أخرى ؟.

فى النهاية إتصلوا هاتفياً بمكان ما، وتحدثوا مع نائب قائد الكتيبة بشحمه ولحمه، وتقرر إرساله الى أحد المعسكرات. وأبدى ثلاثة على الأقل ممن فى الغرفة امتعاضهم من هذه الطريقة المزرية، المدنية جداً. والوسطية للغاية. المهم أنه تقرر نقله الى معسكر التحقيق مع الأسرى، حيث يعاقبون هناك كل واحد بما يستحقه. ولهذا فقد خرج الواقف بالباب، والذى لم يكن موافقاً طول الوقت على ما يجرى هنا، لسبب غير معلوم، وأحضر السيارة الجيب التى اعتلاها التراب، واستدعى السائق المناوب، الذى غضب من استدعائه خارج دوره، وهو ما ظهر بسرعة فى أدلة كثيرة وتعبيرات مختلفة، إضافة الى أنه فى حد ذاته لم يكن يعنيه السفر الى مكان استيطان ورؤية أى شخص. بل إنه كان يفضل تطبيق المبدأ، والمبدأ فقط. جاء أحد الجنود وجلس بجوار السائق، بحكم الدور الذى كان من المستحيل تنفيذه حتى الآن بسبب نقص المواصلات، ولأنه تلقى الآن مهمة أخرى،وهى مرافقة الأسير(وهكذا يسيرون فى شوارع المدينة، بمرافق فى الأمام وأسير فى الخلف) ؛ ومحمل بالمهمتين المذكورتين أعلاه، حتى لا تكون هذه الرحلة، لا قدر الله، على

حساب الإجازة(وهى حساب خاص). جلس وعمَّر رشاشه بينما لم يجد الأسير مكاناً إلا على الأرض، بعد أن زجوا به الى السيارة واصطدم بالجالسين فيها. إنتحى جانبا وجلس القرفصاء، وجلس أمامه إثنان، إضافة الى ذاك الذى كان واقفاً بالباب، من خلفه، وحمل فى جيبه أوراق المهمة و"أمر التشغيل" وكل ما شابه ذلك. وكانت هذه الفترة من بعد الظهر على وشك الإنتهاء بطريقة لا أحد يتوقع نهايتها.

خرجوا من القرية القذرة، وغادروا الوادى الى الحقول، ثم أخذوا طريقهم بين الحقول، وانطلقت السيارة تقفز بعجلاتها الأربع، وبدأت تتراءى أجزاء من المستقبل البعيد وتتحول الى واقع، أما كان من الأفضل الجلوس أمام الحقول التى غمرها الضوء وبدأت تصطبغ بالحمرة، واحتوتها سحابات بيضاء، صغيرة، فتألق الضوء وعلا فوق كل الأشياء، الأشياء التى تعنينى وتعنيك؛ ولأن السائق لا يعنيه شيء على الإطلاق، لا هو ولا صديقه الجالس الى جواره، ذو الشارب، فقد أخذا يدخنان ويصفران ويغنيان بالتبادل "فى فيافى النقب سقط رجل مدافع"، و"بريق عينيك ضوء أخضر"، أما ذاك الملقى على أرضية السيارة، فقد كان من الصعب معرفة ما به، لأنه كان أعمى يتصرف بحيوانية.

إنطلق من الخلف عمود دخان، مخلفاً طريقاً من الدخان يشتعل ويضيء فى نهايته. وأخذت السيارة المسرعة تتراقص فوق تصدعات وحواجز، بينما بسطت الحقول ذراعيها الى ما لا نهاية وامتزجت مع ساعة الغسق الصامتة، وقد أسكرتها النشوة والسعادة، وشيء ما بعيد جداً لدرجة أنه بدا حلماً، الى أن قفز فجأة، ومرة واحدة شيء غريب وغرس فى الرأس: "المرأة". ما من شك أنها ضائعة؛ لدرجة أنك تندهش من أين واتته هذه الفكرة المدهشة، هنا، وهنا بالذات، بجوارك، قضى أمر، نفس الأمر، الذى يسمونه فى مناسبات أخرى بالقدر.

لقد تهرب البعض من هذه العملية المخجلة. ومن الممكن ترديد أغنيات الإثنين الجالسين هناك فى الأمام بطريقة أخرى. بل ويمكن التحليق بعيداً الى أقاليم بعيدة، مع ضوء الغسق، الذى يشعل شمساً ضاربة الى الحمرة، لو لم نعد على الفور لنرى ما ظهر فجأة من هذه الثغرة المفاجئة: هذا الجالس هناك تحت قدميك، حياته وأمنه وأسرته، ثلاثة أشخاص، نسيج حياة متكامل، خاضعون بصورة ما لمشيئتكم، مثلك مثل إله صغير جالس فى سيارة جيب. الرجل المنقول، والقطيع المشغول، وبعض الخلائق فى قرية بين الجبال، وخيوط حياة بعيدة تتوثق، وتتقطع، وتتعقد بلا نتيجة، بحكم حقيقة أنك، صرت هكذا فجأة، سيداً لها. إن شئت أوقفت السيارة وأطلقت سراحه، يتغير وجه الأمور تماماً. ولكن. .إنتظر. ذاك الجالس على المقعد الخلفى فى السيارة الجيب الصغيرة، واتته فكرة جريئة. إنتظر: إطلق سراح الرجل!.

هنا نوقف السيارة. بجوار الوادى. ننزل الرجل، نرفع عصابته، ونوجهه صوب الجبال، ونشير له مباشرة: إذهب الى دارك، يارجل، أمامك مباشرة. واحذر من تلك الهضبة. فاليهود هناك. واحذر من أن تقع فى يدنا ثانية. والآن، يطلق الرجل ساقيه للريح مهرولاً الى داره. يعود الى بيته هكذا ببساطة. إسمع من فضلك: أى عمل!الإنتظار المقيت، الضاغط، مصير إمرأة

وأطفالها الرضع(إمرأة عربية!)، تكهنات قلب يؤمن بالقدر، تكهنات ما سيكون من الآن، كل شيء يحل بصورة أفضل، ونتنفس الصعداء، ويبعث هو للحياة من جديد. إيه، يافتى، هيا نطلق سراح الرجل!.

ولم لا ؟ من يعوقنا؟ هذا أمر بسيط، ومنطقى، وإنسانى. قم إذن واوقف السيارة. فى هذه المرة لا توجد بلاغات عن الإنسانية، الأمر فى يدك الآن. فى هذه المرة لم تظلم أحداً والأمر يتعلق بضميرك أنت. أنزله وانقذه. الخيار أمامك اليوم، وهو خيار رهيب وكبير، خيار قوى، دائماً ما تحدثنا عنه بفظاعته، ها هو الآن فى يدك. ولا مفر هذه المرة، لا "بجندى" ولا "بأمر" ولا "وماذا لو ألقوا القبض عليك"، ولا حتى "ماذا يقول الرفاق"، ها أنت الآن تقف عارياً أمام الواجب. والموضوع كله فى يدك.

إذن توقف. توقف أيها السائق. إطلق سراح الرجل. لا داعى لمبررات، هذا حقه وواجبك. وإذا كان من معنى لهذه الحرب، ليظهر الآن. كن إنساناً ودعه يذهب الى داره. تجاهل كل هذه الوحشية المتعمدة واطلق سراح الرجل. وهذه القذارة التى تصرخ بها اللافتات تغفر له ذنوبه سلفاً. أطلق سراحه. هللويا!. وليذهب هذا الراعى، وذاك الفلاح، الى زوجته، والى داره.

لا توجد طريقة أخرى. وستدور الأيام ويطلق سراحه بصورة عجيبة ويعودالى الجبال بحثاًعن زوجته وعن أهله، الذين يتضورون الآن جوعاً، وتسير حياتهم من سيء الى أسوأ، شخص نمطى، تافه، من يعرف ما هو الآن، وأين هو الآن، وهذا أيضاً بشرط ألا "يباغته" أحد هنا أو هناك و"يرسله الى السماء"، هكذا، أو حتى ليس هكذا.

لماذا لا توقف السيارة؟ هذا واجبك. واجب لا مفر منه. واجب صار واضحاً لدرجة أنه يصعب معه الإنتظار الى أن تقرر الفعل. قم هنا ونفذ هنا. قل للسائق كلمة، أبلغه هو ورفيقه أن هذا هو الأمر، إحك لهما حكاية، قل أى شيء، وهذا أيضا لا داعى له. لا داعى لأن توضح، ولا داعى لأن تقص. وليكن ما يكون. كن إنساناً. أنظر كيف تسير الأمور. أطلق سراحه. (كيف أستطيع ذلك؟ إنه ليس لى. إنه ليس فى يدى. ليس هذا صحيحاً: أنا لست سيده. أنا مجرد رسول لا أكثر. وما ذنبى أنا؟ ومنذ متى وأنا مسئول عن قسوة قلوب الاخرين!).

كف عن هذا. هذا مجرد تهرب. هكذا يتهرب كل شيطان من اتخاذ القرار ويختبىء وراء "لا خيار"، ياله من تهرب قذر إعتدنا عليه. أين إحساسك بكرامتك، أين "إستقلالية الفكر" التى تتشدق بها. أين الحرية وأين حب الحرية. أطلق سراحه! على العكس، كن مستعداً لأن تحكم على هذه "الجريمة". إنها مسألة كرامة. كل أقوالك، وكل احتياجاتك، وتمردك على الصغائر وعلى القمع، وعلى طرق الوصول الى الحقيقة، والى إطلاق السراح، أين هذه الأمور: اليوم هو يوم السداد، يوم الدفع، إدفع، إدفع يابنى، الأمر الآن فى يدك.

(لا أستطيع، أنا لست أكثر من مبعوث. وثانياً: إنها الحرب. وهذا الرجل من الجانب الآخر، الذى يحاربنا، ربما كان ضحية لتحرشات زملائه. ولكننى أنا، لا يجب علىَّ وليس فى

استطاعتى أن أطلق سراحه. وأمر آخر: إذا بدأ كل واحد فى إطلاق السراح، فإلى أين سنصل؟ وهل من المحتمل أنه يعرف فعلاً شيئاً كبير اً لكنه يخفيه ويتظاهر بالحماقة؟).

هل يعقل هذا؟ وهل هو جندى؟. هل ألقيت القبض عليه وسلاحه فى يده؟ من أين أتيتم به؟ إنه ليس بمحارب. إنه مدنى عفن ومسكين. هذا الأسر باطل، ولاتدفن رأسك فى التراب. إنها جريمة. هل حققتم معه؟، أطلقوا سراحه الآن. لن تستخلصوا منه أكثر مما قال. وقمع الحقيقة الكامنة فى إطلاق سراحه لا يساوى معلومة واحدة.

(يشق علىَّ إتخاذ القرار. أنا لا أجرؤ: يجب تنفيذ أشياء كثيرة غير مناسبة، أتحدث مع السائق، وأوضح للزميل، وأصر بعد ذلك على المبررات، وأدخل فى وضع مخجل بسبب حسن، هذا البائس؟ كل هذا بخلاف ما هو غير واضح تماماً من ضرورة إطلاق سراحه الآن، وقبل أن يجرى معه تحقيق كما ينبغى.

هراء! لو كان مكانك شخص آخر وفى يده ربع إنجازاتك عن الحقيقة والحرية، لأوقف السيارة هنا وفوراً، وأطلق سراح الرجل، وعاد ليواصل طريقه ونسى هذا الأمر، باختصار، وببساطة، وعملية، وبدون أى ذرة من حفظ الجميل لنفسه. وأنت، مع ألف من المعلومات والإدعاءات والإثباتات والأحلام، من الواضح أنك لن تقوم بهذا العمل. أنت إنسان طيب، تفكر وتتحمس، تندم وتفكر، ثم تغوص فى بحر من الأفكار، وتندم على ما لم تفعله، وتضييعك لواقعك غير المكتمل، وتلعن العالم بما فيه؛ العالم العكر، الوحشى. إفعل، إفعل هذه المرة. خض التجربة. أخرج وحارب..

(إننى أشفق عليه. للأسف أنهم إختارونى لهذا الدور. كان يمكن أن أفعل، لولا خوف. لا أعرف مم. على الأقل، لو، كنا وحدنا هنا. إن هذا ينبض في كرغبة أمتلكها ولا أستطيع لها شيئا، لا أستطيع أن أبدأ. هذا أمر يفوق قدراتى.. وحينما أتذكر أنه يجب علىَّ أن أوضح، وأناقش، وأتجادل مع آخرين لأثبت لهم، وأبدأ فى تقديم التبريرات، لا أستطيع. فما العمل إذن؟). إختر، وتضع هذه العراقيل البائسة أمام حياة إنسان! كيف تنظر الى الأمر وأنت رابض على أرضية السيارة، وزوجتك تنتظر فى البيت، وقد تخرب كل شيء، وتتناثر كقشر الحنطة، وذهب أدراج الرياح، تنتظر وقلبها يحترق، وأنت غير موجود بالبيت، تنتظر والدموع على وجنتيها، تنتظر بقبضات اليد، تنتظر باستسلام وخنوع، تنتظر باحتجاج، تنتظر بالصلاة... قل الآن ما تقول. واحك ما تحكى. ثم ماذا! حتى وإن كان كاذباً، وإن كان قد أشبعنا كذباً، من هو، ما هو إلا حقير بائس، مخلوق متقلص وخائن، وجهه معصوب بمنديل، منكمش فى نفسه وقد لفحته الشمس، شيء لا قيمة له، خائف، متوتر من العدم، مستعد للركل ويعتبره أمراً طبيعياً (أركل العربى، فهذا بالنسبة له لا شيء على الإطلاق)، وأنت، سيده، يجب أن تطلق سراحه، حتى وإن ضحك لك هذا الرجل نفسه، حتى وإن رأى فيك، هو أو أى شخص غيره، إفلاس. حتى وإن سخر منك رفاقك، حتى وإن طلبوا عدم إطلاق سراحه. حتى وإن أرسلوك بسبب ذلك الى المدعى العام، والى عشرين مدعى عام. هذا واجبك، ويجب أن تقوم به: يجب أن

تتخلص من العادة الحيوانية. كن شخصاً يعرف، ولو حتى بالآلام، كيف يحيد ولو مرة واحدة عن شباك البهيمية، التي تجمعت أكداساً، حينما كنا مواطنين خيرين، وأصبحنا الآن، رسمياً ومعتمدين، كالعادة، ووفقاً لمقاييس كل من يسعى لأن يكون جديراً باللقب الأعظم "جندى". لا إجازة ولا ذهاب الى البيت، الجو حار هنا، ملوث، سيء، خطير، ثم ماذا؟. نسحق العدو. نفعل به شيء ما، ونقضى على هذا العربى المدمر(من طلب منا أن نخوض هذه الحرب الملعونة!)، لقد تحول كل محظور الى مباح.

بعد ظهر يوم صحو، يقتاد الى مكان ما الأخ حسن أحمد، الذى زوجته حليمة أو فاطمة، وله إبنتان، وسرق غنمه، من أنت وما حياتك، شخص مثلك مثالى لأن نفرغ فيه كل الزفت الذى فى قلوبنا، وليأخذنا الظلام.

إننا بالطبع لن نطلق سراحه. هذا واضح. كلام جميل. حتى لو لم يكن هناك خوف، بل ما هو أسوأ من ذلك: أنت شريك فى الخطأ. تختبيء وراء دعوى "ما العمل-هذا أمر" • وهل لديك الخيار، خيارك فى يدك. إنه يوم عظيم. يوم تمرد. يوم أصبح فيه أخيراً خيارك فى يدك. وتملك قرار منح الحياة لإنسان مقهور. تصرف وفقاً لما يمليه عليك ضميرك. ووفقاً لحبك، ووفقاً لحقيقتك، وفقاً لأكبر ما فى شيء كبير، إطلاق سراح إنسان.

أطلق سراحه.

كن إنساناً.

حرره!.

بات من الواضح أن شيئاً لن يحدث. هذا هراء ووهم. من الواضح أنك ستتهرب، تتجاهل. من الواضح أن كل شيء ضائع. أسفى عليك أيها الأسير، لم تعد لديك قوة للعمل.

ما الذى فى ذلك. الآن، وهنا، لتطل هذه اللحظة. توقف أيها السائق. إنزل ياحسن، إذهب الى دارك. إفعل شيئاً، تحدث، توقف. قل، كن إنساناً كما تشاء.

كان الحقل عبارة عن كتلة واحدة كبيرة من الذهب، كل هذه عشرات الآلاف من الدونمات كانت آنذاك ميداناً عجيباً، لا توجد وديان، ولا هضاب، ولا مرتفعات ولا منخفضات، لا قرى ولا أشجار، كل شيء اتحد فى قطعة ذهبية واحدة، قطعة أرض ضحلة واحدة، أزرى عليها التراب، نقياً براقاً، أرض ذهبية مستديرة عظيمة الى ما لا نهاية، حتى وإن كان من المحتمل من الخلف(ولا يوجد هناك من ينتظرون)، فى ضباب المساء، الذى بدأ يغطى الجبال، حتى وإن كان ممكناً هناك، يوجد شكل آخر، شكل مطحون مسحوق، نفس شكل الإفلاس التام، إفلاس إمرأة منتظرة، إفلاس قدر، أو إفلاس خاص جداً، أو شيء آخر، عام، حيث تغرب الشمس ويظل هو هنا، بيننا، بلا نهاية.

(١٩٤٩)

***

أهارون ميجد

الكنز

على الجانب الاخر من مجرى المياه، إمتدت بيارة إبراهيم لطيف. رفع سليمان أطراف عباءته ودلى إحدى قدميه داخل المياه الباردة. غسلها. سقطت كتلة طينية من الضفة فحركت المياه حوله فى كل مكان. لا خطر عليه هنا. إجتاز الجدول بخطوتين، ووقف بقدميه فوق أرض البيارة.

إمتدت ظلال كثيفة متراكمة بين أشجار الرمان والبرقوق. إنهم حتى لم يقطفوا الثمار. يمكن أن أحضر الى هنا ذات ليلة حاملاً أكياساً فارغة، أملأها بالبرقوق. فالرطل منها بعشرين قرشاً. سأحضر مع يوسف دجانى. لن يقبضوا علينا. أملأ أربعة أكياس فى الليلة. ربما يساوى كل كيس ليرة ونصف أو ليرتين ونصف. فى ليلة واحدة. مناصفة؟. لا، أنا الذى وطأت الطرق وسرت فيها، وتعرضت للخطر، ألا يساوى هذا شيئاً؟. إذا ملأنا ثلاثة أكياس فى الليلة الواحدة، إثنان لى، وواحد له. هذا هو العدل. قطف أربع حبات من البرقوق وخبأها فى جب العباءة. من أجل الولد.

سار الهوينا كالجمل؛ كانت الأغصان متشابكة وأخذت حبات البرقوق الحمراء تتلألأ بينها. غضبى عليهم، يوجد برقوق كثير. أكثر مما كان فى العام الماضى. هل قلت فى العام الماضى؟. لم يمر سوى ثمانية أو تسعة أشهر. فى ذروة موسم قطف الزيتون. إعتزمت آنذاك إصلاح الخطاف. لكنى لم آخذه معى. من المؤكد أنه ما زال فى الفناء. ماذا يفعلون به؟ كما أننى لم آخذ الوسادة معى أيضاً. أنا حمار، حمار بن حمار. علّها لا زالت هناك أيضاً؟ سأدخل ببطء. كل شيء كما هو، الظلمة، والفراغ، والموقد الذى يعلوه الهباب وكوم الجلة الجاف والبراعم، وتلك العصا الحديدية التى وجدتها وأنا فى الطريق الى عطفيه، حينما ذهبت لشراء اللجام. دفعت خمسة وأربعون قرشاً لذاك الراهب. والجنزير الصدء. ربما يمكن أن أستخدمه أيضاً. وها هى الوسادة ملقاة أيضاً على الأرض.

أخفته الأحراش عن العيون. ساد المكان صمت مريع وغريب. لا صراخ أطفال ولا نهيق حمار. هل تركوا المكان جميعاً ولا يوجد أحد؟. يمكنه الآن أن ينتقل من بيت الى آخر ومن أيكة الى أخرى، يجمع الخردة. لكنه توقف. سمع خشخشة فرع شجرة. رأى غصناً يتحرك. إنه عصفور. تخيل أنه سمع من الهضبة صوت امرأة تنادى قائلة " أحضر الماء " . لكنه تأكد من خطأه. فلا توجد إمرأة ولا أى من جنس النساء. أزعجه فجأة صوت عربة تمر على أحجار الطريق، تشق طريقها

نحو القرية. إلتصق بإحدى الأشجار وأخذ ينظر بترقب. إذن، يوجد يهود. سأنتظر فى البيارة الى أن يحل الظلام. سار همساً حتى دغل الصبار فوق حدود الأشجار والحقل، كان الظلام حالكاً. إنبطح فى المنطقة الخالية بين الدغل ورأى من موقعه كل شيء بوضوح. هنا، حقل أبو يوسف، وعلى بعد ثلاث عشرة خطوة من أشجار البرقوق، تبدأ حدود أرضى. ها هى مهجورة وخربة. لم تنظف ولم تُعد للزراعة. إنها لا تعرف أننى هنا، ولا أملك لها محراثاً ولا نبتاً أزرعه فيها. لا شيء سوى الأشواك والحشائش. إمتدت القرية فوق صخور الهضبة ككتلة من الطين والحجر يغلفها الصمت. هناك، على المرتقى، يوجد بيت المختار، والمدافن، وهناك أيضاً المزبلة والميدان، والشارع الذى يتسلق الصخور والمتجر. وهناك منزل كمال دغانى، وهناك حارة الأحواش والأزقة، لكنى لا أرى بيتى. نقل نفسه الى منطقة أخرى. لكن شجرة ضخمة أخفت البيت فلم يظهر منه سوى جزء من الحائط اللبِّن. ها هى دنياى وممتلكاتى. سأذهب اليه أتفقده، وبعد ذلك أمر فى تلك الحارة وأذهب الى مزرعة عارف، أدخلها عبر الخوخة وأزيح الصخرة عن سطح المخزن، وأدلف الى الداخل، حيث الكنز الذى قال عارف أنه تركه فى الوعاء الفخارى. كما أن عارف لم يحضر الى هنا، لا هو ولا أى شخص آخر. سأدخل، أحصل على النقود وأعود، ويصير كل شيء على ما يرام، لا أحد رأى ولا سمع، إن شاء الله. إندهش لعدم تصاعد أي دخان من مدخنة الجرن، فكل شيء صامت تماماً. كأنه لا يوجد هناك ولا حتى كلب واحد. قد يوجد هنا حراس. سأقول لهم، إنني عابر سبيل من. . .شفا عمرو مثلاً. فهناك عرب فى شفا عمرو. " ماذا تفعل فى هذه المنطقة، إنها لا تخصك، أليس كذلك؟ " . " جئت لأعمل حطاباً " ، "وهل لديك وثيقة؟ " . آه، وثيقه؟، لقد تركتها فى البيت. يمكن أن أحضرها لكم " . لكنهم لن يهتموا بالذهاب الى شفا عمرو. " طيب، إذهب. لا تعد الى هنا ثانية " . يركلوننى على مؤخرتى، فأطلق ساقى للريح وأجرى الى حرش الزيتون الذى يملكه دجانى، بينما يذهبون هم وعلى رؤوسهم أكاليل الغار. طار سرب من الذباب والناموس محلقاً فوق صخرة فى حقله. أتوق لمعرفة ما يحدث هناك. من المؤكد أن هناك كشك يتغوط فيه اليهود. براز جيد. كان يمكننى أن أزرع هناك ذره، وأحصد محصولاً جيداً. هذه الريح الغربية جيدة للقمح. آخذ المذراة وأذروه من الدرّاسة، فيتطاير القش عنه، وأحصل على حنطة كثيرة. وأذرو ثانية أنا ومصطفى. نظل نذرى حتى يحل الظلام وفى المساء يكون قد توفر لدينا جوال مليء بالذرة. وفى اليوم التالى يأتى التاجر فأكيل له بالمكيال. كم تريد أن تشترى؟ "كل ما لديك" . "حسنا" . كيلة ثانية وثالثة. إثنتان، ثلاث، سبع، تسع. . ماذا قلت؟ لقد أخطأت؟ نعد ثانية، واحد، إثنان. . .سبع، تسع. . أبيعه كل ما معى وأزيده كيلتين، وليسامحنى الله من أجل الرضيع. وفى اليوم التالى أشترى نورج جديد، لأن القديم تآكل وانتهى.

إنتابه فجأة اعتقاد بأن مخزن حبوب عارف قد سُدَّ، بعد أعمال التخريب التى قام بها اليهود، ودفن الكنز المفقود الى الأبد. وأذهب أنا الى هناك وأحفر بيدى فلا أجد شيئاً. ربما أعثر على شلن واحد وتضيع كل هذه المخاطرة هباءً. وربما يطاردنى اليهود أيضاً ويمسكون بى. أو يطلقون النار علىَّ. سمع صوت رجل فى الهضبة. زحف سليمان الى مكان خفى فى السور. ظهرت فى السماء

بعض النجوم المتفرقة تتلألأ من بعيد. إمتدت الظلال فوق السور اللبِن فى فنائه، فجعلته مظلماً، فامتزج مع المشهد العام للقرية.

ربما لا يزال كل شيء كما هو. وفى مخزن القمح يغطى كوم الذرة على أكمات التين الشوكى ويوجد تبن فى المعالف وتتدحرج الوسادة هناك على الأرض بجوار المصطبة. أضع زوجتى والأولاد على ظهر الجمل وآتى، وتقوم هى بإزالة الشوك وتجمعه لتصنع منه ناراً فى الجرن وتخبز خبزاً ساخناً ونجلس نحن فى العريشة نحتسى القهوة، وأذهب فى اليوم التالى الى الحداد أشترى منه محراثاً، وأمهد الحقل وأشترى خميرة وفول. وإذا جاءوا الى بيتى وادعوا علىَّ، سأطلب منهم أن يقتادونى الى رئيس حكومتهم. فيسألنى: " من أنت يافلاح" . . " أنا فلان من قرية فلان جئتك لأن عبدك يعرف كرمك" . "تحدث!" . " أنا أعرف يا معالى رئيس الحكومة أنكم يا معشر اليهود خيراً فعلتم بمجيئكم الى قريتنا. وحياتى خير" . " قل ما لديك يا فقير" . "لينعم الله عليك بكرمه لأنك كنت حكيماً باحتلالك قريتنا، ووقفت ضد كل الدول العربية" . " تحدث، لا نريد أن نسمع مديحاً من فلاح" . " حسناً، أنا يا سعادة رئيس الحكومة، جئت لموضوع تافه لا يساوى الحديث عنه" . " ما هو" . "إننى، يعنى أننى أمتلك هناك فى القرية إثنان وأربعون دونماً، أرض خيِّرة مزروعة بالزيتون والرمان، أرض مزروعة بكل الثمار الطيبة، لا مثيل لها فى باقى القرى، أى والله" . " تحدث بسرعة، لا وقت لدى رئيس الحكومة" . "عبدك يتحدث. لقد جئت أتوسل اليك، إننى أرغب فعلاً فى العودة الى قريتى التى ولدت فيها أنا وأبى وجدى. أريد أن أموت هناك. لذا أرجو أن تمنحنى الإذن بالعودة، وأنا أعطيك نصف الأرض التى أمتلكها، واحدا وعشرون دونماً من خيرة الأرض حقاً لليهود الذين أحبهم كإخوتى. النصف الجيد، جوهرة نفيسة من النوع الممتاز" . " ما هذا، أتسخر منى، تسخر من رئيس حكومة إسرائيل؟ تعطينى واحداً وعشرون دونماً؟" . " عينها أنت، خذ أحسنها" . " لا، عينها أنت، تحدث مباشرة وبحق، هل أساوى فى نظرك واحدا وعشرون دونماً؟ " . " طيب، خمسة وعشرون لسعادتك، لأننى فى الحقيقة أحبك، إنك أحكم من الجميع" . "لا، لا، خمسة وعشرين، كلها لى، ويبعت الله"!. "لا يمكن يا سيدى، بم تفيدك خمسة دونمات من بائس مطرود. ليتك تلبى طلب عبدك، الذى يقبل تراب قدميك، أنا فى الحقيقة إنسان بائس، أين نزرع البيقة والحمص من أجل البهيمة أيضاً" . " لا، لا، إذهب الى المكان الذى جئت منه!" . "حسناً، على ألا يحدث عراك. إن عبدك منذ أن وعى وهو يكره المشاكسات. ثلاثون دونم لك وإثنى عشر لى، وسوف أعود فقط مع زوجتى والأولاد" . إبتسم رئيس الحكومة ابتسامة عريضة: "حسناً، يافلاح، إذهب خذ زوجتك أمينه ومصطفى ورضيعك على وعد الى قريتك. لكن لا تنسى: لقد قلت ثلاثين" . "لن أنسى، هكذا يقضى الله ويزيد ثراء وحكمة وعظمة لك ولإسرائيل" . " أذهب الى البوابة سعيداً واختفى، أسير فى الليل عبر الوادى الى خربة دبين. . . ربما يمكن أن يدعونى فجأة رئيس الحكومة ويقول لى: ماذا قلت إسمك؟" . " نعم، عبدك سليمان بن رشيد" . "ماذا قلت ؟ آه، لقد أدركت الآن " . "ماذا سليمان بن رشيد، أتعرفنى؟" . " أنا أعرف أنك قذفت أحجاراً على

اليهود الذين مروا عندكم فى القرية وهم فى طريقهم الى مستوطنتهم منذ ثلاث أو أربع سنوات". "أنا؟!. " نعم أنت". "وحياة أولادى وحياة الله ما قذفت أحجاراً مرة واحدة على اليهود الذين أحبهم. إسأل بروجنسكى فى المستوطنة وهو يقول لك، لقد بعته بيضاً، وكنا كالأخوة. . . "لا تكذب ياسليمان، لدىَّ رجال الهجاناه الذين يرون كل شيء ويسمعون كل شيء. . . ".

-"سيادتك مخطىء". " أسكت، أنت تعرف أننى لا أقول سوى الحقيقة". " أنا ولا مرة وحياة رأسى، لا". " إذا كذبت مرة أخرى، سألقى بك فى البئر". "لكن هذا منذ مدة، فما لك تذكر لى هذه الجريمة الآن. . . ".

زادت حلكة الظلام وانتشرت النجوم فى السماء بلا عدد. وصرَّ صرصار بين أكمات الورد البرى. سار سليمان بطول المضيق الى الأشجار على سفح الهضبة، عبر فتحة فى المضيق. ها أنا أقف بقدماى فوق أرضى. كلها أشواك وشجيرات صغيرة؛ كان الذرة هنا ذهباً. ممتازاً. ذهب ليتأكد من أنهم مدوا الحدود الى الحقل. حجر واحد، وبعد عشر خطوات حجر آخر. قاس ثلاث عشرة الى الأشجار، كل شيء كما كان. لا زال ركام الأحجار موجوداً حول الأشجار. تحسس سطح الأرض ليعثر على الإبريق الذى تركه فى الحقل فى ذاك اليوم. إنه غير موجود. لم يجد سوى قليل من قشر الحنطة مبعثراً من النمل الهارب، وبعضاً من كور الطين، وبلورات مكورة. ربما بقيت بعض الزراعات، سمسم مثلاً، لا. لقد حمله النمل. سار داخل أرضه وخشخشت تحت أقدامه شجيرة قديمة جافة. تذكر آخر حصاد، والدياسة. سأذهب الى منزلى أولاً أتفحصه، قد يكون خالياً، لعلهم تركوا هناك الوسادة، والموقد فآخذهما، ثم أذهب الى مخزن حبوب عارف وأعثر هناك على عملات الفضة والنقود فى الربطة، أضعها فى الجراب. أشترى زيتاً وربما أيضاً هلالية ذهبية لأمينه. كان هذا الدرب ممتداً بين الأشجار، صاعداً الى البيت، وعلى جانبيه صفوف من الورد البلدى. سأضطر الى إحراق هذا كله، حينما أعود، وأفلح الحقل ثانية، وقبل هطول المطر أحرث المقياس على البئر وبعد ذلك أفلح الأرض عدة مرات، أربع مرات. إنها أرض ممتازة. تناول حفنة من الطين وفركها بين أصابعه، وتسللت ذراتها الى أسفل. إنها أرض ممتازة. جافة، صلبة. لعق يده ثم واصل طريقه فى مرتقى الهضبة. تشعبت وبسقت شجرة اللوز على جانب الدرب، ووجد تحتها نفس العلبة الصدئة التى استخدمها فى كيل الماء. ركلها بقدمه واندهش من صوتها المكتوم. أرهف السمع، لا صوت، هنا طريق الحمار الى الإصطبل. والروث الذى تلاشت رائحته. كم لدىَّ من الوقت حتى الهزيع الثالث؟ والآثار!. سيكتشفون آثارى فى الصباح. لكننى سأكون آنذاك فى الجبال ويبقون هم مخدوعين.

توقف سليمان أمام سور فنائه اللبِن المترب. وقف يرهف السمع. لا يوجد همس. الهمس بعيد فقط، من قمة الهضبة، سمع صوتاً ينادى بنبرة غريبة، لا يوجد يهود كثيرون فى هذا المكان. ومع ذلك قد يكون البيت خالياً. نزل على أربع، وزحف خلسة حتى السور. وجده كاملاً وفى قمته كسر. نهض ووقف منتصباً، إنحنى اليه والتصق به. زكمت أنفه رائحة قمامته، قمامة فنائه. إنه فنائى. القى عليه نظرة متفحصة. كان البيت مظلماً ونافذته مفتوحة. الفرن كامل، خاو،

وصامت. لاحظ أنهم هدموا المخزن. لقد كان هنا. كانت الخردة ملقاة بين البيت والسور. رأى صندوقاً غريباً لا يعرفه. لا يوجد أحد بالبيت. جال السور كله والخوخة بعينيه. كل شيء كما كان. كما لو كان هو وأسرته فى المكان ولم يحدث شيء. كل شيء فى مكانه. حتى كوم القمامة مشدود الى الحائط. فكر فى أن ينقب فيه ويأخذ ما تصل اليه يداه. كانت النساء تنتحب فى الليل والرضيع يصرخ، لم يكن ممكناً إسكاته. خبزت أمينه هنا آخر مرة وتصاعد الدخان من الجرن. لم أترك لهم الأذرة الذى فى المخزن. وجد دلواً على فوهة البئر. آه، الدلو. حك الحائط بجسده واشرأب حتى نافذة الإسطبل، إنه خالى. وضع قدمه على الحافة وقفز الى الداخل.

لا زال المربط الخشبى هناك فى الركن، تفوح من داخله رائحة تبن عفن. وضع يده داخل التبن، مده الى فمه، إنه عفن. زحفت فوق ذراعه من تحت الكم بعض الديدان الصغيرة. لا زال الروث على الأرض الطينية. إستنشق رائحته فى داخله. رائحة كل السنوات التى مضت. والحمار. لقد طاردته آنذاك حتى راس زعير، الى أن جن الليل، حتى فى الليل. وكذلك مصطفى. لكنا لم نستطع الإمساك به. كان ينهق ويتسلق الجبال ويهرول بين الأشجار. لكنا لم نعثر عليه، وعدنا أدراجنا فى الظلام، فصرخت أمينه: وى، وى، ضاع الحمار، ضاع الحمار". "إسكت ياحرمه، إسكت". "ماذا جرى؟ إسكت. إذهبى أوقدى ناراً ولا تصرخى هكذا". وفى الصباح رأينا هذا الحمار اللئيم يلعق فى الفناء. غاص بجوار المعلف داخل كوم من التبن، وبقايا ممزقة من خرطوم الرش الجلدى. جذبه من داخل حلقته، وقد ارتسمت على الأرض بعض الخدوش. هذا هو اللجام. حاول قطعه فانشق فى يده كالورق. إنه رطب وعفن. قذف بقاياه وراء الشبكة. روث. لمع في الركن بياض معدن يتلألأ. إنه قعر صفيحة معيب ومقوس. وهذه أيضاً اشتريتها للطفل حينما كان عمره عام واحد. يد تالفة، لا يمكن صنع شيء منها.

ذاك العجوز المجنون كان يجلس هناك فى الركن ساعات طويلة الى أن ندعوه الى الطعام. يعود بعد ذلك يومياً وفى كل يوم جمعه وحتى فى السبت، كان يحب الإصطبل. كيف استطعنا أن نفعل ذلك! لم يكن فى رأسه عقل. لقد ظل هنا. هذا المجنون لم يشأ الذهاب معنا، مات. مؤكد أنه مات. مؤكد أن اليهود قتلوه، لقد رغب فى ذلك. لا عليَّ ولا على رأسى.

بقى فى الهواء بعضاً من رائحة شعر وجلد الحمار. سرت موجة صمت ساخنة بين المعدة والرأس. سيقف هنا بجوار المربط ولا يصنع شراً، سيقف بين حرارة الروث والتبن العفن، وسيتدفأ. حتى فى الليل. وفى الشتاء، لن تكون هناك رياح. ربما يأخذ غفوة بعد الظهر، وطوال الليل. وعلى مقربة من هنا يوجد التين والرمان والزيتون والماء. وربما يقدمون لى أيضاً الذرة وربما أيضاً قليل من الطحين.

سيقبضون عليك الآن، سأتوسل اليهم. أبكى، يا أدون، يا أدون، ماذا يضيرك من وجودى هنا؟ باسم الله، إله إبراهيم. الأحد، واله إسحق وإسماعيل وكل الناس الطيبين. إله موسى نبينا. أنت مؤمن مثلى، يا أدون، وأنت شخص طيب، وكذلك كل اليهود طيبون، خير إسرائيل، وحياة شيخوختى، حسناً، حسناً، حسناً أنهم أتوا الى هنا. نحن العرب، زباله. إننا لا نساوى

حتى بعرالجمل ولا حتى روث الحمار. ليمحو الله ذكر وإسم الفيلق العربى والقاوقجى والملك وهذا، ما إسمه، لقد نسيته، ذاك الذى من سوريا وذاك الذى من لبنان. ويمحو الله أيضاً إسم المفتى يحجمه الله، المفتى الذى جلب علينا كل هذه المشاكل. المهم أتركني هنا. بيتك وحقلك والأشجار وكل شيء أعطيها لك جميعا ولا أتفوه بكلمة واحدة. وكأنك ولدت هنا فى هذا البيت ولم تحضرمن المانيا، كأنك تملك هذا الحمار والمحراث، وهذا البئر والحديد الذى وجدته فى الطريق الى عطفيه. أبكى هكذا مثل الطفل، ربما يكون لدى هذا الرجل قلب. أبقى أنا هنا وأمر هنا وهنا، كل ما يقولون لى، وبعد ذلك بيوم واحد ربما أذهب الى الناصرة، من يدرى.

سمع صوت دحرجة حجر ووقع خطوات من الفناء. خاف سليمان والتصق بالحائط. قلص عينيه واخترق الظلام بين سقيفة الإسطبل والبيت. يمكننى أن أنقض عليه من الخلف، أقتله وأهرب عبر البيارة ومن ثم الى الجبال ولا يلقون القبض عليَّ. نظر الى ركبتيه بقلب يخفق. أضيئت النافذة فجأة بلهب ثقاب إنها الحجرة! سمع سليمان دقات قلبه. ولم يتعرف على حجرتة لبرهة. كان يوجد سرير حديدى كبير فى جانب الحائط الأيمن . . .إنطفأ النور وبعد ذلك أشعل ثانية ورأى إمرأة شابة تشعل مصباح غاز فوق مائدة مغطاة بمفرش. إنها حجرته. لقد اقتحموها. سرقوها بلا ثمن. الوتد الحديدى مغروس كما كان دائماً داخل أحجار الحائط. بالضبط فى الأمام، والأحجار المطلية الموجودة فى زاوية السقف والعوارض السميكة فى أعلى. الخشب المتعفن. لقد فكرت فى استبداله بآخر، وتلك الطبقة الرقيقة فى الحائط الأيمن مع الرف فى داخلها. وهناك هذه المرأة الغريبة. . . . . .أمها! سيقفز قفزة واحدة عبر النافذة ويذبح رقبتها بهذه المطواة ويقطع ثديها ويبقر بطنها من أسفل الى أعلى، هكذا وهكذا. وليصعد صراخها الى السماء. لن أرحمها. وينساب الدم منها كالغدير الدافىء على وجه الأرض. أرقبه باستمتاع. ويتمرغ جسدها فيه، يدوس عليه. وبعد ذلك يحطم هذه الزجاجة فى الحائط ويأخذ الفتيل المشتعل، يلقيه على فستانها ويشعل البطانية على الفراش، وتضرم النار لهيبها وتلامس الحوائط وتخرج الى الخارج، الى الأشواك، ومن فناء الى فناء، من بيت الى آخر، وكل القرية، كل شيء. يشب حريق أشواك هائل، ويصل الى الجبال البعيدة، إبتهالاً للرب.

خرجت المرأة من الحجرة ودخلت بعد لحظة تحمل فى يدها دلواً. إنحنت الى صندوق خشبى موضوع فى الركن وأخرجت من داخله قدراً وحملت فنجاناً، صبت فى داخله ماء من الدلو. شعر سليمان بالجفاف فى حلقه. لقد أدرك الآن فقط أنهم سوّوا الحفر فى الأرضية وطلوها بالأسمنت. هناك حيث يوجد هذا الصندوق كانت قد وضعت حاشيتهم وعلى الجانب الثانى، حيث مكان مصطفى الرضيع، كان يترك لهم هذا الفراش ومصباح الغاز، المائدة. كان الفراش مغطى بملاءات بيضاء وبطانية صوف خفيفة مفروشة فوقها الى المنتصف. إذا خرجت المرأة مرة أخرى يمكنه أن يقفز من النافذة ويخطف البطانية عبر النافذة. بينه وبين النافذة عشر خطوات أو إثنى عشر. وبعد ذلك يصيح بعصا طويلة. أين العصا؟ ثم يلوذ بالهرب. وحينما تدخل ثانية، يكون قد اختفى. تاق فجأة لرؤية ما إذا كانت الوسادة موجودة أم لا. كانت موضوعة تحت النافذة

حينما غادروا البيت. فى ذاك الصباح جمعونا كقطيع الغنم وتركتها. قلت لمصطفى: " إجرى أحضرها، تمكن منها " . وهذا الفاسق عبد العزيز، لم يعطه. كان يكرهنى. منذ ذلك اليوم الذى لم أبعه فيه البيض. البيض أمامه، كما هو الآن، يراه بكلتا عينيه، يرى أنه يأكل التراب فى أريحا أو أين، الشيطان وحده يعرف. وهذا هو بيته الكبير، هناك، يقيم فيه اليهود. وأيضاً بستانهم. سيتعفن فى فترة، الشيطان يعرف أين. تتوالى الشرور والله يكافىء المخطئين فى حقه. أين وسادتى، أين هى؟ .

خرج من السقيفة على أطراف أصابعه وتجاوز انعكاس الضوء فى الفناء، على مسافة ما من النافذة توجد شجرة تين، وجد أيضاً تحت أقدامه نفس الحجر الكبير. طفت الى ذاكرته آلاف الصور للفناء ورائحة الخبز. كمن وراء جذع شجرة وظهرت أمامه بكل أبعادها. الفراش الكبير وشيء يشبه الخزانة وموقد غاز. لقد وضعوا باباً جديداً. إنهم يفكرون فى البقاء هنا. وإلا لماذا وضعوا باباً جديداً. ليتنى أحطم هذا الباب والقى به على رأسها. خشب أبيض، مسحوج، جديد. كما فى منازلهم، باب جديد فى بيتى. ياعاهرة، يايهودية ياعاهرة، بيت عاهرات. من أمك الداعرة وأم أمك التى رفعت فستانها فى كل الشوارع. لقد دخلت بيتى الذى ولدت فيه أنا وأبى وجدى وفيه أكلنا ونمنا. وهنا قامت أم أولادى كل يوم، تطحن القمح، وهنا تبول أولادى، وهنا لعبوا وهنا صاحوا وهنا نمت. وأنت تضعين باباً جديداً. باب جديد فى بيتى الذى أملكه . . .

كشفت المرأة القدر فوق الموقد وسكبت بداخله ملعقة جريش ووقفت تحرك الخليط.

الوسادة غير موجودة. لقد أخذوها. ربما وضعوها هناك بدلاً من حشيتهم في ذاك الفراش؟. إشرأب سليمان برقبته الى الجانب ونظر جيداً. من المؤكد أنهم ألقوا بها فى مكان ما. إنها وسادة ممتازة، مصنوعة من الريش. لديهم هذه البطانية، لذا فقد ألقوا ببطانيتى. نظر الى المرأة الشابة. إنها وحدها فى الحجرة. يمكننى إغتصابها، هذه المرأة اليهودية. أدور هنا على هذا الفراش، وببطء، عبر الباب، أمسك بها من الخلف وأسد فمها بمنديل وأطفء النور والقى بها على الفراش، أمزق فستانها القذر، وكل شيء. أغتصبها بقوة. وبعد ذلك أذبحها. يأتى زوجها حبيب قلبها وينادى، ياحبيبتى، يا قلبى، يا روحى، من الذى فعل بك هذا؟ لا ترد. لقد ماتت الى الأبد. مسكين، ياله من مسكين.

أدارت المرأة رأسها الى النافذة ونظرت خارجها. بدا أنها تنظر اليه مباشرة. لا خوف. لم ينزل ناظريه عنها، روحك تحت حذائى. إنها لم تر شيئاً. نظرة خاوية. لها عينان سوداوان وشعر قصير ورقبة عارية والساقين، ساقين بيضاوين. وتحت الفستان ركبتان بيضاويتان والسيقان، ومكمن الشعرالأسود. تماماً كما فى الصورة الموجودة عند الحلاق فى الناصرة. إرتعد سليمان واصطكت فرائصه. خزى الرجل خوفه. إنهض، تجاوز البيت، ومن الخوخة الى خارج السور، وعبر الباب الى الباب الجديد. ليس بابى. الباب يصر. فتصيح المرأة. ويتجمع رجالهم والشرطة. خزى الرجل، خوفه. إرتعد، بدت قدماه وقد تسمرتا فى مكانهما. رفضتا الحراك. خشخشة

فرع. ما هذا؟ وقعت ثمرة تين الى الأرض. لم يحدث شيء. لماذا لا تتحرك. لماذا لا تتحرك يا فلان، يا ابن الكلب سينقضون على رقبتى. يخنقوننى. من الخلف.

وضعت المرأة طبقاً على المائدة وأخرجت طماطم من الصوان وبدأت تقطعها. قطع مستديرة، حمراء، وسال منها سائل دموى الى الطبق. قد تلقى عبر النافذة آخر شريحة منها. يزحف عندها على أربع. لا تراه. يلتقطها الى فمه. تنساب فى فمه باردة، تمر عبر حجرات بطنه، يقطع حتى آخرها ويستخلص زيتاً وحبيبات فلفل أحمر ومسحوق بصل، ويبذر بذور النبات الشوكى والملح ومسحوق فلفل حولها ويحركها معاً ويقلب. مع فطيرة من الخبز الأبيض، يقضم منها ويغمسها ويستنشقها فى داخله. ويسيل كل لعاب هذا الفم الحاد جداً، يملأه ويقضم ويغمس ويستنشق فى داخله، يحرق أمعاءه جيداً ويقطع ويغمس فى القدر المبتل وعصير الطماطم والزيتون.

إنزعج فجأة، على يا ولدى، يا إبنى، ياروحى، يا على. إنطلقت عبر النافذة صرخة طفل متقطعة، ممزقة، يا على. . .آه، يالك من أهبل !. هرولت المرأة الى الحجرة الثانية. لديها أيضاً رضيع. يا أهبل، ظننت أنها لك. تمدد على فى المهد وثدى أمه جاف من اللبن. خرجت الصرخة من الحجرة، وتهاوت محطمة. يا إبن الشيطان. ظننته على، حيث حملته أمينه فى ذاك الصباح، واعتقدنا أنه مات. كان أبيضاً كالجبس، وعيونه مغلقة، لم يبك لمدة خمسة أيام. وما أن نزلوا من العربة .الحجاب هو الذى حفظه. هناك ولد على فوق الفراش بجوار القبو. كنت فى المعلف حينما جاءنى مصطفى يصيح: " إتبشر بالخير" ، هرولت والجارات الى الفناء" إجاك عريس، إجاك عريس" . رأس حمار، ظننت أن على هنا؟ تلاشت الصرخة وصمتت. عادت المرأة الى الحجرة وأنزلت القدر من فوق الموقد. إنه رضيعها. هناك، حيث كان يوجد مخزن الذره، كوم ذهبى كبير يلقى بين الأصابع كالذهب الإبريز. رضيعها هناك. هنا كانت أمينه تذرو القمح، وهنا كانت تنتحى لتنقية العدس وأنا أشرب قهوة جيدة. يأتينى عارف، أناوله النرجيلة ونتبادل أطراف الحديث عن أسعار السوق.

جثا سليمان على ركبتيه، ظهرت هيئة رجل بالباب. إنه زوجها. سمع حواراً متبادلاً بصوت خفيض. لا يخشون شيئاً. إنهم آمنون فى بيتهم. لقد ولد جدهم هنا. وحبلت أمهم على مصطبته. كان يجمع عصابة ويذهب على رأسها يغيرون على القريةويذبحون الجميع.

نهض قليلاً. الرجل يقف بجوار المائدة أمامه كسرات خبز. إنه قصير القامة، ضئيل البنية، ذو وجه طويل وعظام فكه بارزة وأنف طويل، بشع. يمكننى أن أجعل منه كوم عظام بيد واحدة. تهللت أسارير سليمان بضحكة احتقار، هل هذا هو سارق بيتى. هذا. إنه حتى لا يملك قوة للزواج. يمكننى أن أمزقه إرباً وأطهوه فى القدر. هذا المسكين لا حول له ولا قوة. يمكننى أن أدخل وأقول له، تفضل إبق هنا أنت وزوجتك ورضيعك. هنا، هناك فى سقيفة الأسطبل يوجد مكان جاف. يكفينا جميعاً. ولم لا ؟ لقد خلق الله الناس أخوة. وأحضر أمينه ومصطفى وعلى الى الحجرة، ننام هناك على الحشية. وأشترى وسادة جديدة من الناصرة، ومحراث أيضاً من شارع بوستول. هناك الحداد الذى أعرفه منذ زمن بعيد.

"مرحبا ياعمى، هل عدت؟ الحمد لله. عدنا لنحرث الحقل. لديك من أجلى دبوس ممتاز؟ ولم لا، يوجد ". إننى أزرع الذرة هناك فى قطعة أرض بجوار بيارة كمال الدين. وهناك أزرع بعضاً من التبغ خلف أرض الزيتون، فدانين تبغ وتسعة فدادين حلبه وحمص. وربما أزرع هنا بعضاً من الفلفل والباذنجان. أجلبه الى البيت ويمتلىء المخزن وكذلك مخزن الحبوب. سأصلح مخزن الحبوب بالطين والعصافة حتى لا ينهار. ويعيش اليهود معنا فى سقيفة الإسطبل. أربطه فى المحراث. يمكنه أن يجر مع الجمل. يجذب الجمل بسرعة فيهرول اليهودى. آه، آه، ويجرى. يبدو أن تلك المرأة صاحت فى حيفا. رأيناها آنذاك بجوار المستشفى. والجمل يجذب واليهودى يجذب. يهرول. إسحب أيها الكسول، شد، شد يحرم أبوك، شد. . .

يدخل، يلقى عليهم التحية بالعبرية، يتشمم للتأكد من وجود الأشياء التى خلفها وراءه وهو فى عجلة من أمره. "من أنت"؟ وينزعجون. " لا شيء، يارجال، مجرد أننى جئت، هل رأيتم هنا حشية صفراء بالية. أنتم لا تحتاجونها. " يالله، إذهب من هنا، إذهب". هكذا تصيح المرأة. " لا تخافي ياإمرأه، كل شيء يمكن أن يحدث تحت الشمس. إننى ما جئت إلا لأرى. وهناك يرقد رضيعها، على الحشي. ها هى، حشيتى.

وقع أقدام على الأرض الصخرية. إنكمش سليمان فى نفسه كالغندور والتصق بجذع الشجرة. أربعة أرجل. أصوات عالية. يجب الإبتعاد عن هنا. زحف وعبر عائداً الى سقيفة الإسطبل وربض على كوم الروث الجاف. فتح الباب، ودخل الحجرة رجلين يتحدثان بانفعال. شعرا بى. لا بد من الإبتعاد بسرعة. نقل نفسه الى النافذة، تلوى. قعر الصفيحة. إقفز الى الخارج قفزة واحدة. سيطاردوننى. سيطلقون عليّ النار. توقف واحتمى بحائط السور والسقيفة. لا صوت. نقيق ضفادع أسفل عند الغدير. طنين جراد يحلق. وكان يمكن سماع خشخشة خنفسة بين الأعشاب.

كنز عارف. تسلل بين الأحراش الجافة نحو المربط الأمامى المواجه له. وفى أسفل كانت توجد قمائن طوب عائلة طوقان ورائحة فول عفن تتصاعد منها. كانت الأحراش مهجورة فتسلل الى العطفة المتجهة الى أعلى. لا أحد على الإطلاق. لم يحتل اليهود المنازل الحجرية. ولا توجد أيضاً رائحة دخان، ولا حتى رائحة الغنم ولا الدجاج. نفقوا جميعاً. يمكن أن يدخل وينام هنا فى أيكة زيجزيل ولا يعرف أى منهم. فجأة رأى حجر رحى بجوار خوخة أحمد نايف. كان يمكن أن يأخذها. ليس بالضرورة. تجاوزه مكرساً خطواته فى تراب الخربة وكأنه يسير فى قمع صافى. فتحت ثغرات كثيرة فى الأسوار الطينية على جانبى الزقاق، وأكواخ منهارة. وحوائط متصدعة، وكتل متشققة من الأحجار واللبن.

دخل الى حوش عارف. الأيكة سليمة، والتعريشة على سطحها كالتاج. كوم من النجيل المتعفن فى الوسط. بقايا جص متهشمة وأدوات مبعثرة على الأرض المتصدعة. تقدم بخطى مرتعدة من جدار السور. التابون من ناحية والمعلف من ناحية أخرى، وفى الوسط، مخزن الحبوب مفتوح. نظر حوله. إطمأن. وضع الصرة الكبيرة وفى وسطها عملات الشلن والعشرة قروش.

نقود، نقود. سيشترى حمص وزيتون ودقيق أبيض؛ وزيت وحشية جديد. صعد فوق القبة وانزلق الى الداخل. عفونة خانقة. خيوط عنكبوت، وانتشر بيض الصراصير على الأرضية. إنتابه الخوف. تحسس الأرض الرطبة براحة يده، نقر بأصابعه حوله. هس. أصوات رجال يهرولون. إنتصب واقفاً فاصطدم رأسه بالقبو. طرق مكتوم. إنهم يقتربون. ظهر البئر أمامه وقد اختفت قمته. سيغلقون الفتحة عليَّ وسيكون هذا قبرى. شعر بالحشرات تسير على كل جسده. تمنى أن يزيحها عنه برجفة من أعضائه لكنه لم يستطع الحركة. نام، نام يا إبن العاهرة، لن يجدوك، سيمرون فوق الفناء، لن يجدوك. صيحات بنبرة غريبة. أنام، سيعثرون عليَّ فى الصباح. داس على شيء لين. عقرب! قفز الى قدمه الأخرى وخبط فى كتفه ونزل الى كاحله. لا إنه تين مجفف. هاهم يقتربون. سأقول إنني بقيت فى القرية منذ ذاك الوقت، لم أشأ الإنضمام الى العصابات. يالك من مجنون، سيذبحونك. أتوسل اليهم. لن يستمعوا لك. سأبكى من أجل زوجتى وأطفالى. ياالله، يا الله، إرحم إبنك. إرحمه يا الله. تسلق واجرى بما لديك من قوة. ستصل الى المخيم قبل حلول الصباح. العقارب حولك. ثعبان يقتفى أثرك. فجأة ظهرت النجوم أمامه متلألئة فوق المخزن. قام على قدميه وأمسك بحواف القبة. كان المدخل ضيقاً ولم يستطع الصعود الى أعلى. سرت الحرارة داخله. إنه فخ. لا مجال للهرب. لقد أوقع بى أعدائى كما يوقعون بفأر. أنقذنى، انقذنى، إنهم يقتربون. إنحنى يبحث عن حجر يقف عليه. علّه يجد أيضاً القدر الذى به الكنز ووزنات الفضة تصلصل فيه. لا، لا شيء. حاول مرة أخرى، سند قدميه على حافة فى حائط البئر وأمسك بيديه شقفة الفخار وظل معلقاً كالفراشة بلا ممسك حتى أخرج نفسه بقوة وصعد ثانية الى أعلى. الله الرحمن الرحيم ينقذ مخلوقاته من بئر الموت.

إقترب من السور وسمع صيحات مرة أخرى. صرخ وقفز الى السور اللبن فجرحته جزازة زجاج، وسقط، تعثر، ثم جرى الى أسفل فى سفح الهضبة، تتطاير كتل الطين والصخر من قدميه، تعثر فى حقل محروث، قام وجرى واجتاز أرض صلاح إبراهيم المزروعة بالعدس وعبر حقله، وجده مليئاً بالأحجار والشوك، ومر على الأشجار ووصل الى حاجز الصبار، هبط منهكا، مريضاً كالبهيمة فوق ركام من الأحجار.

بدت القرية الآن من أعلى ككتلة صماء صامتة، وكان يمكنه أن يسمع خرير الغدير داخل البيارات، فى المكان الذى كانت تتجمع فيه النساء بجرارهن. ووجد الأشواك عالقة بعباءته من حقل العدس اليانع، وكان يصعد من الأرض شذى أحجار محترقة ورماد وجفاف وكان فى مقدوره أيضاً أن يرى نافذة منزله وقد اصفر لونها فى ضوء مصباح الغاز.

(١٩٤٩)

***

بنيامين تموز

منافسة سباحه

- أ -

ذات يوم قائظ منذ سنوات بعيدة، جلست فى مطبخ منزلنا أحملق عبر النافذة. وبينما كانت عيناى تجولان فى الخارج وقد اتكأت بمرفقى على مشمع الطاولة، شعرت بالبرد يتسرب الى قدمى الحافيتين عبر بلاط الأرضية المربع الأحمر. وساد الغرفة صمت ما بعد الظهر. وشعرت فى قلبى بهدوء حالم.

تعالى فجأة من آخر الشارع صوت دبيب حوافر الخيل التى تجر عربة حنطور سوداء، من تلك التى كانت تجوب الشوارع قبل أن تكثر عندنا السيارات، والتى كنا نستأجرها الى محطة القطار فى يافا، ونستقلها الى القدس، لنزور جدتنا فى أيام الفصح.

إقتربت الخيول وتوقفت عند مدخل بيتنا، ونزل الحوذى وأخذ يقرع الباب. هرعت لأفتح له وقد ملأت المطبخ رائحة الرطوبة، ورائحة الخيول ورائحة المسافات البعيدة، وإذا بمنكبى الحوذى يحجبان الضوء ولم يدعا القيظ يتسرب الى الداخل.

سلمني رسالة. تفحصتها وإذا بها مكتوبة بالفرنسية فلم أستطع قراءتها. جاءت أمى وأخذت الرسالة، فانفرجت أساريرها ودعت الحوذى للدخول ووضعت أمامه شريحة بطيخ باردة وفطيرة طازجة. أسند العربى سوطه الى الحائط وشكر أمى، ثم جلس الى المائده يقضم البطيخ. كان صوت شفتيه يملأ فضاء الغرفة.

قالت أمى إن الرسالة من العجوز العربية المقيمة فى البيارة، وكتبت تخبرنا بشفائها وأنها لم تعد تتألم، وأن شفاءها كان على يد أمى، وهى تقبل يدها من بعيد. كما كتبت أيضاً تقول إننا الآن فى الصيف وأنها سمعت عن اقتراب أعيادنا. ومن المؤكد أن أمى ستجد لديها بعض الوقت تفرغ فيه من مرضاها. ويمكن أن تأتى مع إبنها لقضاء الإجازة فى بيت البيارة.

عندما غادرنا البيت وركبنا العربة، كانت الشمس قد بدأت تلامس صفحة الماء. طوى الحوذى السقف الجلدى المستدير، وغصنا أنا وأمى فى المقعد الوثير. وسرعان ما ملأنى إحساس بالمسافة والرحيل. تسلق العربى الى مقعده، وأطلق صافرة للخيل، ورفع سوطه فى الهواء. إهتزت يايات العربة وغاصت المقاعد من تحتنا، ثم عاودت الإرتفاع من جديد كأمواج البحر. وشق الهواء صهيل الوداع والتحية. أخذت العربة تجر عجلاتها. سارت بنا الهوينا فى الشارع الوعر المليء بالمطبات والحفر، تنشد لحناً جميلاً يبعث على البهجة والسرور.

لم يمض وقت طويل حتى مررنا بمسجد حسن بك، ودخلنا فى حوارى المنشية، لتستقبلنا روائح الطعام وأمواج من الزعتر وشواء الخراف، والباذنجان المقلى والسلطة بالنعناع. وأخذ صوت الحوذى يحذر ذات اليمين وذات اليسار، حاثاً الباعة الجوالين على إفساح الطريق. ويعنف الصغار الجاثمين فى نهر الطريق. وكانت الخيول تهز أردافها البنية اللامعة، وتضرب بحوافرها فى إيقاع مرح. رفع الحصان الأيمن ذيله وأخرج روثه وهو يركض. هنا استدار الحوذى إلينا وألقى بابتسامة اعتذار من فوق مقعده المرتفع وقال إن الخيول لا تستحى، فهى غير مهذبة. واستماحنا عذراً.

إستمتعنا فوق المقعد بالإهتزازات الى أن غادرنا المدينة وبدأت الخيل تجذب العربة ببطء، فى طريق رملية حمراء، بين سياجات الصبار وأسوار أشجار الأكاسيا. وتعالت من الرمال أمواج الحر لترافقنا على المقعد الوثير البارد. وبدت الشمس تلامس صفحة الماء، وعلت حمرة متوهجة خلف البيارات. وغلفتنا ظلمة باردة. ثم توقفت الخيل فجأة وبالت معاً على الرمال.

تحركت العربة مرة أخرى. وارتجفت الخيل، وظهر تحت حوافرها شريط ضيق من الأرض المعبدة بالحصى، وعلى جانبيه صف من أشجار السرو. فى تلك اللحظة ظهرت أمامنا قنطرة حجرية مطلية بالمصيص وبها بوابة خشبية كبيرة مغلقة، تتوسطها خوخة صغيرة، وقفت بجانبها فتاة فى مثل سنى، ترتدى ثوباً ابيضاً وشريطاً وردياً معقوداً على شعرها. وما أن اقتربت العربة من البوابة حتى هرولت الطفلة الى الداخل. وقال الحوذى: لقد وصلنا.

*

لا توجد أفنية كهذه فى أيامنا الآن. وإذا حدث ووجدت نفسك فى مكان له فناء كهذا، فإنك تجد فيه أنقاض مبانى أتت عليها الحرب، وأكوام من الأحجار والعوارض الخشبية، وخيوط العنكبوت التى تجتهد لتضفى الإحساس بالقدم على أشياء كانت تنبض بالحياة حتى الأمس القريب.

لكن هذا الفناء كان فى تلك الأيام نابضاً بالحياة، محاطاً من جهاته الثلاث بمبنى ذو طابقين. توجد فى أسفل الزرائب والحظائر، وتتجول فى الفناء دواجن سوداء وحمراء، تتداخل قرقراتها مع صهيل الخيل. وفى الطابق الثانى توجد غرفة المحرك، التى يخرج منها أنبوب يصب مياهه فى حمام السباحة المجاور للغرفة. وتقترب من الأنبوب أسماكاً ذهبية تخوض داخل فقاعات الهواء المتصاعدة عند مصب المياه. وتطل على الحمام شرفة طويلة يكللها حاجز خشبى، يجعلها فى ظل دائم. وكانوا يستخدمون هذه الشرفة فى الدخول عبر بابها الزجاجى الملون الى غرفة الضيوف التى تفضي أبوابها الى غرف المعيشة والمطبخ والمخازن.

تتوسط الغرفة مائدة طويلة، تحيط بها مقاعد منجدة، ويغطيها قماش أبيض لوقايتها من الأتربة. لكنه رفع عنها ونُحّي جانباً يوم وصولنا. إمتلأت الغرفة بأصص فخارية تزينها أوراق السوسن والزنبق الصناعية، وبعضها لا مثيل له فى الزهور الطبيعية. ويرجع أحد هذه الأصص الى يوم زفاف العجوز صاحبة البيت، وقد ظهرت عليه آثار الزمن فقد تلاشت ألوانه وبهتت.

وظهرت على الجدران صور لأشخاص يضعون الطربوش، ويتقلدون السيوف، وكلها داخل

أطر خشبية مذهبة. قادت العجوز أمى الى إحدى الصور وقالت لها" هذا هو زوجى، جعل الله مثواه الجنة. وقد ورث هذا البيت عن أبيه، ونحن نقيم فيه فى الصيف،ثم نعود الى يافا فى الشتاء".

تنهدت أمى قائلة: "زوجى أيضاً متوفى. لكن منزله ومنزل والده ليس هنا. لقد تركنا كل شيء خارج البلاد، وأنا أقيم فى منزل مستأجر، صيفاً وشتاءاً".

قالت العجوز: "أنتم حديثو العهد هنا، مهاجرون. لكن، إن شاء الله ستوفقون وتشيدون منازل خاصة بكم. أنتم مجتهدون وأياديكم مباركة".

فهمت أمى التلميح، وشكرتها بنظرة معبرة، لكنى قلت فى تلك اللحظة: "لكنى لا أعتقد أننا نطرد العرب، نحن نسعى الى السلام وليس الحرب".

وضعت العجوز يدها على رأسى وقالت: "كل شيء بيد الإنسان. من يسعى الى السلام يعيش فى سلام".

فى تلك اللحظة ظهرت الفتاة الصغيرة بباب الغرفة من جديد.

*

قالت العجوز: "تقدمى يا نهيده. قبلى يد حكيمتنا التى عالجت جدتك، وهذا هو ابنها الفتى".

إبتعدت نهيده عن الباب بضع خطوات، ووقفت أمام أمى. فاحتضنتها أمى وقبلت وجنتها، فاكتسى وجه الفتاة بحمرة الخجل، واكتفت بايماءة من رأسها.

قالت العجوز: "نهيدتنا خجول، لكنها طيبة القلب".

رفعت نهيدة أطراف ثوبها الأبيض وجلست على المقعد. فجلسنا جميعاً، وكأنه سمح لنا بذلك بعد أن جلس أكثرنا احتراماً.

تحدثت العجوز بالفرنسية فضحكت أمى. ومرة أخرى اكتست وجنتى نهيدة بحمرة الخجل. لاحظت أنها تختلس النظر الىَّ لتتأكد من فهمى للفرنسية. قلت لها:

- "لا أفهم شيئاً، ففيم تتحدثان؟".

"جدتى تقول أننى وأنت يمكن أن نتزوج".

قلت لها ووجهى الى أسفل: "هراء".

قالت العجوز: "إذهبا لتلعبا. لن نضايقكما".

قمت وخرجت فى أثر نهيدة الى الشرفة. جلسنا على حافة الحمام. سألتها:

"أتؤمنين بالله؟. أنا شخصياً لا أومن به".

- "أنا أومن. ويوجد فى البيارة مكان أصلى فيه، وإذا صرنا أصدقاء سآخذك الى هناك لأعلمك أن هناك اله".

- "وهل تصومين شهر رمضان؟ أنا شخصياً آكل حتى فى يوم الغفران".

- "أنا لا أصوم لأننى صغيرة. وأنت، هل تستريح يوم السبت؟.

- "هذا مرتبط بالظروف. إذا لم يكن لديَّ ما أفعله، أستريح. لكن ليس لأن هناك إله ولكن لمجرد الراحة.
- "لكنى أحب الله".
- "إذن من المؤكد أننا لا يمكن أن نصير زوجين، إلا إذا تراجعت عن إيمانك".
همّت نهيدة بالرد، لكنا سمعنا فى تلك اللحظة صوت خوخة الباب وهى تفتح، وظهر فى الفناء رجلان. قفزت نهيدة مهرولة نحوهما. فتحت ذراعيها نحو رقبة ذاك الذى يضع طربوشاً ويرتدى زياً أوربياً. وهتفت:
«بابا، لدينا ضيوف".
- "أعرف، لقد جاءت الحكيمة".
قمت عن مكانى وانتظرت أن يصعدا الى الحمام. كان الرجل الثانى شاباً يبدو فى الثامنة عشر من عمره، يضع كوفية وعقالاً. وهو عم نهيدة. تقدم منى ومد يده ليهنئني بسلامة الوصول. أما والد نهيدة فقد داعب وجنتى وجذبنى وراءه الى داخل البيت.
أعد طعام العشاء فى الشرفة. وقدمت البطاطس المقلية فى أطباق كبيرة، إضافة الى شرائح الباذنجان المغموسة فى عصير الطماطم ومكعبات من الجبن الأبيض المملح. وفى طبق آخر رمان وقطع صغيرة من البطيخ. وتوسط المائدة كوم من الخبز الساخن.
سألنى عبد الكريم، عم نهيدة، عما إذا كنت عضوا فى "الهجاناه". أجبته بأن هذا سر.
ضحك قائلاً: " إن هذا السر مكشوف ومعروف فى البلاد كلها".
قال والد نهيدة: "عبد الكريم يدرس فى كلية المفتى، وهو دائما يخشى الهجاناه".
تجهم وجه عبد الكريم والتزم الصمت. لكن العجوز، أمه، وضعت يدها على راحة يده وقالت: "إبنى عبد الكريم شاب طيب ومخلص، لا تغضبوه".
قبّل عبد الكريم يد أمه ولم يرد.
فى تلك اللحظة ظهر فى الشرفة كلب حراسة كث الشعر ودفع بنفسه تحت المائده، وأخذ يتخبط بين الأقدام باحثاً لنفسه عن مكان يجثم فيه، الى أن كف عن الدوران ووضع رأسه على قدمى نهيدة وأخذ يلعقهما، بينما أخذ ذنبه يهتز ويدغدغنى فى قدمى. إبتسمت. ونظرت الى نهيدة لأوضح لها سبب ابتسامى، لكننى لاحظت أنها فهمت ابتسامتى على أننى أتودد لها، فلذت بالصمت.
بعد وجبة العشاء قال والد نهيدة لأخيه: إذهب وأطلع الأولاد على ما جلبته لهما من المدينة.
قام عبد الكريم وأشار لنا أن نتبعه. دخل الى مخزن البيارة وأخرج منه بندقية صيد جديدة.
قال عبد الكريم: "سنخرج غدا لصيد الأرانب. أتعرف الرماية؟
قلت له: " تقريباً. نتبارى غداً فى التصويب إذا شئت".
قالت نهيدة: " فى الأسبوع الماضى أجرينا هنا مسابقة سباحة فى الحمام، وتفوق عمى على الجميع".

قلت له: " إذا شئت نتبارى أيضاً فى السباحة " .
-" أهلاً وسهلاً. غدا صباحاً. والآن هيا بنا نعود الى المنزل لنستمع الى بعض الأغانى. لدينا حاكى " .

عدنا أدراجنا الى البيت. وضع عبد الكريم أسطوانة وأدار يد الحاكى ووجّه الإبرة. علا صوت الكمان مصحوباً برِق ودف، ثم انساب غناء عربى عذب، حزين، أخذ يعلو ويهبط بسلاسة. إسترخى عبد الكريم فى مقعده وانفرجت أساريره. وما أن انتهت الإسطوانة حتى وضع أخرى مكانها، لكن بدا لى أنها نفس الأغنية التى استمعنا اليها لتونا. وهكذا تكررت العملية عدة مرات الى أن انتابنى الملل وهربت الى غرفة أخرى، ووجدت بها أمى والعجوز تتبادلان أطراف الحديث. وسرعان ما شعرت بالملل ثانية، فقمت الى الشرفة، نظرت الى الحمام والبيارة خلفه. ظهر القمر بدراً وراء الأشجار، وعلت من الحمام لمسة برودة. سمعت صوت الكروان، لكنه تلاشى حينما توقف صوت الحاكى. تثاءبت وأخذت أفكر بيأس فى أصدقائى فى الحى، الذين انهمكوا فى تلك اللحظة فى شى البطاطس على شعلة تحت عمود نور، ويجمعون الأخشاب من مخزن مصنع النقانق القريب. قلت فى نفسى: «لماذا جئت الى هنا».

*

إبتكرت نهيدة طريقة غريبة لإيقاظى فى الصباح. كان لديهم فى البيت قط كسول وثمين، فأتت به وألقته على وجهى وأنا أغط فى النوم. قفزت عن الفراش. أمسكت به وقذفته فى وجهها. وهكذا بدأنا يومنا الثانى فى البيارة. وبينما كنت منهمكاً فى تنظيف أسنانى، دخل عبد الكريم الى المطبخ وقال:-«ماذا عن مسابقة السباحة فى الحمام؟».

-" أنا مستعد" .

إلتهمنا طعامنا بسرعة وأخذنا ملابس الحمام وخرجنا. سحبت أمى والعجوز ووالد نهيدة المقاعد الى حافة الحمام ودعوا أنفسهم لمشاهدة السباق.

هتفت نهيدة: واحد، إثنين، ثلاثة. قفزنا معاً الى الماء. لا أدرى أهو الإنفعال أم عدم الإعتياد على السباحة فى المياه العذبة هو الذى جعلنى أغوص كالصخرة الى قاع الحمام، وما أن تمالكت نفسى وطفوت ثانية الى أعلى، حتى كان عبد الكريم عند نهاية الحمام. رأيت أمى متكئة عند الحافة وأخذت تصيح بى: هيا، لا تخف، إسبح بسرعة. وبدأت السباحة، لكن عبثا، فقبل أن أصل الى تحت الأنبوب الخارج من المحرك كان عبد الكريم قد وصل الى الجانب الآخر عند حافة الحمام وأخذ يعصر شعره.

قلت له: «لقد هزمتنى فى الحمام،لكن يمكن أن نتبارى فى أى شىء آخر إذا شئت».

سأل عبد الكريم: «فيم؟».

-" فى الحساب، مثلاً " .

- " ولم لا " . وأمر نهيدة بإحضار ورقة وقلم.

أحضرت نهيدة ما طلبه. تناولت الورقة وقطعتها، وكتبت على كل قطعة سبعة ملايين

وتسعماية وأربعة وثمانون ألفاً وستماية وسبعة وتسعون * أربعة ملايين وتسعماية وستة وثمانون ألفاً وسبعماية وتسعة وخمسون.

قلت: «لنر من يحلها أولاً».

أمسك عبد الكريم بالقلم وجلس يكتب، وبدأت أنا أيضاً. إنتهيت قبله وقدمت الورقة لوالد نهيدة ليتأكد من الإجابة. تبين أننى أخطأت. وقدم عبد الكريم ورقته وتبين أيضاً أنه أخطأ.

قلت لعبد الكريم: " إذن نتبارى فى موضوعات عامة، على سبيل المثال، من الذى اكتشف أمريكا؟ .

قال: " كولومبوس " .

- "غير صحيح. إكتشفها تحديداً أمريجو فاسوبيتشى وسميت بإسمه.

صاحت نهيدة فى عمها: " لقد هزمك. أليس كذلك؟ " .

قال عبد الكريم: " لقد هزمنى فى أمريكا وهزمته أنا فى الحمام" .

قلت له: " سيأتى يوم أكبر فيه وأهزمك أيضاً فى الحمام" .

هزت نهيدة رأسها بالموافقة، لكنها سرعان ما عادت لتثبت أنظارها فى عمها انتظاراً لإجابته.

قال: " إذا هزمتنى أيضا فى الحمام، سيكون الأمر سيئاً جداً، ولك أيضاً يا نهيدة. سيكون سيئاً لنا جميعاً».

لم ندرك ما يعنيه. وكم وددت أن أطلب منه ألا يتفلسف، لكنى لم أعرف كيف يقولون ذلك بالعربية، فآثرت الصمت.

خرجنا بعد ذلك لصيد الأرانب فى البيارة.

- ب -

مرت سنوات كثيرة. وعاد الصيف من جديد. بحثت لنفسى عن مكان أستريح فيه من عناء العمل، أقضى به أسبوعين. أعددت حقيبة صغيرة وسافرت الى القدس. لكنى لم أجد بها فندقاً به حجرة خالية. وبعد عناء وجدت نفسي أجلس فى سيارة متجهة الى عين كارم العربية. وراودتنى خلال الرحلة أسئلة كثيرة: ماذا أفعل هناك؟ ولماذا أسافر الى هذا المكان بالذات؟.

*

عند آخر الشارع قنطرة تمر تحتها مياه النبع، وأمامها، فوق الصخرة الشاهقة عند دير المسكوب، تنتشر جذوع شجر صغيرة. جلس الناس فوقها يحتسون القهوة ويدخنون النرجيلة. جلست على أحد المقاعد. تقدم منى نادل المقهى وسألنى عن طلبى، قلت له: هل تعرف هنا أسرة تقبل استضافتى لمدة أسبوعين. فقال الفتى: لا أعرف، ولكن ربما يعرف صاحب المقهى. جاء صاحب المقهى ليعرف مبتغاى: أسرة تقيم لديها، لماذا؟.

- "كى أستريح. فأنا منهك تماما وأبحث عن مكان أستجم فيه».

- " وكم تدفع؟ " .

- "كما تحب" .

أمر الرجل فتاه بالذهاب الى بيت فلان أبو نمر.

عاد الفتى بعد برهة ليقول: «إصعد، لقد وافق أبو نمر».

حملت حقيبتى وأخذت أشق طريقى فى مرتقى الجبل، وكلما صعدت، زادت دهشتى من نفسى. ما الذى دفعنى الى هنا بالذات؟. دخلت الفناء وطرقت باب البيت. خرج اليَّ عربى يبدو فى الخامسة والأربعين، طويل القامة، أصلع. قال: حمداً لله على سلامتك.. هيا أدخل. سرت خلفه فى ممر بارد، واقتادنى الى حجرة صغيرة، إبتلعها سرير عالٍ عريض.

قال أبو نمر: "إذا راقك المكان، فأهلاً بك".

- «حسناً. كم سعره؟».

- «لا أعرف. هذا ما ستخبرك به زوجتى». وخرج.

أفرغت محتويات حقيبتى وجلست على الفراش. وسرعان ما غصت فى مراتب وثيرة، قفزت لتصل الى مرفقى.

ساد حولى صمت مطبق إخترقته روائح متداخلة من زيت القلى وأوراق النعناع والقهوة العربية وماء الورد وحبات الهيل. شعرت بالإبتسامة تملأ وجهى. حاولت أذنى جاهدة أن تلتقط صوتاً يكمل لدى ذكريات بعيدة. فجأة فتح صنبور فى المطبخ، فكتمت أنفاسى لأسمع صوت الماء المتدفق. خلته أنبوبا يدفع بمياهه الى الحمام.

خرجت الى الفناء، فلم أجد حماما ولا حتى أشجار بيارة. لكن وجود أشجار الخوخ والتفاح كان من الأمور الغريبةوالفريدة فى بيوت العرب. ومن الطبيعى أن هذا الفناء لم ينشأ هكذا مرة واحدة، فكل جيل كان يضيف اليه. هذا غرس وذاك إقتلع. هذا شتل تفاحة بجوار الصنبور وذاك شتل توت بجوار عريشة العنب. وبمرور الوقت نشأت حديقة، لتحكى تاريخ أصحابها. كنت أقف مصغياً وأسرح بخيالي فى صورة نهيدة وجدتها وعبد الكريم والعربة الحنطور، التي تتوقف فجأة أمام البوابة، وخيولها التى تبول.

*

فى المساء وجهت لى دعوة لتناول طعام العشاء على مائدة الأسرة. وقدمنى أبو نمر للحاضرين. كانت زوجته مستديرة الوجه، نشطة، تبتسم فى فراغ الغرفة دون أن ترفع ناظريها اليّ. ولديه، الأول فى الثالثة عشرة والثانى فى الخامسة عشرة، يتعلمان فى كلية بالمدينة، وإبنته ذات الشعر الأبيض، مستديرة الأعضاء، متزوجة من شرطى لا يتواجد فى منزله طوال أيام الأسبوع، وحينما يأتى الى المنزل، يجلب معه سلة بها حمامة مقيدة وبعض التفاح من مزرعة بيتار ودستة بيض، مصادر من أحد القرويين فى قسم الشرطة.

لم يكن ما قدم على المائدة سوى استمرار لوجبة العشاء التى تناولتها فى البيارة. أدركت فى تلك اللحظة ما أريده من هذا المكان.

بعد العشاء إنطلقت أصوات غناء عربى من الحاكى. سألنى أبو نمر عما إذا كنت أستطيع تعليم أولاده كيفية استخدام الآلة الكاتبة بالإنجليزية، التى اشتراها بالأمس من المدينة.

جلست الى الصبيين اللذين تقدما الى العمل بهمة ونشاط، بينما انتحى والداهما جانباً وبدت عليهما سعادة غامرة. إنقضت ساعة كاملة فى هذا العمل الى أن جاءت الأم وقدمت لى قدحاً من الكاكاو والحلوى. وطلبت منى أن آخذ قسطاً من الراحة. لم يتوقف صوت الحاكى طوال ذلك الوقت. تناهى الى مسامعى صوت نهيدة وأنا أرشف مشروبى، ورأيت أمامى وجه عبد الكريم. وجاءنى عبر الممر المظلم حديث أمى مع العجوز. أدركت فى تلك اللحظة أننى انتظرت هذه اللحظة كل هذه السنوات لكى أسترجع ثانية أيام إقامتنا فى البيارة. أغلقت عيناى وقلت لنفسى: «هل سأرى ثانية نهيدة الصغيرة وعبد الكريم الذى هزمنى فى الحمام».

- ج -

ومرت السنون من جديد. وكنا فى ذروة أيام الحرب بيننا وبين العرب. كنت فى سرية إستعدت لاقتحام تل الريش فى رمال يافا الى الشرق من المدينة.

قبل ذلك بعدة أسابيع جرت محاولة إقتحام فاشلة كلفتنا ستا وعشرين قتيلاً. وفى هذه المرة كنا واثقين من إنتصارنا واعتبرنا تلك المعركة حملة انتقام وغضب.

خرجنا من حولون فى منتصف الليل، وبدأنا الزحف نحو منازل تل الريش. وساعدتنا كثبان الرمال على الإختفاء. وكان الزحف فوقها سهلاً ومريحاً. وحملت الريح الغربية على أجنحتها رائحة يافا وزكمت بها أنوفنا؛ لكنها جاءت فى ساعة متأخرة من خلفنا، من جهة مساكن حولون، وهبت علينا رائحة المنازل البيضاء؛ تعدنا بالحرية والسعادة التى ستحل على المنطقة إذا انتصرنا.

*

حينما تنبه العرب الى وجودنا، كان قد فات الأوان. كنا فى مرمى قنابل المنطقة الحاكمة. وتقدمنا من ثلاثة اتجاهات. إنفجرت إحدى قنابلنا الأولى داخل موقع الرشاش الأمامى وأصابت كل رجاله. إقتحمنا الموقع واستخدمنا الرشاش الألمانى صوب القرية، فعمت الفوضى فى صفوف العرب، وانطلقوا خارج بيوتهم فحصدهم قناصتنا الذين كمنوا لهم فى الجناحين الشمالى والجنوبى، فلم يبق لهم سوى طريق الهروب نحو الغرب. ويبدو أن بعضهم نجح فى التسلل الى هناك مبكراً، هاربين عبر البيارة القريبة، وهى نفس البيارة التى مكثت بها بضعة أيام منذ عشرين عاماً مع أسرة العجوز.

*

توقعت مسبقاً سير الأحداث، لأن كل شيء سار وفقاً للخطة الموضوعة. وكان الهدف الثانى للإقتحام فى هذه الليلة هو منزل البيارة. ولم نكن نعرف هل به مقاتلون أم لا. لكن كان من الواضح أننا إذا لم ننجح فى إبادة كل رجال الموقع فى تل الريش، فسوف يجدون ملجأ مناسباً يستعدون فيه داخل المنزل الحجرى وفنائه. ويبدو أنه كانت توجد بعض التعزيزات فى منزل البيارة، حيث فتحت نحونا نيران غزيرة من هناك، واتضح وفقاً لشواهد كثيرة أن هناك مواقع حصينة، ومستعدة سلفاً فى حال سقوط التل.

ولم يحالفنا الحظ هنا، فلقد استمر القتال حتى الفجر، وفقدنا ستة رجال، وأضفنا بعداً

جديداً الى روح الإنتقام التى نبضت فينا. كما أن عددنا فاق عددهم. لكن سرعان ما بدت علامات الإنهيار والضعف فى المنزل، وضعفت نيرانه. وفى الفجر إقتحمنا الفناء ودخلنا الى إحدى الحظائر، ووضعنا فيها مواد متفجرة. وما هى إلا لحظات بعد إنسحابنا منه حتى سمعنا صوت إنفجار مدو، تحول بعده جناح البيت المحاذي للحمام الى كوم أنقاض. وتناهت الى مسامعنا أنات الجرحى ونداءات الإستسلام. رتبنا صفوفنا ودعوناهم للإستسلام.

*

لم أندهش حينما رأيت عبد الكريم، ويبدو أننى كنت أتوقع رؤيته على الرغم من أننى لم أجرؤ على التكهن بذلك. عرفته على الفور. سرت نحوه وناديت بإسمه، وبعد أن أوضحت له من أنا، تذكرنى وابتسم ابتسامة منهكة.

سألته: "وهل نهيدة هنا أيضاً".

-"لا. لقد تركت الأسرة يافا".

جاء عدد من الرفاق واستمعوا الى حديثنا بدهشة.

سألنى القائد: "أتعرفه؟".

-"نعم".

-"هل يمكن أن يدلى لنا بمعلومات هامة؟".

-"محتمل، لكن دعنى أصفى حساباً قديماً".

-"أتريده لك".

-"لا. لكنى أريد أن أحدثه على انفراد".

إنفجر الرفاق فى الضحك، وبدا عبد الكريم الذى لم يفهم حديثنا بائساً، وقد ارتعدت يداه من شدة الإنفعال.

أسرعت أوضح له أننى أريد أن أحدثه على انفراد.

قال: "أنتم المنتصرون، وكل ما تأمر به مطاع".

-"لم أستطع هزيمتك فى الحمام. وبالتالى لم نعرف من المنتصر؟".

إبتسم عبد الكريم وبدا أنه فهم مقصدى.

لكن قائدنا لم يفهم وأصدر أوامره باقتياد عبد الكريم الى البيارة حيث نقطة تجميع الأسرى.

صعدت الى الحمام وجلست عند حافته. بدأت تصلنا التعزيزات من حولون وبت يام، واعتنى المرضون بالجرحى في الفناء. وسرعان ما خلوت الى نفسى، فخلعت ملابسي ونزلت الى الماء. كان الماء دافئاً وملوثاً، فأدركت أن الأنبوب العلوى لم يدفع بالماء الى البئر فترة طويلة.

بسطت ذراعي وقطعت الحمام عدة مرات. أغمضت عينى، فى انتظار أن يأتينى صوت أمى من عند الحافة لتشجعنى قائلة: "لا تخف.. إسبح بسرعة".

لكن صوت عبد الكريم رنَّ فى أذنى: "لقد هزمتنى فى أمريكا، لكنى هزمتك هنا فى الحمام".

فى تلك اللحظة دوى صوت رصاصة عبر البيارة، فانقبض قلبي. وأدركت أن عبد الكريم قد قتل.

خرجت من الماء بسرعة وارتديت ملابسى مهرولاً الى البيارة. وجدت هناك صخبا خفيفاً والقائد يصيح:

- " من الذى أطلق النار بحق الجحيم ".

قال أحد الشباب: " أفلتت منى رصاصة ".

رآنى القائد وأنا أقترب فقال لى: "للأسف لقد خسرنا معلومات بقتلنا صديقك العربى".

قلت: "خسرنا".

بعد ذلك تقدمت من جثة عبد الكريم وقلبتها.

يبدو أنه رآنى فى مخيلته قبل ذلك بلحظات، وأنا أسبح فى الحمام. لم يكن وجهه وجه إنسان خاسر. هنا، فى الفناء، كنت أنا، ونحن جميعا، المهزومين.

(١٩٥١)

***

إسحق أورباز

رصاصة حائره

سقط قطاع غزة في يدنا، لكن أصوات الإنفجارات البعيدة تشير الى أن ملاك الموت لم يلملم بعد أطراف عباءته السوداء. ربما لم يصدر أحد أوامره بإطلاق النار، لكن هناك على أية حال من أطلق النار فى مكان ما، فأردى شخصاً ما فى مكان ما. سقط القطاع فى يدنا، لكنه ليس لنا.

إندفعت الى خيمة شمواليك، ضابط مخابرات الوحدة، وأخبرته:

-"قبضت على عربى مسلح".

-"حقاً، أين هو؟".

-"سلمته لجماعة موسيك".

صاح شمواليك منادياً على يعنقله. فمثل أمامه بسرعة. قال له:

"إذهب الى موسيك أخبره ألا يدع أحداً يتحدث مع الأسير ولا يرهقوه، حتى أقوم أنا بالتحقيق معه".

إنصرف يعنقله وبقيت أنا مع شمواليك. كنت منفعلاً، فانطلقت أحدثه، ليس بصفته ضابط مخابرات وإنما لأنه صديقى شمواليك؛ لكنى بالطبع قدمت له تقريراً بصفته الوظيفية.

وبعد أن قدمت تقريرى، أخبرته أننى حينما كنت فى جولة خارج ما كانت تسمى ذات يوم "خربة جامون"، وصلت الى خان توجد مغارة فى فنائه. كان يوماً جميلاً يغرى بالتنزه، حيث تلقى شمس الخريف ببهائها فى الأفق. لكن شيئاً ما خفياً جذبنى الى داخل المغارة. حملت مدفعى الرشاش "العوزى"، تجنباً لأى سوء، ودخلت ألقى نظرة. زكمتنى رائحة براز بعض الحيوانات، ورأيت أسمالاً بالية ملقاة فى الركن، وبعض الكتابات العربية محفورةعلى الحائط. ولمحت فى الركن صندوقاً خشبياً نزعت ألواحه. فأحسست أن أحداً كان هنا. أخذت أتفحص الممر الداخلى. وجدت أيضاً أسمالاً سوداء ورائحة براز. قلت محدثاً نفسى وأنا أنظر فى الصندوق الذى احتفظ ببقايا زخارف عاجية: إذا كان يوجد أحد هنا، فلا بد أن أعثر على شيء ما فى هذا الصندوق. فتحت غطاءه، وما هى إلا لحظة حتى انطلقت صيحة "الله أكبر" مدوية، فقفزت الى الوراء وجلاً. وخرج من الصندوق شخص ضخم، يحمل بندقية فى يده وقد اتسعت حدقاته، وصاح مرة أخرى "الله أكبر". كان الجو فى المغارة بارداً، ومع ذلك بدأ العرق يتصبب على جبينى. تمنيت الهرب، لكنى لم أستطع الحركة. تسمرت عيناى عند عيون العربى. حاولت جاهداً أن أفكر: ها

هو العدو أمامك. إما أن تموت أنت أو يموت هو. نظر الىَّ محملقاً، فلمحت فى عيونه رعباً بالغاً.

إما أن تموت أنت أو يموت هو. من المؤكد أن هذا كان تفكيره أيضاً، إذا كان قد فكر بالمرة. صوبت اليه الرشاش، لكنه لم يكن فى وضع الإطلاق، فلقد نسيت أن أجهزه فى اللحظة الأولى، حيث كنت مشوشاً بعض الشيء، لكنى جهزته الآن وأصبح جاهزاً للعمل.

لم أكن بحاجة الى إطلاق النار. فلقد القى العربى ببندقيته وسقط على وجهه تحت قدمى ورأسه الى الأرض، قائلاً: " وحياة ربنا أنا أحب اليهود" . إرتجف إصبعى فوق الزناد، وفوهة الرشاش مصوبة الى ظهره. كان فى مقدورى أن أقتله، لكن لا أدرى لماذا تملكنى الخوف منه ولا زالت فرائصى ترتعد حتى الآن. نظرت الى عينيه الواسعتين، فرأيت حدقاتهما ترتعدان من شدة الخوف. كان يرتدى قميصاً وسروالاً "كاكياً" ممزقاً وحذاء بنعال مطاطى. فذكرنى هذا المشهد بالفدائيين، خاصة أنه كان يلف رأسه بعقال وكوفية وكأنه أحد القرويين. لمحت بجواره بندقية تركية قديمة يعلوها الصدأ، ذات ماسورة طويلة، والى جانبها حزام ذخيرة شركسى. أنا أعرف أن الفدائى لا يسير ببندقية صدئه، بل يسير برشاش "كارل جوستاف" ، بالإضافة الى أن عيناه قد امتلأتا رعباً، وارتعدت حدقاتهما من شدة الخوف، وصار لونهما كلون التبغ المهترىء. توسل العربى الىَّ. لكنى لم أفهم كل ما قال، فمعرفتى باللغة العربية ضئيلة، لكنى فهمت أنه يتوسل ألا أقتله، أدركت ذلك لأننى أعرف أيضاً طعم الخوف.

رفعت يدى عن الزناد. ومع مراعاة كل قواعد الحذر والحيطة، إلتقطت البندقية التركية ووضعت حزام الذخيرة الشركسى على كتفى وأمرته بالنهوض والسير أمامى ويديه فوق رأسه.

سرنا فى درب بين الحقول، متخذين طريقنا الى ما كانت قبلاً "خربة جامون" . كان كل منا متوتراً. سرنا برهة لكنى امتعضت من جر بندقيته التركية وحزام الذخيرة، فكيف أسحب لهذا الملعون كل هذا الثقل وهو أسيرى. ألقيت اليه بالحزام الشركسى،فتقلده مائلاً على صدره. كان منظره جميلاً وهو يتمنطق بالحزام الشركسى ويسير بخطى خفيفة بنعله المطاطى. فذكرنى بشىء ما. شىء ما يشبهه. لقد بدا لى فجأة وكأنه يطلُ من إحدى الصور الباهتة لرجال الهجرة الأولى الذين كانوا يقفون فخورين أمام آلة التصوير، وشواربهم الضخمة تملأ الفراغ تحت أنفهم، وقد لفوا الكوفية على رؤوسهم وتمنطقوا بالحزام الشركسى على صدورهم والبندقية التركية على أكتافهم. نعم إنه هكذا بالضبط. تراخت يدى برهة عن الرشاش، فتدلى بحرية فوق كتفى. بعد فترة وجدت نفسى أسير بجوار العربى وشعرت بالإقتراب منه. أخذت أرقب الشمس وهى تشق طريقها نحو البحر، وبدأت أعيش فى حالة من التأمل، الى أن تنبهت على صوت انفجار بعيد. لعنت هذا الصوت الذى الذى أخرجنى من هذه اللحظة الحالمة، وإذا بى أرى العربى يعيد يديه بسرعة الى رأسه.

تملكنى الغضب، فانهلت عليه بأقذع السباب: يا إبن الكلب، يا إبن العاهرة، يا إبن الحرام، ياغشاش، يامخادع. ها أنت تصادقه وهو يستل سكيناً من مكان خفى ليغمده فى ظهرك. ياله من

طبع عربى قذر. أمرته بالإنبطاح أرضاً باسطاً يداه، وضربته بالحذاء على مؤخرته لإرهابه. بعد ذلك تفحصت حزامه ثانية، لكنى للأسف لم أجد به سكيناً ولا خنجراً. كنت فى حاجة فعلاً الى خنجر. فأنا أهوى جمع الخناجر. وقعت عينى على مزق بين الرقع فى قميصه، ورأيت من خلاله أكداساً متراكمة من القذارة الصفراء تغطى جلده الكالح. فكرت فى أنه لو نظف نفسه جيداً بالصابون، لظهر بصورة أكثر وضوحاً. سألته عن إسمه فقال: إبراهيم عبد الحسن الجامونى. والآن أدركت سر وجوده هنا. سألته: من قرية جامون؟ قال: نعم. إرتعد صوته وأنا أفتش جيوبه. وجدت فى أحد جيوبه بعضاً من التبغ اللزج الرطب. أعدته ثانية الى جيبه. وأخرجت من جيب آخر نصف فطيرة جافة ومسمار. أعدت الفطيرة والقيت بالمسمار. فأنا أعتقد أنه لا يأكل الفطير بالمسامير. ووجدت فى جيب آخر شيئاً مغلفاً بمنديل. أقسم إبراهيم أن لا شيء به على الإطلاق وطلب الىَّ أن أبقى المنديل في جيبه. جذبت المنديل ووجدت بداخله بعض أوراق مطوية وصورتين. وضعت الأوراق فى جيبى وأعدت له المنديل. وتمعنت فى الصور. وجدت صورة عائلية وأخرى لفتاة عربية. يظهر فى الصورة العائلية رجل مسن، ذو عيون غائرة، وشابين صغيرين، صدرهما متضخم وعيونهما براقة وشواربهما مفتولة. كان أحدهما ممسكا ببندقية فى يده، وهو ليس إبراهيم، بينما أمسك الثانى فى يده بسيف فارسى معقوف. إنه هو، إبراهيم عبد الحسن الجامونى. أشرت الى صورته، فنهض عن مكانه وجلس الى جوارى ضاحكاً. كانت له أسنان سوداء، للأسف شوهت إبتسامته الودودة. الآن فقط رأيت ملامح وجهه. كانت قسمات وجهه ملساء ومريحة، اللهم الا جبهة ضيقة، وشعيرات ذقن خشنة، لم تحلق منذ عدة أيام. وعلت وجهه بعض التجعيدات من شدة الإرهاق. بخلاف ذلك كان وجهه وجه فلاح عادى، إخشوشن من العرق والحر والرياح اللافحة.

أخبرنى إبراهيم عبد الحسن الجامونى، أن العجوز، والده، والشاب الذى يحمل بندقية، أخيه. نهضنا بعد ذلك وواصلنا طريقنا الى خربة جامون. سرنا جنباً الى جنب. وأبلغنى إبراهيم أن أخيه قتل فى حرب اليهود ضد العرب، وكانت مشيئة الله أن يموت أخاه وينتصر اليهود، وأنه شخصياً ليس لديه اعتراض على ذلك. فلقد هرب الى القطاع. سألته: وأين العجوز؟ قال "مات هو أيضاً". وأبلغنى أن والده لم يشأ أن يترك مكانه، وبرر ذلك بقوله: "لقد ولد أبى وجدى هنا وماتا هنا أيضاً". لذا سأبقى أنا وليفعل الله ما يريد". هذا تقريباً ما قاله والده. وانتهوا جميعاً. ولم يبق أيضاً شيء من القرية، بعد أن هرب منها كل الشباب. وها هو الآن وحده فى هذه الناحية. له أقارب فى الأردن، وكان فى طريقه الى هناك ليبحث عنهم.

إقتربنا من خربة جامون. لم يبق فيها سوى شجرتين وبناء صخرى فوق مرتفع، يقولون إنه "قبر الشيخ". كان إبراهيم يلوك ساق شعير جاف. وبين الفينة والأخرى أجده يقتلع هذه السيقان، يبحث فيها عن الحب الفارغ ثم يمر بإصابعه على عصافتيه الناعمتين لا أعرف كيف كان يجد هذه السيقان. فأنا لم أر على طول الطريق سوى الأشواك والحجارة والنباتات البرية. فالأرض لم تحرث منذ تسع سنوات على الأقل، لأنها منطقة حدود، ولم يجرؤ أحد على أن يحرث ويزرع

فيها. وها هى الآن تنبت بعضاً من الشعير. ليست شجيرات، ولا نبتاً ربانياً، فالأرض لا لها. . . .

ويبدو أننى استغرقت تماماً فى أفكارى لأننى توقفت برهة عن الحديث، فاستغل شمواليك، صديقى، هذه البرهةليقول وكأنه ينظر فى داخلى:

- "أفهم مما تقول أنك كنت تود إطلاق سراحه".

لكننى بادرته محتجاً:

- "أتعرف عنى ذلك؟". ثم أضفت بنبرة اعتذار:

- "على الرغم من أننى لم أفكر فى إطلاق سراحه، لكن ماذا كان يعنينى من هربه. . .". كنا نسير نحو الشمال، وأوجه نظرى نحو الغرب متظاهراً بصرف انتباهى عنه. لكنه لم يبتعد عنى. كلما ابتعدت أجده بجانبى. أبتعد الى الجانب الاخر، فأجده بجانبى أيضاً. وعلى كلٍ، فلقد رأيت أنه من واجبى إحضاره الى هنا وليكن ما يكون. سألته عن صورة الفتاة، التى لم تكن فى الحقيقة سوى طفلة، مثلها يجلسن عندنا فى مدرسة عامة ويغنين"فطيرة. . فطيرة". لمعت عيناه كما كانتا فى الصورة العائلية حينما أدرك أننى عرفت أنها حبيبته. أخبرنى أنه رآها مرة واحدة حينما كان فى زيارة للأردن وسرعان ما هام بها. وبالطبع، سرق الصورة وتقدم لطلب يدها، لكن والدها طرده كالكلب. سألته عن أبيه وعما يمتلك من نقود. لكن من أين له نقود وهو بلا أسرة؟. لذلك قرر أن يبحث عن أسرته فى الأردن. كما فكر أيضاً فى بيع هذه البندقية وحزام الذخيرة، التى سرقها من القطاع. لقد سمع أنها تحقق سعراً جيداً فى الأردن. من يدرى، فقد يجمع المهر من هذه العملية. الله قادر على كل شيء!". توقف إبراهيم بجوار شجرة مجدوعة سقط عنها لحائها ومجوفة من الداخل. أخشابها محترقة سوداء. لا أعرف متى أتت عليها النيران. قال إبراهيم وهو يضع أكمات الشعير التى جمعها داخل تجويف الشجرة المجدوعة:

"كانت شجرة جميز". أخبرنى أنها كانت كبيرة وارفة، وقديمة جداً. يذكر أباه وجودها فى هذا المكان منذ أن وعى وجوده، وكذلك أيضاً جده. فكرت؛ إذا كان يتمتع هكذا بذاكرة قوية، فمن المؤكد أنه يمكن أن يتذكر أيضاً مكان كوخ والده. لكننى لم أشأ أن أسأله. لا لأننى شعرت بالذنب لبيته وأسرته. .ليذهبوا جميعاً الى الجحيم! فربما كان كاذباً، فهؤلاء الأوغاد يعرفون كيف يكذبون. وإذا كان يكذب، فمن المؤكد أنه لا يوجد ما يشعرنى بالذنب.

جلسنا بجوار الشجرة المجدوعة نأخذ قسطاً من الراحة. جلس هو على الأرض وطوى ساقيه تحته، وجلست أنا أمامه فوق صخرة كبيرة. نحيت سلاحى جانباً. ظل إبراهيم يلوك التبغ، وبدت تعبيرات وجهه جامدة، بليدة بلهاء. أشعلت سيجارتين، أعطيته واحدة. جذب منها نفساً، ثم بصق فى يده حفنة تبغ لزجة. سحقها فى راحة يده ثم وضعها فى جيبه. إنها نفس التبغ الذى وجدته فى جيبه. شيء يبعث على الإشمئزاز. كم من الوقت يمكن لهذا الشخص أن يلوك نفس حفنة التبغ. شيء مقيت. فكرت فى أن أضع هذا العربى بالقوة فى حمام ملىء بالماء، كما فعلنا

مع نوركو، الفتى الإيرانى. و "قشرت" من عليه هذه القذارة بفرشاة سلك، ثم بعد ذلك بفرشاة صلبة. ثم أطعمه وألبسه وأعلمه مهنة فيصير إنساناً.

بدت الشمس حانية وفى قمة بهائها، وبسطت سحب الغرب ذراعيها لتحتضن فيهما هذه الشمس المتعبة الجميلة. جلس إبراهيم عبد الحسن الجامونى صامتاً، وقد زاغت عيناه فى الأفق البعيد. شيء ما من بهاء لحظة الغروب غسل القذارة عن وجهه، فبدا لى وهو يجلس صامتاً أنه يجلس هنا منذ الأزل، وتوحد مع المكان، فصار لوناً من ألوان هذا المشهد الجميل فى ساعة الغسق. يجب أن أعرف ما ظنه بى. لا أعتقد أنه يفكر فى. وإذا كان يفكر فعلاً، فمن المؤكد أنه يفكر فى "غزاله" الصغير، التى تنتظره وحده دون شباب العالم. وإذا بى أتوحد مع الموقف عن غير قصد، وبدأت أفكر فى "غزالى"، تلك الفتاة التى اعتقدت أنها لى وحدى، الى أن زوجوها من آخر، لا لشيء إلا لأننى لا أملك ما أعدهم به! لا مال ولا مسكن، ولا مهنة محترمة. فأنا مجرد عامل بسيط، لم يخرج والدى أبداً من حدود جحور الأرانب والحظيرة المجاورة للبيت داخل الحى الذى نقطنه، ولم يقدم لى والدى شيئاً سوى جسد إنسان. وها أنا أنظر الى إبراهيم وهو مستغرق فى حلمه الجميل، فأهز له رأسى، قائلاً: " ياإبراهيم. . ما فيش مهر ما فيش بنت". هذا هو نهج العالم، ولا جديد تحت الشمس. بدأت أشفق عليه، فهو مثلى تماماً. فيم إختلافى عنه ؟ أنا أفكر وأثور وهو يخضع ويستسلم ويؤمن بأن كل شيء من عند الله. ولو أنهم أوقفوه على قدميه ورفعوا رأسه، وقوّموا ظهره وربتوا على كتفه قائلين: " ياصديق" ؛ لربما بدأ هو أيضاً فى التفكير. ففى الحقيقة أن القدرة على التفكير ليست سوى نتيجة لحرية الإنسان فى عالمه. فأين هى الحرية فى عالم إبراهيم عبد الحسن الجامونى؟ وما هو غده؟. لقد اقتلع من أرض آبائه، فأين مكانه تحت الشمس؟. وسرعان ما أدركت أن هناك ما يفرق بينى وبينه. أنا لى أمل، وطالما أعيش فوق أرضى، فأنا أنمى هذا الأمل، لكن ما هو أمله؟.

هكذا فكرت فى أسيرى وأشفقت عليه، وبدأت فعلاً أفكر فى أن أتركه لحال سبيله وأمضى. نظرت الى وجهه فرأيت عيناه الكبيرتان وقد زاد اتساعهما. واستمرا فى الإتساع. تنبهت وتمعنت فى وجهه فرأيته مكفهراً، وبدأت الملامح الثعبانية الماكرة تبرز فيه، وأخذت عيناه الكبيرتان ترتعدان رعبا وكراهية، تماما كما رأيتهما فى المغارة، تجمدت فى مكانى. بدأت نظراته تتحرك بينى وبين نقطة ما عن يمينى. نظرت الى اليمين، حيث كان سلاحى. حينئذ، وبسرعة البرق، قفز إبراهيم من مكانه. . .

إنفعل شمواليك، ولم يستطع أن يغفر لى ذلك. فصاح قائلاً: "ياغبى. إمسك سلاحك!" .

واصلت حديثى منفعلاً، وقلت له: " لا تنفعل هكذا، لقد تعثر إبراهيم فى الشجرة المجدوعة وسقط على الأرض. ونجوت أنا. أمسكت بالرشاش واستدرت لأفعل شيئاً بهذا الوغد العربى، وإذا بى أرى طرف ذيل وهو يتلوى مختفياً داخل الأرض. لقد كان ذيل أفعى.

نهض إبراهيم وأوضح لى أنها كانت أفعى، وأخذ يرسم لى طريقها الملتوى على الصخرة التى كنت أجلس عليها ورأيت بنفسى آثارها الى مكان اختفائها فى الأرض. وأشار الى أحد الأماكن

موضحاً أن هناك جرن مغطى بالقش، تجد فيه الثعابين والأفاعى مأوى دافئاً لها فى الشتاء. وسرعان ما عرض علىَّ أن يحفر ويكشف عن الجرن. قلت له: " بكره" . فكرر ورائى كلمة "بكره" ، وهو حائر، ثم لاذ بالصمت.

واصلنا طريقنا الى المعسكر. وما أن اقتربنا منه حتى سمعنا أصواتاً عرفتها عن بعد. وسمع إبراهيم هذه الأصوات أيضاً وانزعج. وما أن رأى المعسكر حتى نظر الىَّ والى المعسكر، وعاود الكرة مرة أخرى، هذه المرة كإنسان ينظر الى من أحسن اليه. لقد شعر بالخوف. وحينما وقفنا أمام رجال موسيك، التصق بى وتوسل بصوته وعينيه ألا أسلمه لهم، وأخبرنى أنه سيبقى معى حتى لو ذبحته. حينئذ أدركت أن له أيضاً أمله الخاص، وأن هذا الأمل هو مكانه تحت الشمس.

قال صديقى شمواليك:

- "أعرف بذلك أن العربى قد حاز على ثقتك" .

- " أكثر من ذلك. لقد حصلت أنا على ثقته" . ثم إستطردت "شمواليك. . . هيا ندع هذا العربى المسكين يذهب الى حال سبيله. وليتنا نعيد اليه أيضاً بندقيته. فأنا على قناعة بأنه لا يمكن إطلاق الرصاص من هذه البندقية" .

إستدعى شمواليك يعنقله، فمثل أمامه بسرعة. ناوله شمواليك البندقية التركية الصدئة والحزام الشركسى، وقال له: "خذ هذه البندقية وجربها بالطلقات الموجودة فى الحزام. إنها تخص الأسير" . أخذ يعنقله البندقية والطلقات وقال: " يالها من بندقية قديمة، لو كانت هذه البندقية تطلق الرصاص فأنا إذاً دبابة" .

ضحك شمواليك قائلاً:

- " لست ملزماً بتجربتها حتى آخر طلقه. إذهب وارسل لى "الأسير"مع موسيك.

خرج يعنقله، والتفت شمواليك الىَّ قائلاً:

- "إذا لم تطلق البندقية رصاصها، سأطلق سراح العربى مع خالص تحياتى. ولكن إذا أطلقت، فهذا الحقير لى" .

إنتظرنا. دوت رصاصة قوية جداً. إبتسم شمواليك وتملكنى الخوف، ولذت بالصمت.

وصل موسيك ويعنقله. كانت البندقية فى يد موسيك. قال موسيك: " إنها تطلق بسهولة، لكنها تؤلم الكتف وكأنها مدفع" .

سأل شمواليك: "والعربى" ؟.

- " لا شيء على الإطلاق، بناقص عربى. . . ألديك مكانا له فى الشاحنة؟ " .

- " أين هو؟ " .

أشار موسيك: "إنه هناك. مات فى مكانه" .

قال شمواليك محتداً:

- "لقد طلبت إحضاره الى هنا وليس قتله" .

- "ومن قتله؟ لقد طلبت منى إحضار الأسير. وحفزته للمسير، وظهر يعنقله بالبندقية، فخاف الأسير وحاول الهرب. وهنا أطلق يعنقله عليه الرصاص. هذا كل ما حدث. فيم كل هذه المأساة؟. لقد أصابوا بالأمس منشقه بعد استسلامه، فماذا حدث؟ ربما كان أخاه هو الذى فعل ذلك؟ وربما هو نفسه..."

أتت العربة جاهزة على الطريق مع الرتل المتجه الى الجنوب. وبدأت الشمس فى المغيب وأخذت تلملم آخر أشعتها المتلألئة، وانعكست الظلال بيننا وبين ما كانت قبلاً خربة جامون. تحرك الرتل. وأخذ الشباب فى الشاحنة التى أمامنا يغنون "جلبنا لكم السلام...".

وأخذت أنا أنظر الى قبر صديقى إبراهيم.

(١٩٤٩)

***

أ.ب. يهوشوع

أمام الغابات

- أ -

ضاع الشتاء الأخير أيضاً وسط الضباب. وكالعادة لم يفعل شيئاً. أجّل الإمتحانات، وبالطبع لم يكتب أبحاثه. لم يعد يسمع شيئاً منذ فترة طويلة، لأنه لا يدع أحداً يتحدث غيره. وتؤكد قائمة طويلة من التوقيعات فى كراسته المهترئة أن الجميع أدوا واجبهم نحوه، واختفوا وسط الزحام. لم يعد أمامه إلا أن يؤدى واجبه بنفسه، بما يملك من إمكانات ضئيلة. لكن الكلمات تمر عليه مرهقة؛ حتى كلماته هو فما بالك بكلمات الآخرين. يعيش متنقلاً من مسكن الى آخر فى العالم المحيط به، بلا جذور وبلا دخل ثابت. ولولا بعض الدروس الخاصة لتضور جوعاً. ها هو يقترب من العقد الثالث، وزحف الصلع على رأسه. نظره الضعيف يجعله يشك فى أشياء كثيرة. أحلامه فى الليل كئيبة ورتيبة، ليس بها أحداث جذابة؛ فهى باختصار أحلام بلا معنى. لا يحلم إلا بأرض قاحلة. وحينما يجود عليه الليل تظهر فيها بعض الأشجار اليابسة وإمرأة عارية. يتضاحك الطلاب حوله فى حفلاتهم الصاخبة. وبات الوصول به الى حالة السكر فقرة ثابتة فى برنامج الحفل. لا يتخلف عن أى حفل، فهم ما زالوا بحاجة اليه. وشخصيته الضعيفة مطلوبة جداً فى هذه الحفلات. فمن مثله يجيد ربط الناس ببعضهم. إنتهى أقرانه من دراساتهم منذ فترة، وها هم يغدون كل صباح بملفاتهم المتضخمة. ولدى عودتهم ظهراً من أعمالهم قد يلتقونه فى الطريق وقد مزق النوم جفونه، يسير كفراشة هائمة تبحث عن وجبتها الأولى. لقد سمعوا عن أسلوب حياته الماجنة، لذلك يسرعون بتضييق الخناق عليه ويقولون بالإجماع، سواء عن رحمة به أو تحفيزاً له: "إنك تشعر بالوحدة، أليس كذلك ! ".

إنه فعلاً فى حاجة الى العزلة. لديه قدرات طيبه وإدراك جيد، ولا يحتاج إلا تعزيز قوة إرادته.

لكنه بصورة عامة لا يصمد فى شيء، وسرعان ما ينتابه اليأس، فيلقى بنفسه الى أول حائط يقابله، يعتمد عليه، عاقدا ساقيه بحركة واهنة. ويدافع عن نفسه همساً:

"ولكن أين؟ ".

إنه يتوق فعلاً الى العزلة. فهو بحاجة الى إعادة التعرف على الكلمات، والتركيز لمحاولة اكتشاف نقاط ضعف المادة التى تسيطر عليه. لكنه فى حاجة فعلاً الى دخول سجن حقيقى؛ لا

يقدم فيه أى تنازلات. فهو يعرف نفسه جيداً. إذا عثر على ثقب صغير يهرب اليه، فسرعان ما سيحوله الى نفق. لا. أرجوكم، لا أريد مكرمة من أحد أو. . . .

من أصدقائه من يكتفون بالإعتذار المهذب، يهزون أكتافهم ويبتعدون عنه. أما أصدقاؤه الحقيقيون فهم إثنان من المعيدين، يحبهما هما وزوجتيهما، لا زالا يذكران فضائله معهم فى شبابه، ويحفظان بعض آرائه المبتكرة التى أسمعهم إياها بالصدفة أثناء دراسته. قلقان على مستقبله. ويعرفان جيداً أن الربيع القادم يحمل اليه أخطاراً بالغة، لأن مغامراته القليلة مع النساء ستزداد مع زرقة السماء الصافية؛ وبالتالى فلا عجب فى أن أتياه يوماً فى الشارع وقد برقت عيونهما: "أخيراً، توصلنا الى حل مشكلتك" . فيسرع بإبداء الحماس والإستعداد، لكنه يترك بدهاء جسراً مفتوحاً يمكن أن ينسحب منه ويلوذ بالفرار.

"ماذا؟" .

وظيفة مراقب فى الغابات. مراقب نيران. إنها عمل جديد وسهل. إنها فعلاً حلم. عزلة تامة. هناك يمكن أن يلملم كيانه المنهار.

من أين لهم هذه الفكرة؟ .

إلتقطوها من الصحف، خلال تصفح سريع للصحف اليومية.

إندهش، وأطلق ضحكة هستيرية عريضة. ثم ماذا؟ يالها من فكرة؟ غابات. . . أى غابات؟ هل توجد غابات فى البلاد؟ عم يتحدثان؟ .

لم يبتسما، فهم فى هذه المرة جادان وكلهما إصرار على التنفيذ. لم يكد يستوعب كلماتهما حتى أحرقا كل الجسور التى استعد للهرب بها، كما هو الحال دائماً.

"قلت نعم أم لا. هذا هو الحل" .

نظر الى ساعته وكأنه فى عجلة من أمره. ولكن ألم يومض ولو حتى بصيص واحد داخله؟ ألم يخفق قلبه؟ .

- ب -

حينما أطل الربيع، وفتحت النوافذ قليلاً، بكر فى الصباح الى قسم الغابات. مكتب تغمره الشمس، يجلس به موظف وعدة موظفات. دخل ببطء محملاً بتوصيات ممتازة. وسبقته عدة اتصالات توصى به خيراً. مشرف الغابات رجل بسيط، فى خريف العمر. لا يبتسم إلا بالقدر الذى تسمح به وظيفته. فيم كل هذه الجلبة؟ لوظيفة تافهة كهذه؟. تملكه الفضول لمعرفة ما سيحدث بعد ذلك، فقد يقوم المدير لتحيته. فالمنطقة الصلعاء فى شعره تمنحه بعداً آخر. ومنظره يوحى بالثقة فى كل شيء، وليس لهذه الوظيفة بالذات.

-" واثق من أن هذه رغبتك؟. العزلة قاسية فى برج مراقبة الغابات. لا يقدر على تحمل ذلك سوى البدائيين. ماذا تريد أن تعد؟ رسالة دكتوراه؟ " .

-" لا، مع شديد الأسف، فأنا فى مراحل الدراسة الأولى" .

. . . .

-"نعم، عاطل منذ فترة" .

. . . . .

-"لا، ليست لدى أسرة" .

. . . .

-"نعم، نظرى قوى بالنظارة " .

أوضح المدير بلغة سلسة أن هذا العمل بعقد لمدة عامين، فى الحالات الإجتماعية فقط. وليس ل. . . الرومانسيين. ها. . ها. . للدارسين الذين ينشدون العزلة. . . لكنه مستعد لأن يفعل مرة شيئاً فريداً شاذاً، ويضم دارساً الى طاقم موظفيه الصغير. نعم. حتى هو يكره الحالات الإجتماعيةعلى اختلاف أنواعها. يكره ذوى العاهات، والموتورين. لأن هؤلاء الأشخاص، حينما تندلع النيران، والى أن يصل رجال الإطفاء، يرقبون النيران بانزعاج، ولا يسرعون بضرب ألسنة النيران بالأجولة، ولا يحفرون قناة ترابية لوقف زحف النيران. أمثالهم تأخذهم الصاعقة ولا يحركون ساكناً. وحينما يضطر المدير الى إرسال شخص موتور الى الغابات، فإنه يصاب بالأرق، خشية من أن يقوم الحارس بإشعال النار فى الغابة بنفسه لسبب غير مفهوم أو فى نوبة غضب. وهو على ثقة من أن الجالس أمامه الآن، وعلى الرغم من تفرغه للدراسات الأدبية، سيشعر بواجبه وسيترك الكتب ليقاوم النيران. نعم، هذه مسألة قيم.

عفواً، لقد نسى المدير العجوز فجأة ماذا يعد المرشح؟ : "دكتوراه؟ " .

إعتذر المرشح مرة أخرى. مع شديد الأسف لا زلت فى مراحل الدراسة الأولى. نعم، عاطل منذ فترة. وليست لديَّ أسرة.

إستدعى المدير سكرتيرة شابة.

بدأوا يجهزون لتوقيعه على عقد متواضع لمدة ستة شهور: الربيع والصيف (آه، الصيف خطير جداً فى الغابات) ونصف شتاء.. لا بد من الإنضباط واليقظة، والإطلاع على قواعد الفصل من العمل. ساد الصمت حينما شرع فى قراءة العقد بتمهل. تسابق المدير والسكرتيرة فى تقديم قلم يوقع به، لكنه فضل التوقيع بقلمه هو. وقَّع على عدة نسخ. أول راتب فى الخامس من أبريل. بعد التوقيع، تمدد فى مقعده لا يستطيع النهوض، فهو لا زال مرهقاً. لم يعتد الإستيقاظ مبكراً هكذا. حاول فى تلك اللحظة أن يوجد بعض العلاقات ويبدى قدراً من الإهتمام. سأل عن مساحة الغابات، وعن ارتفاع الأشجار. لكنه فى الحقيقة كان يواصل الإسترخاء، وبدا كأنه يغفو. إنه لم ير أبداً غابات حقيقية فى هذه البلاد. فهل يعنون بذلك بعض الأحراش القديمة التى زرعتها "المؤسسات الوطنية" . نعم، لقد سمع فى الأخبار عن غابات تزرع باستمرار إحياء لذكرى هذا أو ذاك. . . لكن يبدو أنها لم تكبر بعد. . فالأشجار تنمو ببطىء. . . لا تكبر. . إنه فى الحقيقة لا يفهم. . كيف تنمو غابات فى هذه الأرض القاحلة. . . لقد سمع أنهم فى الخارج. . .

تلعثم فى النهاية وسرعان ما شعر أنه ارتكب خطأ فادحاً؛ أدرك ذلك من عيون السكرتيرة الضاحكة، أو بالأحرى من الغضب والدهشة التى اعتلت وجه المدير، الذى يودع مرحلة

الشباب. وإذا شئنا تصوير ذلك بطريقة ملموسة، فإن المرشح قام بجولة متهورة ووطأ منطقة هشة فى نفس مشرف الغابات، الذى بدت عيونه فى تلك اللحظة جامدة، وأخذ يردد مونولوجاً مع الجالس أمامه، الذى غاص فى مقعده.

ما معنى أشجار صغيرة؟ هذا يعنى ببساطة أنه لم ينظر بدرجة كافية. من المؤكد أنه توجد غابات. غابات حقيقية، وليست أحراشاً. إسمح لى أن أسألك ماذا تعرف عن هذه البلاد؟ ألم تهتم حتى وأنت فى الحافلة برفع رأسك عن الكتاب. الفضول الذى رآه العجوز لدى الشباب أمر يبعث على الضحك، لكن المرشح تجاوز هذه المرحلة. لو كان لدى المدير وقت لقام وأطلعه على الخرائط. لكنه سيدرك ذلك بنفسه. توجد غابات فى جبال يهودا وفى الجليل وفى السامرة وغيرها. ومع ذلك فربما كان نظر المرشح ضعيفاً. قد يحتاج الى تغيير نظارته. طلب المدير من المرشح أن يأخذ معه نظارة أخرى. لا نحتاج الى المزيد من المشاكل. السلام.

الى أين سيرسلونه؟

سيحضر ثانية بعد عدة أيام. وفى هذه المرة لن يحدثه المدير، بل موظف صغير. سيرسلونه الى إحدى الغابات الكبيرة. لن يكون وحيداً هناك، بل يعمل فى هذا المكان شخص عربى. وهم على ثقة من أنه ليست لديه آراء مسبقة. السلام. لحظة. ستذهب الى هناك يوم الأحد.

- ج -

تلاحقت الأحداث. إنه يقطع علاقاته مع الناس وإذا بها الآن تقطع بسهولة غريبة. أخذ يخلى حجرته وبدت السعادة على وجه صاحبة البيت لسبب لم يدركه. قضى الليالى الأخيرة عند أحد أصدقاءالدراسة، الذى أسرع بإعداد برنامج دراسى له. وبينما كان صديقه الدءوب يملأ الحقيبة بالكتب فى إحدى الحجرات، كان مراقب الغابات الجديد يداعب محبوبته فى الغرفة الأخرى. حاصرته الأفكار. شعر بالوهن يسرى فى داخله. شيء ما فى داخله يخفق للغد. ماذا يدرس؟ يقول أصدقاؤه: الحملات الصليبية. نعم، إنها مناسبة جداً له. فكل إنسان يتخصص فى عمل معين. من الممكن أن يخرج منه باحث صغير، المهم ألا يكون عاطلاً. لا بد أن يعود من الغابات بأى فكرة علمية مدهشة. وسوف يجد له أصدقاؤه المبرر.

فى الصباح حينما وصلت شاحنة قسم الغابات لأخذه من نومه المتقطع، بدا له أن هذا كله قد تم فعلاً للتخلص منه؛ لم يكن أمامه مع برودة الصباح التى لفحت جسده إلا أن يقنع نفسه بأن هذه المغامرة مثلها مثل سائر مغامراته، سيبتلعها النوم، وحينما يفيق لن يكون لها وجود. فلم العجب إذن من تلاشى المدينة الواقعة خلف الجبال، التى خلفها وراءه، وكأنها هى أيضاً حلماً؟ ترك نفسه تماماً للطريق. إبتعد عنه الجالسون الى جواره بمؤنهم وسلالهم. فسرعان ما شعروا أنه ينتمى الى عالم آخر غير عالمهم. وأول إشارة الى ذلك صلعته ونظارته، لكنها ليست الأخيرة.

إنطلقت الشاحنة مسيرة نصف يوم.

خرجت الشاحنة عن الطريق الرئيسى ودخلت فى طرق رملية طويلة وغريبة، بين مستوطنات مهاجرين مجهولة الإسم. عمال ينزلون وآخرون يصعدون. وجميعهم يتلقون التعليمات من

السائق، فهو السيد فى هذه الأماكن. هل نحن نتجه جنوباً؟ كل ما أمامه حقول منبسطة تمتد تحت قبة سماء ربيعية صافية. لا زالت الأرض رطبة وحبات التراب تتساقط من عجلات الشاحنة. وفى ساعات الصباح الأولى إكتشف، لأول مرة، وجود بعض الغابات متناثرة بين الصخور. أشجار سرو صغيرة، رفيعة، يغلب عليها اللون الأخضر. إبتسم ابتسامة خفيفة وسرح مع أفكاره. "لقد صدقت". لكن الأشجار بدأت تكبر مع الطريق. وبدأ الضوء يعم الكون. غزت الشاحنة ظلال كثيرة وكأنها ركاب متخفين. الركاب يتغيرون طول الوقت، ما عدا السائق وهذا الراكب وحقائبه. بدأت الغابات تظهر بكثافة؛ واختفت المناطق الجرداء. وأشجار السرو فى كل مكان، وكأن هناك إصرار على أن تكون كلها من نوع واحد، بلا تنوع. وصل المراقب الجديد الى حالة إرهاق بالغ، وغطاه التراب، وبدأ يشعر بالجوع. فقد اتجاه الريح منذ فترة، وأخذت الشمس تداعبه وتدور حوله. لم يعد يرى الى أين هو ذاهب. فى تمام الساعة الثالثة خلت الشاحنة من ركابها وبقى هو وحيداً. ظلت الشاحنة تقفز فترة طويلة فى طريق صخرى. تملكه الغضب. تشققت شفتاه من شدة العطش والحرارة. من يأسه حاول أن يخرج كتاباً من إحدى الحقائب، لكن الشاحنة توقفت فجأة. نزل السائق وطرق الباب وراءه، وجاءه قائلاً: "ها نحن. المراقب السابق هرب بالأمس. كل التعليمات معلقة فوق. أظنك تعرف القراءة".

ها هو ينزل أخيراً من الشاحنة، مرهقاً، محملا بحقيبتيه. أمامه فوق الهضبة منزل صخرى جميل وغريب، تحيط به الأشجار من كل جانب بكل الأحجام. على الرغم من أنه لم ير كل شيء بعد الا أنه اعتبر المنزل عالٍ جداً. الصمت المطبق يعم المكان. حتى الأشجار صامتة. تمطى السائق وأخذ ينظر حوله وهو يتنفس بعمق، يستوعب فى داخله الهواء والضوء. ثم ودعه فجأة وعاد الى قمرته وأدار محرك الشاحنة.

تملكه الندم وانتابته حالة من اليأس. ما هذا؟. لحظة ! إنه لا يفهم شيئاً. جرى الى الشاحنة وأخذ يضرب على هيكلها بقبضته، ويهمس بغضب للسائق المندهش.

- " ولكن الطعام. . . ماذا عن الطعام؟ ".

إتضح إن العربى مهتم بكل شيء.

- د -

حمل حقيبتيه فى يده وجر ساقيه صاعداً الى الهضبة. بدأت الرؤية تتضح أمامه بالتدريج. وجد الباب مفتوحاً. دخل الى الطابق الأول. الظلام حالك. أشياء مبعثرة على الأرض، وبقايا طعام، وآثار طفلة. إزداد شعوره باليأس. وضع الحقيبتين وصعد منهكاً الى الطابق الثانى. وجد أمامه مشهداً بديعاً. خمس هضاب تغطيها براعم متشابكة من أشجار السرو الخضراء. أفق أزرق صافٍ، يحده بحر من بعيد. أعجبه المنظر جداً تحمس للمكان ونسى كل شيء، بل إنه بات مستعداً لتغيير رأيه فى قسم الغابات.

وجد بالغرفة هاتف، ومنظار مكبر وورقة دونت عليها بعض التعليمات، مائدة متسعة بجوارها مقعد ذو مسندين. جلس بارتياح وأخذ يقرأ التعليمات، خمس مرات متتالية، من بدايتها

الى نهايتها. ثم أخرج قلمه وعدَّل فى الأسلوب. تفحص الجهاز الأسود بسعادة واضحة. أصبح الآن مقتنعاً تماماً بالمكان. يمكنه أن يتصل بأحد أصدقائه فى المدينة، أو يفضى بكلمة حب لإحدى عشيقاته المسنات. يبلغهم أنه وصل بسلام. وقد يصف لهم أيضاً المنظر الذى أمامه. لم يسبق أن أتيح له هاتف عمومى. رفع السماعة وقربها الى أذنه. صافرة مستمرة. علَّ قواعد الإتصال غريبة عليه. جرب إدارة القرص، لكن عبثاً. نفس الصفير لم يتغير. أدار فى النهاية رقم صفر، كمواطن مخلص يطلب إجابة مهذبة.

جاءه عبر الهاتف صوت رجال الإطفاء منزعجين: "ماذا حدث؟"، بدا هناك على الجانب الآخر قلق حقيقي. ما كاد يتفوه بكلمة حتى انهالت عليه الأسئلة كالمطر. ما هو حجم النيران؟ وما هو اتجاه الريح؟. سيخرج رجال الإطفاء حالاً. وبينما هو فى تلعثمه، كان رجال الإطفاء هناك قد أداروا محركات السيارات. إنزعج. قفز عن مكانه. السماعة لا تزال فى يده. أخذ يتصبب عرقاً بارداً. تمالك نفسه وحاول أن يوضح الموقف بقدر ما أسعفته الكلمات. "لا شيء، لاتوجد نيران على الإطلاق. لم يحدث شيء بالمرة. هذا مجرد تعارف. وصلت لتوى وكنت أحاول الإتصال بالمدينة. إسمى كذا وكذا. هذا هو كل شيء".

ساد الصمت فى الجانب الآخر وتغير الصوت. يبدو أن المتحدث هذه المرة هو القائد. "أهلاً وسهلاً ياسيدى. سجلنا إسمك. هل قرأت كل التعليمات ؟ لا مجال على الإطلاق لإجراء إتصال خاص. لقد وصلت لتوك. هل لديك حاجة خاصة؟ زوجتك؟ أولادك؟".

- "لا ليس لى أسرة".

- "إذن، فيم الإنزعاج؟ العزلة؟ ستعتاد عليها. نرجو ألا تزعجنا مستقبلاً. سلام. تمنياتنا لك. ها ها.. وليس الى اللقاء".

شعر أن الدائرة تضيق عليه. تمكن منه الإرهاق ونهشه الجوع. سيستيقظ مبكراً فى الصباح، وهو أمر لم يعتد عليه من قبل. النظر الى الجبل الشاهق المشرف أمامه يجعله يشعر بالدوار. ويفرض عليه الصمت المريع. أمسك المنظار بيد واهنة وقربه من عينيه. تحرك العالم المحيط نحوه مشوهاً. وبدأت تقفز أمامه أشجار شاهقة. وجه المنظار نحو الغابة والهضاب والأفق البعيد، إستمتع بهذا المشهد بعض الوقت ثم ترك المنظار واسترخى ممدداً فى مقعده. لديه الآن فكرة واضحة عن عمله الجديد. مجرد فهم وإدراك لكل ما حوله. شعر ببعض الإرتياح. فغفا قليلاً ولكنه لم ينم.

إستيقظ فجأة على ضوء أحمر يضيء فى نظارته. فى البداية لم يستطع تدارك الأمر، فتخيل أن النار شبت فى الغابة وأن الأمر خرج من يده. قفز عن مقعده وأخذ قلبه يخفق بعنف. أمسك بالهاتف والمنظار. الى أن أدرك أنها الشمس. الشمس تغرب بين الأشجار. فهو جالس فى اتجاه الغرب. تأكد من ذلك. فهبط بهدوء عائداً الى مقعده. خفق قلبه رعباً وربما خواءً. فلقد أدرك أنه هنا مهمل، منسى. غطى الضباب زجاج نظارته. مسحه وتنهد.

وما أن ساد الصمت، حتى سمع وقع خطوات تقترب.

إقترب من البيت شخص عربى ومعه طفلة. هب واقفاً عن مقعده. نظرا الى أعلى وما أن تأكدا من وجوده حتى توقفا، إندهشا لرؤية الشخصية المثقفة الرقيقة. أحنى رأسه لهما. فواصلا طريقهما، وفجأة إرتعدت خطواتهما. نزل اليهما.

إتضح أنه رجل عربى مسن، أبكم. قطعوا لسانه فى الحرب. هم أم نحن، وهل يختلف الأمر؟. من يعرف ما هى آخر الكلمات التى توقفت فى حلقه؟.

داخل الغرفة المظلمة التى أضاء نوافذها آخر ضوء من الشمس الغاربة، شد المراقب على اليد الخشنة التى امتدت لمصافحته، وانحنى يلاطف الطفلة التى امتلأت رعباً. أحكمت دائرة العزلة حصارها حوله. أضاء العربى النور. ونام المراقب فى الطابق العلوى.

مرت الليلة الأولى التى طحنه فيها الأسى، وأضفى ضوء الشموع الأصفر الخافت جواً من الإحساس بالقهر. حاول أن يجد سلواه فى الطبيعة الممتدة أمامه، وفى زرقة البحر البعيد الذى تحتضر الشمس داخله. جلس القرفصاء على مقعده وأخذ ينظر الى الغابة الكبيرة التى امتدت أمامه. إعتقد أن النار يمكن أن تندلع فى أى لحظة. صعد العربى اليه بالطعام متأخراً. طعمه غريب، خليط من المذاقات. لكنه التهم كل ما قدم له بلا تصنيف. جالت عيناه بنهم بين الطبق والأشجار المتشابكة. فجأة، وبينما يلتهم الطعام، تراءت له أضواء مستوطنات بعيدة. فكر فى النساء. خلع ملابسه، وفتح إحدى الحقائب وأخرج حاجياته منها. بدا له أن أياماً كثيرة انقضت منذ أن ترك المدينة. إلتحف بعدة بطاطين، ووجهه نحو الغابات. داعبته ريح خفيفة منعشة. أي نوم يأتيه هنا؟. قدم له العربى قدحاً من القهوة ليزيد من يقظته. أراد المراقب أن يبادله الحديث عن أى شىء، عن الطبيعة، أو عن عدم وجود ضوء كاف. لا زالت لديه بعض الكلمات أتى بها من المدينة، لكن العربى لا يفهم العبرية. إبتسم المراقب مرهقاً. شىءما فى صلعته وفى بريق نظارته، يلقى الرعب فى قلب العربى.

الساعة التاسعة والنصف، بداية الليل. بدأت فرقة الصراصير تعزف ألحانها. أخذ يقاوم النوم الذى داهمه. يغفو فيؤنبه قلبه. بين الفينة والأخرى يمسك بالمنظار المدلى على صدره. أعماه النوم. بدأ يقربه من عينيه. إصطدم زجاج المنظار بزجاج نظارته. فتح حدقاته وها هو الآن داخل الغابة، بين الأشجار، يسمع حفيفها. أخذ يبحث عن النار. الظلام حالك.

ما هى المدة التى يمكن أن يستغرقها إحتراق الغابة ؟ قد ينظر اليها كل ساعة أو ساعتين. وحتى إذا بدأت النيران فى الغابة، فسوف يتمكن من طلب النجدة لإنقاذ ما تبقى. لم يعد هناك همس فى الطابق الأول، فلقد غط العربى وإبنته فى نوم عميق، بينما هو هنا، فى الطابق العلوى، حائر. مرهق من الرحلة، حبيس بين ثلاثة جدران وفتحة واسعة تقوده الى الأفق البعيد. ليس من حقه أن يتقلب فى مضجعه. يغفو ويعيش طول الوقت فى رعب، خشية أن يفقد أثر النيران التى قد تشتعل خلسة. ينتقل من الفراش الى المقعد فى منتصف الليل. رأسه مدلى على المائدة، وعظام رقبته مكسورة تصرخ طالبة النوم. تملكه الندم وهوجالس هكذا وحيداً أمام هذه المملكة المظلمة

الممتدة أمامه، ولا يسمع منها سوى حفيفها. هكذا مرت الساعات السوداء فى الليلة الأولى؛ الى أن رأى بطرف عينيه كيف ينبت الصبح من بين الهضاب.

ربما كان الإرهاق هو الذى حال دون هروبه فى الليلة الأولى. مرت الأيام والليالى التالية أمامه وكأنها تمر على شاشة من بخار أبيض حالم، يضاء كل نهار ببريق شمس الغروب المتوهجة. إنه ليس أكثر من إنسان غريب، ظل فى الأيام الأولى ضالاً بين الطابق الأول والطابق الثانى؛ المنظار مدلى على صدره، ويلتهم الوجبات التى يقدمها له العربى الذى لا يظهر إلا لماماً. أدهشته المسئولية الثقيلة التى وقعت على كاهله. الصمت أصعب ما فى الوجود. فهو لا يمكن أن يتحدث حتى مع نفسه ببضع كلمات. هل يستطيع أن يفتح كتاباً هنا ؟. إنه لم يشبع بعد من الطبيعة التى أدهشته وأسعدته. عاد الى نفسه بعد عشرة أيام من المعاناة والعذاب. بات يكفيه نظرة خاطفة ليأخذ فكرة كاملة عن الهضاب الخمس. وأصبح قادراً على النوم وعيونه مفتوحة. وهذه قدرة جديدة وهامة إكتسبها هنا.

- و -

أخيرا فتحت حقيبة الكتب بعد أسبوعين ونصف. لا يزعجه هذا التأخير بالمرة. فلا زال أمامه الربيع كله والصيف ونصف الشتاء. خصص اليوم الأول لتصنيف الكتب، وتحليل عناوينها، وتصفح بسيط فيها. ولا ننكر أنه يجد متعة فى التعامل مع المجلدات الضخمة، والسلاسل التى تفوح منها الروائح النفاذة، والنصوص الأجنبية والمقدمات اللاتينية. فهو يستمتع حينما تكون الكلمات غريبة ومن عوالم أخرى. إنه قلق بعض الشيء، فموضوع البحث، "الحملات الصليبية" . من منظور إنسانى بحت، أي كنسى. لا يعرف التفصيلات بعد. شعر بسعادة غامرة وهو يردد همساً "الحملات الصليبية" ، أسعده تركيبها اللغوى. وهو واثق من أنه سيجد فى هذا الموضوع مادة خفية ستدهشه، ويدهش بها الآخرين بدوره. وبالتحديد، ستتضح الصورة أمامه كاملة خلال هذه الغفوات، التى تحيط بعقله كسحابة لا تنقشع.

إنشغل فى اليوم الثانى بالصور. الكتب مليئة بالصور الغريبة والمضحكة. رهبان، كاردينالات، صور غير واضحةالمعالم وأبطال مجهولون. وبعض اليهود والمجرمين. صور طبيعية حديثة، خرائط. تمعن فيها جميعاً قارن بينها، ثم بدأ يغفو. يريد أن يدرك قليلاً من المحسوس وهو فى طريقه الصعب الى المطلق. الناموس يعوقه عن الدراسة فى المساء. قال محدثاً نفسه فى صبيحة اليوم التالى: كيف يمضى الزمن الرائع بسرعة هنا فى هذه العزلة القاتلة. فتح الكتاب الأول على الصفحة الأولى. قرأ مقدمة المؤلف، وكلمات الشكر. وقرأ مقدمات أخرى، وكلمات شكر مختلفة. تمعن فى التواريخ. فى الظهر إنصرف عن الكتب بعد أن توهم أن النيران إستشرت بين الأشجار. ظل فترة طويلة متوتراً ومنفعلاً، يغزو الغابة بمنظاره ويده على الهاتف. أخيراً، ومع حلول المساء، أدرك أن ما شغله طوال هذه الفترة لم يكن سوى فستان الفتاة العربية الصغيرة الأحمر يرفرف بين الأشجار. وفى اليوم التالى، حينما تأهب لفهم الصفحة الأولى، ظهر والده أمامه فجأة، يحمل حقيبة فى يده.

قال الأب منزعجاً:

-"ماذا حدث"؟.

-"لا شيء.. لا شيء على الإطلاق...".

-"لماذا أصبحت فجأة حارساً للغابات؟".

-"شيء من العزلة...".

إنحنى الأب على الكتاب المفتوح، رفع نظارته السميكة وقرّب عينيه من الكتاب، قرأ ببطء: "الحملات الصليبية".

-"هل هذا ما يشغلك؟".

-" نعم".

-" هل سأسبب لك إزعاجاً؟. لم أحضر كى أعوقك عن عملك. لدىَّ إجازة قصيرة".

-"لا، لن تعوقنى...".

-" ياله من منظر رائع".

-" نعم، رائع جداً".

-" صرت نحيفاً".

-" ربما".

-"لم تستطع دراسة الأدب؟".

-" لا".

سادت بينهما لحظة صمت. قام الأب بغزو الغرفة وكأنه مفتش صغير. وفى الظهر سأل إبنه ثانية:

-" أتعتقد أنك وحيد هنا؟ وهل ستجد فعلاً العزلة التى تنشدها؟.

-" نعم. فماذا يعوقنى؟.

-" لم أحضر لإزعاجك أو إعاقتك".

-" مؤكد.. فيم تفكر!".

-" سأغادر عما قليل".

-" لا. لا تذهب. .إبق هنا من فضلك"...

مكث الأب أسبوعاً.

فى المساء حاول الأب التقرب من العربى وطفلته. لقد عرف فى طفولته بعض كلمات عربية، لا زال يذكرها حتى الآن. ويحاول أن يستغلها فى أى مناسبة. لكن العربى لم يفهم لكنته، وأخذ يهز رأسه بأدب واحترام.

جلسا معاً صامتين. الإبن لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً ووالده بجواره، على الرغم من أنه يردد طول الوقت: "دعك منى. سآوى الى أى ركن بلا إزعاج". فى الليل نام الأب على الفراش الوحيد، وتمدد المراقب على الأرض. كان الأب يستيقظ أحياناً أثناء الليل فيجد إبنه يقظاً.

يقول له " هيا نستبدل أماكننا، تنام أنت على الفراش وأرقب أنا الغابة" . لكن الإبن يعرف جيداً أن أباه لن يرى الغابة أبداً، بل سيرى بقعة مشوشة. لن يشعر بالنيران قبل أن تحرق ملابسه. كانا فى النهاريستبدلان المواقع، الإبن ممدد على الفراش والأب جالس الى المائدة يحاول أن يقرأ كتاباً مفتوحاً أمامه دون أن يقلب صفحاته. كم كان يود أن يدخل فى حوار مع إبنه، ويثير معه أى جدل. على سبيل المثال، أنه لا يستطيع أن يفهم لماذا يهتم إبنه بيهود الحملات الصليبية. أليس الإنتحار الجماعى عملاً رائعاً وغريباً. ضحك الإبن بطيبة قلب. قال شيء ما بصوت خفيض، ثم صمت. إهتم الأب فى أيامه الأخيرة بالعربى الأبكم. طرح عليه سيلاً من الأسئلة: من هو؟ ومن أين جاء؟ ومن الذى قطع لسانه؟ ولماذا؟. إكتشف أن فى عينيه كراهية دفينة. وأدرك أن مخلوقاً كهذا يمكن أن يحرق الغابات يوماً ما. ولم لا ؟.

فى اليوم الأخير أخذ الأب يلهو بالمنظار.

حمل حقيبته فى يده، وشد كل منهما على الآخر. لمعت الدموع فجأة فى عيون الأب الصغير: " لقد أزعجتك. .أشعر أننى أزعجتك. . ".

وعبثاً حاول الإبن إزالة هذا الإنطباع، وإقناعه بأن الوقت طويل أمامه، حدثه عن نصف الربيع والصيف الكامل، الطويل، والشتاء البعيد.

من موقعه فوق الهضبة تابع أباه شبه الضرير وهو يتحسس طريقه الى باب الشاحنة الخلفى. إقتاده السائق بصلافة. وما أن تحركت الشاحنة حتى لوَّح الأب محيياً الغابة بدلاً من إبنه. لقد فقد الإحساس باتجاهات الريح.

لا زال الجالس أمام الغابات يعتقد أنه لن يكون له إبن فى يوم من الأيام.

- ز -

ظل أسبوعاً كاملاً يزحف سطراً سطراً فوق الكلمات الصعبة. كان بعد كل جملة يرفع رأسه وينظر الى الغابة. لا زال يتوقع النيران وينتظرها. زادت حرارة الجو حوله. وتصاعد بخار الماء فوق سطح البحر، وكان العربى يعود فى المساء وقد تبللت ملابسه بالعرق وأنهكت الفتاة تماماً. أدرك أن وضعه هنا أحسن من كل الوجوه، فيكفى أنه فى أيام كهذه يعيش فى مكان مرتفع يفوق أي مدينة. صحيح أنه يعمل بلا توقف، لكن هل يعد الترقب عملاً؟. درجات الحرارة ترتفع يوماً بعد يوم. هل لا زلنا فى الربيع أم أن الصيف تسلل خلسة الى العالم. من موقعه هنا داخل الغابة لا يمكنه الوقوف على أي تغيير، اللهم إلا الأشواك التى يصفر لونها بين الأشجار. صار حاد السمع. فحفيف الأشجار فى أذنه دائماً. وصار ثاقب النظر بسبب الشمس الساطعة دوماً، وازدادت حواسه حدة. صار-بصورة أو بأخرى- مرتبطاً بالغابات، فحتى فى أحلامه تكثر الأشجار وأوراق الشجر تغطى النساء.

النص صعب. والكلمات غامضة. إتضح أن ما يقرأه ليس سوى مقدمة المقدمات. لكن جديته لا تدعه يترك أى فقرة، فهو يترجم كل كلمة، ثم يعدل الترجمة بأسلوب بليغ، يتسم

بالبساطة والسلاسة، حتى تستقر الكلمات فى قلبه ولا تهرب الى الفراغ الذى يحيط به من كل جانب.

هل من عجب فى أنه لم يجد يوم الجمعة سوى ثلاث صفحات سهلة من بين الفى صفحة قرأها. حدَّث نفسه هامساً وهو يداعب المائدة بأطراف أصابعه: "المادة مرهقة". هل يأخذ قسطاً من الراحة؟. مساء كل يوم جمعه تصل الى مسامعه أصوات إحتفال تأتى من المملكة الخضراء الممتدة أمامه، فيخفق قلبه. إنه لا يؤمن بالله ورسله، ومع ذلك فلا زال يوجد قدر من القداسة يخنق حلقه.

حلق ذقنه تقديراً واحتراماً لهذا اليوم المقدس. نعم. بدأت لحيته تنبت هنا مع الأشجار ويحدث مزجاً مدهشاً مع صلعته. قام وأخذ يرتب الفوضى التى يعيش فيها. رفع عن الأرض ورقة مهملة. ما هذه؟ ورقة تعليمات مراقب الغابات. عاود قراءتها باهتمام. فاكتشف أنه نسى أحد التعليمات، لم يتذكر هل هى فعلاً من التعليمات أم أنه هو الذى أضافها بيده؟. " على مراقب الغابات أن يخرج بعض الوقت فى رحلة قصيرة بين الأشجار لشحذ حواسه ".

خطا أولى خطواته فى الغابة كطفل رضيع. ظل يجول فى المرقب داخل دائرة ضيقة، وكأنه فخور بتركه. الأشجار تجذبه اليها وكأنه تسحره. إختفى رويداً رويداً فى أعماق الهضاب والتلال. سيهرول عائداً لو اشتم رائحة حريق.

هذه ليست غابة بعد، لكنها أمل واعد. أخذ قرص الشمس يظهر ويخبو بين الأشجار. وأشعة الضوء تغمر السائرين بين الأشجار. هذه ليست غابة صاخبة، فهى هادئة جداً كما فى القبور. غابة عزلة. الأشجار فيها باسقة وشامخة،لكنها رفيعةوكأنها كتيبة جنود اصطفت فى انتظار قائدها. راقه هذا المنظر واستهوته لعبة الضوء فى الظل. ظل طول الوقت يدوس على أوراق الشجر الذابلة، فأوراق الأشجار تتساقط دائماً من أول هزة. وكأن الحياة والموت يتداخلان فيها.

سار بين الأشجار الباسقة الشامخة. جسده يؤلمه. ألم ممارسة الرياضة بعد فترة توقف. قدماه ثقيلتان. لمح فجأة خط الهاتف. سلك أصفر تفوح منه رائحة كريهة. هل هذه هى وسيلة إتصاله بالعالم. إقتفى آثار السلك الأصفر بحثاً عن مصدره. أعجبته تعرجاته بلا معنى بين الأشجار. مؤكد أنهم جعلوا هذا السلك يجوب الهضاب كلها.

سمع بعض الأصوات فجأة. توقف. إنحنى متردداً. ظهرت أمامه بقعة جرداء فى الغابة، والعربى جالس بجوار قطيعه فوق كوم من الأحجار. وتقص عليه الطفلة شيء ما بانفعال، تصف له ما تقول تصويراً حياً. إقترب منهما خلسة بقدر ما أتاحت له قدرته؛ لكنهما سرعان ما شعرا به. إشتما وجوده الغريب فصمتا على الفور. قفز العربى من مكانه ووقف بجوار قطيعه وكأنه يخفى سراً. وقف المراقب أمامهما دون أن يتكلم. أليس اليوم يوم السبت. عرف الشوق والحنين طريقهما الى قلبه. وقف محملقاً مندهشاً كمدير عمل منزعج من أمر مبهم وغامض. داعبت عينيه ريحاً خفيفة. لولا خشيته على مكانته بينهما لزمَّر لهما قليلاً. سادت لحظة صمت. إبتسم لهما وانسحب من المكان ببطء؛ محافظاً قدر الإمكان على احترامه.

وقفا صامتين. تلاشت سعادة الطفلة بعد أن توقفت فى منتصف القصة، وأخذ العربى يقتلع الأشواك العالقة بقدميه. لكن المراقب كان قد ابتعد وأبحر داخل مملكته. تجول بين الأشجار ساعة كاملة ولا زال يكتشف فيها الجديد. إتضح أنها ليست مجرد غابة مجهولة، بل غابة لها إسم وليس إسماً واحداً فلقد رأى على كثير من الصخور لوحات نحاسية لامعة تضوى أشعة الشمس بين الحروف المحفورة فيها، إنحنى اليها ورفع نظارته عن عينيه وقرأ: لويس شفارتس من شيكاغو. ملك وشعب بورندى. والعديد من أسماء الوجهاء. حفظ الأسماء، التصقت به وكأنها صمغ الشجر المتساقط داخل جيوبه. ماالغرابة فى ذلك؟ الذاكرة المرهقة تحاول أن تجدد نفسها بأسماء بلا معنى. إستوعب فى داخله إسماً وراء آخر. وحينما وصل الى المرقب كان قد استرجع كل الأسماء التى فى جعبته. إرتسمت ابتسامة باهتة على وجهه.

مساء السبت.

إختمرت داخله موجة عصبية. لسبب ما بدا ذهنه صافياً تماماً.

همس لنفسه فجأة "أهرب من هنا يوم الأحد". وشرع يدندن بمقطع من أغنية. فى البداية بلا صوت، بهمهمة داخلية، لكن سرعان ما انساب صوته الى السماء التى بدأت تظلم فى تلك اللحظة، وأخذ قرص الشمس يسقط الى الماء قطرة قطرة. وشق الغروب كل ما تبقى من الضوء. فأخذ يغنى أمام هذا المشهد صارخاً ممارساً طريقته فى نشذ الألحان. صادر عزلته وانطلق يغنى.

توقف فجأة ثم عرج على أغنية أخرى، دون أن يغير اللحن. ملأ الدمع عينيه. وفى النهاية خنق الظلام حلقه، وسمع نفسه فجأة؛ فلاذ بالصمت.

عادت الغابة الى صمتها المعهود. لا زالت بقايا ضوء فى الكون. مرت خمس دقائق. ظهر العربى وطفلته من بين الأحراش التى يختبئان فيها طوال النهار وهرولا الى المرقب مطأطئي الرؤوس.

مر السبت بهدوء غريب. لم يتفوه ببنت شفة. أخذ يعد الأشجار ليشعر بالتغيير. كان قد عقد العزم على الهرب يوم الأحد، لكن الشاحنة وصلت فجأة وقد جلبت له راتبه، الذى كان قد نسى أمره تماماً. إندهش. وشكر السائق المتلعثم. ما معنى أن يتوفر لديه راتب فى عالم هامس كهذا.

عاد ثانية الى الكتب.

- ح -

أيام الصيف القائظة. آه، العصافير. لقد نسينا العصافير. فلا يعقل أن يشيد المرقب على مفترق طرق قديم للعصافير، وإلا كيف نفسر وجود أسراب الجوارح التى تتجمع من الغابة كلها لتخبط هنا على الجدران، ثم تنزلق الى أسفل لتنقض على الكتب، وتسقط ريشاً محملاً بالأتربة وزبلاً أخضر، فهى لا تشعر بالراحة فى الهواء الثقيل ثم تختفى فى طريقها المتعرج الى البحر. لقد تغير فعلاً. لفحته الشمس بحرارتها، لكن ليس هذا هو المهم الآن. إرتفعت الحرارة داخله، أزعجته. إن الحر القائظ يمكن أن يدفع الغابة الى الإنتحار؛ وبالتالى عليه مضاعفة يقظته. ضغط

المنظار الى عينيه بقوة لكى يلقى بنظرة متفحصة على الغابة التى أصبحت عهدته. أين هو؟ بضع كلمات. جزء من فكرة، جو ما قبل الحملات الصليبية. الليالى تمر هادئة. أطفأ الأنوار وجلس فى الظلام. إستمر عدة ليالى على هذا المنوال. تساقطت منه الكلمات كاللحاء الخاوى. الصراصير تصُر. وأسراب إبن آوى والخفافيش تعبر الظلام بأجنحتها الثقيلة، فتحدث صوتاً هامساً.

توافد السائحون الى الغابة. جاءوا فى جماعات منظمة وأحياناً فرادى. تابعهم بالمنظار. أعمارهم مختلفة. بدأوا يغزون الغابة كأسراب النمل، وينتشرون بين الأشجار، ينادون بعضهم البعض، ويطلقون الضحكات. ينزلون حقائبهم عن ظهورهم ويلقون بها الى الأرض. يخلعون عنهم كل ما يمكن خلعه ويعلقونه على الأشجار، ويصعدون الى المرقب بسرعة.

يطلبون الماء !.

ينزل اليهم، ويثير دهشتهم. نعم، من المؤكد أنه يثير الدهشة. تلك الصلعة بين الأشجارالخضراء والمنظار السميك. كل شيء فيه يشير بوضوح الى شخصية أصيلة.

وقف منتصباً بجوار صنبور المياه، وأخذ يسقى الشعب. الجميع يطلبون منه الإذن بالصعود الى أعلى و" القاء نظرة على الطبيعة الخلابة " . وافق بسعادة غامرة. تكدسوا في حجرته الصغيرة وصدرت عنهم صيحات إعجاب. إبتسم وكأنه هو الذى خلق كل هذا. نعم. لقد أدهشهم البحر بصفة خاصة. لم يدر أبداً فى خلدهم أنه يمكن رؤية البحر من هنا لكنهم سرعان ما شعروا بالملل ! ألقوا نظرة سريعة أخرى، وأبدوا إعجابهم، ثم استداروا بعدم ارتياح وأخذوا يهبطون من المرقب. القوا نظرة على سجلاته، وكتبه السميكة، ونزلوا شاكرين له وللمنظر الطبيعى الذى أتاحه لهم. طلب منه المرشدون أن يعطهم أى فكرة عن المكان. لكنه ليس لديه ما يوضحه لهم. كل شيء لا زال اصطناعياً. كما أنه لا توجد هنا تدريبات حفائر أثرية للمبتدئين. كل الموجود مجرد أسماء بعض الوجهاء منحوتة على الصخور. هل تريدون سماع الأسماء؟ هاكم على سبيل المثال. . . .

ضحكوا.

نظرت اليه الفتيات بحب. صحيح أنه ليس جميلاً، لكن ألا يمكن أن تنقش صورته على أحد القلوب.

أوقدوا شعلة نيران.

إنهم يريدون تسخين طعامهم أو أبدانهم الغضة. ساوره شيء من القلق. ظهرت شعلات صغيرة متناثرة داخل الغابة، وأخذ الدخان الأزرق الجميل يتصاعد مرتسماً على الأغصان. حريق ليس بحريق. لم يرفع عينيه ولم يهدأ بالاً. نزل الى الطابق الأول. تحسس طريقه فى الظلام الى فراش العربى المغطى بأثمال. هزّه بقوة وهمس له باسم القرية. إستيقظ العربى. لم يفهم شيئاً. عيناه منهكتان من الإرهاق. مؤكد أن نظرة مراقب الغابات مخادعة. كرر عليه الإسم عدة مرات، وإذا بالعربى يسمع ويفهم فوراً. لحظة دهشة خاطفة، وسرت فى أوصاله لحظة استغراب. قفز عن مكانه ووقف عاريا بجسده المشعر، ومد ذراعه القوية الى حلق النافذة، وأشار الى الغابة بحماس مشوب باليأس.

شكره المراقب ومضى، تاركاً الجسد الضخم العارى منتصباً فى منتصف الحجرة. حينما يستيقظ العربى فى اليوم التالى سيظن أن هذا كان مجرد حلم.

- ط -

إحتفالات. نحن الآن فى موسم الإحتفالات. إمتلأت الغابة بالإحتفالات. إنحنت الأشجار تحت وطأة الثقل، وأصبح لها معنى. صارت منتمية. إمتدت شرائط بيضاء لوضع حدود جديدة. وتصل الى الطريق الصخرى حافلات فاخرة ومن حولها قوافل من السيارات اللامعة البراقة. وأحياناً تنضم اليها دراجة شرطى، يقود الركب بانفعال. أشخاص ذوى مهابة ينزلون الهوينا، يتأرجحون كالدببة السوداء. وتتهادى النساء أمامهن كالفراشات المتساقطة. أخذوا يتجمعون ويسحقون فى صمت بقايا السجائر بنعالهم السوداء. كل منهم منغلق على نفسه. يشاركهم المراقب حفلهم من بعيد، يتابعهم بمنظاره من زاوية رؤية جديدة. تدوى عاصفة من التصفيق المدرب، وتلمع أنصال المقصات، وتبرق عدسات التصوير، ثم تتساقط شرائط على الأرض. ترفع الأغطية لتكشف عن حقيقة بسيطة أمام العالم. يقوم الزوار بجولة سريعة بين الأحراش داخل سياراتهم التى تنطلق بهم بعيداً.

الى أين يتجه الضوء ؟.

فى المساء، حينما نزل المراقب الى الشرائط الملقاة على الأرض، والأشجار التى وقفت له شاكرة، لم يجد الا لافتة ملساء كتب عليهامثلاً "مساهمة من أبناء جاكسون الى والدهم جاكسون من بلتيمور. شكراً على أبوته لنا، صيف ألف وتسعماية. . . . ".

وكان أحياناً يرى من مكانه المرتفع أحد المدعوين يدور حول نفسه منزعجاً. يرسل نظرة حادة الى الأشجار وكأنه يبحث عن شيء ما. توالت الحفلات الى أن أدرك فى النهاية أن مشرف قسم الغابات هو نفس الشخص الذى يدور حول نفسه، وبنفس الملابس فى كل حفل.

نزل اليه ذات مرة.

وجده يسير بصحبة جماعة واحدة، يمرح معهم بسعادة غامرة. ظهر المراقب من بين الأشجار ووقف أمامه فى لقاء حتمى. توقفت الصحبة المحترمة دهشة. سادت لحظة صمت مريعة. إرتعدت النساء.

إندهش المشرف العجوز؛ ماهذا؟ ماذا حدث؟.

إبتسم المراقب إبتسامة باهتة.

- " ألم تلحظ؟ أنا الحارس. . أو بصورة أكثر دقة، المراقب. . . الموظف فى إدارتك. . . . ".

ضرب بيده على جبهة حرثتها الشيخوخة قائلاً:

- " آه ! . . لم أعرفك. لقد اندهشت. هذه الأسمال غيرت من هيئتك تماماً. هذه الذقن الكثيفة. والآن ياصديقى، كيف تمضى بك عزلتك ؟.

إندهش قائلاً: عزله؟!

قدمه رئيسه الى ضيوفه:

- " دارس".

علت وجوههم إبتسامة قلقة، ومدوا له أطراف أصابعهم، وتابعوا سيرهم. إنهم لا يثقون فى نظافته. لكن رئيسه العجوز نظر اليه بود مصطنع. طرأت له فكرة، فتأخر قليلاً وابتسم له بدهاء قائلاً: " إذن، توجد غابات.. ".

-" نعم. توجد غابات فعلاً.. ولكن... "

-" ولكن ماذا ؟.

-" ولكن لا توجد حرائق ".

إندهش رئيسه العجوز مرة أخرى ومال اليه قائلاً:

-" حرائق؟ ".

-" نعم، حرائق. إننى أمضى أياماً كاملة مندهشاً. الصيف هادىء جداً".

-" ماذا تقول ! فيما مضى لم تحدث أيضاً حرائق هنا. وإذا شئنا الدقة. فإنني لا أذكر أنه سبق أن اندلع حريق فى هذه الغابة. فالطبيعة هنا رحيمة. ها ها.. ".

-" وأنا أجلس هنا مستغرقاً فى التفكير ".

-" فيم تفكر؟ ".

-" كنت أظن أن حريقاً يندلع هنا كل يومين، على الأقل كنموذج. أعبثاً كل هذا الجهاز الذى يقف على أهبةالإستعداد؟. وسيارات الإطفاء. وخطوط الهاتف... القوى البشرية... لقد أنهكت عيناى شهرين كاملين منتظراً".

-" تنتظر ماذا؟.. ها ها.. يالك من مهرج ! ".

تأخر المشرف العجوز. السيارات تنتظره. لم يبق إلا أن يتركوه ينام هنا فى هذا الصمت المريع بين الأشجار. أراد فقط أن يعرف قبل أن يرحل، ما رأى المراقب فى العربى الأبكم ؟. لدى سائق الشاحنة فكرة غريبة عنه. فهو يرى أن هذا العربى يخبىء هنا مخزن وقود....

تنبه المراقب: " وقود ! "

-" مؤكد أن هذه تخاريف من السائق الملعون. أليس العربى شخصية هادئة ؟".

أجاب المراقب بحماس:

." هادىء بدرجة مدهشة".

سار بعد ذلك بضع خطوات حول المشرف العجوز وهمس له بحرارة:

" أليس هو من أبناء المكان ؟".

." أي مكان ؟".

." ألا تغطى الغابة على قرية مدمرة... "

-" قرية؟".

-" نعم. قرية صغيرة".

-" قرية صغيرة؟. آه! أذكر شيئا من هذا القبيل. نعم. كانت هنا مزرعة كبيرة. لكن هذا ماض ! ".

- "مؤكد ماض. لا أحد يظن غير ذلك. . . ".

- ى -

هاكم مثال لبرنامج يوم واحد.

إنه لا يستيقظ فى الصباح، لأنه ببساطة لا ينام الليل. النور يبزغ من بين أصابعه. ما هو تاريخ اليوم؟. غير معروف. السجناء يحفرون خطوطاً على الجدران، لكنه ليس سجيناً. لقد جاء برغبته وسيرحل أيضا برغبته. يمكنه أن يرفع سماعة الهاتف ويسأل رجال الإطفاء المنتظرين فى مكان ما فوق سياراتهم عن التاريخ، إلا أنه لا يريد أن يزعجهم الآن.

نزل الى صنبور الماء. فتحه قليلاً لترطيب ذقنه ببعض النقاط. صعد بعد ذلك الى غرفته. أسرع الى المنظار وجال ببصره جولة الفجر. إنفعل. الدخان يملأ الغابة؟ لا. العيب فى المنظار. نظف العدسات بطرف قميصه المتسخ وسرعان ما برزت الغابة أمامه. يالها من خيبة أمل، لم تنبت أي شجرة بصورة ملحوظة خلال الظلام. عاد ونزل ثانية. قطع الخبز بقوة وقضم قضمة كبيرة. مضغ بسرعة بينما جالت عيناه على قصاصة جريدة تغلف الجبن. لكنه لم يفعل ذلك بدافع الفضول بحثاً عن الأحداث، وإنما لتدريب عينيه، حتى لا ينسى صورة الحروف. صعد الى المرقب وأخذ فمه يناضل مع حبة طماطم ضخمة، نصفها عفن. إمتصها، بلع، غطى العصير فمه وكأنه دم يسيل منه. وفى النهاية ألقى بالجزء الأكبر المتبقى منها.

لحظة صمت. غفا قليلاً. إستيقظ ونظر طويلاً الى قمم الأشجار. لا زال النهار طويلاً أمامه. إقترب من الكتب ببطء.

أين نحن ؟ كم صفحة قرأنا حتى الآن ؟ يحسن ألا نعد، حتى لا يسيطر عليه اليأس. إنه هادىء الآن. هل الكم هو المهم؟ إنه يذكر ما قرأه جيداً، بصورة مباشرة وبصورة معكوسة أيضاً. يشعر بانتعاش داخلى. وبالتالى، فإنه منكب منذ عدة أسابيع على مجلد واحد ضخم. رسم؟ أو بصورة أكثر دقة، خريطة. نعم، خريطة المنطقة. سيعلقها ليزين بها الحائط من أجل من سيأتون بعده، كى يتذكروه. أما الآن وحتى لا ينسى، وقَّع بإسمه عليها أولاً.

ماذا يرسم ؟ أشجار. لكنه لا يرسم أشجاراً فقط، بل يرسم أيضاً هضاباً وأفق البحر البعيد. يزداد احترافه فى الرسم يوماً بعد يوم. لو توفرت له بعض الأشجار لأضاف الى الصورة أيضاً بعض العصافير. على الأقل تلك العصافير التى تظهر دائماً فى المنطقة. إن ما يعنيه بصورة خاصة هو تلك القرية المدفونة تحت الأشجار. لم هذا الصمت المطبق فى هذا المكان؟ فضوله مجرد فضول علمى. ماذا قال المشرف العجوز؟، " دارس" . داعب ذقنه وترك يده عليها. برم بعض شعيرات التصقت ببعضها من التلوث. ما الساعة الآن ؟ لا زال الوقت مبكراً. قرأ سطراً عن علاقة البابا بالقيصر الألمانى، ثم راح فى النوم. إستيقظ منزعجاً. أشعل سيجارة، والقى بعود

الثقاب المشتعل الى الغابة، لكنه انطفأ فى الهواء. القى بعقب السيجارة بين الأشجار لكنه سقط على صخرة صغيرة ولفظ أنفاسه هناك وحيداً معزولاً.

نهض وسار قلقاً. ما الساعة الآن ؟ لا زال الوقت مبكراً.

نزل يبحث عن العربى ليلقى عليه تحية الصباح. يجب أن يؤكد له وجوده يقظاً حتى لا يقتله العربى ذات صباح، بين غفوة وأخرى. فمنذ أن ذكر له إسم القرية التى اختفت وهو يشك فيه، وكأنه فى كمين دائم. سار المراقب بسرعة بين الأشجار. صارت حركته أكثر رشاقة خلال شهور الصيف الطويلة. أدهش العربى وإبنته بظهوره المفاجىء.

قال بالعبرية " سلام ".

أجابا بصوتين. الطفلة بصوت به قدر من الرقة والعذوبة، والعربى بهمهمة غامضة. إبتسم المراقب وواصل طريقه بسرعة، وكأن هناك ما يشغله. عثر بين الأشجار على أحجار منحوتة، وأطلال منازل وبقايا خرائب. بحث عن آثار بشر. ظل كل يوم يحرك بعض الأشجار من مكانها، علَّه يجد أى أثر.

رجل وامرأة فى أحضان بعضهما، كتمثالين سقطا عن قاعدتهما. إبتسم لهما، ثم اختفى يبدوا أنهما انشقا عن أعضاء رحلة خلوية وانفردا معاً.

عم يبحث؟ هل يبحث عن بقايا أفكار تطايرت هنا، أم عن كلمات أدت دورها. ولكن هل ما قد يجده ذات يوم صحو، يمكن أن يذكر حتى فى هذا اليوم الذى أخذناه مثالاً؟، لقد وجد علباً صغيرة من الصفيح مليئة بالوقود. ياله من شيء رائع ! بأى دأب ملأوا علبة وراء أخرى وغطوها بفستان الطفلة القديم. إنحنى ليرى هذا الكنز السائل، الصامت، الذى تطفو على سطحه هوام الأشجار ميتة. وتفوح منه الروائح النفاذة.

عاد الى المرقب سعيداً. فتح علبة لحم محفوظ، لعق محتواها عن آخره. مسح فمه وبصق فى الفراغ بين الأغصان. قلب صفحتين فى كتاب وقرأ رد كاردينال على خطاب أحد اليهود. مضحكة هذه اللغة اليونانية المتبلة، لكنها تحمل بين طياتها تهديداً كبيراً. نام. إستيقظ منزعجاً، خشية أن يكون قد ضيَّع حفلاً هاماً فى الهضبة الشرقية. لم يعد يرفع منظاره عن عينيه، وعاش مع الجماهير المحترمة عن بعد، من داخل المرقب. من موقعه يمكنه أن يلحظ حتى شفاه الخطباء، والصوت الناقص يكمله بنفسه. لكن شمس الغروب تجذبه وتصرف انتباهه عنهم. ويعود كل يوم ليغرق بإعجاب فى ما تبقى من ألوان الطيف، مستمتعاً ببهاء أشعة شمس الغروب اللامعة الغريبة.

بعد ذلك يزيل الغبار عن الهاتف الخامد. سيقولون إن كل معدات قسم الغابات حظيت لديه بعناية فائقة، بينما معداته هو مبعثرة ومهملة. أعواد الثقاب الملقاة بين الأشجار، القميص الممزق، السروال الذى يقصر يوماً بعد يوم.

وصلت رحلة خاصة من الشباب المتحرر لقضاء الليل فى الغابة، وأحدثوا صخباً بالغاً حال وصولهم. جلس فى الخلاء يتناول وجبة عشائه. وألقت الظلمة الأولى بهاءً جميلاً يعرفه جيداً.

آوى العربى وطفلته الى الفراش. الظلام حالك. لطمت وجوده المنصت أول ضحكة ماجنة

إنطلقت من بين الأشجار. تصفح أوراقه قليلاً. ثم قتل ناموسة. بصق.

إنه لا ينام الليل.

- ك -

أخيراً انتهى الصيف، وبدأت الغابة تخلو من روادها. مع هبوب ريح الخريف الأولى أتته من بعيد عشيقته الشمطاء، زوجة صديقه الذى أرسله الى هنا. جاءت كورقة شجر ذابلة ترتدى فستاناً ضيقاً، وعلت رأسها قبعة عريضة من القش. بدأت تدب فى الغرفة بكعبها العالي، وتنقب فى دولابه، تنحنى على الكتب، تغزو صفحاتها. سبق أن قامت بمفردها برحلة قصيرة هنا فى هذه المنطقة، ولا زالت تذكر هذه الرحلة جيداً. كيف يجلس إنساناً وحيداً طوال الليل أمام الغابات ؟ حاولت أن تفاجئه، وتعرف فيم كان يفكر طوال فترة انتظاره؟ ربما فكر فى حملات صليبية أخرى؟ إنها امرأة فضولية جداً. زوجها يتحدث عنه بالخير. يقول إنه سوف يكبر ويزدهر فى هذه العزلة بين الأشجار.

انفعل المراقب دون أن يتفوه بكلمة. أشار صامتاً الى الخريطة المعلقة علي الحائط. قفزت اليها وأخذت تنظر فيها. لم تفهم شيئاً. إنها فى الحقيقة مهتمة بالنص، وبما كتب ؟ إنها مرهقة جدا، لقد أنهكت قواها الى أن عثرت على المكان. المنظر جميل فعلاً ولا بد أن تشكره. لكنه مهمل جداً. من الذى يقيم فى أسفل ؟ العربى؟. لقد رأته وهى فى الطريق. حاولت أن تسأله شيء ما، لكن تملك منها الرعب ! إنه أبكم. مقطوع اللسان. ولكن، مع بالغ الإحترام لقسم الغابات، من الذى دعا الله لكى تنبت غابات كهذه فى هذه الأرض. لقد تغير عشيقها. ترى هل زاد وزنه قليلاً؟ أم أنها الذقن الجديدة التى تنبت بصورة قبيحة ؟ لماذا هو صامت هكذا ؟.

القت بنفسها فوق الفراش.

قام، إقترب منها. وبنفس الهدوء الذى صار جزءاً منه، رفع قبعتها، إنحنى عند رأسها، خلع حذاءها. إرتجف من شدة الرغبة. يشعر بالإختناق. إنتابتهاالدهشة. ضمت ساقيها العاريتين المرهقتان بسرعة خاطفة وهى خائفة، وربما شعرت بالراحة لذلك. لكنه ابتعد عنها. وقف ممسكاً بالمنظار فى يده، نظر به طويلاً الى الغابة، فهو يشعر بالنشوة بين الأشجار، فى انتظار اندلاع النيران. عاد اليها ببطء، والمنظار على عينيه، وقام بعملية تجسس. نظر اليها من وراء العدسات، رأى التجعيدات الخفيفة التى حفرت فى وجهها، وحبات العرق، إرهاقها. إبتسمت له وكأنها فى صورة قديمة. لكن ابتسامتها تحولت الى احتجاج حينما طال الوضع. إنكمشت فى مكانها غاضبة، وبسطت يدها.

" هيه، أنت، كفى ! "

وعند غروب الشمس كان قد نجح أخيراً فى إقناعها بخلع ملابسها. لا زال المنظار معلقاً على صدره. تملكتهما الرغبة. كان بين الفينة والأخرى يوقف قبلاته وأحضانه ويضع المنظار على عينيه، ليلقى بنظرة على الغابة.

قال هامساً وهو ينظر بابتسامة غريبة للمرأة العارية التى تتصنع الخجل " هذا هو الواجب".

تداخل كل شيء مع ضوء الشمس الأخير، البعيد، زرقة البحر والأشجار الساكنة، وتخثر الدم فوق شفاهه المجروحة، واليأس، اللامعنى، وعزلة الخلوة الجنسية. إنزعجت حينما لامست يدها رأسه الذى تساقط عنه الشعر.

حينما وصل العربى كان كل شيء قد انتهى. كانت تغفو داخل ملابسها الملتصقة. غلف العالم ليل جميل. جلس الى مائدته، وهل له شيء آخر يفعله غير ذلك. بينما استغرقها الظلام، وسحرتها الغابة وأسرتها، نهشتها الأفكار فجأة. إرتجفت حال سماعها صوت الفتاة العربية الصغيرة. ماذا تفعل هنا ؟ يلقى عليها الخريف رداءاً من العصبية. إرتدت ملابسها بسرعة. زرَّرت قميصها وانتعلت حذاءها، وسرى صوتها فى الظلام.

إنها فى الحقيقة لم تحضر هنا إلا إشفاقاً عليه. ما من أحد توقع أنه سيصمد فترة طويلة. متى ينام؟ لقد أرسلوها لإنقاذه من هنا. من هذه العزلة. صمته يثير الشك. بدأ زوجها والأصدقاء يجأرون بالشكوى، يخشون من أنه يخبىء عنهم سرا ما، أو فكرة مدهشة، وأن يقفز فوق رؤوسهم ببحث جديد. . .

هبَّت الريح فجأة من الفتحة الواسعة، حلقت قليلاً فى الحجرة ثم تلاشت فى الركن. إشتاط غضباً، واشتعل الشرر فى عينيه.

" شفقة، لا، لست فى حاجة لمن يشفق عليَّ. متى أنام ؟ دائماً. . . ولكن ليس ذاك النوم الذى فى المدينة. هل أترك مكانى الآن ؟ لقد فات الأوان. لم أنته بعد من عد الأشجار. فكرة جديدة؟ ممكن، ولكن ليس كما يظنون. . . ليست فكرة عملية. . بل هى فكرة إنسانية. . " .

هل تريدين أن أصاحبك فى طريق عودتك الى الغابة، أم تفضلين الذهاب بمفردك ؟ .

قفزت عن مكانها.

إتخذا طريقاً متعرجاً وهما يجتازان الهضاب. سارت خلفه تجرجر أقدامها، أرهقها السير بالكعب العالى بين الصخور، سارت خلفه وهى تشعر بالإحتقار والمهانة. حتى جسمها الممتلىء تحمله سيقان نحيلة. أخذت تختفى بين الأغصان كثعبان منطلق، دون أن تنظر الى الوراء. ناضلت مع الشجيرات التى خلَّفها وراءه. كشفهما ضوء القمر فى مسيرتهما الصامتة. ماذا تقولين يا حبيبتى الخريفية ؟ هل جننت ؟ كان هذا متوقعاً. لقد دفعتم بى الى العزلة وأنتم سعداء. أصبحت الكلمات عندى أشجاراً والكتب غابات. هذا هو كل شيء. لا يتساقط أمام عينى سوى سائل دائم ولا نهائى من صمغ الأشجار. وأنا لا زلت فى انتظار اندلاع الحريق.

وصلا فى صمت الى الطريق الأسود. كعب حذائها يضرب على الإسفلت بغضب. ها هو الآن ينظر اليها. وجهها مخدوش، وذراعاها ينزفان. لقد أحسنت الغابة ترك بصماتها عليها. حبست بكاءها داخلها. الصمت يضفى عليها المهابة والإحترام. أخذت تلوح للسيارات. بعد دقائق توقفت لها سيارة مسرعة، بها شخص واحد، بشعر مشيب. ركبت معه دون إلقاء التحية. سوف تذوب بين أصابعه فى الطريق الطويل.

عاد أدراجه. لم يكد يخطو بضع خطوات حتى برز العربى أمامه، وقد تهدجت أنفاسه،

واكفهر وجهه. ماذا لديك يا سيدى؟ كيف برزت هكذا فجأة ؟. ناوله العربى قبعتها التى نسيتها. إبتسم له المراقب شاكراً، وبسط يديه دلالة على أنه لم يعد لديه خيار. فلقد رحلت. لكن اهتمامه رائع، لا يخفى عليه شيء. أخذ القبعة من يد العربى والقى بها فوق رأسه. إنحنى أمامه إنحناءة خفيفة، فانزعج العربى. عادا معاً صامتين الى الغابة، مملكتهما. سار المراقب أولاً والعربى يدوس وراءه على خطواته. ظهرت بعض السحب الخفيفة. الرياح هادئة. ضوء القمر ينزلق على الأغصان فيزيدها وضوحاً وبياضاً. قاد العربى فى طرق لم تتغير. هى دائماً نفس الطرق التى يسلكها. سار العربى خلفه صامتاً، حافى القدمين. ودون أن يدرى قادته قدماه الى مخبئه بين الأحجار الصماء المنحوتة. ترددت خطاه. توقف. ثم عاود السير من جديد. شعر المراقب ببرودة الموت تسرى فى أعضائه، وتجمدت يداه. إنحنى الى الأرض التى غطتها أوراق الشجر الذابلة. من يعيد اليه كل الساعات الضائعة ؟. الغابة مظلمة وخالية من روادها. لا يوجد بها أحد. لم تظهر حتى شعلة واحدة. إنه الآن، فى هذه اللحظة بالذات، يريد أن يغمس يداه فى النار، ليمنحهما بعض الدفء. جمع بعضاً من أوراق الشجر الجافة واستل عود ثقاب، أشعله. لكنه سرعان ما انطفأ. أخذ آخر وطوقه ثم أشعله، لكنه أيضاً خبا بسرعة. الجو رطب وخدّاع. قام من مكانه. نظر الى العربى بعيون يملؤها الألم والجنون. سار المراقب صامتاً الى ما وراء ركام الأحجار، الى المخبأ المتواضع. تناول علبة صغيرة تحتوى على سائل رائق، سكب محتواها على كوم أوراق الشجر، والقى بعود ثقاب مشتعل وقفز مع اللهب المشتعل؛ وبدت عليه السعادة. أخيراً اشتعلت النار. جثا العربى على ركبتيه مندهشاً. وضع المراقب كفيه على اللهب الساخن، وقلده العربى. إنحنيا بجسديهما الى النار التى وصلت لتوها الى قمتها. فكر فى أن يترك اللهب ويمضى لينزل الى البحر البعيد. ما لم تفعله الرغبة يفعله الزمن الملقى هنا بين الأشجار. حاول أن يستجمع أفكاره، لكن ذهنه مشتت. بدأت النار تخبو. وانطفأت بالتدريج تحت قدميه. تحولت تعبيرات وجه العربى الى خيبة أمل بالغة، لقد انطفأت الشعلة، وخبا آخر لهب. كان هذا مجرد توقع. لكن روح المراقب كانت حائرة وممزقة بين وضعين. قام مرهقاً ومضى بعيداً والعربى يجتهد خلفه.

من هذا الذى يجلس على المقعد بجوار طاولة الكتب ؟. فتحت الطفلة عينيها عن آخرهما لترتشف الظلام. لقد أجلسها العربى محل المراقب الجوال. يالها من فكرة جديدة ورائعة.

- ل -

مرت عليه أيام غريبة. إذا قلنا إن الخريف جاء، فإننا لم نقل شيئاً بعد. لقد زاد سقوط أوراق الشجر، وخفّت حرارة الشمس، وبدأت بواكير السحب تدخل الصورة، وهبت ريحٌ خفيفة. بدأ ذهنه يشرد. يكاد يجن؛ فلقد انتهت الحفلات، وعاد المتطوعون الكرماء الى سابق عهدهم، والسائحون الى أعمالهم، والتلاميذ الى دراساتهم. جلس واضعاً ساقاً على أخرى وقد غطته ذرات الرمال. أهمل واجبه. ترك مقعده ومائدته، ومنظاره المخلص الأمين، وبدأ يتجول بصفة دائمة فى الغابة، ليلاً ونهاراً، يحمل فى يده غصنا مكسوراً، يسير ويضرب الجذوع الندية، وكأنه يضع علامة على الأشجار. إنحنى فجأة، ووضع رأسه على إحدى اللافتات البارزة، رفع نظارته وجال بعينيه،

وبرؤية مشوشة من وراء قمم الأشجار، بدا فجأة وكأنه يبكى. خيالات ملوثة. إنشغل باله مرة أخرى. قفز واختفى داخل الغابة، بين الأشواك والصخور. ثبتت فى مخيلته المريضة فكرة أنه مدعو الى لقاء فى طرف الغابة، فى الجانب الآخر. وحينما يخلص من الغابة ويصل الى نهايتها، سواء فى الليل أو فى ساعات الظهر، أو حتى فى ساعات الفجر الأولى، لا يجد أمامه إلا منطقة قاحلة جرداء، بقعة غريبة، وحلما ملعوناً. يقف هناك فترة طويلة فى هذه البقعة الجرداء، ويشعر بأن اللقاء يتم، وبنجاح، وإن كان بلا كلمات. ربيع كامل وصيف طويل وهو يعيش بلا نوم حقيقي، فما العجب إذن فى أن تتحول أيامه الأخيرة الى هذيان.

يئس تماماً من اندلاع النيران. فهذه الغابة لا تأتى عليها النيران. وبالتالى فقد سمح لنفسه أن يتواجد بين الأشجار وليس أمامها. وإرضاء لضميره جعل الطفلة تجلس مكانه. تعلمت الطفلة كلمة "نار" بالعبرية في دقيقة واحدة. لقد كبرت خلال تواجده هنا ! أصبحت الآن مهراً أصيلاً، ذات عيون رائعة. نضجت أعضاؤها فجأة، وتحول تلوثها الى رائحة امرأة. فى الأيام الأولى اضطر والدها المسن الى تقييدها فى المقعد حتى لا تهرب من فرط سعادتها. نعم، إرتبط العربى جداً بالمراقب الذى ترك عمله. أينما ذهب تجد العربى فى أعقابه. منذ تلك الليلة التى أحاطا فيها معاً بالشعلة الصغيرة، وأصيب العربى هو الآخر بوهن الخريف. ترك قطيعه. واصفرت الأعشاب بين أقدامه وذبلت الأشواك. تمدد المراقب فوق أوراق الشجر يراقب من بين الأشجار ذلك الوجه الكئيب الذى يحملق فيه، دائما يتجاهل وجود العربى. يرقد ووجهه نحو السماء. لكنه يقرأ له أحياناً، فيأتى العربى ويجلس بجواره. الرعب والأمل يملآن عينيه. ربما لا يعرف كيف يعبر، فيظل كل شيء بلا معنى.

ولذلك فقد حدثه المراقب عن الحملات الصليبية بصوته الهادىء، الوقور؛ وبنبرة تعليمية واضحة، فأحنى العربى رأسه واستمع الى الكلمات الصعبة والغريبة وكأنه يستمع الى لحن عذب. حدثه عن الحماس فى القتال، وعن شراسته، وعن اليهود المنتحرين، وعن حملة الأطفال الصليبية، التى عرفها من خلال تصفح الكتب، وعن سيناريوهات الأحداث التى اخترعها هو وليس لها أي أساس فى الواقع. إمتلأ صوته نعومة ورقة، وخرج مشبعاً بالخيال. وأنصت العربى باهتمام، وتوتر بالغ، وبدأ يمتلىء بالكراهية. وحينما يعودان فى المساء تعلو البهجة وجهيهما، ويقوم المراقب بمرافقة العربى الى كوخه المغطى بالأشجار. يتوقف عنده قليلاً. وهنا يوضح العربى شيء ما بحركات يده السريعة، الحائرة، محاولاً النطق بلسانه المقطوع. يريد أن يقول إن بيته هنا وأنه كانت هنا أيضاً قرية، وهنا طمروا كل شيء، ضيّعوا معالمها، دفنوها تحت الغابة الضخمة.

تابع المراقب هذا العرض وشعر بنشوة غريبة. ما الذى يجعل العربى محتداً هكذا؟ يبدو أن نساءه قتلن هنا أيضاً. مؤكد أن هناك شيء غامض. تقدم منه ببطء، وتظاهر بعدم الفهم. هل كانت هنا قرية؟ إنه لا يرى إلا الأشجار.

منذ تلك اللحظة لم يفارقه العربى. يجلس ثلاثتهم -أسرة واحدة- فى الغرفة العلوية. المراقب ممدد على الفراش، والطفلة مقيدة فى المقعد، والعربى مستلق على الأرض. هذه هى آخر أيامه فى

هذا المكان، فلقد قارب العقد على الإنتهاء. كثيراً ما نهض والقى بأحد كتبه فى الحقيبة، فينظر اليه العربى بدهشة.

الليالى طويلة.. تمر ببطء. تتداخل حبات المطر مع رياح الخماسين. بدأت السخونة تتسرب الى الرياح. وهدأ البرق فى الأفق. إقترب اليوم الأخير. سيغادر هذا المكان غداً. لقد أدى واجبه بإخلاص. فما ذنبه فى عدم اندلاع حرائق. كل الكتب معبأة داخل الحقائب، وقوافل من الأوراق ملقاة على الأرض. إختفى العربى نهاراً كاملاً. الطفلة حزينة. وأخذت ترفع صوتها بنحيب خفيف. بدأ المراقب يشعر بالقلق. ظهر العربى فجأة فى الظهر، فقفزت الطفلة نحوه، لكنه لم يلتفت اليها، بل توجه الى المراقب الذى سيترك وظيفته. قبض بقوة على يديه. سرت البرودة فى أوصاله. جذبه الى حافة المرقب وأوضح له كل ما يمكن إيضاحه بلغة لا وجود لها. علّه يريد أن يلقى بالمراقب المستقيل من فوق المرقب الى الغابة. يظن أنه قادر على فهمه. عيونه تعبر عن شيء ما. لكن المراقب هادىء، متجاهل لكل ما يحدث؛ يضع كفه على جبهته ويهز كتفيه، ويرسم على شفتيه ابتسامة باهتة.

جذبا الملابس ووضعاها معاً فى الحقيبة الثانية.

إختفى العربى فى المساء. وخرجت الفتاة تبحث عنه، لكنها عادت كما ذهبت. الساعات تمر ببطء. بدأ المطر رذاذاً. أعد المراقب وجبة العشاء وأعطى منها للطفلة، لكنها لا تستطيع أن تأكل شيئاً. عادت تجرى الى الغابة كحية صغيرة تبحث عن أبيها. لكنها عادت ثانية بائسة بمفردها. أخيراً، وفى حوالى منتصف الليل نامت. خلع عنها ملابسها وحمل جسدها الصغير الى الفراش، غطاها بالبطانية الممزقة. إنتابته الدهشة، يوما ما ستنبت منها إمرأة فريدة. شيء ما ينساب بين أصابعه. قدر من العطف عليها. تريث قليلاً، ثم صعد الى المرصد، يغالبه النعاس. جلس على مقعده. لا يدرى أين سيكون غداً؟ هل يودع رجال الإطفاء؟ رفع سماعة الهاتف، الهاتف صامت. الخط مقطوع. لا صافرة ولا حرارة. حتى الصمت المقدس تسلل الى الأسلاك.

إبتسم بارتياح. تحرك العربى فى الغابة الممتدة أمامه، وكان كل شىء هادىء. أخذ ينظر الى العالم حوله كمن يتأهب لمشاهدة مسرحية جادة قبل رفع الستار. إنفعال بسيط، همهمة خفيفة فى المقاعد الوثيرة. مسرح منتصف الليل.

فجأة، إندلعت النيران فى الغابة مرة واحدة. إنطلقت من أحد أركان الغابة وتصاعد لسان لهب طويل قوى. إحترقت إحدى الأشجار. بينما استغرقت أخرى فى الصلاة. صمدت إحدى الأشجار فى يوم قيامتها، لكنها لفظت أنفاسها فى النهاية. رفع سماعة الهاتف. نعم، الخط مفصول. غداً صباحاً سيغادر هذا المكان.

حريق واحد معزول فى الغابة الكبيرة. بدأ يخشى من أوراق الشجر الرطبة، وبعض الأشواك. سوف ينتهى هذا المشهد بحريق واحد. عيونه جامدة لا تتحرك. داهمه النوم فى هذه اللحظة الرائعة بالذات. قام وأخذ يتجول بعصبية فى الغرفة المفتوحة على مصراعيها لكى يزيل عنه الإرهاق. مر وقت طويل وارتسمت فى النهاية إبتسامة على وجهه. بدأ يعد الحرائق. لقد أشعل

العربى الغابة من أركانها الأربعة، ثم أمسك بشعلة فى يده وبدأ يمر فى الغابة وكأنه روحٌ شريرة تشعل ما تبقى من الغابة. فوجىء المراقب بجديته فى أداء عمله. نزل الى الطفلة، وجدها لا تزال نائمة. عاد ثانية الى المرقب، وإذا بالنار قد أمسكت بالغابة كلها. لا بد من الإسراع بالإبلاغ وطلب النجدة. لكن حركاته كانت بطيئة جداً. ثقلت أعضاؤه. نزل الى أسفل مرة أخرى، عدّل من وضع البطانية فوق الطفلة. رفع شعرة عن عينيها، ثم قفل عائداً الى فوق، وإذا بهواء ساخن يلفح وجهه. ضوء مبهر أمام عينيه. إشتعلت الهضاب الخمس كلها. وتصاعدت السنة النيران مجنونة الى قمم الأشجار، تصرخ الى السماء المضيئة. والأشجار تصدر أصوات غناء ثم تنهار. شعر فى داخله بانفعال بالغ، وسعادة غامرة. أين العربى الآن؟ العربى يحدثه بالنار، يريد أن يقول له كل شيء، دفعة واحدة. فهل يستطيع أن يفهم ؟.

شعر فجأة بشيء ما فى الغرفة. لفت رأسه بسرعة وإذا بالطفلة قد استيقظت وصعدت اليه شبه عارية، النوم يمزق جفونها، والنار تنعكس على وجهها. إبتسم لها فى نفس الوقت الذى أخذت تبكى فيه.

تهب من الغابة المشتعلة حرارة شديدة. مرت حالة الإنفعال الأولى. تحولت النيران من نبوءة الى حقيقة. النيران تزور المرقب بانتظام من كل الإتجاهات. عليه أن يحمل حقيبتيه ويهرب خلسة. لكنه لم يحمل معه سوى الطفلة. أصبح ضوء المستوطنات خافتاً قياساً بالأنوار التى أضاءت الغابة. مؤكد أنهم هناك يعتقدون أن رجال الإطفاء يكافحون النيران منذ فترة. من يعتقد أنهم هنا، فى الغابة، لا زالوا يغذون النيران؟ ستمر ساعات قبل أن يوقظ الحراس النائمين. فالليالى باردة ولا يحب أحد أن يخرج من تحت غطائه. نزل الى أسفل. قبض بقوة علي كف الطفلة المرتعدة، وبدأ فى الإنسحاب. الطريق مضاء الى ما لا نهاية. النار خلفه والقمر مبحر فى السماء قرصاً أحمر مشتعل، وكأنه هو الآخر يريد أن يستمتع بمشهد الحريق. ثقلت رأسه. الطريق طويل. زحفا معاً -هو والطفلة- بين النور والظلام. بينما تهمس الأشجار فى الأحراش بانفعال فى انتظار من يطفئها، سرت بينها إشاعة غريبة.

ظهر المراقب من بعيد تحيط به الأضواء من كل جانب. لقد تحررت الأرض من قيودها. بعد فترة طويلة وطريق طويل تقلصت الأشجار من حولهما. صغرت. إختفت. وصل الى البقعة الجرداء، الى الحلم الذى كان يحلمه. وإذا بعدد من الأشجار أمامه. أشجار صحراوية غريبة مشبعة بالأملاح. أشجار إحترقت ثمارها، لكن لم تأت عليها النيران. أجلس الفتاة الحافية على الأرض، وهبطَ الى جوارها. أنهكهما الإرهاق تماماً.

بعيون يغالبها النعاس، رأى سيارات الإطفاء اللامعة، التى يبدو أن شخصاً آخر استدعاها. حتى هم يعرفون أن كل شيء قد انتهى. جاءه العربى فى الحلم -منهاراً، مرهقاً، متفحماً، وقد أخفى وجهه - أخذ الفتاة واختفى. نام. لقد نام فعلاً فى الواقع.

- م -

مع بزوغ الفجر الراعد، الذى تتصاعد فيه الأبخرة، ظهر المراقب من بين الصخور، وأخذ

يلمع زجاج نظارته السميك. ها هو يعود دارساً صغيراً مرة أخرى، ينتظره مستقبل ما. يتصاعد دخان خفيف أزرق من خمس هضاب جرداء متفحمة. وقف مراقب الغابات فوق هذا المشهد الجلي، وكأنه شيطان أسود ضخم يضحك من خلال النوافذ المطلة عليه. بدا للحظة أن الغابة لم تحترق، وإنما أبتلعت وذهبت فى رحلة بعيدة، الى أفق البحر الذى غاص فجأة، ولم يعد له وجود. سرت برودة خفيفة فى أعضائه. عدّل ملابسه، زرّر الزر الوحيد المتبقى فى قميصه، وفرك يديه لتدفئتهما، ثم سار ببطء بين الدخان المتبخر. وعكست صلعته بواكير أشعة الشمس. الأسى يغلف هذا العرى المفاجىء الذى ألّم بالمكان، أسى الحروب الخاسرة، والدماء التى تسفك عبثاً. تحركت السحب الكثيفة فى السماء الباردة. وبدا أن بواكير المطر لم تعد بعيدة. تتناهى اليه أصوات أشخاص من كل صوب. الدمار كامل. لقد تفحمت الغابة، وتدحرجت قطع الأخشاب تئن من جروحها، وبقايا أغصان لم تطلها النار. أينما سار تتطاير جمرات كثيرة. أما لافتات المتبرعين فلم تمس بسوء، بل على العكس، إزدادت بريقاً بعد غزوة النار الأولى. وها هى ترقد مذّهبة فى ضوء الشمس. لويس وفريمنجتون من شيكاغو. ملك بروندى وشعبه.

صعد الى المبنى المحترق، متسلقاً السلالم التى اصطبغت باللون الأبيض. كل شيء ساخن وكأنه يسير فى جهنم. وصل الى غرفته. لقد زارت النار الغرفة أثناء غيابه وعبثت فيها بسعادة. هل نبدأ من الكتب التى أصبحت رماداً؟ أم من الأشياء التى شوهت معالمها؟ أم من المنظار الذى تهشم تماماً ؟. ولكن ياللعجب لقد نجت الخريطة التى رسمها، تفحمت أطرافها فقط. لا زالت السنة النار تتدله بسعادة غامرة داخل الحشية والبطاطين. نظر الى الهضاب الخمس التى يتصاعد منها الدخان. قطّب جبينه. لقد ظهرت أمامه القرية الصغيرة بين الدخان ووسط الضباب؛ ولدت من جديد، ظهرت خطوطها الأساسية وكأنها لوحة تجريدية، ظهرت كأى ماضى انقضى وانتهى. لكنه قطع ابتسامته فجأة، فلقد رأى مشرف الغابات تحته مباشرة، فى الوادى الأزرق، أسفل المبنى، وقد تأذر بمعطف رياح قديم، ووجهه أزرق من شدة البرد. كيف ظهر أمامه هكذا فجأة؟.

أحنى العجوز رأسه الأشيب الى الوراء ورمقه بنظرة تشع كراهية. وبما أنه موجود أعلى فقد بدت نظرته مليئة بالإحتقار والإزدراء. تلاقت نظراتهما لعدة ثوانى. وفى النهاية إبتسم المراقب لرئيسه ابتسامة ماكرة. نزل اليه ببطءشديد. إقترب العجوز منه بخطى سريعة مجنونة. لو كان هذا حقه لمزقه إرباً كالسمكة. كان على وشك السقوط مغشياً عليه من شدة كبحه لغضبه وآلامه. طلب بصوت مخنوق أن يسمع القصة كلها فوراً.

ولكن، هل توجد قصة فعلاً. ببساطة لم تنسج هنا قصة. يمكن أن نقول فى جملة واحدة: لقد ظهرت النيران فجأة. رفعت سماعة الهاتف. الخط مفصول. هذا هو كل شيء. وكان لا بد من إنقاذ الطفلة.

والباقى معروف. نعم، لقد نشأ نوع من العلاقة بين المراقب وهذه الغابة. إرتبط بها جداً فى الربيع والصيف ونصف الشتاء. وإذا شئنا الحقيقة مرة واحدة، فإنه من شدة إرتباطه بها لم يتمكن

من دراسة سطر واحد كما ينبغى.

شعر أن العجوز يريد أن يهوى الى الأرض خائر القوى، ويضرب برأسه فى أى صخرة صغيرة، وينزع ما تبقى من شعيرات بيضاء فى رأسه. إندهش المراقب(سابقاً) لذلك. اليس هناك تأمين على الغابات (على أية حال لا بد أن يكون مؤمنا عليها كما يعتقد)، وبالتالى فالحريق ليس على ميزانية القسم الذى يرأسه العجوز. لقد شعر فى هذا الصباح بصفاء غريب، لذا فقد اهتم جداً بأن يسمع الآن، بالذات، عن أية حرائق أخرى إندلعت فى غابات أخرى. إنه مستعد للتدخل لأنها حتماً ستكون حرائق صغيرة جداً قياساً بالحريق الذى شب عنده.

لكن في تلك اللحظة ظهر من بين الدخان رجال الإطفاء وعدد من رجال الشرطة، يتصببون عرقاً وكأنهم أشباح خرجت لتوها من وسط الضباب. وسرعان ما أحاطت به دائرة من الملابس الرسمية، وسقط بعضهم على الأرض من شدة التعب والإرهاق. صحيح أنه لم يتم بعد محاصرة النار كلها، لكنهم يحملون بشارة مدهشة.

لقد كان الحريق متعمداً.

نعم. متعمد. فرائحة الوقود تفوح مع رائحة الندى.

إندهش العجوز، ونظر اليه بحيرة.

" متعمد؟ ".

لكن المراقب إبتسم له بلا مبالاة.

وبدأت التحقيقات على الفور. أول تحقيق أجراه رجال الإطفاء، لأنهم يجب أن يعدوا تقريرهم. إنتحوا بالمراقب جانباً، أخرجوا أوراقا ضخمة، واستلوا أقلاماً فاخرة، لكنهم يجدون صعوبة فى التحدث بالعبرية، وفى صياغة الكلمات وكتابتها. تملكتهم الحيرة، فساعدهم بلطف وأدب، وأخذ يتهجى لهم الكلمات، وينشىء الجمل. فشكروه جداً على جميل صنعه.

حرصوا على أن يعرفوا: " هل لك أشياء خاصة ضاعت فى الحريق ؟ ".

-" آه، ليس شيئاً معيناً. لقد احترقت ملابسى وبعض الكتب الأساسية، لا تزعجوا أنفسكم بذلك. . . . ".

حينما تركوه كان الصبح قد ملأ المكان. ومن مكان ما برز العربى وطفلته يرافقهما إثنان من الجنود. إذا لم تلتق عيناه بعيونهما المتقدة، فسوف يحظى بنوم هادىء فى الليالى القادمة. قام إثنان من الجنود الأشداء بتجهيز ما يمكن أن نسميه غرفة تحقيقات طوارىء بين ركام الأحجار. أجلساه على صخرة وبدأ التحقيق معه لعدة ساعات متواصلة. أدهشته الإستمرارية والبطء الشديد فى الأداء، والدأب على الإنجاز، صفحات كاملة تتكدس فوق بعضها. بحث حقيقى ينجز أمام عينيه. صعدت الشمس الى كبد السماء. بدأ يشعر بالجوع والظمأ. جلس المحققون أمامه يلتهمون أرغفة خبز منتفخة ولا يعرضون عليه حتى الفتات. غطت الرطوبة والعرق زجاج نظارته. إنه يوم شتوى غريب. وعلى الجانب الاخر، فى داخل المبنى، إهتم المحققون بالتحقيق مع العربى باللغة العربية وبحركات الأيدى، فهو لا يسمع سوى الأسئلة.

ظل مشرف الغابات يهرول بين تحقيق وآخر، يضيف أسئلة ويسجل إجابات. بينما يضغط المحققون على من هو رهن التحقيق ويضيِّقون عليه الخناق، ثم يكررون نفس الأسئلة التى سبق طرحها عليه. تفوح رائحة العفن من الغابة المحترقة وكأن جيفة ضخمة تعفنت حولهم. التحقيق على أشده. الجو كئيب للغاية. ماذا رأى ؟ وماذا سمع؟ وماذا فعل ؟ شيء مهين أن ترتبط كل الأسئلة بالحواس، وكأنها هى الأساس، كأن فكرة لم تضمر هنا منذ وقت بعيد.

فى الظهر تغير المحققون وجاء إثنان جدد، شرعا فى كل شيء من جديد. بدأ العرق يتصبب منه. يالها من إهانة أن يتم معه التحقيق هكذا على الأرض، وفوق الأحجار، بعد ليل حراسة طويل. ياله من خواء. أخذ يبصق، وبدأ يتملكه الغضب. سيفقد تماسكه ويخرج عن شعوره. رفع نظارته. بدأت حواسه تضعف. تناقضت إجاباته. فى الساعة الثالثة إنهار فى يدهم كعنقود عنب ناضج وأبدى إستعداده لأن يضحى بالعربى كحل لمعاناته.

كانوا ينتظرون منه هذه الإشارة. فهم يشكون فى العربى منذ فترة. كبَّلوه على الفور. إنتهى كل شيء بسرعة. تحركت سيارات الشرطة. وضعوا العربى فى إحدى السيارات بسرعة، فلمح فى نظرته سعادة غامرة وإحساس بالبطولة. جرت الطفلة وراءه بائسة. إنتشرت سحب الشتاء، وساد الأسى، وصار كل شيء عدباً لا طعم له. تقدم فجأة من مشرف الغابات وطلب منه بوقاحة أن يجد حلاً للطفلة. لم يرد عليه. ظلت عيناه زائغتان فى الغابة المحترقة، وكأنه يلقى عليها نظرة الوداع. حى هذا العجوز سيجن جنونه، بدأ يفقد حواسه هو الآخر. نظر اليه محملقاً، وكأنه قد ضيَّع الكلمات، ولم يعد يفهم شيئاً. كرر المراقب طلبه بصوت عالٍ. فسار العجوز نحوه.

نظر اليه بعيون معموصة وهمس له بصوت خفيض "ماذا؟" . وفجأة إنقض عليه بقبضة يده وأوسعه ضرباً. أوقفه الجنود بصعوبة. كان من الواضح أنه لا يتهم أحداً سواه، نعم لا يتهم سوى هذا المراقب صاحب الكتب وذو النظارة المشوَشة، البارد بروداً مقيتاً.

خلصه الجنود من بين يديه ووضعوه بسرعة فى إحدى السيارات. كان سلوكهم معه فظاً، وكأن قدراً من الكراهية التى يكنها له مشرف الغابات قد علق بهم أيضاً. لم يتمكن من توديع المكان الذى أقام فيه حوالى ستة شهور، وهو الذى حُمل بسرعة مجنونة الى هذه الغابة. ألقوا به فى أحد الشوارع الجانبية. دخل أول مطعم فى طريقه والتهم الطعام الى أن لامست بطنه الأرض. ثم سار فى الشوارع التى أضيئت فيها الأنوار. ذقنه غير حليقة وملابسه متسخة ووجهه متفحم، باختصار كان حيواناً برياً. ملأت الطرقات أول زخات المطر المتسخة.

فى الليل، وفى داخل فندق منعزل، أصبح من حقه أن ينام نوماً حقيقياً. أول مرة ينام بلا التزامات. سينام نوماً بسيطاً مجرداً، دون أن يكون له أية أبعاد. لكنه لن ينام. سيظل يغفو ويصحو. ستُنبت أمام عينيه الغابة الغاضبة غابات خضراء. وسوف يشعر بالأسى والحنين، والإختناق، لأن أربعة جدران تحيط به وليس ثلاثة.

ونفس الحال فى اليوم التالى، وربما أيضا فى باقى الأيام.

لقد أثمرت العزلة. صحيح أن كل سجلاته احترقت مع الكتب، لكن إذا كان هناك من

يعتقد أنه لا يتذكر شيئاً، فهو مخطىء، لأنه لا زال يتذكر كل شيء بوضوح.

لكنه بات غريباً فى مدينته التى يعرفها جيداً. يبدو أنهم نسيوه تماماً وظهر جيل جديد خلفاً للجيل الذى يعرفه. يقابله أصدقاؤه الساخرون، يربتون على كتفه، مختبئين وراء ضحكات كريهة. يقولون له "سمعنا أنه احترقت لك غابة". لكن أصدقاءه الحقيقيين يئسوا منه تماماً.

جاءهم فى ليل الشتاء يرتعد من شدة البرد-كلباً مبتلاً يبحث عن ضوء ونار-لكنهم لايحسنون استقباله، ويسألونه:

" فيم مجيئك الآن ؟. هل تريد شيئاً ؟".

(١٩٦٣)

***

عاموس عوز

البدو والأفعى

- أ -

لقد دفع بهم الجوع الى هنا.

هربوا بقطعانهم المتربة الى الشمال بعد أن اشتد بهم الجوع. لاحقتهم اللعنة، فلم تنزل حبة مطر واحدة على النقب منذ تشرين وحتى نيسان. وتحولت الأرض الطينية الخصبة الى غبار. وانتشر الجوع فى المخيمات واستشرى بين قطعان البدو.

أسرعت السلطات العسكرية بدراسة الحالة. وعلى الرغم من التخبطات، فقد قررت السلطات فتح الطرق المؤدية الى الشمال أمام البدو؛ لأنه لا يمكن التضحية بقطاع كامل من المواطنين، رجالاً ونساء وأطفال،وتركهم نهباً للجوع. تحركت القبائل البدوية كالبحر على طول الطريق الترابى، وكلها إصرار وعناد، وسحبت قطعانها معها. إتخذوا خط سير متعرج فى قنوات خفية عن عيون السكان المحليين. تدفق تيار جارف نحو الشمال، تجاوز المواقع الإستيطانية، وحملق بعيون واسعة فى مشاهد الأرض الموعودة. إنتشرت قطعانهم السوداء فى الحقول الصفراء المحصودة والتهمت الحصاد بأسنان قوية جائعة. وظلت تحركات البدو سرية، تخضع لرقابة صارمة، بعيداً عن العيون المتربصة.حرصوا على عدم الإصطدام بأحد، وتطلعوا الى تقليص الإحساس بوجودهم.

تمر أمامهم بجرارك الهادر، وتذرى عليهم حبيبات الرمال، فيجمعون قطعانهم ويفسحون لك الطريق لتعبر من مساحة أكبر مما تحتاج. لا يكلون من النظر اليك عن بعد. يقفون كتماثيل جامدة. ويشوه الهواء الجاف تعبيرات وجوههم، ويمنحهم جميعاً سحنة واحدة، الراعى وعصاه، المرأة وطفلها، العجوز وعيونه الغائرة. بعضهم شبه أعمى، أو لعلهم يتظاهرون بذلك للتسول. لا يمكن لمثلك أبداً أن تسبر أغوارهم وتفهم مبتغاهم.

لا وجه شبه بين قطعانهم الهزيلة وقطعاننا المسمّنة: جباه متشققة، بارزة، عظام متداخلة، تسير معاً فى كتلة واحدة مرتعدة. تقطع الطريق فى صمت، تشعر بالمذلة والهوان مثل رعاتها البؤساء.

لم ينشق على هذا الخنوع سوى الجِمال، التى تثبت عيونها المرهقة عليك من فوق رقابها، ترمقك بنظرة كلها بؤس. وكأن الشيخوخة قفزت على عيونها، ولا أجد ما أسمّي به الرعشة

الخفيفة المتصلة فى جلود هذه الجمال.

يمكنك أحياناً أن تفاجئهم عن قرب. فقد تجد نفسك حينما تعبر الحقول أمام قطيع كسول يفترش الأرض فى مكانه، وقد أعيته الظهيرة، وكأنه ضرب جذوره فى الأرض الجافة القاحلة. وتجد الراعى نائماً وسط القطيع، ساكناً وكأنه كتلة من البازلت. إقترب منه والق عليه بظلالك مباشرة، ستندهش حينما تدرك أن عيونه مفتوحة، وقد كشف عن أغلب أسنانه بابتسامة بلهاء. تمعن فيها، بعضها لامع وبعضها عفن. رائحته تتشبث بك، فتزم شفتيك. وتتنزل قسمات وجهك المشمئزة عليه وكأنها ضربة قبضة يد. فينهض بسرعة وبحركة خفيفة، يحنى جسده ويقلص أكتافه. أنظر اليه بعيونك الزرقاء الشفافة، فتتسع ابتسامته وينطلق صوت من حلقه. ملابسه رثة، رداء قصير مليء بالرقع وتحته جلباب صحراوى أبيض. يشيح بوجهه عنك. وإذا لم تصرخ فيه، فإنه سيمد يده اليسرى فجأة ويطلب منك سيجارة بالعبرية. نعومة الحرير فى صوته، وكأنه صوت امرأة خجلى. وإذا رق قلبك له، فادفع بسيجارة الى فمك والق بأخرى فى راحة يده المشققة. وستندهش حينما تراه يخرج من قاع جلبابه بسرعة قدّاحة مذّهبة ويشعل لك سيجارتك. الإبتسامة لا تفارق شفتيه. إبتسامة طويلة، لا معنى لها. وتنعكس أشعة الشمس على الخاتم الذهبى الجميل الذى يزين إصبعه، ثم تعود لتبرق فى عينيك المرتعدتين.

وفى النهاية تدير ظهرك له وتمضى الى حال سبيلك. بعد مائة أو مائتي خطوة، أدر رأسك وانظر اليه، ستراه واقفاً كما تركته ونظرته تثقب ظهرك. ويمكنك أن تقسم على أنه لا زال يبتسم. وسيواصل الإبتسام ساعة أخرى.

أما غناءهم فى الليل،فإنه يبدو كنحيب حزين مستمر، يسرى فى فضاء الليل من الغروب وحتى الساعات الأولى من الفجر. وتنساب الأصوات الى داخل الكيبوتس وحدائقه، تثرى ليالينا بعناد وإصرار. تصعد الى مرقدك فى الليل وإذا بدف بعيد يضبط لك إيقاع نومك، وكأنه دقات قلب عنيد. الليالى دافئة ويتصاعد فيها البخار. وتتف السحاب تلامس القمر وكأنها جمال سريعة تحل ضيفة عليه، جمال بلا سنام.

وخيام البدو مصنوعة من أسمال سوداء. النساء الحافيات يتجولن هناك ليلاً ولا يسمع لهن صوت. كلاب البدو نحيلة وشرسة، تقف خارج المخيم تنبح للقمر طوال الليل. نباحها يهيج كلاب الكيبوتس. وذات ليلة أصاب السعار أفضل كلابنا، فاقتحم مزرعة الدواجن وافترس الفراريج. ولم يخطىء الحراس حينما أطلقوا عليه النار. حكمت الظروف ألا تكون هناك وسيلة أخرى. وأي إنسان عاقل يؤيد ما فعله الحراس.

- ب -

قد تخطىء حينما تعتقد أن غزو البدو يثرى ليالينا التى يغلفها الحر القائظ بأي قدر من السعادة والغناء. ربما إعتقدت ذلك بعض الفتيات الخاليات، لكننا نحن لا يمكن أن نقف صامتين إزاء سيل الأخطاء الوحشية، بل والكئيبة مثل: الحمى القلاعية، وتدمير الأراضى الزراعية وبعض السرقات الصغيرة.

لقد جاء المرض من الصحراء، يحمله روث البهائم التى لم تخضع لأي مراقبة أو متابعة بيطرية كما ينبغى. وعلى الرغم من أننا أسرعنا ببعض الإجراءات الوقائية، الا أن الوباء تفشى بين أغنامنا وأبقارنا وانخفض إنتاج اللبن، كما نفقت بعض البهائم.

وبالنسبة للأراضى المدمرة، فيجب أن نعترف بأننا لم ننجح أبداً فى وضع يدنا على أى بدوى لحظة ارتكابه الجريمة. فلم نجد سوى آثار إنسان أو حيوان فى حقول الخضروات وأراضى الكلأ، بل وحتى فى داخل البساتين التى تحيطها الأسوار. يضاف الى ذلك أيضاً التخريب الحقير فى قنوات الرى، ورايات الإرشاد فى أطراف الحقول، والأدوات الزراعية والمعدات التى تركت فى الحقل.

وفى الحقيقة، نحن لسنا ممن يبالغون ولا نؤمن بالمبالغة أو اختراع القصص. وينطبق هذا أساساً على بعض شباب الكيبوتس؛ لكن هناك العديد من المؤسسين ممن يتمسكون بأفكار تولستوى، وما شابهها. وبسبب قيود السياق، لن أتحدث هنا تفصيلاً عن بعض الأعمال الإنتقامية والشاذة من جانب بعض الشباب الذين ضاقوا ذرعا، وتتلخص فى مصادرة بعض الممتلكات وقذف الأحجار على شاب بدوى مشتبه فيه، وأيضاً ضرب أحد الرعاة حتى الإغماء بجوار صنبور المياه فى أقصى الأرض الشرقية. وأقول صراحة، دفاعاً عن آخر الأعمال الإنتقامية، إن سحنة هذا الراعى دلت عليه: لقد أقسم كل منفّذي العملية على أنه كان بعين مغلقة وأنف أفطس، وخط من اللعاب يسيل من فمه؛ أما أصداغه فقد برزت منها أسنان طويلة مدببة مقوسة كأسنان الثعلب. إنسان كهذا يمكن أن يرتكب كل المحظورات، ومن المؤكد أنهم لا يمكن أن ينسوا الدرس.

أكثر ما يزعجنا هو قضية السرقات. فهم يسرقون الفواكه الحصرم من البساتين، ويخلعون رؤوس الصنابير، وكل يوم تنقص أكداس العبوات الفارغة فى الحقل، يتسللون الى الحظائر، بل إن يدهم وصلت الى الأشياء الثمينة المتواضعة الموجودة داخل مساكننا.

ويشترك الظلام فى جرائمه. فهم يهربون كالريح الى داخل المخيم. ولم يُجدِ الحراس الذين وضعناهم ولا الحراس الذين أضفناهم لتعزيز القوة الأولى. كنا نضطر أحياناً الى السير فى منتصف الليل لنغلق صنابير المياه فى حقل بعيد، ونركب الجرار أو نقود السيارة الجيب المتهالكة فتصطاد كشافات الإضاءة فجأة بعض الظلال الهاربة؛ إنسان أو حيوان ليلى. فى إحدى الليالى قرر حارس منفعل استخدام سلاحه، فقتل فى الظلام إبن آوى ضال.

ومن الطبيعى ألا تهتم سكرتارية الكيبوتس بهذا الموضوع. مرة أومرتين فقط إهتم أتكين، سكرتيرالكيبوتس باستدعاء قوات الشرطة. لكن الكلاب البوليسية خذلته وخيبت الآمال. فبعد أن اقتادت الجنود المسكين بها بضع خطوات خارج أسوار الكيبوتس، رفعت أنوفها السوداء، وأصدرت أصوات نباح متوحشة وحملقت أمامها بنظرات مبهمة.

ولم تُجدِ أيضاً الغارات المفاجئة التى قمنا بها على مخيماتهم البالية، وكأن الأرض نذرت نفسها للتغطية على أعمال السلب والنهب، وعملت ضد المنهوبين. وفى النهاية جلبنا شيخ القبيلة الى سكرتارية الكيبوتس، ومعه إثنان من البدو، دخلوا بتعبيرات جامدة عن يمينه ويساره، وأخذ الجنود يدفعونهم باستياء ويكررون عليهم: ياله، ياله. . .

أما نحن أعضاء الكيبوتس فقد تصرفنا مع الشيخ ورجاله بأدب واحترام بالغ. دعوناهم للجلوس على المقاعد. إبتسمنا لهم، قدمنا لهم القهوة الساخنة التى أعدتها "جئوله" كتحية لهم، بناء على طلب خاص من أتكين. ومن جانبه بادلنا الشيخ الإحترام البالغ، وعبارات التحية والتمنيات الطيبة. كما وزع علينا أيضاً إبتسامة طويلة ومتساوية منذ بداية الحديث وحتى نهايته. وصاغ الجملة بلغة عبرية سليمة.

إعترف لنا أن عدداً من شباب القبيلة سرقوا ممتلكاتنا، فما سبيل الى الإنكار. فالشباب غير مهذب، لا يحفظ أعرافاً ولا تقاليد. لم يعد العالم كما كان ويسير من سيء الى أسوأ. وهاهو يتشرف بطلب العفو منا وإعادة كل المسروقات. وكما يقول المثل: "الممتلكات المسروقة تغرس أسنانها فى لحم السارق ". هذا هو الحال. لا تجد أى نصيحة مع تهور هؤلاء الشباب. وأعلن عن عميق أسفه على القلق والإستياء الذى سببوه لنا.

مد يده فى خباء جلبابه وأخرج منه بعض المسامير، بعضها لامع والآخر صدىء، قصافتين، ونصل سكين، بطارية جيب، مطرقة مكسورة وثلاث ورقات مالية تفوح منها رائحة عفنة، وقدمها كتعويض عن الضرر والأسى الذى لحق بنا.

مد أتكين يده بحيرة، ولأسباب خاصة به لم يفصح عنها، إختار أن يتجاهل اللغة العبرية التى يتحدث بها الضيف ورد عليه بعربية ركيكة، مما يذكره من دراساته أيام المعارك والحصار. بدأ أتكين حديثه بمقولة سليمة واضحة عن أخوة الشعوب، التى تعد حجر الأساس التى بنينا عليها وجهة نظرنا، وعن عنصر حسن الجوار الذى تتفاخر به شعوب الشرق منذ الأزل، وعن العديد من أيام سفك الدماء والكراهية التى لا طائل منها.

يحق لأتكين أن نقول عنه إنه لم يخش من التحدث بالتفصيل أمام الضيف عن قائمة محددة من أعمال السرقة والأضرار والتخريب التى تجنب الضيف ذكرها والإعتذار عنها. وقال إذا أعيدت كل المسروقات، وإذا توقفت كل الجرائم تماماً، فإننا على استعداد كامل لفتح صفحة جديدة فى علاقات الجوار. ومن المؤكد أن الفائدة ستعم على أولادنا من ذلك، ويستفيدون كثيراً من الزيارات الدراسية لمخيمات البدو، وهى من الزيارات التى تلعب دوراً هاماً فى توسيع الأفق والمدارك. ومن الممكن بعد هذه الزيارة أن يأتى أولاد القبيلة لزيارة منازلنا فى الكيبوتس، من أجل تعميق الفهم المتبادل.

حاول الشيخ الحفاظ على ابتسامته كما هى، ولاحظ بين كلمات الترحيب أن السادة فى الكيبوتس لا يمكنهم تقديم أى إثبات على وجود سرقات أخرى، بخلاف تلك التى اعترف بها وطلب السماح فيها. واختتم كلماته بعبارات تهنئة وتمنى لنا موفور الصحة والحياة والنسل والزرع الطيب، ثم ودعنا وانصرف. اختفى وراء السور هو ومرافقوه الحفاة، ولأن الشرطة لم تنفعنا، بل أنها نأت بنفسها عن التحقيق، فلقد جاء عدد من الشباب واقترحوا أن نمتطى الخيول ليلاً ونلقنهم درساً جيداً باللغة التى يفهمونها جيداً واعتادوا عليها.

رفض أتكين اقتراحهم بتقزز وقدم مبررات جيدة للرفض؛ وأثناء تبادل الحديث وجه الشباب

لأتكين العديد من التعبيرات التى تعوقنى قيود الأدب عن ذكرها تفصيلاً. ومن الغريب أن أتكين إبتلع الإهانة، بل وجد أنه من الأجدى الإستجابة لهم ووعد بطرح اقتراحهم للنقاش أمام سكرتارية الكيبوتس. ربما لأنه خشى من إنفلات الأعصاب وتطور الوضع.

وعند الغروب مر أتكين على حجرات السكرتاريه، دعاهم جميعاً الى جلسة عاجلة فى الثامنة والنصف. وما أن وصل الى غرفة جئوله حتى حدثها عن أفكار الشباب وعن الضغط غير الديموقراطى عليه، وطلب منها أن تحضر معها الليلة الى جلسة السكرتارية غلاية قهوة سوداء وكثير من حسن النية. ردت جئولة بابتسامة باهتة. كانت عيونها نائمة، لأنه أوقظها بحضوره من غفوة خاطفة. وما أن استبدلت ملابسها حتى أقبل الليل، لكن الجو لا زال رطباً، حاراً.

- ج -

جنَّ الليل وحل الظلام على مساكن الكيبوتس، ولا زال الجو رطباً وحاراً، مما أثر على أشجار الصفصاف التى اعتلتها الرمال، وأعاق النجيل الأخضر وشجيرات الزينة عن النمو. فتحت مرشات المياه على النجيل الظمآن، لكن سرعان ما ابتلعت المياه وربما تجمعت واختفت حتى قبل أن تلمس النجيل. دق جرس الهاتف بعصبية مستمرة فى غرفة السكرتارية المغلقة. كانت كل جدران المبنى تشع بخاراً ندياً، وتصاعد من مدخنة المطبخ عمود دخان رفيع إتجه الى عنان السماء، لأنه لا توجد رياح تفرّقه. علت فجأة صرخة من عند الأحواض المدهنّة. لقد كُسِر طبق فجرح شخصا ما حتى سال منه الدم. قط سمين إفترس سحلاة أو ثعبان، وسحب صيده الى الطريق الإسمنتى الساخنة وأخذ يلهو به بتكاسل فى ضوء المساء الخافت. بدأ جرار قديم يلفظ أنفاسه حتى اختنق تحت إحدى المظلات، إنطلقت منه رائحة وقود عفنة، وأخذ يزأر ويتلوى، وفى النهاية نجح فى التحرك من مكانه ونزل بوجبة العشاء لعمال الحراسة الثانية فى أحد الحقول البعيدة. لمحت جئولة بجوار شجرة الزينة زجاجة متسخة علق بها سائل لزج. ركلتها، عاودت ركلها ثانية، لكن الزجاجة لم تتحطم، بل تدحرجت بتثاقل الى ما بين شجيرات الورد. أمسكت جئولة بحجر كبير وحاولت إصابة الزجاجة، شعرت برغبة عارمة فى تحطيمها. لكن الحجر أخطأ الهدف. أخذت بعد ذلك تطلق صافرات معبرة عن سعادة داخلية.

جئوله فتاة قصيرة القامة، نشطة؛ فى التاسعة والعشرين من عمرها. وعلى الرغم من أنها لم تتزوج بعد، إلا أن أحداً فى الكيبوتس لا يدرك خصالها الحميدة. مثل تفانيها فى المشاكل الإجتماعية والنشاطات الثقافية المحلية. وجهها شاحب ونحيف ولا يضاهيها أحد فى إعداد القهوة اللذيذة، التى نسميها عندنا قهوة تبعث الموتى من القبور. ويبرز لديها طابع حسن فى وجنتيها.

فى ليالى الصيف، وحينما نفترش بطانية فوق أحد الممرات الخضراء ونطلق النكات والأغانى المرحة مع دخان السجائر، كانت جئولة تجلس وحيدة فى غرفتها ولا تنضم الينا قبل أن تعد غلاية مليئة بالقهوة الساخنة اللذيذة. وهى دائماً تهتم بالشطائر وتحرص على وجودها بصفة دائمة.

ليس من مجال هنا لما كان بينى وبينها، سأكتفى بإشارة أو إشارتين. منذ فترة طويلة كنا نتنزه معاً فى البساتين قبل حلول الليل، نتجاذب أطراف الحديث. لكن هذا كله مضى عليه زمن ولم يعد

له وجود. إعتدنا آنذاك تبادل الأفكار الإجتماعية غير التقليدية أو التناقش حول الأدب الناهض. كانت جملها حادة، لا ترحم؛ ووضعتني فى حيرة بالغة. إنها لا تحب القصص التى أكتبها، لما تتضمنه من استقطاب متطرف ومشاهد وشخصيات لا تروق لها. كانت تقول دائماً: لا توجد ألوان وسط بين النور والظلمة. فأقدم لها المبررات أو أنكر. لكن كان لديها دائماً إثباتات وبراهين وكان تفكيرها منظما دائما. كنت أتجرأ أحياناً وأضع يدى على ظهرها لاسترضائها، وأنتظرها حتى تهدأ. لكنها لا تعرف الراحة أبداً. إذا إتكأت عليَّ مرة أو مرتين، فإنها تتهم دائماً حذاءها المقطوع أو رأسها الذى يؤلمها مما اضطرها الى الإرتكان اليَّ. وهكذا انتهت علاقتنا. وما زالت حتى الآن تحكم على قصصى من خلال الدوريات التى تنشر فيها، وترتبها فى ملفات من الكرتون فى درج خصصته لها فقط.

لا زلت حريصاً على أن أهديها ديوان لأحد الشعراء الجدد فى عيد ميلادها. أتسلل إلى غرفتها أثناء غيابها وأترك الكتاب على المائدة بدون إهداء ولا تحية أو أى علامة. وأحياناً تجمعنا الصدفة على مائدة واحدة فى غرفة الطعام. فتتهرب عيناى من نظراتها، حتى لا يصدمهما بريق عينيها الساخر. وفى الأيام الحارة، حينما تتصبب الوجوه عرقاً، يحمَّر حب الشباب فى وجنتيها وتبدو وكأنها فقدت الأمل فى الزواج. وحينما يأتى الخريف ويبدأ البرد، تبدو كأنها أكثر جمالاً وجاذبية. فى هذه الأيام إعتادت الخروج الى البساتين قبل حلول الليل. تذهب بمفردها وتعود بمفردها. يأتينى بعض الشباب يسألوننى عما تبحث هناك، وتعلو وجوههم إبتسامة خبيثة. أرد بأنى لا أعرف، وفى الحقيقة فإننى لا أعرف فعلاً السبب فى خروجها بمفردها.

- د -

إمتلأت جئوله غيظاً وهى تقبض على آخر حجر لتلقى به على الزجاجة. لم تخطىء الهدف هذه المرة. لكنها أيضاً لم تحظ بسماع صوت التحطم الذى تاقت له؛ إحتك الحجر بالزجاجة وسمع صوت رنين خافت. وتدحرجت الزجاجة تحت إحدى الشجيرات. أما الحجر الثالث فقد كان أكبر وأثقل من الحجرين السابقين، ألقته من مسافة قريبة جداً بصورة تبعث على الضحك؛ فقد داست على قعر الزجاجة وكادت تقف فوقها، وقذفتها بالحجر. فى هذه المرة سمع صوت تحطم مكتوم. ومع ذلك فإنها لم تفرغ شحنة انفعالها ولم تهدأ بالاً.

نزل المساء رطبا، وحارا، أخذت حرارته تلهب الجلد كجزازات الزجاج. عادت جئوله أدراجها، ومرت أمام شرفة غرفتها، فالقت بحذائها الى الداخل ونزلت حافية الى الطريق الترابى.

داعبت الكتل الترابية راحتيها، وحدث إحتكاك حاد مع زلط الطريق. إرتعدت فرائصها وتدفقت فى أعصابها هزات تدليك مكبوتة. انتظرتها وراء الهضبة الصخرية عدة أشياء مظلمة: البستان بعد أن ودعه آخر ضوء. ورائحة الثمار الناضجة ورائحة أوراق الشجر الذابلة على الأرض. أخذت الفتاة توسع فى فتحة الجدار بأصابع حادة صارمة، حتى تمكنت من عبورها. فى تلك اللحظة هبت نسمة المساء اللطيفة.

كانت نسمة صيفية منطلقة بلا اتجاه محدد. وبدأت الشمس المتأهبة للرحيل تتحرك فى اتجاه

الغرب وكأنها تتطلع الى الضياع داخل الآفاق المتربة. جرار آخر يشق طريقه بصخب فى الطريق الترابى، قادم من الأراضى البعيدة، الى المركز. من المؤكد أنه الجرار الذى أنزل وجبة العشاء لأفراد الحراسة الثانية. ظهر الجرار وقد غمره الدخان أو بخار الصيف.

إنحنت جثوله لتجمع بعض الأحجار الصغيرة من بين الرمال. بعد ذلك، وعن غير وعى، أخذت تقذف بهذه الأحجار ثانية الى التراب، حجراً حجراً وعلت شفتيها أبيات من أشعار بعض الشعراء الشبان الذين تحبهم وتحب أشعارهم. توقفت بجوار أنبوب الرى، إنحنت اليه، شربت منه وكأنها تقبّله. لكنه صديء ولا زال ساخناً، ومياهه تبعث على القيء. ومع ذلك فقد أحنت رأسها وتركت الماء يغسل وجهها ورقبتها وداخل قميصها. ملأ حلقها طعم حامض. صديء وتراب رطب. أغلقت عينيها ووقفت صامتة. لا تشعر بالبرد ولا الإنتعاش. قد تحتاج الى قدح من القهوة. لكن بعد أن تعود من البستان. عليها الآن أن تذهب من هنا.

- هـ -

إمتلأت البساتين بالثمار وانتشرت رائحتها العطرة. وتجمعت الأغصان المثمرة المتشابكة فوق صفوف الأشجار وكأنها مظلة، بينما حافظت الأرض تحتها على نداوتها بعد أن ارتوت بالمياه. وتراكمت الظلال تحت جذوع الأشجار. قطفت جثوله ثمرة خوخ، إشتمتها ثم دعكتها. سال منها عصير سميك. شعرت الفتاة بالنشوة من هذا المنظر. إنتشرت رائحة الثمرة. دعكت ثمرة أخرى. وتابعت قطف الثمار ودعكها فى وجنتها حتى سال منها الدم. جلست بعد ذلك على ركبتيها وأخذت تجمع الكلأ الجاف تنقش به صوراً على الرمال. رسمت خطوطاً مستقيمة ومتعرجة بلا معنى. طغت الزوايا الحادة وأنصاف الدوائر على الرسم. تناهى الى مسامعها فى البستان صوت رغاء قادم من بعيد وصلصلة أجراس مكتومة تسمع بالكاد. جفلت جثوله. توقف البدوى وراء ظهرها، لم يصدر عنه أى صوت، كان صامتاً كالبخار، وأخذ ينقر بإصبع قدمه فى الرمال. كان ظله يسبقه.

أعمى الإنفعال عيون الفتاة، لم تر ولم تسمع. مكثت فترة طويلة جاثية على ركبتيها ترسم صوراً على الرمال بالكلأ الجاف. إنتظرها البدوى بصبر وصمت مطبق. كان أحياناً يغلق إحدى عينيه ويحملق فيها بعينه الأخرى. وفى النهاية رفع يده بلا مبالاة وأخذ يهْوى بها طويلاً. إستجاب ظله له وانعكس على الرمال. إنزعجت جثوله. أسرعت بالنهوض واعتمدت على أقرب شجرة، وصدر عنها صوت خفيض. هز البدوى كتفيه وابتسم لها إبتسامة باهتة. رفعت جثوله ذراعيها، وقذفت بالكلأ الذى تبقى فى يدها فى الهواء. إستمر البدوى يبتسم لها. إنسحبت نظرته الى راحتى أقدامها الحافية. وحدثها بصوت هامس، بعبرية نادرة فى نعومتها:

" ما الساعة الآن ؟ ".

إستنشقت جثوله الهواء حتى آخر حدود سعة رئتيها، وتجمدت تعبيراتها، وأخذت ترمقه بنظرات باردة. ثم أجابت بصوت جاف رنان:

" الساعة الآن السادسة والنصف تماماً ".

إتسعت إبتسامة العربى، وانحنى قليلاً شاكراً لها بالغ كرمها:
" شكراً جزيلاً، ياسيدتى ".

فى تلك اللحظة غاص إبهام قدمه عميقاً فى الأرض الرطبة، فأخرجت الأرض الطينية ماءها وكأن نبتاً منزعجاً نبت منها فى تلك اللحظة.

أخذت جئوله تزرر الزر الأعلى فى قميصها بجدية. برزت تحت إبطها حبات عرق كثيفة. شمّت رائحة جسدها فاتسع منخارها. أغلق البدوى عينه المفتوحة. ورفع وجهه اليها. تقلصت عينه المفتوحة. بشرته داكنه. وظهرت بوضوح خدوش غائرة فى وجنتيه. لم تر جئوله من قبل إنساناً أغرب من هذا، فله رائحة غريبة ولون غريب وأنفاس لم تألفها من قبل. أنفه رفيع وطويل، وربما أيضاً معكوف قليلاً، يظهر تحته شارب أسود. أما جلد وجنتيه فإنه غائر داخل تجويف الفم. والشفتان مدببتان نديتان بدرجة مدهشة، وأرفع بكثير من شفاها هى. لكن ذقنه تبدو وكأنها تشع احتقاراً أو مرارة.

أى جمال فى هذا الرجل. ليس به شيء جميل بالمرة.

وجدت نفسها دون أن تدرى تستجيب له بابتسامة باهتة، ساخرة، رداً على ابتسامته الدائمة. أخرج البدوى سجائر ملفوفة من جيب خفى فى صديريته، أعد سيجارتين على راحة يده السمراء، وقدم إحداها للفتاة. قلصت إبتسامتها، وهزت رأسها مرتين، مررت السيجارة بين أصابعها ببطء وكأنها فى حلم. سوّتها، ثم قربتها من شفتيها. وبسرعة البرق، وقبل أن تفهم معنى حركة جسده المفاجئة، وجدت أمامها شعلة صغيرة. أهلت جئوله بيدها على القداحة التى أمسك بها الرجل على الرغم من أنه لا توجد رياح فى البستان، جذبت نفساً، ثم أغلقت عينيها. أشعل البدوى السيجارة الثانية، وقال بأدب جم، وبصوته الحريري الناعم:

" شكراً جزيلاً ".

ردت جئوله: " شكراً. الشكر لك أنت ".

-" هل أنت من الكيبوتس؟ ".

أكدت جئوله له ذلك بهز رأسها.

إنطلقت من بين أسنانه البيضاء كلمة " حسناً " بنبرة طويلة.

إستعرضت جلبابه الأسمر، الصحراوى، بعيونها، ثم قالت:

" ألا تشعر بالحر داخل هذا الشيء؟ ".

رد الرجل بابتسامة حائرة، مدركاً أنها تسخر منه. تراجع الى الوراء خطوة دون أن تشعر:

" لا أعتقد أن الجو حار. لماذا تقولين ذلك؟ لدينا هواء.. وماء... ". ثم لاذ بالصمت.

بدأ الظلام يحل على قمم الأشجار. وشم إبن آوى رائحة الليل فأطلق عواءً مرهقاً. وامتلأ البستان بخشخشة أقدام صغيرة. ورأت جئوله فجأة أعداداً غفيرة من الماعز الأسود تتدافع الى الداخل مهرولة خلف سيدها. إنطلقت بلا صوت بين أشجار الفواكه. قلصت جئوله شفتيها وأطلقت صافرة دهشة خاطفة:

" ماذا تفعل هنا؟ هل أنت لص؟ .

إنكمش البدوى وكأن حجراً طائشاً أصابه. وأخذ يضرب بقبضته على صدره، ثم قال بصوت مكبوت:

" لا لست لصاً، حاشا لله أن أكون كذلك. أنا فى الحقيقة لست بسارق" . وأقسم على ذلك كثيراً ثم عاد الى ابتسامته الصامتة. وأخذ حاجب عينه المفتوحة يهتز بصورة عصبية. فى تلك اللحظة جاءت عنزة نحيفة وأخذت تحتك بقدميه. أبعدها بركلة وحشية، ثم عاد بحماس الى قسمه؛ " لست لصاً، والله لست لصاً. السرقة حرام ! " .

أجابت جئولة بابتسامة جافة خبيثة: "حرام فى التوراة. لقد جاء فى التوراة لا تسرق، لا تقتل، لا تشته، لا تزنِ. من الذى يشك فى هذا الجيل ؟ " .

إنهالت الكلمات سريعة كالسيل على العربى، فغض بصره الى الأرض. ولاذ بالصمت. شعر بأنها تتهمه. لا زالت قدمه تغوص فى الطين، ولم يهدأ. حاول الآن أن يصالحها. إزداد تقلص عينه المفتوحة، فانتابها الذعر؛ أليست هذه غمزة. وسرعان ما تلاشت الإبتسامة عن شفتيه، وقال بهمس متواصل وكأنه يصلى:

" أنت فتاة جميلة. . فعلاً . . فتاة رائعة الحسن. ليس لى فتاة، فأنا لا زلت صغيراً. لم أتزوج بعد. . ! " . وأنهى حديثه معها بصيحة مدوية على عنزة جريئة ركنت مقادمها الى أحد الجذوع وأخذت تقضم بسعادة. نظرت العنزة الى سيدها بشك، وفضول، وهزت ذقنها ثم واصلت إفتراس اللحاء بكل همة ونشاط.

فجأة قفز الراعى فى الهواء بمرونة فائقة، وأمسك بخاصرتى العنزة، ورفعها فوق رأسه، وأطلق صيحة وحشية مخيفة ثم القى بها الى الأرض بلا رحمة. ثم بصق والتفت الى الفتاة قائلاً:

" بهيمة. ما العمل، ليس لديها عقل ولا حياء " .

إبتعدت الفتاة عن الجذع الذى ارتكنت اليه ومالت على البدوى. سرت فيها رعشة ممتعة. لا زال صوتها بارداً:

" هل لى فى سيجارة أخرى؟ . هل لديك سجائر؟ " .

نظر اليها البدوي نظرة حزينة، وبدا يائساً. برر لها موقفه. إستفاض فى إيضاح أنه لم يعد لديه سجائر. للأسف. كنت أود أن ألبى طلبك. لقد نفدت كل السجائر.

تمطت العنزة المضروبة ونهضت. إستدارت بحذر ومكر وعادت الى الشجرة من جديد. أخذت تتابع حركات سيدها بطرف عينها. راقبها الراعى دون أن يتحرك. رفعت العنزة نفسها، وركنت مقادمها من جديد على جذع الشجرة وعادت تقضم بارتياح. حينئذ أمسك العربى بحجر ثقيل ورفع يده بوحشية. أمسكت جئوله بذراعه وأحبطت حركته:

" أتركها. لماذا تضربها، أتركها. إنها لا تفهم شيئاً. أليست بهيمة كما قلت، ليس لها عقل ولا حياء " .

إنصاع لها البدوى والقى الحجر من يده باستسلام كامل. حينئذ تركت جئوله ذراعه. عاد

وجذب القداحة من صديريته، وأخذ يلهو بها بأصابع نحيلة مترددة. إنطلق منها لهب صغير بالصدفة، فأسرع بنفخه. إتسعت النار قليلاً، ثم خبت. بعد ذلك، وعلى مقربة منهما صرخ إبن آوى صرخة شديدة. حينئذ إنضم قطيع الماعز الى العنزة الأولى واستغرقوا معاً فى قضم سريع، صاخب.

تناهى الى مسامعهما ما يشبه النحيب من خيام البدو فى الجهة الجنوبية، وتضبط إيقاعه دقات طبل ثابتة. الشباب السمر يجلسون هناك حول النار ويرسلون الى الفضاء أغانى ذات نبرة وإيقاع واحد. يستقبل الليل الأغنية ويرد عليها بجوقة صراصير. بدأ آخر الأنوار يخبو فى الغرب. وحل الظلام على البستان. تجمعت أصوات من كل صوب، همس الريح وزفير الماعز وخشخشة أوراق الشجر الجافة. ضمت جئوله شفتيها وصفّرت بلحن قديم. إستمع لها البدوى بتركيز بالغ، مال رأسه الى الجانب من فرط الدهشة. وفغر فاه قليلاً. نظرت الى ساعتها. فغمزت لها العقارب ببريق حبيبات الفوسفور الخضراء، ولم تقل شيئاً. فقد جن الليل.

التفت العربى بعد ذلك الى جئوله وجثا على ركبتيه، حتى لامست جبهته التراب، ثم همهم بكلمات متتالية غير مفهومة.

إقتحمت جئوله صمته قائلة: " ليس لديك إمرأة بعد، فأنت لا زلت صغيراً ". كان صوتها مرتفعاً وغريباً. وضعت يدها على خاصرتها وأخذت تتنفس بانتظام. كف الرجل عن همهماته، التفت اليها بوجه مكفهر وقال شيء ما بالعربية. مازال جالساً على أربع، ويبدو أن هذا الوضع يريحه.

كررت جئولة ثانية " لا زلت صغيراً، صغيراً جداً، ربما أنت فى العشرين أو الثلاثين، لا زلت صغيراً. ليس لك إمرأة. لا زلت صغيراً".

رد بشفته بكلمات طويلة جداً. فضحكت بعصبية، ولا زالت أكفها تعانق خاصرتيها.

سألته ضاحكة: " ماذا بك ؟ لم تحدثنى الآن بالعربية ؟ ماذا تظننى ؟ ما الذى تريده الآن؟.

أجاب البدوى مرة أخرى بشفتيه. وظهرت فى صوته هذه المرة أصداء رعب. تراجع الى الوراء بخطى ضعيفة مترددة وانسحب وكأنه يبتعد عن روح تحتضر. تنفست الصعداء، وارتعدت شفتاها. لا يخرج من فم العربى إلا نبرة واحدة وحشية: إشارة ما بينه وبين الماعز. فانصاع القطيع. وتجمع حوله، ويبدا صوت أقدامه فوق سجادة الأوراق الذابلة وكأنه حرير يتمزق. صمتت الصراصير. وتجمع القطيع فى الظلام، كتلة واحدة منزعجة، ترتعد، وابتلعها الظلام وسرعان ما اختفى الراعى معها.

بعد ذلك وقفت وحدها ترتعد. مرت طائرة فوق قمم الأشجار مخترقة جدار الظلام، أطلقت أزيزاً خفيفاً، وأخذت أضواؤها تتلألأ وتخبو بمعدل ثابت: أحمر، أخضر، أحمر، أخضر. هبت نسمة خفيفة على أشجار الفاكهة، فانزعجت وتجمد الدم فى عروقها. فغرت فاها ولم تستطع الصراخ، بل أخذت تجرى حافية بكل قواها عائدة الى البيت. سقطت، نهضت ثانية وكأن شيئاً يطاردها وأخذ صرير الصراصير يطاردها.

- و -

عادت الى غرفتها وأعدت قهوة لكل أعضاء السكرتارية، حيث تذكرت وعدها لأتكين. بدأت فى الخارج لسعة برد، لكن الجدران داخل الغرفة ما زالت تشع حرارة، كما اشتعل جسدها أيضاً. إلتصقت ملابسها بجسدها بعد الجرى من البستان الى الغرفة، كانت أقدامها مجروحة وملوثة. وفاحت من تحت إبطها رائحة جعلتها تكره نفسها وأوشكت على التقيؤ. إنفجر حب الشباب فى وجهها. وقفت ترقب غليان القهوة، سبع مرات غليان كما علمها أخوها إيهود قبل إغتياله فى عملية إنتقامية فى الصحراء. زمَّت شفتيها وأخذت تعد عدد مرات الغليان، غطاء الغلاية يعلو وينخفض وظهرت الفقاعات على سدادة الغلاية. عندها تأكدت من أن القهوة نضجت. تناولت ملابس سهرة نظيفة، وذهبت الى الحمام.

ماذا يفهم أتكين فى البدائيين. إنه شيوعى كبير. فمن أدراه بالبدو. إن البدوى يشم الضعف عن بعد. إعطه كلمة طيبة أو ابتسامة، فيتلوى كالثعبان السام ويحاول اغتصابك. حسناً فعلت بهروبى منه.

كانت الماسورة مسدودة فى الحمام والمقعد مدهّن. وضعت ملابسها النظيفة فوق الحاجز الصخرى. كانت تقول لى دائماً إنها لا ترتعد من الماء البارد، بل ترتعد من القيء. لا تدرى كيف أمسك البدوى حلقها بهذه الأصابع السوداء. وأسنانه!. الماعز. إنه نحيف كالطفل، لكنه قوى جداً. لم ينقذنى منه إلا العض والركل. أخذت تصبن بطنها وكل جسدها عدة مرات. نعم، يجب أن يذهب الأبناء الى مخيمهم هذه الليلة بالذات ويسحقون عظامهم السوداء جزاء ما فعلوه معى. يجب أن يخرجوا الآن.

- ز -

خرجت من الحمام وذهبت الى غرفتها لتأخذ غلاية القهوة الى غرفة السكرتارية. لكنها فى الطريق سمعت صرصرة وضحكات، فتذكرت كيف جلس على أربع وكيف انزعجت وهى معه فى الظلام. تقيأت فجأة بين شجيرات الزينة، وانخرطت فى البكاء. شعرت بعد ذلك بالوهن فى ركبتيها، فجلست ترتاح على الرمال فى الظلام. كفَّت عن البكاء. إصطكت أسنانها من شدة البرد. فجأة لم تعد تفكر فى الإسراع ولم تعد القهوة مهمة. إعتقدت أن لديها متسع من الوقت.

من المؤكد أن هذه الطائرات التى تحرث قبة السماء تقوم بمناورة فى الظلام. إنطلقت الطائرات عدة مرات بين النجوم وبدت أضواؤها مترددة، أحمر، أخضر، أحمر، أخضر، أخضر، أحمر، وكأنها تضبط إيقاعها مع غناء البدو ودقات طبولهم: واحد. واحد. إثنين. إثنين. واحد. واحد. إثنين الخ.

- ح -

إنتظرها أعضاء السكرتارية من الساعة الثامنة والنصف حتى قرابة التاسعة. وقبل التاسعة بخمس دقائق قال أتكين إنه لا يدرى ماذا حدث ولا يذكر أن جئوله سبق أن تأخرت عن جلسة أو غابت عنها أبداً. وعلى أية حال لا بد -على الأقل- من البدء فى جدول الأعمال.

بدأ بعرض الوقائع، وتحدث تفصيلاً عن الأضرار التى لحقت بنا بسبب البدو، على الرغم من عدم وجود أي دليل جنائى ضدهم. وذكر الإجراءات التى بادرت بها السكرتارية: اللجوء الى أسلوب حسن النية، إستدعاء الشرطة. تعزيز الحراسة حول النقطة الإستيطانية. كلاب إقتفاء الأثر. الحديث الى شيخ القبيلة. وفى النهاية قال أتكين إنه عليه الإعتراف بأننا وصلنا الى ما يشبه الطريق المسدود. ومع ذلك، فهو يعتقد أنه لا بد من الحفاظ على ضبط النفس وعدم الإنسياق الى التطرف، لأن الكراهية لا توّلد إلا الكراهية. وهكذا دائرة لا تنتهى- لا قدر الله- لا بد من كسر دائرة الكراهية. لذلك فإنه يستبعد تماماً-بكل ما يملك من أخلاقيات- ما يهدف اليه عدد من الأعضاء الشباب. واللبيب بالإشارة يفهم. وفى نهاية حديثه طلب من الحضور أن يسمحوا له بذكر أن الخصام بين رعاة الغنم وعمال الأرض قديم قدم الحضارة الإنسانية، وتشير الى ذلك أسطورة قابيل الذى قتل أخاه هابيل. ونحن، بحكم ريادتنا الإجتماعية، يجب أن نضع حداً لهذا العداء القديم، كما سبق أن وضعنا حداً لظواهر كئيبة أخرى. وهذا فى مقدورنا ويرتبط بقوتنا الأخلاقية.

إمتلأ الجو بالتوتر وسادت نبرة التعدى بالقول، بعد أن قاطع رامى حديث أتكين عدة مرات، واستخدم فى إحداها كلمة "هراء" القميئة. إستاء أتكين واتهم الأعضاء الشبان بالتخطيط لعملية عنيفة. وقال فى النهاية: "لن يحدث شيء كهذا عندنا".

لم تحضر جئوله الجلسة. لذلك لم يوجد من يهدىء الجو. كما لم تُقدم القهوة أيضاً. بعد ذلك تبادلت الكلمات مع رامى بحدة. صحيح أننى أنتمى الى الشباب من حيث السن، لكن وجهات نظرى مختلفة عنهم. وأنا مثل أتكين، أستبعد تماماً إستخدام العنف. ولدى مبررات ذلك. حينما منحنى أتكين حق الكلمة طرحت مبررين. أولاً، أنه لم يحدث حتى الآن أى شيء يمكن اعتباره فظيعاً. اللهم إلا بعض حالات السرقة، على الرغم من أنها غير مؤكدة، وأى صنبور أو مُعِدَة ينساها سائق جرار فى الحقل أو يفقدها فى المرآب أو يأخذها معه الى البيت، نوجه الإتهام على الفور الى البدو. ثانياً، أنه لم تحدث حتى الآن حالة اغتصاب أو قتل. وهنا انفجر رامى وسألنى ماذا أنتظر. هل أنتظر حدوث حالة اغتصاب حتى يمكن أن تقرضها جئولة شعراً وأصوغها أنا قصصاً. إحْمر وجهى وبحثت عن إجابة مفحمة.

إنزعج أتكين من تدنى الأسلوب وتوتر الجو، فأسرع بسحب الكلمة منا، وشرع فى إعادة توضيح موقفه وتساءل عما يمكن أن يكون عليه وضعنا إذا كتبوا فى الصحف أن الكيبوتس أرسل رجالاً أشداء لتصفية حسابات مع جيرانهم العرب. وحينما ذكر أتكين كلمة "رجال أشداء"، أشار رامى الى زملائه الشباب بحركة معروفة فى مباريات كرة السلة. ومع هذه الإشارة قاموا جميعاً وغادروا القاعة، تاركين أتكين يخطب على هواه أمام ثلاث مسنات وعضو كنيست مخضرم سابق.

قمت أنا أيضاً بعد تردد وخرجت فى أعقابهم؛ صحيح أننى لا أشاركهم الرأى، لكن الكلمة سحبت منى بصورة سلطوية ومهينة.

لو حضرت جئوله الجلسة، ولو أنها جلبت قهوتها الرائعة، لربما هدأت الرياح. وربما أيضاً أحدثت حكمتها نوعاً من التقارب بين الآراء المختلفة. لكن القهوة بردت على المائدة فى غرفة جئوله. ولا زالت هى ممددة بين الشجيرات خلف غرفة الذكريات تنظر الى أضواء الطائرات وترهف السمع لأصوات الليل. كم تاقت لأن تصالحه وتغفر له. لا تريد أن تكرهه ولا ترغب فى موته. فكرت فى أن تقوم وتذهب اليه، تبحث عنه، وتجده بين الوديان، تمنحه الغفران ولا تعود من عنده أبداً. تلقى عليه بقصائدها وتغنى له. هذه الجزازات التى جرحتها حتى نزفت، هى بقايا الزجاجة التى حطمتها هنا بالحجر الضخم فى أول الليل. والشيء الحى والهامس بين جزازات الزجاج داخل الطين هو ثعبان وربما كان ثعباناً ساماً أو أفعى، تخرج لسانها المفلوج ورأسها المثلث المدبب وتبرز عيونها الزجاجية الداكنة، التى لا تستطيع إغلاقها، لأنها بلا جفون. شوكة فى جسدها، وربما جزازة زجاج. تشعر بإرهاق شديد، وألم مكبوت، لكنه لذيذ وممتع. يرن فى أذنها من بعيد صوت أجراس. رغبت فى النوم. وبنظرة مرهقة، لمحت مجموعة من الشباب يعبرون النجيل فى طريقهم الى الحقل ومنه الى الوادى للإنتقام من البدو. كنا نحمل فى أيادينا عصي قصيرة وسميكة؛ وقد اتسعت حدقاتنا من شدة الإنفعال. والدم يغلى فى عروقنا.

وبعيداً عن البساتين المظلمة وقفت الأشجار شامخة يغلفها التراب، وأخذت تتمايل بهدوء ذات اليمين وذات اليسار. شعرت جئولة بالإرهاق، لذلك فإنها لم تنزل الينا لتباركنا وتودعنا. لكن أصابعها أخذت تداعب الرمال وكانت تعبيرات وجهها هادئة جداً، وبدا وجهها جميلا جداً فى تلك اللحظة.

[الطبعة الأولى ١٩٦٣. وهذه الطبعة عن دار نشر عم عوفيد، ١٩٧٦ بناء على طلب المؤلف].

سامى ميخائيل

وصايــة

(فصل من رواية)

أسر ماجد قلوب أبناء البلدة بسحره وبهائه. يقولون فى المقاهى إن إبتسامته تزيل الخوف فوراً. أما الفتوات المرعبين الذين يحلو لهم أن يروا المسدس محشواً، ولا يقترب الكأس من فمهم أبداً، فقد امتدحوا ماجد، وبخاصة مكائده التى كادها لكى يبعد الكؤوس عن عيونهم الفضولية. أما هو فقد أحب ترديد قصص مضحكة عن هذا. وها هو الآن يجلس مع الشاعر فى غرفة الإستقبال ينتظران عودة عبله من مقابلة فى المنظمة. كانت مدرسة، وبالتالى فإنها تؤدى أغلب واجباتها فى الإرجون يوم السبت، حيث تغلق المدارس أبوابها. لاحت إبتسامة طبيب الأسنان فوق قدح القهوة.

قال: " ذات يوم دخل العيادة فتوة مشهور من نابلس، يمكن أن يقتل بقرش، كانت ملامح وجهه مخيفة، وفمه متورم لدرجة أنه لم يتمكن من الكلام. دخل الغرفة وأمسك بالمريض الجالس على المقعد، جذبه من بين يدىَّ والقى به خارجاً وما أن جلس على المقعد بدلاً منه، حتى برزت شجاعته وتطاير الشرر من عينيه. غضبت وغلى الدم فى عروقى. فالمريض الذى القى به من فوق المقعد هو عم عبله، وهو رجل مهذب. قلت للفتوة إنه لا يمكن خلع السن لوجود التهاب حاد فيه. صاح فيَّ: "إقتلعه ! ". دنوت منه وفحصته مراراً ثم قلت له " لا يمكن" . لكننى فى هذه المرة لم أستطع الإبتعاد عن المقعد. حيث قبض هذا الملعون بسرعة على خصيتى وصاح: "روحك الآن فى يدى وأنا أسلم روحى لك. وبدون حقن ملعونة " . كان على استعداد لأن يذبحنى يا فتحى. قلت فى نفسى، والله لأمزقن قلبه. كذبت عليه قائلاً: "إنها ليست سن واحدة ". فصاح مزمجراً " لا يهم، إقتلع. وكما حذرتك، بدون حقن" . قلت له: " سأعرض عليك اقتراحاً، سأدعك تحقننى أنا لترى أنها ليست فظيعة كما تظن، وبعد ذلك أحقنك أنا" . راقت له الفكرة. وجهتُ يده الطليقة، فيده الأخرى لا زالت قابضة على خصيتى، قام بغرس الحقنة فى صدغى. كنت فى نظره شبه بطل، وساحر. جاء دورى، غرست وغرست يا فتحى الى أن أصبح فمه كتلة من الخشب. ثم بدأت المذبحة. إقتلعت نصف أسنانه حتى لا تتاح له الفرصة لزيارتى مرة أخرى. لكن تعتقد ماذا حدث بعد ذلك ؟. هذا القاتل يشكرنى الآن جدا على ما فعلته معه، لإنه الآن يطحن الفستق الحلبى على لثة مكشوفة. يأتينى هنا كل عدة شهور، وأحضر لى صباح

اليوم فقط من نابلس، صندوق العنب الذى تراه هناك. ضحك الشاعر قائلاً: " مؤكد أنه سرقه من خضرى مسكين".

-"يجب أن تعرف يافتحى أن القتلة حينما يقدمون هدية، لايسرقونها، بل يشترونها من حر مالهم ".

ضحك فتحى مرة أخرى وقال: " يالها من فكرة! الإمساك بالخصيتين كرهينة ".

قال ماجد محاولاً إضفاء الجدية على الحديث: " هل تتبع نفس الأسلوب ياصديقى؟! ".

فوجىء الشاعر بالسؤال، فقال: " كيف هذا؟ أنا؟ ".

-" إنك تعتمد على صداقتك لى وتجبرنى على الكذب على المنظمة يارجل". -" كان لا بد أن أحضر يا ماجد".

" إنك تنتهك التعليمات، والآن ها أنا أشاركك رغماً عنى ".

جمعت الخادمة الأقداح الفارغة وهى تختلس النظرات الى الشاعر بهى الطلعة، ثم سارت تتهادى الى الخارج.

قال طبيب الأسنان: " هذه الولهة من المخيم تهيم بك ".

-" خذ الأمور بجدية يا ماجد ".

-" حسناً، لن أخبر أحداً بهذه الزيارة. ولكن إذا أكتشف أمرها نكون كلانا فى قارب واحد، ياحبيبى ".

- " لا يهمنى ".

-" الله !الله! نصف المحتلين كرهوا الحياة؟ ".

- "سمعت أن لياليك فى تل أبيب ليست كئيبة. وأنك خطبت فتاة حسناء. ماذا تريد غير ذلك يافتحى ؟. أنت تشعر بالكآبة؟ ".

لم يصدق الطبيب نفسه. لكن فتحى إعتقد أنه يسخر منه فى مكنون نفسه.

جاءت عبله. وجهها يشع بالوقار وجسدها الممشوق يعوض وجهها القميء. صاحت بنبرة إمرأة لا تعرف الخجل:

-" فتحى، كم سفينة غرقت لك اليوم فى البحر ؟ ما لوجهك مخطوف هكذا ".

-" لقد اقتحم ماجد حياتى كلها ".

-" إنه إنسان سادى بحكم المهنة".

-" إننى أتحدث بجد، إنه سيرسلنى الى تل أبيب".

-" لا تأخذ على كلامه. إنها مجرد كراهية متأصلة فى شخص من مخيم لاجئين. لقد امتلأ البيت نقوداً، لكن اللاجىء لا زال يسكن داخله ".

-" قال ماجد إنني أعيش فى حالة سلام مع نفسى. لقد جانبك الصواب فى ذلك ياعبله. إننى فعلاً روضت اللاجىء فى داخلى، ومات فعلاً منذ سنوات ".

-" إنك تخنقه يومياً، لكنه يعود للحياة فى اليوم التالى. إننا حتى الآن حينما نسألك من أين

أنت، ترد قائلاً من يافا " .

-إبتسم زوجها قائلاً: "وأنت ؟" .

- صرخت قائلة: "من الرمله" .

- " على الرغم من أنك ولدت هنا فى جنين " .

يعرف فتحى جيداً أن كل طفل فى مخيم اللاجئين يتعلم كيف يرد على هذا السؤال: "من أين أنت ؟" .

- " هل تناول الأولاد طعامهم ؟" .

-" أكلوا وشربوا فى الخارج، ونحن نتضور هنا جوعاً " .

-قالت موبخة: " كيف تكون لديك شهية للأكل بعد كل هذا النقر فى الأفواه العفنة . وأنت تربى كرش صاحب مقهى وصلعة صيدلى . أنظر كيف يحافظ فتحى على قوامه الجذاب" .

شعر الشاعر بحيرة وخجل .

إستطرد ماجد فى السخرية: " هذا هو سلاحه الثانى فى تل أبيب " .

-" وما هو سلاحه الأول؟" .

-" الشعر" .

صاحت عبله وتأهبت للرحيل، وقالت وهى بالباب:

-" لا تمكنه من قهرك يافتحى " .

-قال: "أريد أن أرى زهير" .

-" أعرف . أعرف أنك لم تكلف نفسك عناء الحضور الى هنا من أجلنا نحن " .

-" حقيقى، هذا هام جداً ياعبلة" .

إكتسى وجهها العابس بمسحة من الجدية وقالت:

-" بشأن المنظمة؟" .

رد الشاعر: " لا . مشكلة شخصية " .

-" إسمع . . . " .

تدَّخل زوجها فى الحديث بقوله: " لقد سبق أن قلت لك ياعبلة، وأوضحت له ألف مرة أن زهير لا يمكنه الآن أن يحل أي مشكلة شخصية للآخرين " .

نظرت الى الشاعر بعيون غائرة وقالت: " هذا صحيح " .

كانت عبله إحدى النساء القلائل فى جنين اللائى يجرؤن على توجيه نظرة الى عيون رجل .

-"لقد تغير زهير . منذ أن تركه اليهود وهو يبدو كشخص آخر " .

-" لكنى أريد أن أراه " .

غضبت عبله من إصراره وعناده الطفولى: " لقد قلت لك أن زهير لم يعد زهير . ولا أعرف إذا كان يهتم بلقائك أم لا . إنه يقيم فى قبطيه وحينما يذهب اليه أحد لا يخفى عنه أن زيارته غير مرغوب فيها" .

سأل الشاعر: " أهو مريض؟ " .

-" إنه شخص آخر. وهو يأبى أن يبرأ من مرضه" . لم تضف عبلة أكثر من ذلك.

قال فتحى: " لى صديق يهودى، ثورى بطبعه، أمضى عدة سنوات فى السجن. يدعى مردوخ. جلسنا ذات مرة نتحدث عن الذين أطلق سراحهم. . . قال إنه يوجد كل أنواع اللاجئين. أغربهم أولئك الذين كانوا على وشك الإنهيار ولم ينهاروا، لأنهم يشرعون فى الإنطواء على أنفسهم، ينسحبون الى الداخل. يغلقون كل نوافذهم ويخشون من أن يضطروا لخوض التجربة المريرة مرة أخرى. . . " .

أنصتت عبله لكلماته، وقد تجعدت جبهتها الضيقة، وزمّت شفتيها ولاح تحت أنفها خط دقيق.

-" أنا لست فى حكمتك ولا أفهم كثيراً فى علم النفس. لكن حينما تنظر الى زهير تشعر أن يديه ليستا وحدهما اللتان ترتعدان، لكن هناك شيء ما في داخله يرتعد. . . " ؛ ثم أضافت برقة بالغة "إنها ليست رعدة خوف، بل هى شيء ما يشبه ضجة السيارة التى تتأهب للإنطلاق الى مكان مجهول" .

مسح ماجد نظارته بمنديله وقال وهو يفكر: "ربما، ربما يحسن أن يلتقيا. ليلقى كل منهما بمشاكله فى أحضان الآخر " .

مرة أخرى غاصت شفة عبلة بين أسنانها الصغيرة، وقالت: "وما هى مشاكلك ؟ " .

-" أنا لا أجد نفسى" . وسرعان ما ندم على هذه الصراحة.

قالت حائرة دون أن تبدى أى قدر من التأييد: " ألا تجد نفسك؟، ونحن نجدك كل يوم، حتى فى بيروت " .

إندهش الشاعر: " بيروت؟ " .

- " من الواضح أنك لم تقرأ العدد الأخير من " الأديب" .

هز الشاعر رأسه.

قال ماجد: " يا عبله! " .

ردت قائلة: " إنك لا تحسن اليه حينما تخفى عنه ما يخصه " .

تقدمت من الرف وجذبت منه المجلة.

تركه الزوجان يختلى الى نفسه، وظل على المقعد والمجلة بين ذراعيه. ثقلت بين ذراعيه فسقطت على ركبتيه وكأنها تجذب معها رأسه وكتفيه الى أسفل. أظلمت النافذة المفتوحة فى عز الظهر، وماتت الحياة فى البلدة. صمت البيت تماماً؛ شعر الشاعر بالضغط يزداد فى أذنيه وكأنه يغوص داخل غواصة. تمتمت شفتاه بادعاء المحب الذى اكتشف الخيانة. " لا يافخرى، لا ! " .

لم يقهره الغضب بعد. لم يستطع حتى الآن، وهو الإنسان الغضوب والمفعم بالكراهية، أن يغضب من صديقه الوحيد الذى خرج به من الدنيا منذ أن فطمته أمه.

صاح " لا يافخرى، لا " . وأخذ الضغط يرتفع فى أذنه.

بالأمس فقط، وقبل عدة ساعات. . . لا، لقد مرت شهور- لا يهم الزمن، فليذهب الى الجحيم !- لقد جلسا معاً على فراش واحد فى موسكو كفنانين يتبادلان الحب. وكان هذا التدفق بين أنفاسهما دائماً تدفقاً حراً، نقياً، طاهراً. قال فخرى إنه لن يعود الى البلاد من المهمة التى أرسلته فيها المنظمة. لقد كره البلاد وفقدت معناها ومغزاها بالنسبة له، وقال إن روحه تنقبض أكثر من أى مخادع إسرائيلى. إنفعلا معاً، وخيمت على ليل موسكو غصة فراق الشاعر لصديقه الناقد الأدبى الذى يمتدحه. تواعدا: "سنلتقى بطريقة غير مباشرة "، وكأنهما فتاة وجندى على رصيف محطة القطار.

وهنا، يرسل له توأم روحه التحية من فوق صفحات هذه المجلة الشهرية الأدبية: " خائن ينزلق بخدعة الى أحضان العدو. .شاعر يطلق قصائده عديمة المغزى مزينة الى قتلة شعبه. . يالها من دعارة فكرية. وقعت فى أسر صالون باعة السموم. . . لا يافخرى، لا ! ".

أخذ ينظر الى العنوان بأمل لا طائل منه، علَّه يكون قد أخطأ، أو أن عيناه خدعتاه، لكنه يعرف بما لاشك فيه أن هذا هو أسلوب صديقه الذى لا مراء فيه. . " إغتيال روح شعب".

وتحت العنوان: بقلم " فخرى مارسا".

لا يافخرى. . .

تناهى اليه صوت عبله الرنان من بين ضجة الأطباق والشوك والسكاكين: " فتحى، هيا الى الطعام ".

رفع الشاعر عينيه الدامعتين الى النافذة المفتوحة وكأنه يعتزم أن يأخذ طريقه الى الشارع، الى البلدة الهاجعة وقت الظهيرة، الى الحقول الدافئة والأفق البعيد. . .هناك، هناك، هناك! وما أن أدرك معنى كلمة" هناك"، حتى ارتعد. فهناك إسرائيل المقيتة.

وقف أمام الباب المفتوح، وسمع صوت ماجد يواسيه قائلاً: "هيا، ياشيخ. أنت فنان ويجب أن تعتاد على هذه العثرات واللطمات ".

خرج والمجلة فى يده. إقترب من المائدة والقى بنفسه على المقعد. خشخشت الأوراق على ركبتيه. وقال بهدوء " فخرى. . . ".

صاحت عبلة وقد لمعت عيناها تحت جبهتها الضيقة: " لقد أصابك ".

تمتم الشاعر: " أنت لا تفهمين يا عبله ".

-" لكنك وقَّعت. هل وقَّعت فعلاً ؟. ماذا كان شعورك آنذاك ؟. -" ياعبلة، حينما قُتل أولادهم فى تلك الحافلة، هبت العاصفة. وهنا، ها أنتم تعبدون إلهاً واحداً، وتنسون أننا نعيش بين المطرقة والسندان. نحن نعمل بين يهود. أنا أحسدكم. أحسد فخرى. من السهل عليه أن يقول كل ما يعن له وهو جالس فى بيروت. لا تنسوا أن المنظمة نفسها داخل إسرائيل مكونة من يهود وعرب. نحن مضطرون لأن نضعهم فى الإعتبار. وحينما طلبوا منا أن ندين موت الأطفال، طلبنا منهم أن يدينوا عدوان الجيش الإسرائيلى على لبنان، ووافقوا ".

تمتمت عبلة: " موت الأطفال ". لقد جاء فى إدانتك " إغتيال الأولاد "، فهل نحن قتلة فى

نظرك يافتحى. إذهب وضح ذلك لزهير".
قرر الشاعر مرغماً: " سأوضح له. لكن كيف السبيل الى ذلك!".
إلتهمت عبلة طعامها بسرعة غريبة، وقالت للشاعر: " ذكرت أن لك صديقاً يهودياً، قلت ما اسمه ؟".
-" مردوخ".
-" وهو أيضاً طلب منك أن تسير كالمهرج بين السارقين والمسروقين؟".
-" كان حائراً. فالأولاد فى نظره أولاد أينما كانوا. وهو نفسه لديه طفل واحد، غير طبيعى، معاق. وأمثال هؤلاء الآباء يجنون من كل ما يصيب أولادهم. ولو أننى مقيم هنا بصفة دائمة لأخذت الأمور بصورة أكثر بساطة ".
أسرعت المرأة تخفف عنه بقولها: "متى تحسدنا، حينما تسافر الى موسكو أم الى تل أبيب؟".
صاح فيها ماجد: " يا عبلة ! دعى المسكين يتناول طعامه ".
رد الشاعر بسعة صدر: " أعرف أننى غريب هناك، وبدرجة ما، غريب أيضاً فى قريتى. لقد جئت الى هنا وزرت مخيم اللاجئين. ووجدت أنى هنا أيضاً غريب. أنا غريب فى أرضى يا عبلة".
إن النساء الثوريات يكرهن التخبطات، خاصة تخبطات الرجال. لذا مالت بسرعة للتعامل معه بمرونة: " لقد شوه اليهود رأسك ياحبيبى. إنك مشغول بهم كثيراً، لدرجة أنك نسيت أنك عضو فى المنظمة. أنت داخل مخيم اللاجئين برباط عنق وبدلة وتريد أن يركعوا أمامك. نسيت أنه لا زالت توجد حرب طبقية فى العالم ".
ضاقت نفس فتحى بالحديث، فقال: " هل سأرى زهير ؟".
إبتسم ماجد بارتياح: " يبدو أنك واثق من أنه سيحل مشاكلك".
-" هل لي أن أراه ؟".
إستجاب الطبيب: " حسناً، إرتح الآن. لقد أفسدت عليك شهيتك ".
خرج فتحى من القاعة. أحد جدرانها مغطى تماماً بالكتب. أخذ يتصفح بعض الكتب ثم القى بنفسه على الأريكة. إن عبله لم تفسد شهيته فقط، بل مست رجولته أيضاً، وفعلت ذلك عن عمد وبسوء نية. لم يحدث أبداً أن سخرت منه إمرأة هكذا. إنه لا زال يذكر لقاءهما الأول جيداً. لقد جالت نظراتها على وجهه الصبوح الى أن عثرت على عيناه الخضراوان. تلوى جسدها المشوق وامتلأ وجهها بعيوب أكثر مما كان، بينما القى اليها هو بابتسامة جسورة. لكنها صدت ابتسامته بسرعة وأغلقت كل نوافذها فى وجهه.
لقد عرف فتحى نساء كثيرات منذ أن خرج من قريته، كل أنواع النساء. لكن أدهشته دائما النساء اللائى يغلقن نوافذهن هكذا. وبمرور الوقت خاطر بردود الفعل الغريبة من النساء غريبات الأطوار، وأدرك أن النساء-بصورة عامة- هن اللائى يجذبن الرجال ضعيفى الإرادة، ويخشين من أن يلحظ الغريب الجوع فى عيونهن. لذا فهن دائماً يتصرفن بعدوانية. وقلة منهن فقط هن اللائى

أسقطن الحواجز، وتحولت عدوانيتهن الى مغازلة تبعث على القيء.

قال فى نفسه وقد تملكه الإنتقام: " عبلة جائعة". بسط قدميه على الأرضية التي نظفتها الخادمة التى أتت من المخيم. وركن رأسه الى الوراء. داعبت الستارة خلف ظهره نسمة خفيفة وزقزق عصفور على غصن الرمان فى الخارج. شعر بالراحة فجأة، وعلت شفتيه ابتسامة برزت معها أهدابه، وسرى فى أعضائه وهن لذيذ، ولم يهتم بفتح عينيه حينما شعر أن كائنات حية تقف بباب الغرفة. سمع صوتهم الهامس. قالت الطفلة: " لقد نام الضيف ".

وقال الولد: " إنه من إسرائيل ".

-" يهودى.. ".

-" ش. ش! أسكتت أخيها بانزعاج وكأنها تخشى من أن تستيقظ قوة لا أحد يعرف كيف يتصرف معها.

-" هل معه سلاح؟ ".

صمت الأخ فترة طويلة ثم قال: " لا أدرى ".

-" أين أمنا؟ ".

-" صعدت الى أعلى بعد تناول الطعام ".

-" لم أرها ".

" والأب أيضاً صعد الى أعلى ".

-" لماذا؟ ".

-" ما هذا؟ ".

-" لماذا صعدا معاً الى أعلى ؟ ".

سخر منها أخيها وهو ينظر اليها باستعلاء: " يالك من حمقاء! لقد أخبرتك منذ أسبوع ".

-" أخبرتنى بماذا؟ ".

-" إنه يواقعها. يواقعها كل يوم، وبعد ذلك ينام على السطح ".

-" أنا لا أحب النوم فوق السطح ".

إبتعدا معاً عن باب الغرفة. تجمد الهواء فى النافذة وصمت العصفور فوق شجرة الرمان. إحمر وجه الشاعر وتلاشت الإبتسامة من شفتيه وكأن شيئاً لطمه. شعر فوق كتفه بثقل الزوجان اللذان يستمتعان فى أعلى.

إمتلأ الآن حنقا على عبله. وكعادته، حاول أن يشغل نفسه بالكلمات. قال فى نفسه، أنفها الأفطس ينكب على الشارب النابت فوق أسنان هذا الفأر الذى تزوجته. شعرها جاف خشن وعيونها غائرة، لكنهما صغيرتان. وأذنيها، سحّابتين. ومن المؤكد أن رائحة كريهة تفوح من فمها حينما تفتحه.

ساءه أن يدافع عن نفسه أمامها. لقد جلست أمامه الى الطاولة وأخذت تلتهم طعامها كالخلد وترمقه بنظراتها وكأنها تنظر الى تلميذ أخرج رائحة. قام مغتاظاً وخرج من الغرفة. ذهب الى

الحمام وغسل وجهه، ووضع المنشفة على الباب وهو يتمتم "ليذهبوا جميعاً الى الجحيم !".

كان يقصد ب"جميعاً"، الجنود الإسرائيليين، والجواسيس العرب، والزوجان اللذان يمارسان الجنس فوق، بل وحتى العصفور الذى يشدو فوق شجرة الرمان. إجتاز الشارع وسار بين صف الأشجار. وجد أمامه مقهى يغفو تحت شجرة صفصاف. جلس على مقعد صغير مصنوع من قماش القلع.

ضربت ظهره طرقعة أحجار الطاولة. صاحب المقهى رجل مسن يرتدى سروالاً أسوداً منتفخاً، جلس معتمداً على جذع شجرة، وأخذ يحملق فى الشاعر بحذر واضح كالسحلاة. ولأننا فى شهر رمضان، كان المقهى لا يعمل تقريباً. لم تقدم المشروبات للرواد. سمع صوتاً رناناً يصدر من بين مجموعة الطاولة: " ظننا أننا لن نرى وجوههم المقززة قبل يوم الأحد ".

صوب فتحى ناظريه عبر صف الأشجار. لا يوجد يهود، لا جنود ولا حتى مدنيين. إنحنى صاحب المقهى على سرواله الملوث وتنفس بعمق. ثم انتصب بسرعة وتفحص فتحى بقلق، وكأنه قد أقلق مضجعه. وبعد أن وجد كل شيء على ما يرام، سعل من حلقه وقال: " ياولد! ".

تقدم منه نادل حافى القدمين، ضخم الجثة، دميم وقال: " آه؟ ".

أشار صاحب المقهى المسن بيده الى الأرض تحت الشاعر وقال: " إذهب لترى ما الذى يريده هذا الغراب هنا ".

-" آه! "

بدأت مطارق صغيرة تضرب فى رئتى فتحى. تقدم منه النادل بتكاسل وتوقف قبله بخطوتين وكأنه على أهبة الإستعداد للهروب، وصاح "آه؟". وكشف عن أسنانه بابتسامة ساخرة من كل أخطار العالم. ثم صاح بتحدٍ بالعبرية: " السلام! ".

كان فتحى أبعد ما يكون عن الإستعداد للضحك. تفحص "الولد"، الذى انتقل بكل جسده من قدم لأخرى، ثم قال بضحكة مفتعلة: " لا سلام ولا أمن. إذهب من هنا".

وجدت لكنته العربية السليمة قبولاً لدى النادل، لكنها زادت من شكوك صاحب المقهى. ردت مجموعة اللاعبين بإغلاق الطاولة على الأحجار والزهر، وكأنه إنتهك شيئاً مقدساً. تلاشى الصوت المبحوح، وسرى فى الفضاء صوت أجش: "سيأتى يوم يصعدون فيه فوق منبر المسجد يوم الجمعة يخطبون فينا بلغة القرآن. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ".

قال الشاعر فى نفسه، لو كان وصفى هنا، لعرف بالتأكيد كيف يتخلص من هذا المستنقع القذر. لقد هرب من منزل طبيب الأسنان بدون رباط عنقه وغليونه، وكان قميصه ذى الأكمام القصيرة مفتوحاً بمقدار ثلاثة أزرار، وسرواله من إنتاج " آتا"، وكان هذا واضحاً تماماً. مسح جبهته الملساء بغضب وكأنه يحاول أن يمسح من عليها علامة إسرائيلية. ظل النادل الصامت واقفاً يواصل الضحك من هذه الجرأة. رفع الشاعر ذراعه فى حركة مفاجئة كما اعتادت أمه أن تفعل وهى تطرد الدجاج من الفناء.

-" قلنا لك إمضِ من هنا ! يجب أن تمضى من هنا... ".

صاح فتحى قائلاً: " أين وصفى. إنه يتحمل المسئولية، لقد أخذ على عاتقه عبء انضباط المنظمة. لذا لا يجب عليه إثارة ضجة فى هذه البلدة. قام معتزماً المغادرة. أشعل السيجارة المحرمة عليه بأمر الأطباء، بحركات مدروسة، وفكر فى الإنسحاب إنقاذاً لما تبقى من كرامته. سار خطوتين فتراجع النادل الى الوراء. وهنا رنَّ فى أذنه الصوت المبحوح: " طظ ".

فى تلك اللحظة إشتاط الشاعر غضباً. ظهرت أمام عينيه صورة فخرى وهو يحمل مدفع كلاشينكوف على كتفه، وقلم فى يمينه، ثم يسمح لنفسه أن يسميه" داعر فكرى ". بأقدام مرتعدة من شدة الإنفعال والغضب، تقدم من الشاب ذى السالف الطويلة، الذى ظن أنه صاحب الصوت المبحوح الذى الهبه ب" طظ ". وقال له بعربية بليغة:

- " إنك مخلوق يجب أن تعيش فى الظلام ! ".

جفل الشاب وسأل رفاقه: " ماذا يريد منى ". لقد كان هو فعلاً صاحب الصوت المبحوح.

نسى فتحى قواعد الحذر، وصرخ قائلاً: " أنا عربى إبن عربى من بيت نطوفاه! ". أراد أن يقول إنه لاجىء مطرود من مزرعة، لكن أحداً لم يرد عليه.

وقف شاب قصير القامة بعيون جريئة، وقال بصوت أجش:

- " وما الذى جاء بك الى هنا، يابابا ؟ ".

" يابابا مرة أخرى. إنه فى مخيم اللاجئين لا يستطيع أن يرد على سخرية المرأة منه، وهنا، أمام هذا الوجه القريب منه، أجاب بصرامة يمكن أن تعيد الأمور الى نصابها: " ليس هذا من شأنك.. ".

كانا قريبين جداً من بعضهم. تدخل للمصالحة شاب ذو نظرة هادئة، كان يجلس على مقربة منهما: " أتركوه، ياشباب. من المؤكد أنه جاء يبحث عن إمرأة ".

تراجع صاحب الصوت الأجش فى مقعده وقال بجرأة: " وحتى هؤلاء يدرجون فى عداد البشر! ".

لكن الصوت المبحوح إنطلق قائلاً: " هذا ما يوجع قلبى. اليهود يبولون عليهم سيلاً من النقود وهم يغزون بيوتنا وجيوبهم منتفخة ليشتروا فتياتنا. إسمعوا ما أقول لكم، بعد عام أو عامين لن يتبق لنا إلا البغال لنغازلها".

إنفجر الصوت الأجش فى الضحك: "إذهب الى نابلس، ياولد، أنا أقول لك إذهب الى نابلس. لقد صادر الأتراك كل شيء، حتى بغال أبى وأبيك، فلماذا لا يفعل اليهود نفس الشيء ببغالك ؟ ".

زمجر الصوت المبحوح: " أتظن أن هذه مزحة ؟ ".

إلتقط فتحى آهة أخرى بأذنه اليسرى!. تقدم النادل للإمساك بكتفه وقدم له قدحاً من الشاى العكر. تجاهل فتحى هذا الإحتقار وهرب الى صف الأشجار.

وحينما دخل منزل طبيب الأسنان غلفه نفس الصمت الذى لم يرتح له. وسمع فى إحدى الغرف الداخلية صوت الطفلين الرقيق وضحكات الخادمة الصاخبة. كانت عبلة تجلس على نفس

المقعد المجاور لرف الكتب منكبة على كراساتها. وحينما رأته أسرعت برفع نظارتها التى أضفت على وجهها الدميم تعبيراً كتعبير البومة. لكن صوتها كان أكثر نعومة من القطيفة. قالت له: " ألم تأخذ قسطاً من الراحة بعد الظهر ؟ ".

قال فى نفسه: " يظهر الإرتواء فى صوتها. كانت حركاتها أقل حدة وعيونها أكثر بريقاً. لقد عرف فتحى هذه الدلائل جيداً. كان يعتقد أنه لا يغار، لكن غريزته حملته على أن يزعج المرأة الممددة على المقعد بجسد مرهق، فقال لها: " لقد تنزهت فى الخارج ".

قالت بود: " المكان صغير جداً، والجميع هنا يعرفون بعضهم ".

-" جلست فى مقهى وتقريباً تشاجرت ". هكذا كان يرغب فى التجرؤ على اقتحام هدوئها وتحطيمه.

-" لا يمكن أن تجارى شبابنا ". وضحكت ضحكة أنثوية قصيرة ثم أضافت: " لن تجد بينهم أى جنتلمان. ووقت الضرورة يعرفون كيف ينهشون بأسنانهم ".

-" كانوا واثقون من أننى يهودى ".

قالت بهدوء بالغ: " من المؤكد أنهم رأوك تدخل عندنا، وأعتقد أنهم قد هدأوا الآن ".

يئس الشاعر منها فقال: " سأذهب لأستريح قليلاً ".

غمرت المدرِّسة نوبة كرم أمومية، فقالت له: " أنت متوتر يافتحى. إصعد الى أعلى، لقد أعددت لك الغرفة، التى على اليسار".

وبينما هو على السلم لحق به صوتها الناعم يقول: " سيأتى زهير هذه الليلة ".

(١٩٧٧)

***

يعقوب بوتسن

المنومون

رجلان فى الخامسة والثلاثين. أحدهما ثرى جداً. بدأت قصة تعارفهما فى الصيف وانتهت بعد عدة أيام. إسم الثرى آساف جرين.

وهكذا كان لقاءهما: فى مدينة صغيرة بالجليل، الى الشمال من مدينة صفد، أقام آساف وزوجته وأولادهما لمدة أسبوع، حيث كانوا فى جولة ونزهة بالمنطقة. يمتلك آساف مطبعة كبيرة فى حيفا، وهو شخص سريع الغضب، حاد الطباع وعديم الصبر، يحب متع الحياة وملذاتها، ويحب زوجته، ومفتون بأولاده؛ لا مثيل له فى القلق، فهو يوميا، وحينما يستيقظ فى الصباح يشعر بأن كارثة ستحل عليه هذا اليوم وستقضى عليه.

منذ أن تزوج- أي منذ خمسة عشر عاماً- لم يعرف إمرأة أخرى، وليس له أى قصة حب هامشية، ولم يقض، ولو بالصدفة، ليلة متعة. كان يعود كل ليلة الى بيته يقر النظام،وينشد الهدوء. يأخذ حماماً، ويتناول طعامه ثم يسقط على الفراش ليواقع زوجته. وهو رجل جميل الطلعة، قمحى البشرة، زوايا فمه تترك انطباعاً بالسخرية والخجل، عيونه سوداء صغيرة،جريئة النظرات. شعره مجعد وذقنه خشنة وصوته جهورى. وإذا جاز الوصف فهو في سيره كأنه يسير الى الأجناب وليس الى الأمام.

توقفت سيارة حرس الحدود عند مطلع الغابة ونزل منها ضابط يحمل سلاحه فى يده وتوجه صوب الخيمة الكبيرة التى نصبتها الأسرة. تقدم منه آساف. قال الضابط: " منذ متى وأنتم هنا؟ ".

- "خمسة".

-" هل معكم سلاح؟ ".

-" عوزى".

- "أتعرف أنكم بمفردكم فى الغابة ؟ ".

فى تلك اللحظة خرجت زوجته وقالت: " نعم هذا مانريده".

- " من أين أنتم ؟ ".

-" من حيفا". ثم أردف آساف يسأله: " وأنت، من أين ؟ ".

- " ليس هذا من شأنك. أنا الذى أحرسك، وليس أنت ".

- " أنظر يارجل، خلاصة القول إنني أسألك من أين أنت!، وأذا لم تشأ فلا تقل " .
ثم التفت الى زوجته وقال بغضب: " هيا، دعيه " . ومضت معه ولكن ليس قبل أن تشكر الضابط .
قال الضابط : " حافظوا على أنفسكم " . ومضى الى حال سبيله .
وفى وقت متأخر من الليل، وبعد أن نام الأولاد، قام آساف وزوجته بشى اللحم على النار، وجلسا يحتسيان القهوة من الغلاية التى وضعت على الجمر الملتهب. وكان آساف ينفخ فيه بين الفينة والأخرى. إقترب صوت السيارة الجيب وسطعت أنوارها. وصل الضابط. دعاه آساف ليأكل ويشرب معهم. بادرهم بالقول: "هذا لحم " . ومع ذلك إنضم اليهما، وجالسهما. قدم له آساف قدحاً من القهوة وسأله: " هل تبحث عن الأزواج ؟ هات ما عندك؟ " .
- " ألا تخافان وحدكما فى الظلام ؟ " .
- " لا . ماذا دهاك؟ " .
سألته المرأة : " كم عمرك ؟ " .
- " كبير " .
- " متزوج؟ " .
- " هيه! .
إنطلق آساف قائلاً : " عما قليل سترغبين فى معرفة كم مرة يمارس الجنس. ألا تخشين من زوجك " .
جلس الضابط جلسة شرقية، وسلاحه على كتفه. وأخذ يحتسى القهوة باستمتاع. بدت حركاته فى الظلام الخافت مفعمة بالجمال. تطلعوا جميعاً الى الجمر وكأنهم يريدون امتصاص ما تبقى من الضوء. أخرج الضابط علبة ثقاب وأشعل عوداً. أخذ ينظر الى اللهب حتى خبا. أشعل عوداً آخر. كان فى ملامحه شيء ما يعبر عن الإحساس بالقهر، لكنهما لم يلحظا ذلك.
قال آساف : " أليس لديك فى الحياة ما تفعله سوى التجول هكذا فى الليل والنهار ؟ " .
قال الضابط وهو يصوب اليه نظرة ثاقبة الى أن غض آساف بصره:
- " ليس لديّ " .
- " هل يمكن أن تتعيش من راتبك؟ " .
- " يمكننى أن أتعيش بالقليل " .
قضم آساف اللحم وهو يقول: " ما الذى تفعله فى حياتك ؟ " .
- " أتجول " .
- " وهل هذه حياة؟ " .
- " فى هذا العمل لديَّ ما يكفى من الوقت للتفكير " .
سألته زوجته: " وفيم تفكر؟ " .
أجاب الضابط همساً : " فى الموت " .

وضع قدحه وشكرهما على القهوة ثم قام ومضى الى مرتقى الحرش بين الأشجار. لم ينظرا اليه. فلقد جلسا برهة صامتين.

قال آساف: " أترين كيف يفكر إنسان فى الموت ".

قالت زوجته أوسنات: " أريد أن تحكم إغلاق الخيمة هذه الليلة ".

- " ماذا حدث؟ ".

- " لا أعرف، لكنى أريد ذلك ".

قاما. بال آساف فوق الجمرات المشتعلة، فتصاعد منها الدخان وبعض الأصوات. غاصا فى الخيمة. أغلقها آساف. وتحت البطانية إقترب من زوجته، وهمس لها: " أدهشك، اليس كذلك؟ ".

- "... نعم ".

ظهر بعض الأشباح فى الخارج خلف ضلوع الخيمة، إقتربوا وابتعدوا بسرعة فى جنح الظلام وكأنهم ثعابين تسعى فوق الرمال. وانطلقت الرياح فى أعقابهم.

فى الصباح، كانت أوسنات أول المستيقظين. فلا زال الأولاد نياماً وآساف يصدر صوت شخير خفيف. تمطت، ثم التحفت به وتمتمت له بشىء ما، وأغلقت عينيها. أزعجتها بقايا حلم، لا تستطيع أن تتذكر منه شيئاً. لكن أبعاده ملموسة. كان حلماً يغمره ضوء قوى. ماذا حدث هناك ؟ قامت بتكاسل، دون أن تحدث ضجة. إرتدت بنطلوناً وشدّت عليها صديرية وقميص، ثم فتحت باب الخيمة وتسللت بهدوء الى الخارج. لكنها تسمرت مكانها.

إتسعت حدقاتها، واقشعر بدنها. وضعت راحة يدها على فمها حتى لا تصرخ. تراجعت مذعورة الى الوراء. إصطدم ظهرها بالخيمة. أحنت قامتها والقت بنفسها داخل الخيمة. سقطت على أقدام آساف، الذى استيقظ وأخذ يرطن " ماذا بك ؟! "، لكنها ظلت صامتة وأخذت تهزه بعنف، واتسعت حدقات عينيها وهى تشير اليه بإصبعها نحو باب الخيمة. أفاق، وقال لها: " ماذا حدث ياأوسنات؟!.

- " لقد كان هنا أشخاص أثناء الليل ! وارتكبوا أفعالاً فظيعة فى الخارج! إنها تهديدات لنا ! هيا نأخذ الأولاد، أريد أن نبتعد عن هنا فوراً ! ".

إلتقط آساف سلاحه، وزحف بلباسه الداخلى وخرج الى الباب بسرعة، وإذا بخمس جماجم ورقية معلقة على الأشجار حول الخيمة. وبدا أنها مقطوعة بآلة ضخمة. كان منظرها غريباً ومرعباً، ويتعارض مع هدوء الفجر فى الحرش. ظهر بين جذوع الأشجار ضوء أبيض. وتعالت الشبورة المائية بعيداً لتغطى كل الزراعات. وبرزت فى الأفق جبال زرقاء يغلفها الضباب. وظهرت أمامهم أشجار الصنوبر، وبقايا شعلة الأمس والأقداح والأكواب المبعثرة، القى الى هذا كله نظرة خاطفة، ثم نظر الى الجماجم مرة أخرى: إنها مربوطة فى أقرب الأشجار الى الخيمة. سرت القشعريرة فى كل جسده ؛ ثم قال لزوجته: " أوسى، خذى الأولاد الى السيارة ! ".

إقتادت الأم أولادها الى السيارة وهم يغطون فى النوم، فأخذوا يحتجون، وصحب هذا

الإحتجاج صيحات أوسنات وآساف. حملت الرضيع بين ذراعيها، وحمل آساف سلاحه يؤمن به ظهرهم حتى السيارة.

بعد خمس دقائق صاحت أوسنات: " الى أين أنت ذاهب! ".

-" سأحطم وجه هذا الرجل من حرس الحدود! لقد جاء ليحرسنا ! وأنا لا أفهم لماذا لم يذبحوننا؟ ".

إنطلقت السيارة بسرعة فى الطريق المتعرج، وكأن فيضاناً جارفاً يطاردهم، وفجأة ظهرت أمامهم سيارة حرس الحدود تتقافز على الطريق. أشار لها آساف بكشافاته. توقفت السيارتان متجاورتان. قفز ضابط الحراسة الليلية، وسأل: " ماذا حدث ؟".

-" أتظن أنهم جميعاً مثلك يبحثون عن الموت، يا إبن العاهرة! أين حراستكم ! الحرش كله مليء بالمخربين ! والجثث ! ".

-" لا تسب. فأنا لم أسبك. إنما جئت لأطمئن عليكم. لقد تركت لديّ انطباعاً بأنك لست بحاجة لنا ".

-" أنا لا أحب الإبقاء على المشاكل مفتوحة. كنا سنلتقى ".

-" كنت ستجدنا مذبوحين ! أذكر لى بياناتك ! ".

قال البدوى: " أنا المساعد عصام بدان، من شرطة نبى يوشع. إتجه الى أوسنات بعد ذلك – لعله لاحظ أنها لم ترفع عينيها عنه – وقال لها بجفاء: " سألتنى بالأمس ما إذا كنت متزوجاً أم لا. ولم تتح لى الفرصة للرد عليك. الرد هو: "لا ".

سألته أوسنات بدون أى انفعال: "ولماذا الإهتمام بالرد اليوم. ماذا كنت تفعل إذا لم نلتق ثانية".

صمتت أوسنات، ربما بشيء من الخوف من آساف الذى قطع حديثهما بجسده. غيَّر إتجاه السيارة بطريقة عدوانية وانطلق. تابعهم عصام بنظراته. وفكر فى الوريد الذى برز فى رقبة آساف؛ وفى وجه وعيون أوسنات. رَمَشَ بعيونه الصافية، ومر بلسانه على شفتيه. بعد ذلك دخل السيارة وانطلق بسرعة بالغة.

ذهب آساف وأوسنات الى شرطة نبى يوشع. لم يتبادلا الحديث طوال الطريق. شعر بالمرارة فى حلقه. وأخذت أوسنات تهدئه، ومن فترة لأخرى ترد على أسئلة الأولاد، الذين لا زال أحدهم ملتحفاً بالبطانية، يغالبه النعاس.

بصق آساف قائلاً: " فيم تفكرين ! ".

-" لم أهدأ بعد. إننى أرتعد تماماً من الداخل". لكنها تفكر أيضاً فى سلوك آساف، وفى البعد العنيد المستعبِد فى شخصيته، وفى عدم صبره. شعرت بالإستياء منه، ولاحت بعض الدموع فى عينيها. أوقف آساف السيارة على جانب الطريق، وأخرج خارطة أخذ ينظر فيها. وتنبه فجأة لعيون أوسنات.

وحال وصولهم الى شرطة نبى يوشع، رأوا عربات دورية مسلحة وسيارات جيب تطير هنا

وهناك. أوقف آساف سيارته وسار يتأرجح من جانب لآخر، مع أوسنات وأولاده، الى أن دخلوا المبنى. تقدم من أمين السجل الجالس خلف منصة عالية، وأخذ يقص عليه قصته بسرعة. أرهف الأمين السمع له، لكنه لم يسجل كلمة مما قال. وفى النهاية أشار له أن يتجاوز المنصة ويأتى اليه. وهناك اندهش آساف حينما رأى ربطة كبيرة مغلفة ببطانية معقودة من طرفيها، لاحظ فيها الخيمة والمعدات التى خلّفها وراءه فى الغابة.

-" هل هذه تخصكم ؟ ".

-" نعم. لكن لحظة من فضلك. كيف وصلت هنا! ما الذى يحدث هنا ! هناك شخص ما يسعى وراءنا ! ".

نقر الرقيب بقلمه الرصاص المسنون وقال: " نحن نفعل ما يجب عمله".

-" من جلب هذه الربطة، عصام ؟ ".

-" حقيقة لا أعرف. من فضلك أخبرنى عما بداخلها ويمكنك أن تأخذها وتمضى ".

بعد فترة، حمل آساف حاجياته ومضى يضعها فوق السيارة، وانطلقوا، لكن بعد أن سجل الأمين كل البيانات عنهم، عنوانهم وقصتهم، وأخذ توقيعهم على ما دوّنه.

بعد ذلك بعدة أيام، وفى ساعة متأخرة من الصباح، حينما كانت أوسنات تجلس فى منزلهم الجميل ترطب بفمها شرائح خبز مع جبن أصفر وتغمس شرائح أخرى فى مربة مشمش من صنعها، وعيونها معلقة بعيداً فى أسفل، عند سفح الجبل، وتجول فوق أسطح المنازل، ثم الى البحر والشريط الساحلى، ومنه الى منطقة رأس الناقورة الصافية، والى السفن الراسية والروافع ورصيف الميناء، والزوارق الصغيرة السريعة؛ وتتابع الوان المياه المتغيرة، وتلاحق دوامات الخماسين فى الهواء، سمعت جرس الباب.

تنبهت. فكرت قليلاً، وسألت من هناك، فسمعت صوتاً يأتيها عبر الباب قائلاً: "مفاجأة".

كان صوتاً لم تألفه من قبل. فأسرعت بارتداء ملابسها وفتحت الباب. وإذا بالباب جندى من حرس الحدود يقول: " أنت أوسنات جرين؟ ".

-" نعم، ماذا حدث ؟ ".

-"المساعد عصام مدان يجلس فى السيارة، ويسأل هل يمكن أن يصعد؟ ".

-" من؟! ".

-" المساعد عصام بدان من شرطة نبي يوشع ".

تذكرت فجأة. إندهشت من التقلبات التى شعرت بها فى بطنها. وقالت له: " نعم، يتفضل. ألا يستطيع أن يصعد دون أن يرسلك ؟ ".

-" لا أعرف ياسيدتى ". ومضى.

ظهر عصام. إرتعدت لرؤيته. القى التحية دون أن ينظر الى جسدها ولم يشد على يدها. وقال: " هل آساف بالبيت ؟ ".

-" أنت تعرف أنه غير موجود ".
-" ومن أين لى أن أعرف ".
-" كيف حالك ؟ ".
- على مايرام ". نظرت اليه بدهشة.
-" لقد أحضرت لكم شيء ما ". جلس وفتح حقيبته. سحرتها أصابعه وذراعيه السمراوين وأظافره البيضاء. سادت لحظة صمت سُمعت خلالها أنفاسهما وهو يهتم بفتح الحقيبة. أخرج منظار وقال لها: " هذا يخصكم. لقد وجدناه هناك أيضاً. وإذا شئتم أن أعتذر، فإننى أرجو أن تتقبلوا اعتذارى ". وأخرج أيضا الجماجم المقطوعة من الحقيبة.
-" قل لى. هل أنت سادى؟ ".
-" لقد وجدت المنظار منذ فترة قريبة. أما الجماجم فقد أنزلناها لتونا. ولا أعرف ما إذا كنت سادياً أم لا. لم يكن لدىَّ وقت للحضور بسبب أعمال الأمن اليومية. ولقد جئت اليوم لمسألة مختلفة تماماً. وأحضرت معى هذين الشيئين عرضاً. لذلك أسأل عن آساف، فأنا فى حاجة له ".

نظرت فى عينيه ثم قالت: " ولماذا لم تحضر في المساء ؟ ".

لم يرد عليها ولم يرتبك.

-" نسيت أن أقدم لك شيئاً تشربه. يجب أن تعلم أنه إذا جاء آساف ورآك معى، سيقتلك. ماذا تشرب؟ ".

-" إذن علىَّ أن أسرع. أشرب قهوة مغلية بدون سكر. الجو بارد جداً عندكم. قد يقتلك البرد هنا ".

قفزت على قدميها بخفة وذهبت الى المطبخ.

قميصها من التريكو الخفيف. تهدل القميص بنعومة على جسدها. صحيح أنه يحافظ على صورة جسدها، لكنه يشوهه قليلاً. سارت حافية القدمين، بهذا القميص والجينز الساخن.

قام عصام وسار ببطء الى المطبخ. إتكأ على عارضة الباب. وأخذ يتابعها وهى ترعى القهوة. لم تشعر بقدومه وانزعجت فعلاً حينما رأته فجأة وهى ترفع القدح، فسكبت القهوة على الأرض. إنحنت بجسدها وهى تسبه.

-" لم أحضر فى المساء لأننى رغبت فى رؤيتك بمفردك. لأنى أعتقد أن لديك ما تقولينه لي".

بدأت تشعر بالخوف. لم ترق لها طريقة وقوفه. لقد سد باب المطبخ. مؤكد أنه سيتمكن منها. فالمسدس فى خاصرته، وقامته طويلة. شمّت رائحته الفريدة، وبدأت تنفعل. نظرت فى عينيه، والى فمه وأصابعه، فبهرها هدوءه.

ما الذى يمكن أن يقطع هذا الهدوء. أنا؟. ولماذا أنا بالذات ؟. لم تستطع أن تنظر اليه مباشرة.

- " عم تتحدث" . ثم قدمت له قدح القهوة . تناوله من يدها . أما هى، وكأنها ورقة سجائر ناعمة، خافت من ملمس أصابعه. ليته يبتسم. لو فعل ذلك، لأدركت أنه لا خطر منه، وأن هذا كله مجرد لعبة.

- " أنا أتحدث عن خوفك منى، حينما نظرت الىَّ بجوار الشعلة، وحينما نظرت الىَّ ونحن فى الطريق. كانت نظرة نابعة من القلب قبل الكلمات " .

سألته أوسنات: " ماذا تريد؟" . وأخذت تحوِّل ثقلها من ساق الى أخرى.

- أريد أن أعرف. وأنت تدركين أننى إذا عرفت فسيكون من السهل أن أموت حينما يحين الأجل " .

تحركت أوسنات ببطء نحو الحائط، ونظرت عبر نافذة المطبخ الى البحر البعيد والى الفضاء اللانهائى، حيث يتصاعد البخار، ثم نظرت الى النور الساطع فوق صفحة الماء الساكنة، والمنعكس من طلاء أسطح المنازل.

ثم قالت بهمس دون أن تحوِّل وجهها " سأرد عليك " . وبدت إحدى عينيها وكأنها أغلقت قليلاً، وتورمت شفتاها.

-" أنا وآساف لدينا مال وفير. إنه يكسب كثيراً. ويمكننى أن أفعل بهذا المال كل ما أريد، وأحقق كل ما تشتهيه إمرأة. أراد آساف أن ننتقل للإقامة فى حيفا، ليكون قريباً من مصنعه. إنتقلنا، ولكن لدينا منزل فى كريات بياليك، قريب من الحقول، وعلى مشارف القرية. وبجواره أشجار باسقة من كل الأنواع، وطريق ترابى واسع وقطعة أرض وراء البيت. لا نؤجره. لأننى لم أوافق على ذلك. أحياناً يقيم فيه أخى، وأحياناً أختى وأولادها. لكنه يظل فى الغالب خالياً شهوراً طويلة، مترباً، مهجوراً ضائعاً. ويدفع آساف راتباً شهرياً لحراسته. لقد ورثناه عن أمى، واشترى آساف نصيب أخى وأختى فيه.

أستقل سيارتى أحياناً وأذهب الى هناك. أجرى بعض أعمال النظافة، وأفتح النوافذ لتجديد الهواء. أدخل أنبوب الماء الى البيت، أمسحه وأنظفه. ولا يمكننى أن أرعى النباتات. بعد ذلك أجلس فى الشرفة التى يغلفها الهواء وتخطط بقع الضوء والظل الجدران والعوارض وجسدى. أنظر الى شجرة الخنشار و الأفوكادو والجوز الأمريكى. أنظر وأحلم. أسرح مع خيالاتى. لكن الغريب هو كيف تتغير الأمور، وكيف تنحنى الأغصان لتلامس الأرض تحت عبء السنين. فكّرت ملياً، وقررت عدم تحريك مليمتر واحد من هذا البيت. لا نحطم جداراً ولا نضيف اليه حجرة. هكذا كان منذ بنائه. لم تتغير المسافة من الشجرة الى المكان الذى أحببت الجلوس فيه منذ عشرين عاماً. وهناك، فى هذه المسافة المحددة وشبه الشخصية جداً، أدركت أننى أنتمى الى هنا. وأن هذا المكان لى وأنا له. أنا لهذه الأرض. وأدركت أيضاً أننى نشأت داخل هذه المسافة وهى ليست قصيرة. وكم عانيت وحزنت وسعدت وابتهجت داخل هذه المسافة. باختصار، مارست داخلها كل الحياة. أعرف الشجرة فى موسمها من الوانها، وأعرف العشب بأنواعه والهواء الذى تختلط فيه رائحة الحريق أحياناً. وأرى أحياناً أزهار اليوسفى، والعصافير التى تأتى الى هذا المكان فى الشتاء،

وأسمع هديل الحمام فوق الأسطح وأسعد بزقزقته. لا يمكن أن يحل أي منزل جديد أو أثاث جديد محل هذا البيت وهذه الأرض وتلك الأشجار. هذا هو الطعم والمذاق وتلك هى الرائحة. هذا هو النور الفريد الخاص الذى يظهر لى أحياناً، والذى أحب أن أراه، أستنشقه تقريباً فى داخلى من مكان معين وبزاوية معينة. إننى أشعر بذلك جيداً. أشعر به من الداخل، شيء ما جميل ولطيف، مثل الصلاة المستجابة. هذه هى أعمق سكينة عرفتها. وهكذا ربما يكون شعور الرضيع وهو بين ذراعى أمه.

" نعم، لقد رغبت الآن فى إحداث بعض الشغب، وتدمير شيء وتشويه أشياء. لكن، آساف هو البيت، هو قطعة الأرض. هو الأشجار. ليتك ما طرحت أسئلة. إنك تبدو كالبركان. إنتظرت أن تخرج من فمك قوساً براقاً، لامعاً، لكنى لا أرى سوى شعلة تخرج منه".

نظر اليها عصام من فوق حافة القدح، لكنها لم تنظر اليه. بدا عليها بعض الخجل والإمتعاض. إبتسم ابتسامة غريبة، واحمرت وجنتاه وظهرت أسنانه الصفراء وبدت الجدية فى عينيه؛ باختصار، بدا كالشيطان. قالت أوسنات: " يبدو أنك لم تنصت لى بالمرة، ولم تسمعنى، ولم تفهم شيئاً مما قلت ".

- " فهمت يا أوسنات. إنكم ترغبون فى الموجود. وشيء ما آخر. دائماً هناك شيء ما لا تطاله الأيدى " .

وقف عصام فى مكانه. سد باب المطبخ بملابسه الرسمية وبقفزاته وخطواته. إنصب تفكيرها كله الآن فى كيفية الخروج من المطبخ دون أن تطلب منه أن يفسح لها. وماذا تفعل إذا لم يتحرك فعلاً، وماذا إذا دخل آساف فى هذه اللحظة أو اتصل هاتفياً. فقدت هدوءها وسرى فى داخلها شيء غريب تمكن منها.

- " عصام، أريد أن أمر. يجب أن أذهب. يمكنك أن تأتى فى المساء سيكون آساف موجوداً " .

رشف من قدحه ونظر اليها. إستمتع بطعم القهوة فى فمه وحلقه. ثم ذهب بعد ذلك الى غرفة الإستقبال. تقدم من الباب وخرج دون أن يقول كلمة واحدة، تاركا وراءه المنظار محاطاً بالجماجم فوق المائدة.

عاد عصام فى ساعة متأخرة من الليل. فتح له آساف الباب وقال له: ماخطبك أيها المهرج ؟ أتلاعبنا فى الليل لعبة الأقنعة ؟" .

- " جئت أدعوك لاصطياد الخنازير معى. أنا لا ألعب فى الليل" .

- " هيا، أدخل " .

كان آساف يرتدى سروالاً قصيراً، ووقف بفانلته الداخلية وقد امتد بطنه أمامه بصورة واضحة. ملأ الغرفة بتلك البقعة الداكنة البراقة من ذقنه السوداء؛ وبتصرفاته الواثقة.

ربَّت له على مسند المقعد الكبير الوثير وقال له: " إجلس هنا" .

جلس عصام على المسند.

- "ليس هذا ما جئتنى من أجله. إنك تريد أن تنافسنى فى شيء ما، وتهزمنى فيه. يبدو أنك تريد أن تتجاوزنى كى تصل الى أوسنات. فليس من اللياقة أن تأتى لزيارة إمرأة متزوجة، وليس زوجها فى البيت. ماذا دهاك ؟ أتريد قتلى ! ".

أشاح عصام بوجهه جانباً، واحمّر بياض عينيه. وظهرت على شفتيه علامة امتعاض. بدا وكأنه لا يصدق أنه يلعب دوراً فى هذا الحديث !.

جالت عيناه بحثاً عن أوسنات، فعاجله آساف بقوله: "إنها ليست هنا ".

صمت عصام. فاستطرد آساف قائلاً:

- " ما الذى دفعك فجأة لكى تصطاد معى. متى تريد أن نخرج للصيد ".

- " مساء الجمعة. تأتينى مساء الخميس، تقضى الليلة عندى فى روش بيناه. وفى يوم السبت تحضر لزوجتك لحماً يكفيها نصف عام.

ألّح آساف فى السؤال:

- " ولماذا معى ؟ ".

أجاب عصام بهدوء وهو ينظر الى وجه آساف وعينيه، وأخذ يدلك مرفق يده: " لأنك مريض ".

- " مريض؟! ".

- " بالغيرة ".

- " ماذا دهاك ".

- " أوه، أنت حساس جداً. وهذا حسن فى حد ذاته، لكنه ليس حسناً للصيد. لقد شهدت معركة بين اليهود والعرب تحت جسر وادى نسناس، حيث دار العراك حول حق إلقاء الخردة فى ساحة خردة السيارات ".

نظر اليه آساف، وهز رأسه قائلاً:

- " أخبرنى. ألا تبدو مطاردتك لنا غريبة. فيم اهتمامك بنا، وعنايتك بإعادة أشياء لنا، وتسأل عنا وتزور زوجتى وتدعونى للصيد، ألا يبدو هذا غريباً بعض الشيء؟ ".

إبتسم عصام، لكنه سرعان ما تراجع عن ابتسامته. وقال:

- " إصرارك عى السؤال لا يبدو غريباً لى. إسأل نفسك لماذا كل هذه الأسئلة، ولماذا لا تنظر الى الموضوع بإيجابية. لماذا لا تعتبر دعوتى لك تقرباً منك ".

وهنا تغيرت نبرة حديثه وصارت أكثر تعبيراً:

- " سأذهب الآن. أنا مقيم فى روش بيناه فوق النبع، وبيتى يطل على وادى المقابر. إسأل عنى. سأنتظرك حتى العاشرة صباحاً. لست فى حاجة لإحضار شيء معك. كل ما عليك هو الحضور فقط ".

مضى تاركاً آساف يرمش بعينيه ويرفع شفته العليا مستعيناً بشفته السفلى، ويصدر ضحكات هستيرية:

- " إبن عاهرة أسود " .

أخذت السيارة الفولكس تنهب الطريق فى مرتقى متعرج مرصوف بالصخور الملساء فى روش بيناه، وشقت طريقها نحو الجهة الغربية من المستوطنة. لقد شجعته أوسنات على السفر، بل إنها أجبرته فعلاً على ذلك بقولها:

- " ستمضى ليلة أو ليلتين خارج البيت، وليس فى هذا ضير. إذهب. سافر له. يهمنى أن أعرف ما سيحدث بينكما " .

- " تشعرين أننا نتقاتل عليك، اليس كذلك ؟ " .

- " مؤكد " .

- " ملعونة ! يالكم من ملاعين يا معشر النساء! " .

- " وكأنكم لستم كذلك. لقد دخل البيت هنا، ولا أعرف كيف لم يغتصبنى. . . كادت عيناه تخرجان من مآقيهما. . " .

أخذت السيارة تقفز وتتراقص فوق الأحجار الملساء. . وتاق آساف لإعادة الجماجم الى عصام.

جلس عصام على سلالم المنزل الخشبية ينظف بندقيته، والى جواره بندقية أخرى بماسورتين، بينما لمعت ثالثة على الحاجز الخشبى، ذات مؤخرة خشبية ونقوش غائرة وأخرى مسطحة، وحامل الماسورة سميك داكن اللون. ورمانة الترباس مطلية بالفضة تملؤها النقوش الغائرة، وبعض مخازن رصاص غريبة الشكل. الساعة الآن السابعة صباحاً. لم يندهش عصام، بل لمعت عيناه وابتسم. دعا آساف للجلوس. لكن آساف ظل واقفاً. إنتهى عصام من تنظيف بندقيته.

- " إنها ماركة كروف ! " . وألقى اليه بالبندقية الأمامية فالتقطهاآساف وأخذ يتفحصها.

- " لقد ورثتها عن جدى، وهو من قبيلة الغوارنه، فى منطقة الحوله، وحصل عليها من مستوطن روسى فى" يسود هامعلاه" ، فى أواخر القرن الماضى. ولها حزامين، ورصاصها ١٢مم. والمسافة المؤثرة من ١٥ : ٢٠م. كلما استخدمتها صنعت لى ثقباً فى رئتى بحجم قِدر ضخم " .

- " هل يمكن أن أهاتف أوسنات ؟ " .

- " نعم، تفضل بالدخول، الهاتف فى المطبخ " .

دخل آساف. مر عبر ممر الأعمدة المصنوعة من خشب الأشجار، ووصل الى داخل البيت. لا يوجد على الأرض سوى بعض الحصير وسجاد ومراتب ووسائد. وبعض الجرار الضخمة المصنوعة من الطين والنحاس ورءوس محشوة تحمل قرون غزال. بعض الدفوف الصغيرة، وسكاكين مختلفة؛ ستائر مطرزة، وبنادق متقاطعة. دار رأس آساف من الألوان الحادة فى الحجرة الكبيرة، التى لا يوجد بها تلفاز ولا مذياع ولا كتاب. أحنى رأسه ليمر إلى المطبخ من الفتحة المنخفضة. أحد جدران المطبخ عبارة عن نافذة ضخمة. تطل على الوادى؛ ملأ اللون الأخضر عينيه. يوجد بالمطبخ ثلاجة ضخمة ومجمِد كبير وطاقم سكاكين ومناشير.

هاتف آساف أوسنات. أبدت رغبتها فى التحدث الى عصام، غضب آساف وطرح عليها عدة

أسئلة. لكنها سرعان ما غضبت، فسبها وأغلق الهاتف وهو يفكر فيما يمكن أن يحل عليه وعلى أسرته من مشاكل لا حصر لها.

دخل عصام لاستدعائه، فرآه شارداً. ذهب الى المجمِد، فتح بابه، فبرزت منه كميات ضخمة من اللحوم المجمدة. قال عصام:

-" سأوضح لك كل شيء من البداية. تحديد المنطقة. الكمين. الترقب. الصيد. المطاردة. التحميل. النقل. نزع الأرجل من المفاصل. إزالة الشعر. التقطيع. التنظيف. التمليح..." .

سأله آساف بدهشة:

-" هل أنت متزوج ؟ فيم إحتياجك لهذا كله ؟ " .

-"عما قليل سترغب فى معرفة كم مرة أمارس الجنس. هذا كله من أجلى، فأنا إنسان أكول" .

إستقلا معاً سيارة عصام الجيب صوب " شمورت ها حولاه " لتعيين المكان وإعداد الكمين. وما أن وصلا حتى قاد عصام السيارة خارج حقل محروث ووضعها فى ظل غابة كافور تحدها شجيرات شوك عالية متشابكة. ثم طرح على آساف سؤالاً عرضياً:

-" هل لديك مشاكل ؟" .

نظر اليه آساف بعيون متقدة وهز رأسه بالنفى، ثم بادره بقوله:

" من المؤكد أنك تضاجع كل المجندات فى وحدتك" .

كف عصام عما يفعله ورفع رأسه اليه قائلاً:

" ولا واحده " .

-..........................

ضاقت عينا عصام، وفى لمح البصر أنزل سرواله- وإذا به بدون لباس تحتى - .... إبتلع آساف لعابه من فرط الدهشة.

-"...................................

رفع عصام سرواله بسرعة. وهز لآساف رأسه وكتفيه كى يلحق به. وضع عصام بندقيته على كتفه، والحقيبة على ظهره، ومد لآساف إناء ماء كبير مثبت على حمالة وأخذ سكين الصيادين يتراقص مضيئاً على ركبته. إرتفعت حرارة آساف من شدة التفكير فى أوسنات حال رؤيتها لما رآه. سار خلفه والضباب يغلف عينيه. إلتفت عصام الى آساف وقال له:

-" حينما كنت أصطاد فى هذه المنطقة قبل حلول المساء، كان الأوز البرى يطير أزواجاً. كنت أسقط واحدة. فتعود الأخرى بعد فترة. إصطدت هنا بجع ودلق وشيهم ومالك الحزين.

سار آساف الى جواره، وقد تقلصت أعضاؤه واشتد توتره. لا يرغب فى شيء. أخيراً رغب فى أن يسأله عن تلك الليلة، فى الغابة، وعن نتائج التحقيقات والبحث، وعن الجماجم الورقية، لكنه لم يسأل. فهو يعتقد أن الإنسان القوى هو ذاك الذى يستطيع أن يصر على قراراته طول

الوقت ولا يفرق معه ما إذا كان راضياً عنها أم لا. كما أنه لم يعتد أن يقاد وراء شخص دون أن يعرف ما يمكن أن يحدث ودون أن تكون لديه خبرة فيما سيفعله. منذ تلك اللحظة سار آساف معه واستمع له لكنه لم يرهف السمع.

سمع منه عن جبال نفتالى التى تظهر فى الشرق بلونها البنفسجى، وصفائها. وسمع منه أيضاً عن طبقات البازلت فى هذه المنطقة وعن ظاهرة النحر التي تسبب فيها ناحال قيشون وناحال حاتسور.

وسمع أن قرّاص الحوله يشفى من مغص المعدة. قال عصام وكأنه يحدثه بحماس هامس:

" إننى أسير هنا وكأنى أسير داخل نفسى. كل شيء جميل. وكل شيء معقد، وكل شيء جامد. مرا بجوار بحيرات صغيرة، عبارة عن سيول راكدة، تعوم فوقها نباتات مائية بيضاء مزهرة، بالإضافة الى نبتة كثيفة من البوص وأعواد البردى. وسرب من عصافير أبو مقص يضرب على صفحة الماء، ثم يعاود الإرتفاع من جديد وكأنه موجة تعزف لحناً. وكانت تفوح أحياناً رائحة نفاذة من داخل الطين مختلطة مع رائحة الحنطة البرية.

وصلا الى نهاية المنطقة التى تفوح منها الروائح. وهنا توقف عصام. أنزل حقيبته، وطلب من آساف أن ينزل حمله أيضاً. جمع له بعض الأحجار، والتقط بعضاً من الحصى وأشعل بسرعة ناراً وضع فوقها قدحاً أخرجه من حقيبته، وأسقط فى الماء بعضاً من أوراق القصعين، وفتح قنينة أخرج منها زيتوناً وزعتر. وأخرج أيضاً فطيرة كبيرة ولبنه. إتكآ معاً على جذوع الأشجار وشرعا يتناولان الطعام. دمعت عينا آساف من فرط الإحساس بالسعادة والبساطة والإلتحام الكامل مع كل ما هو حوله. مرّت لحظة صمت. أعد عصام الشاى، وقال فجأة:

- " هنا أكثر دقة مما فى المطبعة. فهنا الخط الرفيع الذى يفصل بين الحياة والموت؛ حيث توجد قوانين خفية! ربما كانت هى التي تدفعنى الى صيد الخنازير. ولا يوجد هنا ما يدفعنى دائماً الى الإعتذار. من المسئول بالضبط عن هذه العلاقة. هنا يجتمع كل ما أعرفه فى لمح البصر.

إرتشف من قدح الشاى بصوت مسموع. وبدا ذراعه نحيفاً وقوياً بارز العضلات، وأصابعه سمراء طويلة. نظر آساف وفكر فيها وهى تجذب زناد البندقية، وهى تضم مؤخرة امرأة، وهى تفترس اللحم الغض. إستطرد عصام قائلاً:

- " فى الليل أدهن جسمى بالمعجون اللاصق- لأنه يجب أن تدهن كل مكان تطاله يداك بالمعجون المضاد للناموس، وبكميات كبيرة، وليس مرة واحدة. وعنى أنا شخصياً، فإن دمى سميك لا يمر فى شرايين الناموس. ولقد عوّدت نفسى فى مواسم متتالية على ألا أسمع طنينه. أريد أن ألغى من نفسى رائحة الإنسان، حتى لا تصل مع الرياح الى منخار الخنزير. أطحن أوراق البرسيم الجافة وأخلطها بالطين وأدهن بها جسمى. أفعل ذلك لأقوده الى فوهة بندقيتى. أقتفى آثاره بالنهار- وسوف ترى بنفسك بعد قليل- وأحدد بعض الممرات وأضع على بعض نقاطه المحتملة جورباً يخصنى لبسته لمدة طويلة. وقميص تريكو به رائحة عرق، آخذاً فى الإعتبار اتجاهات الريح، أقوده نحو ممر آخر "خال من أى إنسان" ، وأنتظره هناك، فى منطقة تكثر فيها

النباتات الكثيفة المتشابكة، وأعواد البوص والخيزران، القوية المضفرة، لا تكسرها سوى أنيابه. وترسم ممرات لا يصعب المرور فيها حينما يأتى ليشرب " . إتسعت عينا عصام وصارت أكثر صفاء وهو يحدثه بقوله :

-" جلست ذات مرة مع بعض الأصدقاء بين النباتات بجوار بركة ماء فى السهل الساحلى. وكمنت للأوز البرى الأبيض الأملس ومالك الحزين. لكنها لم تقترب. وكأن أحداً حذرها من وجود خطر. وبالتدريج فهمت أننى أنا الذى أحذرها. أنا الذى أرسل لها توترى، وكل أحاسيس الذنب، ونوايا القتل، ومخاوفى. هيا جرب: أخرج من السيارة. سر بمحاذاة أسلاك الكهرباء، تجد أن الحمام ساكن لا يتحرك. صوب اليه، مجرد تصويب. ستجد أنه يطير متفرقاً. كنت آخذ معى كتاباً أو صحيفة وأنسى. أجلس بين النباتات وأنسى. وإذا بها تقترب، أجدها حولى تماماً وأمامى فى كل مكان، كنت أصطادها بلا صعوبة. كان الرفاق يقولون لقد عثرت على مكان ممتاز، لذا كان صيدك ثميناً. كنت أضحك، وأتبادل معهم الأماكن. ويتكرر ما سبق. لم أعد أشعر بنفسى وأنا أطلق عليها. لو أننى شعرت، لشعرت هى أيضاً قبلى. يجب أن تعيش لحظة ما قبل الزلزال. تقريباً كنت أقول لنفسى يجب أن تكف عن أن تكون، وتتخلى عن الأنا الذاتية وتتحول الى شيء آخر. خنزير مثلاً. وأندهش. أليس هذا ما يفعله البشر طول الوقت، حتى أنت، يا آساف. لقد جئتنى لتصطاد. جئت لتكون معى ولتضع زوجتك فى اختبار " .

قام عصام بسرعة، وسكب ما تبقى فى قدحه من شاى، ولم ينظر الى آساف. أطفأ الجمر وأزال الأحجار ونثر أوراق الشجر فوق الرماد والأحجار. جهز حقيبته (لم يتمكن آساف من شرب ما يكفيه من الشاى). وقف عصام ونظر الى آساف واضعاً يديه على خاصرتيه. أشار آساف الى رئته وقال له:

-" ماذا دهاك. إنك إنسان مريض " .

نظر اليه عصام، وابتسم ثم انتحى جانباً.

فى الظهر وحينما اشتدت الحرارة، عادا الى منزل عصام، بعد أن سار آساف فى أعقاب عصام مقتفياً آثار الخنازير فى دروب البوص الضيقة والخطرة والمرعبة، دروب لا عودة منها. وفوهات البنادق مستعدة للإطلاق، ومخازن مليئة بالرصاص. وضعا فخاخ الرائحة، واختار عصام مكاناً لآساف وآخر له. وعلّمهما بقطع قماش أبيض علّقها فى طريقه لكى يعثر على أماكنها حينما يعود فى الليل.

قال لآساف فى المنزل:

-" يجب أن تنام الآن، سوف أجهز أنا بعض الأشياء وأوقظك. هذا مجرد اقتراح. لكن يمكن أيضاً أن تقوم بشى بعض اللحم وشرب نبيذ ثم تنام بعد ذلك.

المنزل الحجرى فى روش بيناه تغطيه شجرة توت ضخمة تحجب صفحة النبع، بجوار المعبد. وهو عبارة عن منزل بارد، نظيف، طليت نوافذه باللون التركوازى وتنطق جدرانه بالبياض الناصع. وتملأ المكان دوائر من خيوط العنكبوت، بينها وبين الستارة تنافس قديم. أما الهدوء، فيا

له من هدوء! هدوء محير. واضح كنور الفجر. هدوء خفيف، يمس شغاف القلب. ويهدىء العينين، ويرطب الجلد والعضلات. إنه صمت بعد ظهر يوم الجمعة فى الجليل.

فى المساء رتّب عصام كل شيء. تفحص البنادق والمناظير ووسائل آساف المضاد للناموس. والسكاكين ومجموعة الإسعافات، كشافات، كبريت، مسدس، مياه، مناشف، أحبال وحصر صغيرة. واتفقا على صافرة كشفرة بينهما. قال عصام:

- " مع التحلى بالصبر ".

إستقلا السيارة لمدة ساعة تقريباً الى أن أوقفها عصام. تحرك عصام داخل الحرش كما لو كان يسير فى وضح النهار. لم تسمع خطواته. كل شيء ملاصق لجسده. ملابسه داكنة اللون. ودون أن يتفوه بكلمة، إستعان بضوء القمر فى اقتياد آساف الى مكان الكمين، وتفاهما على تعيين مخبأ سرى بين الأحراش والتعرف بصافرات خاصة غريبة والنقر على صفحة الماء. تعايش آساف بصعوبة مع الجو، لكن دون تكاسل أو تخاذل. تخيل آساف أنه رأى عصام يبتسم لمنظر سرواله. حدَّثه عصام بشفتيه وبدون صوت تقريباً، ونجح فى ذلك بدرجة كبيرة، ثم استدار وبخفة الغزال إختفى تماماً عن ناظريه.

جلس آساف فوق الحصيرة، ووضع البندقية على ركبته. خلع المنظار ونحى مزادة الماء جانباً. وانطلقت من صدره تنهيدة رغماً عنه:

- " يالك من بائس! الى أين وصلت! إنك كجاموس عمره خمسة وثلاثون عاماً، ثقيل ومرهق؛ جاء يرتاح راحته الأخيرة فى الحرش. عما قليل سيشخر خنزير ويشتمك. ويهرش فروته الخشنة العفنة، وهو لا يعرف أنك جاموس فى صورة زوج أوسنات، ببشرته الحمراء، الملساء، وبطنه الملى وعقله الغائر. فيم هذه الحساسية التى تجبرك على أن تضحى بنفسك لها وتسلم نفسك لمغامرة كهذه. إنك شخص آخر. هذا لا يناسبك. أنت، الذى يتأرجح بين مشاعر السيادة المطلقة والحكمة والإستقرار وبين مشاعر الدونية الكئيبة؛ وكأنك تطلق من داخلك نوعاً من القهر الداخلى. إنك إنسان تأصل فيه الفشل ولم يعد ممكناً احتماله. وعصام لم يدرك بعد، ولا يفهم أنه مريض نفسى. ومن الممكن أن يقتلنى دون أن يغمض له جفن، وأنه يعيش فى عالم من أفعال وردود أفعال وتفسيرات لكل شيء وليس فى حاجة لأن يطرح أى سؤال. إنه إنسان لا يوجهه أى فضول، فهو يتغذى من خدَّام رغباته الذين يسيطر عليهم مستعيناً برتبته أو بقدراته أو بشخصيته أو أى شيء خفى فى داخله. وهو ينجح فى الصيد لأنه أهل لذلك !. ولا يدان فى ذلك ولا يعاقب. وبدون عصبية أو انفعال. إنه يخوض حرباً لا يحتاج فيها الى أحد، لا يحتاج إلا إلى نفسه فقط. كما أنه لا يمكنه إقامة علاقة ودية. فهو غير مؤهل لذلك، ليست لديه أرض تنمو عليها هذه العلاقات، أرضاً محروثة ومزروعة ومحصودة. إنه لا يملك سوى حقائق جافة. ومجرد أوامر. وليس لديه شيء إنسانى، وهو لا يرغب فى ذلك ولا يريده، لماذا أنجذب اليه! لماذا أوسنات! لماذا أنا وأوسنات، لقد تمسك كل منا بالآخر فترة طويلة؛ وكأننا فى عربة إنقاذ، يمكن أن يسيطر عليك فيها أي تفكير، لكن لا يمكن الهروب من تحت نيرها.

القى القمر بضيائه الساطع الساحر على الحرش وفوق درب الأحجار الداكنة، فانعكست ظلال غريبة مرعبة. كل شيء مطلى بلون الفضة. أخضر بلون الفضة، ظلمة بلون الفضة، أصفر فضى، مياه فضية ملوثة تتموج،ونباتات تطفو، تتصبب ندى، وسلحفاة مائية ضخمة تتلوى، ولا يختفى جسدها فى ظلام الغابة. أشعر باليتم بدونها. كل شيء أنظر اليه فى البيت في غيابها يفقد قيمته وأهميته. رأيت ديناصورات فى السحاب، شعرت بنفسى مدمراً وما من منقذ. لم أستطع التفكيرفى الولدين الصغيرين اللذين لا أحد يحميهما بعد أن تركتهم لى حال ذهابها. كنت ممزقاً. لم أشدُ بلحن منذ شهرين. والآن ها هو طنين الناموس لا يكف، فوق الرأس وبجوار الرقبة وداخل الملابس. ووسط هذا الضوء الذى لا هو بالنور ولا هو بالظلمة، غالبنى النوم، الذى لا هو بالموت ولا هو باليقظة. كيف يتسرب اليَّ ويملؤني هذا الإحساس بالحب الجارف لأوسنات. هكذا فقط يمكنني أن أعيش. هل تقبل حبى لها. أنا لم أعد أنا. لقد أحببت. وها أنا أضع كل شيء موضع اختبار. كل يوم وطوال النهار، إذا فعلوا ما هو مطلوب لك لحظة بلحظة، فكل شيء إذن على مايرام. وإذا لم يفعلوا، فإنك تدمر المبنى كله. تختار سلاح الإنتقام، وهو سلاح الضعفاء. إنك أيضاً جبان لأنك لا تملك قوى حقيقية. إنها مجرد خدعة. إدعاء حكمة فقط. دائماً لديك إحساس بعدم الرضى والقناعة. ليس لديك صبر على شيء. كل شيء يجب أن يكون للإرضاء. كل شيء فورى؛ ولذلك فهو لحظى أيضاً، وسرعان ما يتلاشى ويتبخر. لا توجد متعة حقيقية، لأنه مطلوب منك دائماً أن تدفع الثمن. ويشق عليك أن تعبر عن الروح الودية، وأسهل عليك أن تدمر أكثر مما تبنى. التدمير يناسبك أكثر لأنه انعدام للمسئولية. كما أنه يجذب اليك الإنتباه. أما حالة الهدم فهى توتر دائم. إنتظار دائم للحدث التالى الذى يشحنك ويضعف بحدته الألم السابق. تعيش دائماً بإحساس إضاعة الفرصة؛ ربما فى مكان آخر؛ وربما مع إمرأة أخرى. ربما تأتينى راحة القلب الحقيقية، مرة، مرة واحدة فقط.

" ما هذا، وفيم كل هذا البكاء وكل غصات القلب، وتلك السعادات الصغيرة... الفهم ليس هو الحياة والحياة لا يغيرها الفهم. قال لى والدى ذات يوم: "كل مكان يمكن أن تجد فيه عالماً كاملاً. وقالت لى فتاة أحبتنى ذات يوم كل ما هو فى الحياة مصنوع من اللحظة، مصنوع من كل الحياة... ".

لم يعد آساف واثقاً مما تراه عيناه. صمت مرعب حوله. الضباب وبخار الماء يغلفان كل شيء. هل فتحت الخنازير قنابل الدخان؟ هل انطلق فى جهنم عمود دخان من البنزين؟ أطلق صافرة، لكنها تلاشت مع الرطوبة. لم يأته ردٌّ عليها. نام على جانبه وبندقيته فوق ركبته. كف يده ممسك بلحيته. عيناه مغلقتان، يغفو ويصحو. أحاطت به الأمواج الفضية. دخل عينيه ضوء براق، دلف الى حلقه، واقتحم أفكاره العذبة. شعر بالإرهاق. وغط فى النوم.

إخترقت نومه خمس رصاصات.

(١٩٨٩)

***

ش. شابيرا

ليل الجدى

(فصل من قصة)

دفعت عفيفة بثديها الأبيض الى صدر فستانها. هل تدمع عيناها؟. غطت الرضيع بالبطانية جيداً وأعادته الى قاع سلة التفاح الخشبية وعادت الى الطشت لتغسل الملابس بعد غليها. الملابس تتلوى بسرعة بين يديها، وكأنها ثعابين ماء. تقول أمى: " فم الغسيل الثانى دائماً أقصر من الأول" . لكن بدا لى أن عفيفة تحاول بهذه الحركات السريعة أن توقف فيض الدموع الذى يهدد بالإنطلاق من حلقها؛ فالبكاء محظور عليها. وهى لا تحاول أن تخفى دموعها عن الطفلة التى تنظر اليها من مهدها، بل تخفيها حتى لا تستجلب الشر. بدا لها أنها تحسست بإصبعها أول سن أمامى. تتمنى أن تلقيها عالياً فى عين الشمس وتقول"يا شمس يا شموسه خذى سن الحمار واعطنى سن الغزال" ، لكى تخفف من رعب الطفل بسبب الفراغ الذى ستخلفه هذه السن فى فمه.

يعيدها الألم فى صدرها المنتفخ لتنظر ثانية الى الرضيع. ستقص البنت على أبيها، المعلم ما أخفته هى. وقد تبوح بالسر، وتطلعه على راحة قدم الرضيع الملتهبة. إنها تخشى من عرضه على الطبيب. " ماذا لا قدر الله " . ترفض أن تنطق الكلمات بشفتيها. عليهم إستشارة الطبيب. تجرأت عفيفة على الحلم، ومدت يدها الى الملاءة البيضاء. علها تتمنى فى مكنون قلبها أن يقترح عليها المعلم مساعدته. لكنها لم تطلعهم على ضماداته. كيف تكشف أمامهم كى النار. إعتذرت لامرأة المعلم التى اقترحت رفع البطانية من فوقه قائلة: "إنه لا يزال صغيراً، وضعيفاً. الجو شديدالبرودة فى ظل الشجرة، وسيصاب بالبرد " . ألم تر بعينيها كيف مرض كل أولاد المعلم بالنمش الأحمر فى كل جسدهم، بل وحتى على وجوههم. وبعد عدة أيام عادت بشرتهم الى ما كانت عليه. فكيف تغفر لرحمها الذى لم يحسن تنمية الجنين ليصبح طفلاً. لقد تزوجها فى آخر فصل الصيف، فى منتصف الشهر، وقبل اكتمال القمر.

دعانى أبى لتناول الطعام. كان يفتح فمه عن آخره مع كل ملعقة. يدعوه " حساء فيينا" . وهو طعام خاص بأيام الغسيل والجمع. وهو عبارة عن فطيرة رقيقة جداً وخضروات. غضبت الأم قائلة: " أى الخضروات لم أضعها فى القدر وأنت لا تأكلينها " . حينما تكون عفيفة هنا، أتنازل عن قصص أبى. أسرعت عائدة الى الطبق الخشبى. لكن أبى متشدد اليوم بالذات ومصر على قصصه.

" لقد أرضعتنى أمى حتى بلغت الثالثة. وخمنى أنت بنفسك. جلبت لنفسى مقعداً صغيراً أجلس عليه تحت أقدامها، وحمدت الله على كل شيء ". إننى أبتلع الطعام بصعوبة. لو لم تكن عفيفة هنا، لهربت الى نهاية الحقل لأتقيأ. هربت الى كوم التراب قائلة: "كفى، لم يعد فى إمكانك التقيؤ أكثر من ذلك ".

فى نهاية موسم الحر، تحيط بها النساء بدرجة تشعرها بالإختناق، يلقين اليها بالورود والرياحين ويزغردن. جاءت عفيفة الى القصر. تهب فى الخارج ريح شرقية ساخنة. لو تأتى نتفة سحاب من مشارف الغرب لتضرب هذه الريح الخماسينية. أحاطت بها النساء لأنها عروس. وقفت على حافة النهر وأخذت تقلم قصب السكر البنفسجى بسكين ذى نصل طويل. فى الأيام الخوالى كان الشباب يبيعون فى الشارع الرملى. أخذت تقطع العود بالقرب من العُقَل. العُقَل العليا أكثر حلاوة. وضعت الأعواد على حجر وأخذت تنزع عنها اللحاء بظهر السكين. وفى النهاية قسمت كل عود الى أربع قطع ووضعتها فى حجرها، وضعت قطعة منها بين شفتيها، وأخذت تمص عصيرها السميك وتعصره بأسنانها لتقوى أصداغها. كررت ذلك عدة مرات، وأخذ رذاذ ماء مسقط المياه يرطب منابعها الجافة. كانت تجلس أحياناً فوق السد داخل مسقط المياه، وتجعل الماء يبلل فستانها ويصل الى جسدها، وكأنها تكمن لرياح الخماسين. تدخل من الباب العلوى مع ذرات التراب، وتغزو داخلها ثم تنسحب من بوابة جسمها السفلية وهلم جرا. بعد لحظة ستطلق الريح الساخنة من فمها وكأنها ضبع قاذف لهب، وتضرم النار فى جسدها. لا زالت تداعبها ذكرى نداوة لسان الجدى فى أصابعها. صارت رائحة أنفاسه نفاذة منذ أن كبر وأصبح تيساً، فلقد جلب الجيران ماعزاً الى الحظيرة. رائحة عطر الورد تقلب أمعائها. تمنت لو ظهرت سحابة خفيفة فى الغرب، فيخفف المطر من حدة حرارة الخماسين وتتصاعد رائحة لحاء الموالح فتبعد رائحة الورد. منذ أن ذهب والدها الى بلاد لا عودة منها، توقفت الطاحونة وتدفقت المياه هادرة، واقتحمت "السدة"... منذ ذلك الحين وهى تعمل فى مصنع التعبئة فى الحديقة الكبيرة التى تحيط بالقصر الذى على قمة الجبل. هكذا كانت تسمى البيت الذى على مشارف الحديقة. من كان يظن أنها ستصبح يوماً زوجة لصاحبه. تلال من البرتقال الداكن، اللامع، تضغط على الشبك المحيط بمصنع التعبئة من جهة الشرق. لقد حاولت عبثاً جذب برتقالة ضخمة من بين مربعات السلك فى إحدى جولاتنا الأسرية الى " الطواحين السبع "، لكى أدعو عفيفة الى يوم الغسل. عدَّل لنا أبى النطق قائلاً: " إسم القرية جريسه، وليس سبع، لأنها تضم أحد عشر زوجاً من أحجار الرحى ". ورق التغليف له رائحة نفاذة. إنخرطت عفيفة فى جموع عاملات التعبئة، لا توجد من هى أسرع منها فى تغليف الثمرة. وتسمع فى الخارج طرقات المطارق على الأربطة اللينة التى تحيط بالصناديق الخشبية البيضاء كالجلد الطرى، يحتفظ الرجل بالمسامير فى فمه، ويغرسها الواحد تلو الآخر ويضربها حول الصندوق.

فى العام الثانى للجفاف إذا لم ينزل المطر، لن يحدث جنى للثمار. وسيظل مصنع التعبئة خالياً. وستغطى الأرض بقايا البرتقال المتساقط وتصل رائحة العفونة الفجة الى منازل القرية.

وسنضطر الى لعق بقايا الشعير فى الحقل حتى لا يبقى فيه سوى التراب. ويترك قطيع الجاموس المستنقعات ويذهب الى حافة النهر. وتنساب مياه المسقط فى هدوء. أحياناً تستيقظ عفيفة فى الليل مذعورة. ترهف السمع لصوت مياه المسقط، لماذا لا تسمع خرير المياه. تهز ريح شرقية أشجار الكافور على ضفاف النهر، فيتهامس البوص رداً عليها. لو نزل المطر وغسل سعف النخيل المعروقة فى ميدان القرية، ستفغر فاها للقطرات الكبيرة وتضخ الماء من خد الى خد، تغسل حبات الرمل التى تصطك بين الأسنان. لكن لن يحدث جنى. فلقد نضبت برك المياه وجفت الآبار، وملأ التراب قنوات المياه فى الحديقة. واصفرت أوراق الموالح. كانوا فى موسم الصيف يضخون المياه من النهر بالشواديف، بل وحتى بكل ما تصله أياديهم. لكن الموالح المتعطشة للمياه لم تنضج. لن يحدث جنى. القرية صامتة تماماً. لم تعد هناك مياه غسيل فى بيت المعلم. ما عليك إلا أن تعبر السور الشائك وستجدها هناك فى آخر الشارع الترابى. قالت أمها وهن فى الطريق صيفاً لزيارة قبر أبيها فوق تل المقابر: "- ممنوع. الهضبة جرداء. لا يوجد سوى ثمار تغطى الأحجار من السفح، وحتى السور الشائك، حيث يزرع حارس الوقف ثمار البطيخ، التى لا تحتاج الى مطر". ملأوا بطونهم بالبطيخ فى تلك الأيام القائظة. بطيخ، وخبز. إستطردت أمها تقول "فى منتصف الليل أخذ بعض المسلحين يطرقون على الأبواب الخشبية الضخمة، كانوا ثلاثة فرسان. وجوههم ملثمة بالكوفيات. لا يظهر منهم سوى عيونهم. فتح لهم صاحب القصر وأدخل الضيوف الى الفناء رغماً عنه. كان بمفرده بين ثلاث فوهات بنادق. لم يردوا على تحيته ولم يراوغوا معه. طلبوا منه أن يجهز غداً خمسون ليرة إسرائيلية. وسيأتون بأنفسهم لأخذها، تبرعاً منه لصندوق الثورة. ألم تسمع عن عبد القادر؟ لم يدفع، فاقتلعوا نصف بستانه. عشرة فدادين. فى العام الثانى للجفاف جمع الحطابون بعض الأغصان المتفرقة فوق جبل نابليون، حيث يخرجون فى ضوء القمر الى الحقول الجرداء شمال النهر. لقد تنبأ الدرويش بالبشائر. حجبت الشمس هالة خفيفة، فتنبأ قائلاً: " غداً. غداً سيهطل المطر". لكن عفيفة تعرف أن الوقت لم يحن بعد، وأنهم عبثاً يصلون لنزول المطر. لم تتحرك أصابعها وأمها تحاول معها، ألم يقولوا أنكم مصريون وأن المصريين لا يعرفون الله. لكن نهر اليرقون المتقلب ليس هو النهر الكبير، نهر مصر يابنيتى. ألسنا نحن أبناء بلا أب. هكذا حدثت الأم زوجها، وكأنها هى أيضاً إبنته. منذ أن توقفت الرحى والأب أيضاً، تحطمت أجنحة الشعر. هكذا كانت ترثيه. من كان يصدق أن حجر الرحى الفوقى، مصنوعٌ من البازلت الأسود. أليس من الطبيعى أن الحجر الرملى يفتت أولاً. لا تذكر الأم إسم كلمانيا بنت محمد من غماسين الشرقية، لكنها يكفى أن تهمس لعفيفة، يقولون إنكم مصريون. قالوا إنها خرجت وفى يدها سلة بيض وذهبت الى المستوطنة. لكنها لم تدخل الشارع الرئيسى. لقد باعت ما معها لربات البيوت فى الحى فوق الهضبة المقابلة للمستوطنة. إقتحموا الخيمة فى الليل. لا أحد يعرف كيف لم تحذرها الكلاب. قتلوها وهى نائمة. وتركت رضيعاً يبلغ من العمر عاماً واحداً. جفلت عفيفة.

تجمعت جماهير غفيرة فى الحقل الأجرد. وأخذوا يضربون على الصفيح ويصيحون، يا الله، أنزل المطر، أرسل السحاب. تجمدت العصى فى الهواء، وتعلقت بها كل العيون. إندهشت

عفيفة. أحاط بها الأولاد، فلذات الأكباد، وصنعوا حولها دائرة. متى؟ متى؟. والعيون تتهمها هذه المرة.

إنتظروا ثلاثة أيام. ربض الهواء المترب فى الصباح فوق صفحة النهر، وغلف قمم الأشجار. وفى اليوم الرابع، تنبأ الدرويش مرة أخرى، ستهب ريح مصر. أما عفيفة فإنها تعرف أن الموعد لم يحن بعد. تبدو السماء كالقصدير. تجمعت النساء وحدهن فى ساحة أشجار النخيل. العذارى والأمهات فقط. تمسك كل منهن فى يدها بدجاجة سوداء. وشرعن فى نزع الريش قائلات: أنزل المطر يارب، أرسل السحاب. وتعالى صياح الدجاج مع دعاء النساء. هرولت عفيفة الى أمها تحمل فى يدها رحاة يدوية، وجلست فى وسط الميدان على الأرض وضمت حجر الرحى اليها، وصاحت "عبثاً ما تفعلون، لم يحن الوقت بعد"، وأخذت تبعد عن وجهها بيدها الزغب الأبيض المتطاير. وزغردت النساء.

فى العام الثالث خلا المخزن فى بيت أمها. وذهبت عفيفة بعيداً حتى "المطاحن العشر" لالتقاط القرّاص. حاولت الإمساك بالأكمة من جذورها. وعادت تحمل على رأسها ربطة مغلفة بمنديل، لكن يديها ساخنتان. ستقوم الأم بسكب الأوراق فى ماء مغلى وتعد منها الطعام. وهو ليس أسوأ من السبانخ. يقولون فى القرية إن الرجال لا يكرهون شيئاً، ولا حتى البط الغر. يسدون أنوفهم ويسرعون بإحضاره الى المنزل. وتقوم النساء بسلخه بسرعة لإزالة العفونة عنه، ويسعد الأولاد بدفنه فى الحقل وفى المساء يستمتعون بطعم لحمه. قالوا فى القرية إن كل من يأكل روث اليهود "تكون نهايته سيئة". وقال أبوها إن أصل رائحة الغر الفجة يرجع فى الحقيقة الى النبات الذى يأكله. فإذا أكلته الخراف خرجت منها أيضاً رائحة فجة. ولكن لماذا اختار الغر هذا الطعام دون باقى النباتات؟. لكنهما إمرأتان، منذ أن ذهب أبوها الى بلاد لا عودة منها، فمن يصطاد لهن البط الغر. يهمن فى الحقول المحروثة، وتمضى فى أعقابهما العنزة المريضة بالسل تلعق كل بقايا العشب. إنهن يثقن فيها. تقوم الأم بسكب اللبن فى قطعة قماش بيضاء وتعلقها على وتد. فيسقط طول الليل. وفى الصباح يتحول الى لبنه. باعت الأم عقدها التركى لتشترى شعيراً بثمنه. وها هى تجلس الى الرحاه وتدعو قائلة "يارب العالم، ماذا نأكل؟ فيم كل هذا؟ لقد أكلنا جذور الكرفس. يارب العالم لماذا تشيح بوجهك عنا. توسلت عفيفة للجدى، ذو الذقن النابتة والقرون الغضة. تربطه وراءها دائما كالكلب. أينما ذهبت، يذهب. تقول الأم "إنه تناسخ". يسبق عودتها الى البيت برغائه، بينما لا تزال هى على مشارف القرية، لم تكد تمر على سياج الصبار.

فى عام الجفاف الثالث، ومع اكتمال القمر فى الشهر الثانى من موسم المطر، تسللت الى الحقول الجافة المواجهة للقصر على مشارف البستان. لم تعد تنام فى المنزل الصيفى منذ أن مات أبوها. تنام مع أمها، فمها مفتوح كالسمكة، وحبات العرق تتصبب على وجنتها. ذهبت اليوم بعيداً الى "الطواحين العشر" لتلتقط القرّاص، وقد هدأت الحرارة فى راحة يدها، لكن جسدها ما زال يحترق. جسدها يريد أن يتجرد من الداخل الى الخارج. صغار دود القز تنزع جلدها أربع

مرات، والثعبان كذلك. لو أن الموسم طبيعى لتغطى الجبل عن يسارها بزغب أخضر ناعم واشتعل خط الأفق بلون الزنبقة الوردية الجميلة، التى إزدهرت فى انتظار المطر، وأعطى أبوها الإشارة. عبثاً حرث الفلاحون الحقول. الطين جاف ويابس كبعر البقر. خرجت من دائرة سياج الصبار، ومرت أمام الطواحين المهجورة. وانحنت الأشجار التى تغطى سقفها بلا أغصان. القرية هاجعة. حتى الكلاب صمتت. وانعزلت الثعابين فى الجبال. وعبثاً تبحث الأذن عن خريرالبئر ونسيم الليل. ها هى الآن أمام البوابة المؤدية الى القصر على مشارف البستان. رائحة حريق تملأ الجو، وكأننا فى أيام الصيف. لا يوجد سوى الأعشاب الجافة وطراوة الندى. إشتمت رائحة غدر، فاستدارت نحو بوابة البستان. واجهت حقل البرسيم المفتوح حتى سور السنط المزهر فى الشرق. بلورات الأرض البور تؤلم أقدامها، والجفاف فى جسدها يدفعها الى المضى بسرعة الى الأمام، والجدى فى أعقابها.

إنحنت وسط الحقل البور، وأمامها البوابة المقوسة المفتوحة على البستان؛ وقد جفَّت براعم الورد البلدى، وبرز عبر البوابة صف من الأشجار المؤدية الى البيت، الذى برز بين ظلام البستان، محاطاً بسور وله بوابة مربعة كبيرة محصنة، وشرفة بيضاء تطل على أسطح ممتدة محاطة بحواجز وتطل على الحديقة من وراء القضبان. إستلقت على ظهرها فى الحقل الجاف، مدَّت ساقيها، بينما التيس عند أقدامها يلعق إبهامها الأيسر يمرر لسانه من إصبع لآخر، ويصل الى البنصر ومنه الى إبهامها الأيمن. كشفت عفيفة عن شعرها الأسود الناعم أمام القمر. كانت تسأل أمها مداعبة وهى تعقد ضفائرها فى الأيام الخوالى، لا أعرف من أين لى هذا الشعر الأملس الناعم. وكانت تجلس أمام المرآة التى حصلت عليها من زوجة المعلم فى المنزل الصيفى الصغير، تمشط شعرها دون أن تراه. وها هى الآن تفك العقدتين الزرقاوتين المثبتتان فى أطراف الشريط المعقود على ضفيرتيها، وتضعهما فى حجر فستانها. عقصت ضفائرها وشبَّت على مرفقيها وعيونها مثبتة فى البيت المقابل لها. تنظر الى ما وراء البيت، بعيداً نحو البحر. علَّ نتفة سحاب تظهر فى الأفق الغربى. و عادت لتضع رأسها بالتدريج على الرمال. الجدى يلعق أصابعها، يرضعها واحداً واحداً. أسنانه اللينة تدغدغها. سرت بين أصابعها نداوة خفيفة، وسرعان ما انتشرت فى جسدها كله. أيتها الريح الشرقية الدافئة، التى تهب من داخلى كدفء الخبز الساخن، أخرجى من جسدى. أيتها السحابة الصغيرة، إصعدى من الغرب، أشرقى فوق تكعيبة العنب الجاف فوق سطح القصر. وليفتق البرق سواد البستان الحالك، ويشق الرعد جدار الصمت، وتزأر النداوة فى أوصالى. الجدى الأبيض واقف تحت رأسها، يمر بلسانه الخشن على جبهتها، ثم يتوقف عند شحمة أذنها، يلعق مقدمة أنفها ويرطب شفاهها الجافة. توترت من أخمصها حتى أطراف شعرها الذى يغطى رأسها فوق التراب، الى أن هبت ريحٌ شرقية من شعرها السفلى، ونفخ جسدها ريحاً غربية وكأنه منفاخ. شق البرق السماء، وأخذ قطيع من السحب يشق طريقه نحو الشرق وابتلع القمر. ونزلت حبات مطر كبيرة فرَّقت دوامات الغبار وهى فى طريقها نحو الرمال الجافة. رشف الجدى عيونها اللماحة ومصدر سعادتها، فسال منه العسل.

جلس الرجل الذى سيصير زوجها فيما بعد، وستنجب منه، فوق السطح المبسوط يتوسل للمطر، وتتطاير أغصان القطن الجافة من فوق رأسه، بينما هو ينظر الى الحديقة الظمأى ثم منها الى الشرق، الى حقول البرسيم المحروثة التى تنتظر المطر؛ وفى كل مرة يشب من مكانه، ويذهب الى حاجز سور السطح فى الغرب، يترقب أية سحابة صغيرة آتية من جهة البحر. الجميع نيام، أبناءه وزوجاته وأحفاده، بل وحتى أمه العجوز، كلهم نيام. بينما ظل هو وحده فى انتظار المطر. هل كان يرقبها من مكانه فوق السطح المنبسط. وهل أسرها الجدى فى ضوء القمر. وهل انتشى وابتل سرواله من النشوة. هذا ليس جميلاً لى ولا مناسباً. عام آخر من الجفاف ويضيع البستان تماماً. فى تلك الليلة عقد العزم على الزواج من عفيفة.

جلبت المطر بسحرها بعد ثلاثين يوماً من مراقبته لها من فوق السطح. وأمر بخروج رسل للتحدث اليها والى أمها الأرملة، ولم تجدِ معه تحذيرات أمه العجوز، إبنة قبيلة من جنين. لماذا لفظهم أبناء أبو قيشان من بينهم؟ إنهم مصريون، حمقى. وسحرة. ألم تر كيف يطاردها الأولاد ويصيحون فيها: متى؟ متى؟، وهم يقصدون بذلك متى سينزل المطر. وألم يحدثه أحد عن صداقتها للمتشردين وأبناء، الرعاة. إنها وحيدة أبيها، وهومثلها، دم أخضر. أباها لم يتزوج من إمرأة أخرى على أمها. إن من يحب عبداً يصير له عبداً. وهم، أليسوا من العبيد. بعد مراقبته لها ثلاثون يوماً من فوق السطح، نزل المطر كالسيل وغمر الأرض.

فى الحرملك، وحينما كشفت عن وجهها أمامه، نظرت اليه ولم تنزل عيونها عنه. تباعدت شفتاها المرسومتان، تعالَ يا رجل، تعالَ، فهى تغريه بحسنها الفتان. ألم ترتد فى تلك الليلة القميص الذى أهدته لها أمها، مزيناً بفصوص تتلألأ على فتحة الرقبة، وهو القميص الذى أرسلته العمة من أمريكا. يقول أخى نحمان: " هذا إسراف. إنهم ينامون بالملابس ". فأقول له بعناد: "إذن كيف ينجبون أبناءً "، فيخرسنى بقوله: " إنك صغيرة، لا يمكن أن تفهمى". أتخيل فى الليل برجاً لولبياً، يمتد حتى السماء على شاطىء النهر. أجرى اليه، وتتابعنى تلك الغجرية السمراء، التى تشبه هاجر، التى كانت معلقة فى صالوننا بعد أن بيع البيت والأرض وحفزت الأم أبنها لشراء ركن جلوس، ومائدة، وكنبة ومقعدين وصورة أيضاً. فى أنفها قرط كبير، وتتوسط جبهتها نجمة زرقاء، إرتدت فستاناً فوق فستان، مثلما نفعل نحن فى استغماية عيد البوريم. أخرج أبى من الدولاب عدة فساتين حريرية سوداء، كانت قد تبقت هى الأخرى من الطرود التى أرسلتها العمة من أمريكا. وكان يقنع كل بنات الأسرة قائلاً: " بعض الإصلاح ويكون رائعاً ". فستان أسود وفوقه فستان أسود آخر، يرفع أبى أطرافه قائلاً "ويستخدم أيضاً غلالة وغطاء رأس". لكنى أشكو قائلة: " إنه غير مناسب بالمرة لعفيفة". لكن أبى يحاول إقناعنا قائلاً: " إنه يجعلكن كالعربيات المتمدنات، من يافا أو من القدس ". لكن الغجرية التى فى أحلامى ترتدى فساتين أخرى. تتلوى مع خطوات هرولتها ورائى. إننى أجرى وأجرى فى بئر السلم اللولبى، أدور فى دوائر تصغر وتصغر وتزداد ارتفاعاً، بينما هى ورائى فى الظلام. تتلوى موجات البحر نحو سور البرج مع أطراف فستانها. أنا قريبة من قمة البرج وهى ورائى. تفوح أنفاسها فى

مؤخرتى. أنتبه فجأة من شدة الخوف والمتعة التى تنتظرنى على قمة البرج. لكن أمى أعطت القميص لعفيفة هدية قبل سنوات من زواجها. وحينما جاءتنا، فتاة يهتز صوتها هامسة، يابنت شيخ العرب، وتحركت مع العم فى الغسق كالراقصة. نحن ننتظرها فى الشرفة الكبيرة وهى تشق طريقها صاعدة عبر الشارع الرملى وتحرك يديها كالجناحين. والآن، فى القصر، فيم احتياجها لهدية أمى التى بليت بالتأكيد بفعل السنين.

(١٩٩٠)

***

المصادر

- حمدا بن يهودا. «قرة العين»، ١٩١٠. ضمن مجموعة «قصص نساء الهجرة الأولى»، إختيار وتعديل يافيه بيرلوفيتس، ١٩٨٤.
- ي.ح.برينر. «الشكل والفشل»، ١٩٢٠. فصلين من «الشكل والفشل»، «مجموعة أعمال يوسف حاييم برينر». المجلد الأول، ١٩٥٦.
- إسحق شامي. «جمعه الأهبل»، ١٩٢٨. ضمن مجموعة «قصص إسحق شامي»، م .نيومان، إعداد آشير باراش. ١٩٥١. (الملاحظات على القصة اعتمدت على هذه الطبعة).
- يعقوب شتاينبرغ. «رجل من مزرعة حفظي بك»، ١٩٢٧. ضمن «مجموعة أعمال يعقوب شتاينبرج»، دفير، ١٩٥٩.
- أستير راف. «مربة ورد»، ١٩٣٣. ضمن مجموعة «الجنة المدمرة». أعدها للطباعة إيهود بن عيزر. ١٩٨٣.
- شموئيل يوسف عجنون. «من عدو إلى حبيب»، ١٩٤١. ضمن مجموعة «هؤلاء وأولئك»، شوكن. ١٩٥٣.
- شموئيل يوسف عجنون. «تحت الشجرة»، ١٩٤١. ضمن مجموعة «هؤلاء وأولئك»، شوكن. ١٩٥٣.
- سامخ يزهار. الأسير»، ١٩٤٩. ضمن مجموعة «أربع قصص». الكيبوتس الموحد، ١٩٦٦.
- أهارون ميجد. «الكنز»، ١٩٤٩. ضمن مجموعة «رائحة الأيام»، الكيبوتس الموحد، ١٩٥٠.
- بنيامين تموز. «منافسة سباحة»، ١٩٥١. ضمن مجموعة «قصة أنطوان هاأرماني»، محباروت لسفروت، ١٩٦٤.
- إسحق أورباز. «رصاصة حائرة»، ١٩٥٩. ضمن مجموعة «عشب بري»، محباروت لسفروت، ١٩٥٩.
- أبراهام ب. يهوشوع. «أمام الغابات»، ١٩٦٣. ضمن مجموعة «أمام الغابات»، الكيبوتس الموحد، ١٩٦٨.
- عاموس عوز. «البدو الأفعى»، ١٩٦٥. الطبعة الأولى، «بلاد إبن آوى»، مساداه ١٩٦٥. والاعتماد هنا على «بلاد إبن آوى»، عم عوفيد، ١٩٧٦.
- سامي ميخائيل. «وصاية»، ١٩٧٧. فصل من «وصاية» عم عوفيد، ١٩٧٧.
- يعقوب بوتسن. «المنومون»، ١٩٨٩. «هاعير»، ١٩٨٩/٩/٢٩ (وضمنت أيضاً في مجموعته القصصية «الدبور»، عم عوفيد ويديعوت أحرونوت، ١٩٩١).
- ش. شابيرا. «الليل الجدي»، ١٩٩٠. فصل من قصة، يديعوت أحرونوت، ١٩٩٠/٤/٩.

هذا الكتاب

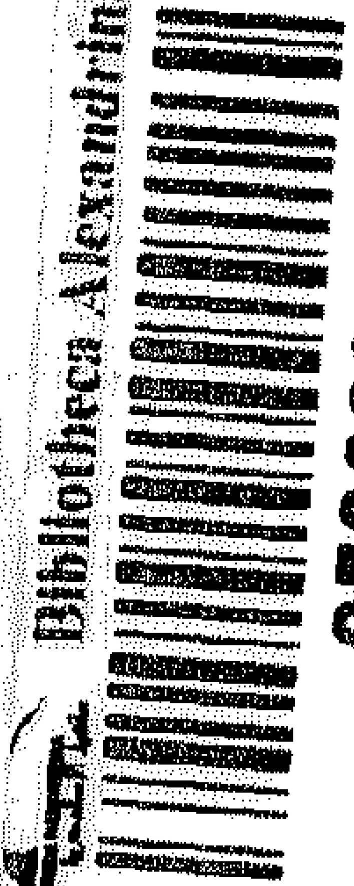
يعتبر هذا الكتاب «صورة العربي في الأدب العبري في وطن الأشواق المتناقضة» . من أفضل الأعمال التي تناولت هذا الموضوع سواء باللغة العبرية أو الإنجليزية أو العربية، ناهيك عن أن مقدمة محرر الكتاب تعتبر في تاريخ النقد الأدبي العبري علامة مضيئة، يتوقف عندها كل من يتعامل مع هذا الأدب،

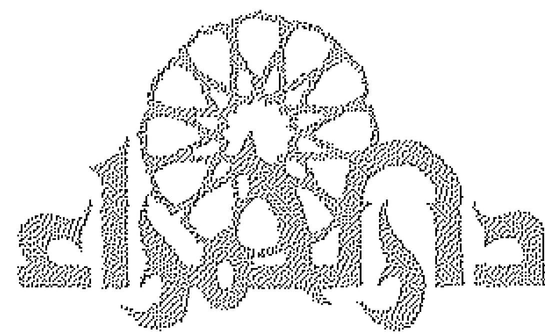
ويحتوي هذا الكتاب على سبع عشرة قصة يدور موضوعها الرئيسي حول العربي وشخصيته من منظور يهودي. وقد نجح محرر الكتاب في حشد كل هذه الأعمال لتمثل قرناً كاملاً من الإبداع الأدبي العبري لأدباء يعدون من عمالقة هذا الأدب في العصر الحديث.

ويمكن القول، بأن هذه الأعمال تقدم لنا وثيقة تاريخيّة عن مراحل تطور نظرة اليهود للعرب من خلال الاحتكاك المباشر معهم على أرض دار حولها الصراع ولا زال يدور، ولا أحد يعلم متى ينتهي هذا الصراع.

ولعل عنوان الكتاب يقدم لنا عمق التناقض بين تطلعات اليهود لاحتلال الأرض وتمسك العرب الفلسطينيين بها. فكل يشتاق إليها ويتعامل معها من منظوره الخاص.

المترجم





للطباعة والنشر والتوثيق والتوزيع

ص. ب. ١١٣/٥٣٨٦ ـ بيروت ـ لبنان